القائمة الطويلة لجائزة "صنداي تايمز الأدبيّة" 2022
القائمة القصيرة "جائزة الأدب الجنوب أفريقيّ" 2022

باسيل لورنس

على حافة الصَّحراء

ترجمها عن الإنجليزية: حسام موصللي

أدب أفريقي

مكتبة ياسمين

منشورات الربيع

t.me/yasmeenbook

على حافة الصَّحراء

سأعود إلى رتابتي المعهودة في غضون أسابيع قليلة. تبدأ أيّامي بملابس ونظّارات سباحةٍ ملفوفةٍ في منشفة. أتجوّل سريعًا عبر لودريتز وصولًا إلى نهاية الطريق نحو بركة السباحة في جزيرة القرش لأجل سباحةٍ صباحيةٍ، ثمّ أعودُ بعدها إلى المنزل كي أتابع العمل على فيلمي الوثائقيّ. أقضي الوقت في محاولة فهم عصابات السجون الجنوب-أفريقيّة، حيث أواجه صعوبة تقرير ما إذا كنت سأركّز من خلال الفيلم على الرجال أنفسهم، أم على مُعتقداتهم المجافية للحقيقة.

على الرغم من اسمها، فإنّ جزيرة القرش هي شبه جزيرةٍ يربطها باليابسة جسرٌ ضيّق. على الجسرِ لافتتان؛ أولاهما تشيرُ إلى مخيّمٍ يقع على أرضٍ مرتفعةٍ ليتجنّب الفيضانات إذا ما هاج البحر؛ وأمّا الثانية، فتشير إلى حوضٍ مدّيٍّ بُني بجوار المحيط الأطلسيّ. آتي في بعض الأحيان مبكرًا بما يكفي لأرى الشاحنات تُحمل بما اصطيد ليلًا قبل أن تنقله إلى المصانع التي ستتولّى مهمّة تجهيزه. الجانب الجنوبيّ من المحيط عبارة عن حساء سمكٍ من شأنه أن يجعل صباحاتي برائحة النشادر، بسبب أسماك الرنكة والستينبرا المجمّدة، مثلما كانت رائحة طفولتي بالضبط.

في طيات هذا العمل الروائي "على حافّة الصحراء"، رحلة تأمُّليّة في معاني الفقد والعُزلة والحب، وهي تتوخّى منّا التفكير في العواقب المترتّبة على فعلِ سرد حكايات الآخرين... وصلت إلى:

- القائمة الطويلة لجائزة صحيفة "صنداي تايمز الأدبية"، ٢٠٢٢.
- القائمة القصيرة لجائزة سالا (جائزة الأدب الجنوب أفريقي)، ٢٠٢٢.

منشورات الربيع
منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund
مكتبتك بمسافة الهاتف
ISBN 978-977-6765-62-7
9 789776 765627
alrabiebooks.com

مكتبة ياسمين

القائمة الطويلة لجائزة "صنداي تايمز الأدبيّة" 2022
القائمة القصيرة "جائزة الأدب الجنوب أفريقيّ" 2022

باسيل لورنس

على حافة الصَّحراء

ترجمها عن الإنجليزية: حسام موصللى

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

منشورات الربيع

مكتبة ياسمين

على حافة الصحراء

أدب أفريقي، رواية

باسيل لورنس

ترجمة: حسام موصللي

©BASIL LAWRENCE

منشورات الربيع، القاهرة

الطبعة الأولى يناير 2023

رقم الإيداع 4148/ 2023

ردمك 978-977-6765-62-7

موديل الغلاف: بوليانا

تصوير: أحمد مليج

غلاف: إسلام أحمد

منشورات الربيع

المدير العام

هالة الشربيني

المحرر العام

أحمد سعيد عبد المنعم

alrabiebooks.com

info@alrabiebooks.com

+2 0100 7552 598

منحة الترجمة

Translation Grant

صندوق منحة الشارقة للترجمة

Sharjah Translation Grant Fund

مكتبة ياسمين على تلجرام

إلى جورجي، مُلهمي اللطيف

مكتبة ياسمين

لودريتز

سأعود إلى رتابتي المعهودة في غضون أسابيع قليلة. تبدأ أيّامي بملابس ونظّارات سباحةٍ ملفوفةٍ في منشفة. أتجوّل سريعًا عبر لودريتز وصولًا إلى نهاية الطريق نحو بركة السباحة في جزيرة القرش لأجل سباحةٍ صباحيَّةٍ، ثمّ أعودُ بعدها إلى المنزل كي أتابع العمل على فيلمي الوثائقيّ. أقضي الوقت في محاولة فهم عصابات السجون الجنوب-أفريقيّة، حيث أواجه صعوبة تقرير ما إذا كنت سأركّز من خلال الفيلم على الرجال أنفسهم، أم على مُعتقداتهم المجافية للحقيقية.

على الرغم من اسمها، فإنَّ جزيرة القرش هي شبه جزيرةٍ يربطُها باليابسة جسرٌ ضيّق. على الجسرِ لافتتان؛ كُتِب على أولاهما HAIFISCH [1]، وتشيرُ إلى مخيَّمٍ يقع على أرضٍ مرتفعةٍ ليتجنَّب الفيضانات إذا ما هاج البحر؛ وأمَّا الثانية، فكُتب عليها Schwimmbäder[2]، وتشير إلى حوضٍ مدِّيٍّ بُني بجوار المحيط الأطلسيّ. آتي في بعض الأحيان مبكّرًا بما يكفي لأرى الشاحنات تُحمَّل بما اصطيد ليلًا قبل أن تنقله إلى المصانع التي ستتولّى

---

1 HAIFISCH: وتعني أسماك قرش باللغة الألمانيّة. م

2 Schwimmbäder: وتعني أحواض سباحة باللغة الألمانيّة. م

مكتبة ياسمين

مهمَّة تجهيزه. الجانب الجنوبيُّ من المحيط عبارة عن حساء سمكٍ من شأنه أن يجعل صباحاتي برائحة النشادر، بسبب أسماك الرنكة والستينبرا المجمَّدة، مثلما كانت رائحة طفولتي بالضبط.

وفي بعض الأيَّام- على غرار اليوم، عندما يكون موقع التخييم البعيد شبه فارغٍ باستثناء عددٍ قليلٍ من الخيام ذات القماش المشدود بقوّةٍ على أعمدتها المقوَّسة، لتبدو وكأنَّها أكواخ جليديَّةٌ باهتة اللون- أعاودُ الرحلة مُجدَّدًا في وقت الظهيرة. مشيتُ بوتيرةٍ لا بأس بها، غيرَ مُكترثٍ للريح التي تُهدِّدُ بفقدان توازني، لأنَّه كان من المقرَّر أن ألتقي برجلٍ مذهلٍ في جزيرة القرش، ولم يكن واردًا أن أتأخر عليه.

بصقتُ في نظَّارة السباحة ونظّفتُها بإصبعي. ثمّ خلعت سروالي وارتديتُ بسرعةٍ سروال السباحة قبل أن يراني أحد، وبعدها ألقيتُ بنفسي في المياه الرمليَّة الباردة. قذف الأطلسيُّ زبدَهُ من فوق جدار الحوض المدّيِّ ليفصل بيني وبين صخور الجدارِ الداكنة الصغيرة حيثُ تتكسَّر الأمواج، وكأنَّها فقماتٌ تترنَّح. ابتعدتُ عن النهاية الضحلة. وبذراعين ممدودتين، دفعتُ نفسي بقوّةٍ باتِّجاه الفوضى.

في فترة المراهقة، كان من السهل أن أسبحَ أربعين طولًا سباحةً حرَّة، وأحيانًا أكثر من ذلك، في المشوار الواحد. في ذلك الوقت، كان بمقدوري أن أقطع نصف طولٍ أولمبيٍّ بَنفَسٍ واحد.

عددتُ ضرباتي حتَّى بدأ عقلي بالشرود.

وجدتُ إيقاعي.

ذراعٌ تمتدُّ إلى الأمام.

أصابعُ تمتدُّ تمامًا قبل أن تلامس الماء.

رأسٌ يلتفتُ جانبًا.

شهيق.

وجهٌ ينزل مرّةً أخرى ليزفر من دونٍ تفكيرٍ، في الوقت الذي تكسرُ فيه ذراعي الأخرى وجهَ الماء.

وصل ياغو مُتأخِّرًا نصف ساعة. سار نحوي واثقَ الخطوة، ودون إبداء أيِّ أسف. كان يرتدي سروالًا من الكتَّان وقميصًا قطنيًّا على نحوٍ يناسبُ طابع البحر المتوسّط أكثر من الأطلسيّ الجنوبيّ. وكان شعرُه سائبًا، لذا ظلَّ يُبعده بأصابعه عن وجهه كلَّما حملته الريح.

غمسَ يده في ماء الحوض.

"هل تحبُّ الماء البارد؟"، قلتُ له.

"في الواقع،...".

"سيصير أدفأ عندما تنزل فيه"، كذبتُ. كان يحملُ هاتفه في يده، فاقترحتُ عليه أن يضعه في السيارة التي استأجرها. وحينما عاد إلى حوض السباحة، تطلّب الأمر قليلًا من الإقناع قبل أن ينزل أخيرًا في الماء.

ياغو ألمانيّ؛ طويل وأشقر، وربَّما معتدّ بنفسه بعض الشيء. عمل مديرًا إقليميًّا لمنظَّمةٍ غير حكوميَّةٍ للتوعية بمرض الإيدز، وكان يدير مكتبها في ويندهوك[1] حيث يشرفُ على عمليَّات التثقيف والوقاية في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

---

1 ويندهوك: عاصمة ناميبيا. م.

مكتبة ياسمين

يقع المقرُّ الرئيسيّ لمنظَّمته في برلين، وقد ساهمتْ جزئيًا في تمويل جمعيَّة شقيقتي الخيريَّة بِنغِلا تْرَسْت. كان اللقاء بها سبب مجيئه إلى المدينة، وقد دعتني لتناول العشاء برفقتهما في الليلة السابقة. تضارب ذلك الموعد مع أوقات عملي، بيد أنَّني لبَّيتُ واجباتي الأخويَّة بكلِّ سرورٍ لمعرفتي بمدى لذَّة طعامها -لطالما كان كذلك- ولأنَّني شككتُ أيضًا بأنَّها تحاول ترتيب موعدٍ لي معه؛ فلوسيَّا تعرفني أكثر من أن تُخبرني بصراحةٍ أنَّني قد أُعجَبُ به.

في بادئ الأمر، تعاملَ مع دعوة العشاء باعتبارها امتدادًا لاجتماع العمل: "لن يكون بمقدورنا إحداث تغييرٍ في ناميبيا ما لم نصبّ تركيزنا على مشاريـع البنى التحتيَّة غير المثيرة"، قال بعد أن تصافحنا وسألتُه بالكاد عن طبيعة عمله. "أعرفُ هذه الجمعيَّة الخيريَّة البريطانيّة التي يرغب المانحون فيها برؤية أفلام قصيرة مرحة عن مساعدة الأطفال على القراءة. لا يأبه المانحون بالبنية التحتيَّة. لا يثير اهتمامهم التبرُّع بالمال لبناء طرقٍ سريعةٍ بين مدنٍ أفريقيَّةٍ لم يسمعوا بها من قبل. عندما يتعلَّق الأمر بالمساعدات الخارجيَّة، فإنَّ الكتب هي أسُّ الخطأ. يجب أن نرفع شعارًا يقول: الكتبُ هراء. "لماذا ما زلت تبكي؟ لماذا ما زلت جائعًا؟ لقد أعطيتُك كتابًا، فأقرأهُ واصمُت! كُفَّ عن التذمُّر!". أترى المشكلة بصدد الكتاب اللعين؟ لكنَّ الأفلام القصيرة المرحة عن الطرق والسكك الحديديّة غير مرغوبة. كلَّا، ولو أراد أحدهم في لندن أن يرى طريقًا، فإنَّه فسيفتحُ نافذته. قُل لي، من فضلك، إنَّك لا تعمل لصالح جمعيَّة خيريَّة؟".

فوجئتُ إلى حدٍّ ما بهذه الافتتاحيَّة المندفعة، ولم أكن على

يقين بصدد ما ينبغي أن أقوله ردًّا على سؤاله المفاجئ. "لا، لا أعمل لصالح جمعيَّةٍ خيريَّةٍ"، قلتُ، لكنَّني مذنِبٌ حينما يتعلَّق الأمر بصناعة أفلامٍ قصيرةٍ مرحة". ابتسم لسماع هذا التعليق المقتضَب، ونظر إليَّ باهتمام.

بعد أن فرغنا من تناول العشاء، اقترحت لوسيًّا أن نسترخي في غرفة الجلوس، حيثُ عبث ياغو قليلًا بمجموعة أسطواناتها الموسيقيّة. وعندما وصل أخيرًا إلى الأريكة، كنتُ قد أوشكت على الانتهاء من لفّ سيجارة الحشيش الأولى. سألتُه عن مسقط رأسه دون أن أرفع رأسي.

"وِلدتُ في برلين"، قال. "أحَبّ مكانٍ إلى قلبي على وجه الأرض".

"أوَ لديك مكانٌ كهذا، أو لون بهذه الصفة؟" أرسلتُ إليه نظرةً ليعرف أنَّني أمازحه.

"إنَّها أفضلُ من هذه القرية"، قال.

"لماذا تقول ذلك؟"

"إنَّ هذا المكان قبيحٌ جدًّا. سآخذك إلى برلين وأُريك الجمال الحقيقيّ".

أشعلتُ السيجارة. "اتّفقنا".

مع ازدياد تأثير الحشيش على ثلاثتنا، ظلّ ياغو يُكرّر أنَّ لودريتز مكبُّ نفايات، إلى أن أخبرتُه عن جزيرة القرش فقط من أجل إسكاته. قلتُ له إنَّ الحوض المدِّيَّ أحَبُّ مكانٍ إلى قلبي في العالم، ومددتُ يدي إلى عقب السيجارة التي شارفت على الاحتراق تمامًا وكان يحتفظ بها بين شفتيه. تركتُ كلًّا من إبهامي وسبّابتي ليتَّكئا على بشرته الرقيقة حينما عبَّ الدخان، ثمّ بعد أن زفرتُ بضع

نفخات سريعة بدوري أضفتُ: "وسوف تقابلني هناك غدًا".

واجه ياغو صعوبةً في التنفُّس والبقاء بمكانه داخل الماء في الوقت نفسه بسبب البرد. ناهيك عن أنَّه لم يكن سبَّاحًا ماهرًا.

"من الأفضل أن تُحاول الاسترخاء"، قلت. "ستشعرُ بمزيدٍ من الدفء إذا ما أبقيت صدرك تحت سطح الماء".

"هذه الريح اللعينة تدفعني إلى الجنون".

اقترحتُ، كي أصرفَ انتباهه عن الريح الجنوبيَّة الغربيَّة التي تعبثُ بالماء، أن نسبح باتِّجاه الجدار.

أراح كلٌّ منَّا مرفقيه على الطوب البارد الذي يفصلنا عن المحيط الأطلسيّ، في حين امتدَّت أرجلُنا خلفنا داخل الحوض. لم أستطع في تلك الأثناء أن أزيح نظري عن وشومه. كان الماء قد زاد علاماتها سوادًا، فبدت وكأنَّها رُسِمَت للتوِّ على جلده بفرشاة خطَّاطٍ ثخينة.

"المِسْها"، قال حينما رآني أنظر.

"لا، لا بأس". تمنَّيتُ لو أنَّني دخَّنتُ بعض الحشيش قبل مجيئي إلى هُنا، ثمّ أعدتُ انتباهي إلى الأمواج التي تتكسَّر فوق الزاوية البعيدة. على نحوٍ متوتِّرٍ بعض الشيء، قلتُ له إن كنت في خضمِّ تلك الفوضى قبل وصوله.

لم يكن بصحبتنا سوى سربٍ من دلافين قاروريَّة الأنف، بزعانفها الظهريَّة التي تقطع الماء على مقربةٍ من الجدار الخارجيِّ للحوض، وتُصدرُ صوتَ شخيرٍ كلَّما زفرَت. كان السربُ في طريقه للانضمام إلى حركة مرورٍ محيطيَّةٍ من العيار الثقيل، من قروش بيضاء وحيتان، في التيار الجليديِّ الذي يتدفَّق من القطب

الجنوبيّ على طول الساحل الناميبيّ وصولًا إلى خطّ الاستواء.

اقترب ياغو ليسألني عن الأرض الجرداء الواقعة إلى الغرب منّا. حدَّثتُه عن المنارة البعيدة، وكيف كان شعاع الضوء الذي ترسله يتأرجح مثل ساعةٍ عملاقة.

"ينبغي أن تكون مرشدًا سياحيًّا"، قال.

"المعذرة".

"لا، لقد أحببتُ الأمر". لا بدَّ أنَّه شعر بالسوء جرَّاء تعليقه، إذ شرع يُخمِّنُ المبلغ الذي في وسعي أن أجنيه في حال قبضتُ عشرة دولاراتٍ من كلّ سائح. وبعد أن أجرى حساباته، قال: "إذًا، أنت تسبحُ في صندوق الثلج هذا دائمًا؟"

"كلَّ يوم".

"صحراءُ ملتهبةٌ قبالة مياهٍ متجمِّدة". وكما لو كان متردِّدًا في النظر نحو مكانٍ آخر، حدَّق إليَّ قبل أن يُصوِّب انتباهه إلى المدينة التي تقع من ورائي، بحيث يكون ظهره إلى المحيط. "يا لغرابة ذلك الشعور الذي يبعثه فيَّ هذا المكان؛ لكأنَّ المنازل تُراقبني".

مع أنَّني أُفضِّل الأمواج، إلَّا أنَّني ألقيتُ نظرةً خاطفةً إلى الخلف، نحو المباني التي تقع على هذا الجانب من جبل الألماس، والتي تعكسُ نوافذها ضوءَ الأصيل إلى البحر من جديد. كلُّ شيءٍ يلمع، بما في ذلك الصخور. في الليل، حين أكون في السرير، أشعرُ أحيانًا بمُدرَّج الصوَّانيّ يحميني من أيِّ داهمٍ قد يأتي إلى المدينة.

احتجبت الشمس عن معظم الأطلسيّ لتستقرَّ وراء الهواء الكثيف قرب الأفق، في حين كان السيَّاح في موقع التخييم يشوون

اللحم على شوّايات معدنيّة. تساءلتُ في داخلي عمّا إذا كان يراني جذّابًا. تسطّحت الشمسُ وصارت بيضاويّة الشكل، وأضاءت أشعّتها المياه العميقة إلى أن استحال لون البحر أخضر، بينما تألّقت السحب المرتفعة باللونين الأحمر والأرجوانيّ. وأمّا القريبة منها إلى الأمواج، فتوهّجت باللون الأصفر.

رأيتُ، أثناء الشفق الوجيز الذي أعقب ذلك، قشعريرة على رقبة ياغو. لم أكن أريد أن يخرُجَ من الماء، لذا حينما سطع ضوء المنارة أخيرًا عبر الخليج قلتُ له: "ابقَ وشاهِد. أخبرتُك أنّه يشبهُ حركة ساعة".

"أيُشعرك وجودي بالانزعاج؟"

"لا"، قلتُ، "لماذا تقول ذلك؟"

"لأنّك تبتعد عنّي".

أمسكتُ بذراعه وقبّلتُه، ودغدغت لحيته الناعمة ذقني. كنت متشوّقًا لفعل ذلك منذ ليلة أمس.

لعقَ شفتيه. "لكَ مذاقُ البحر. مثل كائن نِكس؛ نصفه رجل، ونصفه سمكة".

مع حلول الظلام في المحيط من جهة نقطة أنغرا من الخليج، عرض ياغو أن يوصلني بالسيّارة إلى منزل شقيقتي. ومن دون أن أجيب، أفلتُّ يديَّ عن الجدار وتركتُ نفسي تنجرف تحت سطح الماء إلى أن لامسَت قدماي الرمال العميقة. لحقَ بي.

شعرتُ بعضلاتِه القويّة، وتذكّرتُ الوشوم على جسده. دسستُ يدي داخل سرواله.

ثمّ سرعان ما نزع عني سروال السباحة.

دفعتُ نفسي إلى السطح في أثره، باتّجاه السيَّاح الذي كانوا يتحدّثون بصوتٍ عالٍ في موقع المخيم، بيد أنّني فشلتُ في منعه من رمي سروالي إلى الجدار المحيطيّ، حيثُ تركنا ملابسنا. صحتُ به أن يجلبه لكنَّه غاص في المياه. كان يضحك حينما عاد إلى السطح، فطاردتُه وما لبثت أن أمسكت به بسهولةٍ لأجل قُبلةٍ أخرى.

عُراةً غُصنا في المياه السوداء حتَّى أصبحت باردةً لدرجةٍ لا تُطاق.

بناءً على طلبي، قاد ياغو سيّارته مرورًا بالقرب من أجمل المباني في المدينة. كانت تعليقاته بصدد أنَّني وأختي نعيش في مدينةٍ بشعةٍ ومُملَّةٍ قد لسعتني، وكنت مُصمِّمًا، في حدود مزاجي المبتهج، أن أغيِّر رأيه.

كان على درايةٍ بالطراز المعماريّ في ويندهوك، لكنَّني كنت آملُ أن أُريَه كيف أرى المباني ذات نوافذ أوريل الناتئة والقبَّة البصليَّة المزدهرة، والجملونات المزخرفة شديدة الانحدار؛ كيف تُغطِّي الرمال الصحراويَّة الطلقيَّة، الناعمة مثل غبار القمر، الأسطُح المصمَّمة للثلج، لا الحرارة.

توقَّفنا خارج منزلي، الأوسط بين صفٍّ من خمسة منازل، مطليٌّ كلٌّ منها بلونٍ مختلف، وتُطلُّ كلُّها على الميناء. كان المنزل الريفيُّ الأصفر الذي يقع في الزاوية البعيدة خاليًا، والأمر نفسه بالنسبة إلى المنزل الأخضر بجواره. ثمّ يقع منزلي، الأزرق، وبعده آخر برتقاليٌّ كان معروضًا للبيع. أمَّا في المنزل الأحمر، عند الزاوية الأخرى، فقد عاش رجلٌ ضريرٌ وحيدًا. كان يظلُّ منتظرًا طوال

اليوم عند بوّابة منزله الأماميَّة، مُصغيًا إلى المارَّة الذين كان بعضهم يدلُّونه على الطريق إلى المدينة. كان يعرف الطرقات في لودريتز معرفةً كافية -وقد لمحتُه في السابق يمشي فيها بمفرده- لكن في حالِ عرضَ أيٌّ فاعل خيرٍ أن يساعده، فإنَّ الرجل سيتشبَّث بذراع ذلك الغريب؛ ربَّما كانت هي فرصته الوحيدة بأن يكون على مقربةٍ من شخصٍ آخر.

كانت أنوار المنازل كلّها مُطفأة. ولم تكن ثمَّة سيَّارات مركونة أمام أيٍّ منها. (تجاوزنا المنعطف ولم يكن في الشارع حيث أسكن سوى سيّارتنا).

"وِلدتُ هنا"، أخبرتُه، لكن لم آت على ذكر أنَّ والديَّ فارقا الحياة بعد ذلك بثمانية أعوام.

صارت الرياح أقوى.

"هذه زيارتي الثالثة إلى لودريتز"، قال ياغو، "ولم يسبق لي أن نظرتُ إلى مبانيها". سلَّمَ بأنّ المدينة جميلة لكنَّه لا يستطيع أن يتخيَّل نفسه يعيشه فيها. بل حتَّى عاصمة ناميبيا، حيثُ مقرّ إقامته، كانت معزولةً جدًا في نظره. "أنا ابنُ مدينةٍ كبيرة. كم عدد الأشخاص الذين يعيشون في تلك القرية؟"

"أتقصد السكان المحليّين؟ لا أدري. عشرون ألفًا؟"

"لا أظنُّ ذلك".

"خمسة عشر ألفًا؟" لم أرغب أن يتمحور حديثنا حول تلك المسألة. كنت بحاجةٍ إلى أن يُحدِّثني عن نفسه، لعلَّنا نتمكَّنُ من مواصلةِ ما بدأناهُ في الماء.

"وهل أنتَ المثليُّ الوحيد هُنا؟" قال.

قبَّلتُه. "هذا ما أشعر به في بعض الأحيان". كان شعرُه لا يزال رطبًا.

"بمقدوري أن أفهم سبب رحيلك، لكن لماذا عُدت؟"

"كان منزل عمَّتي خاليًا، ففكَّرت أن في وسعي العيش فيه. عندما لا أكون في موقع تصوير، فإنَّني لا أحتاج سوى طاولة وكهرباء. علاوةً على ذلك، فقد كانت تجربة الحياة في جوهانسبرغ أكثر من أن يستوعبها عُمر واحد".

أخبرني ياغو أنَّه لم يُفكِّر في الاستقرار حتَّى بلغ منتصف العقد الثالث من عمره، لأنَّه كان يحظى بالكثير من المرح في برلين. لكنَّه يشعر الآن بالقلق نتيجة تأجيله مسألة العثور على حبيبٍ حتَّى وقتٍ متأخِّرٍ جدًّا، فكلّ العزَّاب المؤهَّلين الذين كان يقضي وقته معهم قد وجدوا شركاء لهم.

أدركتُ من نبرة صوته لمَّا قال: "بإمكاني دائمًا أن أتسلَّى في حال كانت حالتي المزاجيَّة تسمح بذلك. لقد تسلَّينا الليلة، صحيح؟" أنَّه لا ينظُر إليَّ كشريك مُحتمَل. أنا عن نفسي كنتُ مُستمتعًا، بيد أنَّ سماعه على ذلك النحو المُبتذَل أغرقَني في موجة ندمٍ مفاجئة.

لذا حين قال: "تعال معي إلى الفندق"، سألتُه: "المزيدٍ من التسلية ؟"

"أجل"، أجاب.

"لا أستطيع". ثمَّ تعيَّن عليَّ أن أكسر الصمتَ الطويل الذي أعقب ذلك، بالقول: "لديَّ عمل الليلة. أنا متأخِّر بالفعل". ولأنَّني لم أرغب في أن تكون تلك كلماتي الأخيرة التي أقول له،

أضفتُ: "قابلني غدًا، في حوض السباحة".

"أتريدُ منّي أن أجمّدَ خصيتيَّ مرَّةً أخرى؟"

"إنَّه مكاني المفضَّل في العالم، يا ياغو. سأكون هناك، صباحًا، في حال غيّرتَ رأيك".

***

في المطبخ، كانت روبرتين تُقطّع كعك الزنجبيل عن تشكيلٍ بيضاويٍّ بسطَتهُ على لوح التقطيع. ومن دون أن تنظر إليَّ، قالت: "لقد تأخَّرت". ثمَّ وضعَت بمغرفتها كلَّ شيءٍ داخل صينيَّة الخَبز.

وبمجرَّدِ أن أدخَلت الكميَّة التي حضَّرتْها إلى الفرن، بدأت بمزج عجينةٍ طريَّةٍ من أجل إعداد كعكٍ مُتبَّل. كانت على عجلةٍ من أمرها إذ كان ينبغي أن تضع الكعكات داخل أكياس بمجرَّد إخراجها من الفرن، وبعد ذلك أن تُسلّمها لي من أجل إيصالها إلى قسم الحلويَّات منزليَّة الصنع قبل إغلاق المتجر.

كانت روبرتين تعمل لدى عمَّتي مذ عرفتُها. ومع أنَّها تقاعدت بصورةٍ رسميَّةٍ من الأعمال المنزليَّة، لكنَّها ظلَّت تساعدني في إبقاء المنزل نظيفًا، وكيِّ قمصاني إذا سمح لها الوقت، مقابل استخدام مطبخي كمخبزٍ لها. وعلى الرغم من أنَّها تبدو منزعجةً منّي على الدوام، إلَّا أنَّها لا تغضبُ أبدًا. بيد أنّه لا يمكن قول الشيء نفسه بصدد علاقتها بعمَّتي. عندما كنتُ طفلًا، أخبرتني روبرتين في إحدى المرَّات أنَّها تنحدرُ من شعب "الهيريرو" الذين كانوا يقطنون على مقربةٍ من ويندهوك. آنذاك وصفَت عمَّتي كلام روبرتين بالهراء السخيف، لأنَّ الهيريرو لم يبتعدوا في سفرهم جنوبًا إلى درجة الوصول إلى لودريتز. وقتها ظلَّت روبرتين تصفع

أبواب الخزائن لمدَّة أسبوعٍ كامل.

ألقَت نظرةً سريعة إلى ساعتها، ثمَّ التفتت إليّ. "كعكتك جاهزة. أمَّا كعكاتي فستكون جاهزة في عضون عشر دقائق. لا تتأخَّر".

اغتسلتُ سريعًا كي أزيل الملح عن جسدي، ثمّ ارتديتُ الملابس التي تركتها روبرتين على سريري. خرجتُ بعدها وفتحت باب الراكب من شاحنتي الصغيرة. مسحتُ المقعد سريعًا ثمّ عدتُ لإحضار كعكة الزفاف.

قبل وفاتها بفترةٍ وجيزة، حوَّلتْ عمَّتي غرفةَ نوم شقيقتي القديمة إلى حجرة مؤنٍ لروبتين من خلال استبدال بابها بآخر معدنيٍّ متينٍ، فضلًا عن تثبيت قضبان حديديّةٍ على النافذة.

كانت الكعكة تخصُّ تشزلي أركيبيلاجو وخطيبته زينيد. عرَّفتني أختي على ابن خالتنا تشزلي أثناء جنازة عمَّتي. ومع أنَّ أمَّه كانت الشقيقة الصغرى لأمِّنا، إلَّا أنَّها انتقلت إلى كيب تاون قبل ولادتنا بوقتٍ طويل، وكنَّا -لوسيّا وأنا- نسمِّيها "السيِّدة أركيبيلاجو". وزيادةً في تعقيد الأمور، كانت السيِّدة أركيبيلاجو عاملةً اجتماعيَّةً متقاعدةً تديرُ صالون تدليكٍ محليٍّ يعتمد في برنامجه للصحَّة الجنسيَّة على تمويلٍ تمنحه جمعيَّة شقيقتي الخيريَّة.

لم يحدُثْ أن تكلَّمت لوسيَّا صراحةً عن مدى مقتها لقريبتنا بالدَّم التي لم تنبرِ للاعتناء بنا مع وفاة والدينا، لكنَّني أتوقَّع إلى حدٍّ كبيرٍ أنّها كانت تُكنُّ مثل تلك المشاعر. أمَّا بالنسبة إليَّ، فكنت أشعر بالارتياح لأنّني نجوتُ منها.

لكن بعيدًا عن الدراما العائليّة، عملَ تشزلي محاميًا لصالح شقيقتي. كانت قد أخبرَتهُ أنّني أصوِّر حفلات الزفاف، فطلب

منها أن ترتِّب لقاءً بيننا؛ ولو أنَّه كان يفضِّل أن يحدث ذلك في ظروف أقلَّ كآبةً من جنازة عمَّتي. كان ودودًا، وذكرَ أنَّ شركته القانونيَّة قد تحتاج إلى مصوِّرٍ لتسجيل إفادات الشهود. طلبتُ منه أن يزوِّدني بتفاصيل أكثر، لكنَّه قال إنَّ قرارًا لم يُتَّخذ بهذا الشأن بعد. وأثناء تناول الشطائر في منزل شقيقتي، حرصتُ على إخباره بأنَّني أستمتع كثيرًا بتصوير حفلات الزفاف؛ حدث ذلك بعد أن حدَّثني عن انتقاله من كيب تاون. كانت عروسه المستقبليَّة تدير وكالة سفريَّات صغيرة في كيب تاون، لكن، بعد انتقالهما إلى لودريتز، أصبحت متفرِّغةً بالكامل لتنظيم حفلات الزفاف.

بعد بضعة أيَّام من أمسية وداع الميِّت، التقيتُ بتشزلي وزينيد في مكتبه الذي كان ملكًا لطبيب أسنان في السابق. كانت الغرفةُ أنيقةً وبسيطة. جلسنا حول مكتبه بالقرب من كرسيِّ الأسنان ورديِّ اللون الذي اختفى نصفه خلف أُصصٍ من نخلات الأريكا، حيثُ عرضتُ عليهما حفلي زفافٍ من تصويري في جوهانسبرغ.

فيما بعد، باغتني ابنُ خالتي بقائمة من الأسئلة كان قد دوَّنها على ورقةٍ بعد لقائنا العابر في الجنازة. حاولَ مراجعة كلِّ نقطة منها معي على حدة، لكن ما انفكَّت زينيد تقاطعه -مُلوِّحةً بحماسةٍ بكلتا بيديها كلَّما خطرَت ببالها فكرة- في حين كان تشزلي يطلبُ منها أن تكرِّر ما تقول كي يكتبه في الورقة بكلماتها نفسها. لم يكن بمقدور أحدٍ آنذاك أن يُخمِّن في أيِّ لحظةٍ قد يفقد تشزلي صبره.

حفلات الزفاف غير مريحة، لكنَّها ذات فائدةٍ في نهاية المطاف. حدَّد الزوجان ما يرغبان بتوثيقه من حفل زفافهما -دخول قاعة

الزفاف، والطلبات المُقدَّمة في اللحظة الأخيرة، والتعديلات التي تستغرقُ وقتًا طويلًا لأنَّه من المستحيل أن تتطابق ذكريات العروسين عن يومهما الهانئ مع الواقع الكئيب الذي تلتقطه عدسة الكاميرا- وكان من السهل بالنسبة إليَّ إعداد فيلم كهذا من شأنه مُساعدتي في دفع فواتيري. وكي أكون صادقًا، فإنَّ هذا العمل لا يتطلَّب منِّي سوى قليلٍ من الجهد. كنت أثناء حفل الاستقبال أصغي بحثًا عن أيِّ أفكار للتنفيذ. لكن، لسوء الحظّ، كانت حفلة زفاف تشزلي هي الوحيدة التي صوَّرتها منذ عودتي إلى لودريتز، وهذا لم يُخفِّف من ضغوطاتي الماليَّة.

"بالكادِ ستشعران بوجودي"؛ هكذا كذبتُ على تشزلي وزينيد، أكذوبة لطالما قلتُها لكلّ عروسين، "لكنَّني سأكون حاضرًا أحمي ذكرياتكما".

"أريدُ أن يكون فيلمًا راقيًا"، قالت زينيد. "افعل كلَّ ما يتطلَّبه الأمر لكي يظهر بصورة أرقى بثلاثة أضعاف المعتاد".

"لِنناقشْ هذا الأمر"، قال تشزلي بصوتٍ خفيضٍ بينما كنت أشجِّعها بالقول: "استثنائيٌّ وأنيق؟"

"أجل"، قالت، متجاهلةً تشزلي. "هذا ما أريد؛ الأناقة".

"بالقليل من البهرجة؟"

"أجل".

"ومن دون بريق خاطف للأبصار؟"

"أجل. أريدُه أنيقًا راقيًا. لكن لا بأس ببعض الألق ربَّما".

أومأت برأسي بحماسةٍ. كنتُ بحاجةٍ إلى الحصول على إعجاب الزوجين أركيبيلاجو، وأنّ يوصيا أصدقاءهما الأثرياء في كيب تاون

بالتعامل معي، وكذلك أردتُ أن يُطلعني تشزلي على المزيد بصدد مسألة مقابلات الشهود التي ألمح إليها بعد الجنازة.

بسطَ خمسةُ رجالٍ قماشًا أبيض وأصفر فوق إطارٍ معدنيٍّ على هيئة خيمةٍ في باحة كنيسة إرساليَّة الراين التبشيريَّة، في حين انشغل فريقٌ آخر على عجلٍ بربط حبال التثبيت المُتّصلة بالقماش بأوزان إسمنتيَّة. علت صيحاتهم حينما أخذت الريح تهدِّد بتمزيق الخيمة من أساسها -رافقتْ ذلك جوقةٌ من الشتائم والاعتذارات السريعة- بينما كانوا يبذلون جهدًا جبَّارًا لئلَّا تُقتلَع.

في داخل القاعة الرئيسيَّة، كانت والدة تشزلي تشرفُ على الاستعدادات، بشعرها المعقوص مرتديةً مبذلًا وشبشبًا عليه كُرَتان من الصوف. كانت تتجادل مع رجلٍ بصدد الثقة والمال -"لكنّك طلبتَ ثمنًا باهظًا!"، "غير صحيح، يا سيدة أركيبيلاجو"، "لقد سرقتَني!"- إلى أن انتبهتْ لوجود الكاميرا، وحينها وضعَت ابتسامةً مشدودةً على فمها.

سرَّتني الصور التي التقطتها للعروسين حين ركعا جنبًا إلى جنب أمام المذبح أثناء تبادل عهود الزواج. في كلّ مرَّةٍ نطق تشزلي فيها اسم زينيد، ربَّت سبَّابتهُ برفقٍ على خنصرها، وابتسمَت له. كنتُ ابتسمُ أيضًا من وراء كاميرتي، كما لو كانت سبّابة ياغو تمتدُّ نحوي. ربَّما كنتُ حسَّاسًا أكثر من اللازم، لكنَّ كلماته خيَّبت أملي. شعرتُ بالندم لأنَّني لم أقترِح الذهاب إلى الفندق حيث يقيم بعد حفل الزفاف، فلُقياه مرَّة أخرى أمرٌ كنت سأحبُّ أن أتشوَّق إلى حدوثه.

مع انتهاء القدّاس، لحقت بالعروسين إلى القاعة حيثُ

ينتظرهما الضيوف بفارغ الصبر. ملامح وجوههم المترقِّبة أبكتني أنا وتشزلي. بفستانها الورديّ، اندفعت أمُّه بسرعة إلى جانبي كي تُقبِّل كلًّا من ولدها وعروسه. ذكَّرتني رائحةُ ملابسها المكويَّة للتوِّ، والتي اختلطَت بأثرٍ ضعيفٍ من مسحوق ألتلك، بعمَّتي وحضنها.

كانت الصور التي التقطتُها في داخل القاعة أقلَّ نجاحًا من سابقاتها في الكنيسة، والسبب وراء ذلك أنَّ الغرفة كانت تُستخدم في الحصص الرياضيَّة خلال الأسبوع -أرضيَّات الصالة الرياضيَّة ذات اللون الكستنائيّ مكدَّسة في الزاوية مع كرات كرة القدم في قفص صيد خشبيّ- وظللتُ أنسى إخراج المُعدَّات من إطار الصور. على مائدةٍ طويلة، وضِعت كعكة الزفاف التي صنعتها روبرتين إلى جانب العشرات من طواجن اللحم المغطَّاة بورق القصدير، جنبًا إلى جنب مع ما أحضره الضيوف من سلطاتٍ ملفوفةٍ بورق النايلون، والتي ستظلُّ على حالها لأنَّ زينيد قد أوكلت هذه المهمَّة إلى متعهِّد طعام.

وضَّحت للضيوف بأنَّني أريد منهم أن يُسجِّلوا رسائل للعروسين السعيدين أمام الكاميرا، وأنَّني سأصوِّر بعض اللقطات المنفصلة للجميع أثناء قضائهم وقتًا طيِّبًا.

يعرفُني معظم الذين ولدوا ونشأوا في خليج لودريتز، أو بعبارةٍ أدقّ، هُم على درايةٍ بمن أكون. صافحني الرجال. وأمَّا النساء، فلم يُطِلن النظر في العموم، على عكس أفواههنَّ التي حافظت على تبسُّمها. "لعلَّكَ لا تعرفُ مَن نحن"، كانوا يقولون، "لكنَّنا نعرف أبواك. كانا أصدقاء صالحين!".

مكتبة ياسمين

طمأنتُ الجميع أنَّني لا أزال أتذكَّرهم -غالبًا ما تكون الغطرسةُ السببَ الرئيسيَّ وراء تظاهُر أيٍّ من سُكَّان الخليج بعدم معرفة ساكنٍ آخر- لكنَّنا على الرغم من ذلك لم نتحدَّث قطّ عن آخر مرَّةٍ رأوني فيها، وأقصدُ بهذا جنازة عمَّتي مؤخَّرًا، أو والديَّ قبلها. وإذا ما ذكر أحدهم عمَّتي، فإنَّ ذلك يكون فقط للتعبير عن مدى إعجابهم بما أسبغتهُ عليَّ وعلى شقيقتي من كرمٍ ولطف.

جاءَت السيِّدة أركيبيلاجو بحثًا عنِّي؛ ربَّما ساورها قلقٌ بصدد أنّ الجلوس وبعض الراحة من العمل قد تُغريني، لذا أكَّدتُ لها أنَّني أعملُ ولا وقت لديَّ لتناول الطعام. "لكنَّنا بالطبع سنحتفظُ لك بطبقٍ من الطعام، يا هرمانوس"، قالت. أخذتني المفاجأة حينما سمعتُ اسمي الحقيقي، في حين كان بالنسبة إليها مجرَّد كلمةٍ مثل أيِّ كلمةٍ أخرى. تلألأت عيناها بالعودة إلى الاحتفال البهيّ، ومسحَت بيدها على قلادتها الذهبيَّة وكأنَّها تُعزِّي نفسها.

جلس الضيوف إلى طاولاتهم المُخصَّصة، ثمَّ بدأ تشزلي حديثَه وقد بدا لضخامته مثل لاعب رغبي ببدلته الضيِّقة. اقتربتُ منه قدر المستطاع، محاولًا في الوقت نفسه ألَّا أحجبَ الرؤية عن أحد، كي أحصل على مقاطع صوتيَّة أفضل. (التسجيلُ في قاعةٍ مزدحمةٍ يجعلُ المقاطع الصوتيَّة عبارةً عن ضجيج فوضويّ). لم يُبدِ والدُ تشزلي، الذي كان أصغر حجمًا من زينيد، أيَّ ردِّ فعلٍ إزاء ما أسبغه ابنُه من مدحٍ لقيمة الزواج والوصيَّة الخامسة[1]. في حين أمالت السيِّدة أركيبيلاجو رأسها لتسمع ما يقول.

---

1 الوصيَّة الخامسة من الوصايا التوراتيَّة العشر، ونصُّها: "أكرِم أباك وأمَّك لكي تطول أيَّامك على الأرض التي يُعطيك الربُّ إلهك". م.

جعلتني رؤية ذلك كلّه أميل إلى الاستنادِ إلى جدارٍ وأن أراقب مُجريات الأمور من وراء الكاميرا. وأخذتُ راحتي في مشاهدة زوجين تعيسين يتجادلان في الركن البعيد من القاعة، وصبيٍّ صغيرٍ يحمل في يدٍ أقصى ما يستطيع من الكعكة، بينما يوجِّهُ بالأخرى درّاجتهُ حول جدران القاعة. تمكّن الأخيرُ في اللحظة الأخيرة من ألَّا يصطدم بفتاتين كانتا تلعبان تحت الطاولة بجواري، لكنَّه ظلَّ يصطدم بساقي أثناء رجوعه محاولته الابتعاد، فما كان منّي إلَّا أن طردتُ الثلاثة معًا إلى الخارج.

وصلَ إلى الحفل زوجان متأخِّرَين، وجلسا إلى الطاولة عن يساري.

"لأنَّنا من المصنع فحسب"، قال الرجل. "تحدَّثتُ إلى رئيس العُمَّال يوم الثلاثاء. لا أحد يُصدِّق ذلك".

"يا للعار!" قالت زوجته.

أضافَ، بصوتٍ خفيض: "المكان كلُّه في حالة صدمة. لقد عثرَت ابنته الصغيرة عليه يوم الأربعاء".

"نحنُ في حفل زفاف، يا دافيد"، قالت الزوجة.

"إنَّه أمرٌ مأساويٌّ فعلًا"، قالت امرأةٌ أخرى.

"أجل، كنتُ أعرفه عن قُرب، وتانسي تعرفُ الفتيات من خلال المدرسة. يا لجمالِ أولئك الصغيرات".

لديَّ ذكرياتُ طفولةٍ عن بالغين يتوقَّفون فجأةً عن الحديث بمجرَّد أن تلمحني أعينهم؛ وجوهٌ قلقةٌ تنظرُ نحوي النظرات نفسها تقريبًا التي كان ضيوف حفل الزفاف هذا يحاولون جاهدين ألَّا يحدِّقوا إليَّ بها.

اجتمعَ خمسةُ مدخِّنين خارج البوَّابات الفرنسيَّة على مقربةٍ من السرادق.

"إنَّ المنجم يخسرُ عشرة ملايين كلَّ يومٍ بسبب إضرابات العمَّال والهراء الذي يحدثُ في الصين"، قال أحدهم.

"سحقًا!" قال آخرُ يرتدي بدلة رسميَّة.

"هذا صحيح. عشرة ملايين. الله أعلم بما قد يعنيه هذا لمستقبلنا...".

ثمَّ تابع كلٌّ منهم تدخين سيجارته مُتأمِّلين في مدى تأثير منجم الألماس على حياتهم.

"إذًا، كم بلغَت تكلفة حفل الزفاف هذا برأيكم؟"

رحلَ ابنُ خالةِ إحداهنَّ إلى بوتسوانا، ويقيم حاليًا في مقطورة سفرٍ خارج غابورون[1]. "إنَّه متفائل"، قالَت لصديقتها، "لكنَّه قرارٌ خاطئ".

"لا يوجد عملٌ هنا"، قالت الصديقة. "وماذا بمقدور شبابنا أن يفعلوا سوى السفر؟ لا أريدُ التفكير حتَّى في أطفالهم".

ثمَّ سردَت كلٌّ منهما قائمةً بأسماء الأشخاص الذين رحلوا عن لودريتز بحثًا عن حياةٍ أفضل.

"لدينا عمَّال مهاجرون أكثر ممَّا ينبغي، وفرص عملٍ غير كافية".

في طابور البوفيه، دار نقاشٌ بصدد أسماء شوارع لودريتز.

"سيكون من الأفضل الإسراعُ في تغيير اسم كلٍّ من هوهير

---

1 عاصمة بوتسوانا. م.

وبانهوف وبسمارك[1] إلى أسماء أخرى على غرار شارع الاستقلال".

"من غير الممكن أن تمسح التاريخ وكأنَّه لم يحدُث قطّ".

"لكن لا يبدو أنَّ البيض يواجهون مشكلةً في فعل ذلك نفسه بالضبط. وعلى أيِّ حال، من قال إنَّ أدولف ويرمان[2] أفضل من مهاتما غاندي؟"

دار النقاش أيضًا حول تسمية نامي ينس[3]، وهي الاسم المستخدم في لغة ناما[4] للمدينة المقصودة أو المقاطعة. (لم يكن أحد متأكِّدًا تمامًا). يبدو وقعُ الكلمة أوَّل الأمرِ مثل صوت فلّينة زجاجة، وأمَّا المقطع الأخير منها، فصوته رطبٌ كأنَّه قُبلة.

كنت أقضي الوقت منتظرًا أن يودِّع العروسان الحضور ويغادرا حفل الاستقبال كي يتسنَّى لي بعدها أن أحزم مُعدَّات التصوير ثمَّ أحاول ترتيب موعدٍ ليليٍّ مع ياغو في فندقه. لوحَّت زينيد إليَّ أن آتي إلى الطاولة الرئيسيَّة حيث كانت تجلس برفقة وصيفتيها، اللواتي ارتدين فستانين من حريرٍورديٍّ، بالإضافة إلى شقيقتها الصغرى التي كانت قُبالتها.

قلتُ لزينيد: "أراكِ لا ترقصين؟" لأنَّ السيِّدة أركيبيلاجو كانت بصحبة تشزلي في مرقص السُّرادق.

---

1 وهي مُفرداتٌ ألمانيّة. (هوهير: مُرتفَع، وبانهوف: محطّة، أمّا بسمارك (1815-1898) فهو مؤسِّس الإمبراطوريّة الألمانيّة). م

2 أدولف ويرمان (1847-1911): ملّاح وسياسيّ ألماني. كان له تأثير كبير في تأسيس المستعمرات الأفريقيّة في ألمانيا. م.

3 دائرة انتخابيّة في إقليم كاراس، ناميبيا. م.

4 لغة ناما (أو لغة خوي خوي): لغة محليّة واسعة الانتشار في ناميبيا وبوتسوانا وجنوب أفريقيا. م.

"صوت الموسيقى صاخب جدًّا داخل الخيمة"، قالَت، "كما أنَّها الفرصة الوحيدة التي سنحت لي من أجل اللقاء بصديقتيَّ المُقرَّبتين من المدرسة الثانويَّة. هذه جو-آن، وهذه باتريشًا، وهذه شقيقتي الصغرى...".

"روزينا"، قالَت الشقيقةُ مُلوِّحةً بيدها.

"كنتُ على وشكِ أن أُقدِّمَك"، قالت زينيد.

ثلاثتهنَّ قدِمنَ من كيب تاون بالسيارة لحضور حفل الزفاف، وكُنَّ في خضمِّ نقاشٍ حول تلك المدينة، إذ بدا أنَّ جميعهنَّ أحببنها باستثناء روزينا التي كانت تُفضِّلُ جوهانسبرغ.

"ما رأيك؟" سألتني جو-آن مُجعِّدةً أنفها في تعبيرٍ عن عدم اليقين. وعندما استرخى وجهُها، تركَ كريم الأساس تجاعيد خافتةً عليه.

وافقتُ في الرأي زبونتي.

"كيب تاون مدية جميلة"، قالت روزينا مُقرَّةً، "لكن جوهانسبرغ حماسيَّةٌ جدًّا. إنَّها مكانٌ أستعيدُ فيه شحن طاقتي". كانت فتاةً جميلة، وأقلَّ تصنُّعًا من الأُخريات.

"ما زلتُ غير مستاءةٍ من جوهانسبرغ"، قالت العروس. "هي مدينةٌ ذات طابعٍ جمعيٍّ أكثر ممَّا ينبغي". ثمَّ نظرت إليَّ، وقالت: "هل ستظلُّ في لودريتز طيلة حياتك؟"

"في الوقت الحاضر".

"وأنا أيضًا، في الوقت الحاضر..." كرَّرَت القول. "انضمَّ إلينا".

قلت إنَّني سعيدٌ بمواصلة تصوير لمِّ شملها بصديقتيها، لكنَّها أصرَّت أن أجلس معهنّ. "يا روزينا، أحضِري كرسيًّا".

"لا داعي لذلك"، قلتُ، وسحبتُ كرسيًّا من جانب طاولةٍ قريبة. كنت واقفًا على قدميَّ طيلة ساعاتٍ متواصلة، لذا من شأنِ قسطٍ من الراحة أن يسعدهما.

أصرَّت زينيد أن آكل شريحةً من كعكة الزفاف. "أخبرني تشيز أنَّك تعرف السيِّدة التي صنعت هذه الكعكة". (شرحتُ لهنَّ عن علاقاتي بروبرتين). "قل لها، من فضلك، إنَّ هذه واحدة من أفضل الكعكات التي تذوَّقتُها في حياتي".

"هيَ لا تقول ذلك من باب المجاملة فحسب"، قالت جو-آن مؤكِّدة.

"والآن لا تلمسْ الكاميرا قبل أن تنتهي من تناول ما في طبقك".

"هكذا هي زينيد؛ متسلِّطةٌ دائمًا"، قالت شقيقتها بينما كنتُ أمضغ.

"إذا زُرتَ كيب تاون في قادم الأيَّام، فتأكَّد من أن تقول لتشيز وسيحرصُ بدوره على الاعتناء بك هنالك"، قالت زينيد. "لديه معارف بمقدورهم أن يرشدوك إلى أفضل المطاعم وأماكن التسوُّق، وما إلى ذلك".

"اتَّفقنا".

التفتت صديقتها باتريشًا نحوي، وقالت: "هل هذا عملك؟"

"حفلات الزفاف؟" قلت.

"أجل".

"ليس تمامًا. أنا أصنع أفلامًا وثائقيَّة".

"أتعني أفلامًا وثائقيَّة عن الطبيعة؟"

مكتبة ياسمين

"كلَّا، بل عن الناس وحكاياتهم. وعن التاريخ. عملتُ في جوهانسبرغ أيضًا، على نحوٍ حرّ، لصالح عددٍ من وكالات الأنباء الخارجيَّة التي تحتاج إلى مصوِّرين محليِّين على الدوام. كما شاركتُ أيضًا في مشروعٍ لجامعة ويتس[1] عن التاريخ الشفويِّ، حيثُ أجريت مقابلات مع سجناء في سجن ليفكوب مشَّدد الحراسة". ثمَّ، زيادةً في إبهار زينيد، قلتُ لها إنَّني صوَّرتُ في مبنى البرلمان.

"أخبرني تشيز أنَّه بصدد البحث عن مصوِّر لأجل المقابلات"، قالَت. "أظنُّ أنَّه يريدُ توظيف شخصٍ من كيب تاون، لكن ذلك غير منطقي. اسمع، سأتحدَّث إليه. لستَ مشغولًا جدًّا، صحيح؟"

"كلَّا. لقد توقَّفتُ مؤقَّتًا عن العمل على أحدث أفلامي الوثائقيَّة من أجل هذا اليوم. إنَّ فيلم الحفل الخاصّ بكما أنتِ وتشزلي يأتي قبل أيِّ شيءٍ آخر. أنتُما على رأسِ أولويَّاتي".

غنَّى فرانك سيناترا عن القمر والنجوم بينما تحلَّقَ الضيوف حول سيَّارة مرسيدس بيضاء كي يُلوِّحوا مودِّعين العروسين. ظلَّ تشلسي يستثير هدير محرِّك السيَّارة في جموحٍ من أجلِ إبهارنا حتَّى أطلقَت الإطاراتُ ضجيجًا صاخبًا واندفعت السيَّارة بقوَّةٍ إلى الأمام.

في المقدِّمة، سُمِع صياحُ رجلٍ يطلب من تشزلي أن يفرمل، فتوقَّفت السيّارة تمامًا. كانت هناك درَّاجةٌ عالقةٌ تحت إحدى عجلتَي المرسيدس الأماميَّتين، تتدلَّى شرائط ملوَّنةٌ بألوان قوس

---

1 جامعة ويتس: هي جامعة ويتواترسراند العامَّة، مقرّها جوهانسبرغ، ودرس فيها نلسون مانديلا. م.

مكتبة ياسمين

قزح من مقودِها. رفعنا الصبيَّ قبل أن نضعه فوق أحواض الزهور، ورجوناه ألَّا يحرِّك ساكنًا.

"هل أصِبتَ بأذى؟" سألْنا الولد المستلقي على أزهار الغاسول الصفراء. توقَّف الصبيُّ عن البكاء حينما جثا والدُه إلى جانبه، لكن سرعان ما عاد إليه بعد أن تلقَّى على خدِّه صفعةً قاسيةً من السيِّدة أركيبيلاجو نتيجةً ما أحدثَه من جلبةٍ وضجيج. طُلِب منه بعد ذلك أن يعتذر إلى تشزلي، فأطاعَ الصبيُّ وصافح يد العريس مثل رجل أعمالٍ يتفاوض على صفقةٍ تجاريَّة.

نزَع تشزلي الدرَّاجة بقوَّةٍ وأبعدها عن سيارته، وصفَّق الجميع لانطلاقته الناجحة، في الوقت الذي كان فيه سيناترا يغنِّي المقطع الأخير في السرادق. مع انتهاء الأغنية، أدركتُ، على نحوٍ يدعو للخجل، أنَّني لم أضَع الكاميرا جانبًا كي أقدِّم يد العون، بل صوَّرتُ كلَّ ما جرى.

لم أستطع النوم بسبب نباح كلب الجيران، فقرَّرتُ بدلًا من ذلك العمل على إعداد حسابات ميزانيَّتي. دوَّنتُ في العمود الأوَّل الإيراد الذي كسبته من تشزلي، ثمَّ المصاريف في الثاني، وفي الثالث القرض المصرفيَّ ومعه كلّ المال الذي اقترضته من شقيقتي. أضفتُ بعد ذلك خانةً أخرى لحفلِ زفافٍ ثانٍ، ربَّما من خلال توصيةٍ عن طريق زينيد، لكن سرعان ما تبيَّن لي أنَّني حتّى لو حصلت على فرصة تصوير حفل زفافٍ واحدٍ في كلّ شهر- وهو هدفٌ بسقفٍ مرتفعٍ أكثر من اللازم بالنسبة إلى مدينةٍ بحجم لودريتز- فإنَّ كفَّة الخسارة في ميزانيَّتي ستظلُّ هي الراجحة. لم أشعرُ بكثيرٍ من الراحة إزاء تلك الحسابات، لذا خرجتُ إلى الشرفة لعلّي أفكّر في أشياء أخرى.

مكتبة ياسمين

في طفولتي، وكلّما ندّ النوم أجفاني، كانت عمّتي تُحدِّثني عن تلك المرّة التي قطعَت فيها خطّ الاستواء بالباخرة لتحصل على الرعايّة الصحيَّة. لم يستجب السلُّ الذي أصيبت به للعلاجات البافاريَّة، لذا، وقبل بدء فصل الشتاء في أوروبّا، أرسلها والداها للعيش مع أقاربهم الذين رحلوا عن ناميبيا في أعقاب الحرب العالميَّة الثانية. كان عمُّها- الذي لم تكن تعرفه قبل وصولها- قد اشترى خمس مزارع لتربية الماشية. هجر الرجلُ أوروبّا بعد ذلك لأنَّ القوى الأجنبيَّة كانت تضفي طابعًا أنثويًّا على ألمانيا.

كنتُ أطيلُ النَّظر إلى لودريتز النائمة، مثلما فعلتُ الليلة، مُستحضِرًا ذكريات طفولتها عن مدينةٍ ألمانيَّةٍ قديمةٍ تطلُّ عليها جبالٌ مكسوَّة بأشجار التنُّوب. خواطرٌ ظلَّت تراودني حتَّى بعد أن عرفتُ بأنَّها تعرَّضَت لقصفٍ جوّيٍّ كاسحٍ من قِبل قوَّات الحلفاء.

كثيرًا ما أفكِّر بتلك الآنسة الوافدة تُخيِّمُ تحت أشعة الشمس الأفريقيَّة. كانت تمضي فصل الصيف في مزارع عمِّها إلى أن اعتادَت على نمط حياته، ومنزله المخصَّص للإجازات بجوار البحر في سواكوبموند[1]، والعدد الذي لا يُحصى من الخدم الأوامبو[2] الذي يعملون على تلبية أوامره. وحينما حان أوان الرحيل إلى فراش المرض الأوروبيّ، فإنَّ كلّ ما سبق دفعها إلى رفض الرحيل عن هذه الأبُّهة الاستعماريَّة. أصرَّت بحزمٍ على البقاء في هذه الأرض

---

1 سواكوبموند: مدينة تقع على الساحل الغربيّ لناميبيا. م.

2 أوامبو: جماعة إثنيَّة بانتونيَّة تنتشر في أنغولا وناميبيا وجنوب أفريقيا، ويصل تعداد أفرادها إلى 2 مليون. وتعدُّ الأكبر في ناميبيا، حيثُ يقدَّر تعدادهم فيها بـ 1,3 مليون، يشكِّلون قرابة 50 بالمئة من السكَّان. م.

اللاهبة، ولم يكن أمام رجل الأعمال المزارع وزوجته من خيارٍ سوى تبنِّيها. لقد أصبح ذلك الدرس في التحدّي أمثولةً في حياة عمَّتي: فمنذ ذلك اليوم فصاعدًا، صار كلُّ ما ترغب به إليزابيث إيشر أمرًا مفعولًا. وبفضل ما امتلكَتْه من ثقةٍ وإيمانٍ بالنفس، حصلْت، أنا وشقيقتي، على منحتين كنسيَّتين للدراسة في مدرسةٍ داخليَّة خاصَّةٍ في جنوب أفريقيا، ما كنَّا لنقدر على تحمُّل تكلفتها بخلاف ذلك.

أنهَت عمَّتي دراستها تحت رعاية مربِّيةٍ ألمانيَّة، ثمَّ أتبعَت ذلك بقضاء عامٍ في مدرسة إنهاءٍ سويسريَّةٍ في جادَّة بي-دو في كانتون فود، حيثُ تعلَّمَت التزلُّج والحياكة وكره الفرنسيَّة. (عادَت إلى أوروبَّا لكن بشرط ألَّا يخبر أحدٌ عائلتها الأصليَّة بالأمر. كما أنَّها لم تتحدَّث مطلقًا عن أقاربها في هنالك. هل كان لديها أشقاء، أو شقيقات، أو الاثنين معًا؟). وفي طريقها إلى سنِّ الرشد، اكتسبَ لقبُ عائلتها البادئة فون[1]. تزوَّجَت تاجر الماسِ من ويندهوك، زواجًا لم يُكتَب له أن يستمر لوقتٍ طويل، إذ تبيَّن أنَّه كان يستمتع بلعب دور الغشَّاش، وأدوار أخرى عديدة، سواء برفقة النخبة الاجتماعيَّة في جوهانسبرغ أمام طاولات لعب الورق، أو في غرفة النوم.

كنت أعرف، بحكم الخبرة، أنَّه لا بدَّ لي من الانتظار قليلًا قبل إخضاع المقاطع التي صوَّرتُها حديثًا في حفل الزفاف إلى معاينةٍ تحريريَّةٍ دقيقة، ولا سيما إذا ما صاحبَ ذلك نباحُ كلبٍ محزون،

---

1 فون: بادئة تضاف إلى اسم العائلة تدلُّ على مسقط رأس من يحملها وكذلك نبله (في نظام طبقات اجتماعيّ). تُستخدم في ألمانيا والنمسا وعدد من الدول الإسكندنافيَّة، وتكافئُها في الهولنديَّة لفظة فان. م.

لذا أخذت حاسوبي المحمول من غرفتي وحاولت متابعة العمل على فيلمي الوثائقيّ عن السجن. بيد أنَّ ذهني كان مشتّتًا مكتئبًا، وسرعان ما بدأت أشكّك بصحّة هذا القرار.

بدا لي أنّه سيكون أكثر أمانًا أن أتأمّل المدينة النائمة من موقعي الممتاز هذا للمراقبة. حملَتني أفكاري إلى ياغو من جديد. لقد أنساني الحادث الذي وقع أثناء حفل الزفاف خطّتي بصدد مفاجأتِه في الفندق حيث يقيم، وقد تأخّر الوقت كثيرًا الآن لفعل ذلك.

بحلول الصباح، غطّى الميناءَ والمباني المحيطة به ضبابٌ بحريّ. كنتُ قد أمضيتُ الليلة كلّها في الشرفة، على كرسيٍّ غير مريح من الخيزران، متدثّرًا ببطانيّة رقيقة لتمنع عني البرد. كان من الصعوبة أن أنام مع كلّ تلك الأفكار المشوّشة التي خطرت في بالي.

لكنَّ الأمل بلقاء ياغو ثمّ العودة معه إلى فندقه، أو بالأحرى احتمال حدوث ذلك، أشعل فيَّ حافزًا مُشجّعًا.

أعلنَت مياهُ المحيطِ المضطربة عن حضورها بمجرَّدِ أن دخلتُ في ضباب جزيرة القرش، لكن لم يكن هنالك أيُّ أثرٍ لياغو. خلف الصخور، على مقربةٍ من المنارة، بدت أصواتُ الفقمات ذات الفرو والبطاريق الأفريقيّة المختبئة وكأنّها تتذمّر.

أثناء تدريبي الفاتر، وفي منتصف مسافة طول سباحة، قاطعَتني من غير سابق إنذارٍ شذرةٌ من ذاكرة طفولتي: "حينما كنتَ في الثامنة من عمرك، وقعَت عاصفةٌ رمليّةٌ شديدة القوّة كأنّها هجومٌ نوويّ. ظللتَ تركضُ من أوّل الممرّ إلى آخره وتصرخ بسبب الدم. لم أتمكّن يومها من الإمساك بك".

بدت كلماتُ عمَّتي في غاية الوضوح حتَّى شعرتُ أنَّها قد تكون معي في حوض السباحة. رأيتُها آخر مرَّةٍ خلال ما كان يفترض أن يكون رحلةً قصيرةً إلى لودريتز للاحتفال بعيد ميلادها الثمانين. وارَيناها الثرى بعد ذلك بأسبوعٍ واحدٍ فقط. بيد أنَّها لم تفارقني يومًا.

خرجتُ من الماء لعلّي أصفّي ذهني، لكن دون جدوى.

عدتُ إلى المياه مجدَّدًا، وهذه المرَّة توجَّهتُ إلى منطقة الأعماق السحيقة، عند زاوية الحوض البعيدة، حيثُ تفعلُ الأمواج أسوأ ما في وسعها. وبعينين مغمضتين في وجه المياه الثقيلة، تشبَّثتُ بالجدار المحيطيّ مُستسلِمًا لكلّ اندفاعةٍ من عُبابه. أردتُ منها أن تغسلَ كلمات عمَّتي إلى زوال. في نهاية المطاف، دفعتُ بنفسي ببطءٍ عائدًا إلى الجانب الضحل من المياه، مقطوع النفس متألِمًا بسبب ما انهال عليَّ من جلدات المياه. في الهواء الرطب، سمعتُ صدى لصوت رجلٍ ما، ربَّما على مقربةٍ من الميناء.

كنتُ أجفِّف نفسي حينما رأيتُ أربعة سيَّاحٍ يرتدون سراويل من الليكرا فقط ويركضون عبر الضباب باتِّجاه موقع التخييم. كانوا ألمانًا، يقضون فصل الشتاء في ناميبيا قبل العودة إلى موطنهم، حيث تنتظرهم الجبال الثلجيَّة، وشبكات الاتِّصال ذات الألياف الضوئيّة، ومهرجانات الأفلام، والمنح الحكوميَّة. إلى أوروبَّا المبهرة، بغضِّ النظر عمَّا فيها من إرهابيِّين.

كنتُ أرتدي سروالي الجينز فوق سروال السباحة حينما دخلت عبر البوَّابة مجموعة من رجال بسراويل قصيرة ونساء بملابس

سباحة من قطعة واحدة. سلَّموا عليَّ قبل أن يقفزوا إلى الماء وتتسارع أنفاسهم بسبب برودته.

كانت لا تزال هنالك فرصة بأنَّ يأتي ياغو. وأغرتني فكرةُ الذهاب إلى فندقه، لكن شعرتُ أنَّ زيارةً مفاجِئةً على هذا النحو قد لا تكون فكرةً سديدة.

مرَّةً أخرى، سمعتُ صوتَ الرجلُ قادمًا من جهة الميناء، ولأنَّني لم أرِد العودة إلى المنزل والمخاطرة بتفويت لقاء ياغو، قرَّرتُ أن أتمشَّى مستكشفًا على طول الرغْن.

ثمَّة قارب صيدٍّ يعلو موجةً مرتفعةً تحت الهواء الأبيض. وهنالك ثلاثة نوارس مدَّت أجنحتها في رياحٍ بطيئةٍ هبَّت فوق جبل الألماس. دفع النسيم الضباب إلى أعلى، فوق تلك الطيور، نحو سماءٍ ملبَّدةٍ كالمخيض. ستنقشعُ هذه الغيوم المضلّلةُ بحلول وقت الغداء، لتكشفَ عن يومٍ صافٍ من دون أن تنزَّ قطرةَ مطرٍ واحدة. لكنَّها لا تزال تُنذرُ بعاصفةٍ كارثيَّة في الوقت الحالي.

هنالك في منتصف الخليج عوَّامةٌ تحمل رجلًا على ما يبدو. وكان كلَّما أطلَّ من حافَّتها، غرقَت في الماء جزئيًا كاشفةً عن براميل طافيةٍ بسعة عشرة غالونات، قبل أن يعاود الجلوس في الوسط ليعيد توازُنها مجدّدًا. رمى الرجلُ طردًا في الماء بمُجرَّد أن تمكَّن من الوقوف منتصبًا، ثمَّ نادى على صيّادٍ في قاربٍ بالقرب وطلب منه أن يُقلَّه.

شقَّ الربَّان عباب البحر إلى أن وصل إلى الرجل وساعده على الصعود. اقترب القاربُ منّي، ثمَّ أوقِف محرّكه عن العمل وأُنزلَت

مرساته على مقربةٍ من الشاطئ. أشار الرجلان كلاهما إليَّ أن أغطّي أذنيَّ إذ أطلقَ مكبّرُ صوتٍ مخفيٌّ زعيقًا مخيفًا عاليًا.

حامت الطيور بتوتّرٍ لتستكشف ما يجري.

انفجَر ذلك القسم من الخليج حيث كانت العوَّامة تتأرجح من جانبٍ إلى آخر، وتحوَّل إلى رذاذٍ أبيض. وعلى أثر ذلك اندفعت موجةٌ ارتداديَّةٌ إلى حيثُ كنت أقف مباشرةً، لسعت بمياهها وجهي. تبع ذلك على الفور دويٌّ انفجارٍ كادَ هديره أن يفقدني توازني.

ثارت غيمةٌ بيضاء من المياه التقطتها الرياح سريعًا. أشار الرجلان إليَّ مرَّةً أخرى أن أصمَّ أذنيّ، تحذيرًا من انفجارٍ ثان. كان دويُّه أعلى من دويِّ سابقه، وشعرتُ به مثل لكمةٍ في صدري أطاحتني أرضًا.

صمت.

عمَّ صمتٌ مطبِقٌ مطلَق- كما لو أنَّ الكوكب تشظّى- قبل أن تزعق النوارس مترنِّحةً في غضبٍ وتنضمَّ إلى الاحتجاجات فقماتٌ من جميع أنحاء الخليج. كانت كلُّها تسعى جاهدةً للفرار من المياه الصاخبة.

نهضتُ في الوقت المناسب لأشاهد الحلقات تنبعث من منصَّة الانفجار التي بدا أنَّها لم تتلقَّ أيَّ ضرر. كانت يدي تنزف بعد أن كشطتها الصخرة حيثُ وقعت.

أبحر القارب ببطءٍ باتِّجاه العوَّامة مع استعادة صفحة المياه المحيطيَّة استقرارها.

بعد أن أهدرتُ الكثير من الوقت في جزيرة القرش، شرعتُ في رحلتي الشاقَّة إلى المنزل في خضمّ رياحٍ محمَّلةٍ برمال خشنةٍ من الصحراء. مع وصولي إلى حوض السباحة، لوَّحت إليَّ الامرأتان الأوروبيَّتين. كانتا تدرسان نصبَ الجزيرة التذكاريَّة التي تحتفي بذكرى الجنود الألمان الذين قُتِلوا خلال المناوشات مع القبائل المحليَّة.

كانت إحداهَّن مشغولةً بتصوير النقوش الحجريَّة، وسألتني إذا ما كنت أعرفُ أيَّ شيءٍ عن هذه الآثار.

"من كانوا هؤلاء الأشخاص؟" سألَت، بنبرة استجواب.

"أعتقدُ أنَّهم ماتوا أثناء الحرب"، قلتُ، وغطَّيتُ عينيَّ من عصفات الرياح التي ازدادت قوَّتها. لم أكن شخصًا ذا اطّلاع كافٍ عندما يتعلَّق الأمر بالتاريخ المحليّ. تذكَّرتُ على نحوٍ ملتبسٍ أنَّني سمعتُ من قبل شيئًا بصدد أنَّ الألمان، لكي يبسطوا سيطرتهم على المستعمَرة، أنشأوا في جزيرة القرش معسكرَ اعتقالٍ، أو ربَّما مستشفى، في أوائل القرن العشرين.

"مئةٌ وسبعةٌ وستون رجلًا"، قرأتْ بصوتٍ عال، "وسبعٌ وتسعون امرأة، وستَّةٌ وستون طفلًا. هؤلاء ليسوا جنودًا، صحيح ؟ "

"لعلَّها الإنفلونزا الإسبانيَّة؟" اقترحتُ متسائلًا إذ لم يخطر في ذهني ما هو أفضل من ذلك.

ابتعدَت عنّي وقد بدا عليها الاستياء ممّا سمعته. استأنفتُ المسير حتَّى نهاية جبل الألماس وصولًا إلى شارع لوبيكر.

رأيت على الهاتف إشعاراتٍ بمكالماتٍ فائتة، ورسائل من ياغو

يعتذر فيها عن إلغاء موعدنا بسبب التأخير. اتّصلتُ برقمه، وتركتُ له عبر بريده الصوتيّ رسالةً مفادها أنَّني في المنزل. لكنّه كان عائدًا ويندهوك في اليوم نفسه، ولأنَّ الرحلة الجويَّة التالية من لودريتز ليست قبل أقلّ من أسبوع، فلم يكن لديه وقت كافٍ للقائي.

كانت عمليَّة تحرير لقطات حفل الزفاف طويلة وشاقَّة. لم يُفارقني إداركي المزعج أنَّني كنتُ على وشك تصوير إطارات السيّارة وهي تسحقُ رِجلي الصبيّ في طريقهما المحتوم إلى رأسه. حاولتُ ألَّا أفكِّر بالأمر. ضغطتُ على نفسي قدر ما يمكنني احتماله حتَّى اضطررتُ إلى الابتعاد عن مكتبي في نهاية الأمر. خرجتُ إلى الشرفة، ودخَّنت سيجارةً وشربت شايًا حلوًا.

حين عزمت أمري على العودة إلى الغرفة، كان في نيَّتي أن أرجع إلى أمان فيلمي عن السجن هذه المرَّة، إلى المقابلات المألوفة مع الرجال الذين قضى كلٌّ منهم معظم حياته في "الداخل".

قبل رحيلي عن جوهانسبرغ بشهورٍ قليلة، اقترضتُ من شقيقتي بعض المال من أجل استئجار غرفةٍ من شركةٍ أمنيَّةٍ خاصَّة. كما دفعتُ للشركة أيضًا مقابل تأمينِ حمايتي- زرٌّ إنذارٍ معلَّقٌ على رقبتي من شأنه استدعاء حرّاس مسلَّحين إذا ما ضغطتُ عليه وقت الطوارئ- ونقلِ المُدانين السابقين من جمعيَّةٍ خيريَّةٍ تُعنى بتأهيل مرتكبي الجرائم أكثر من مرَّة إلى الأستوديو المؤقَّت الذي أقمتُه. وهكذا انتهى بي المطاف بنصب الحامل الثلاثيِّ لكاميرتي في زاويةٍ فارغةٍ من الطابق الأخير في المبنى حيثُ تقع مكاتبهم. لم يكن لديَّ الكثير من المساحات الفارغة، لأنَّني تقاسمتُ المخزَن مع ملفَّات الشركة القديمة ومعدَّات مكافحة الشغب الزائدة

مكتبة ياسمين

عن الحاجة، لكن تدبَّرتُ أمري. من حسن حظّي أنَّ الغرفة كانت معزولةً عن أيِّ ضجيجٍ خارجيٍّ من النوع الذي قد يُسبِّبُ المشكلات أثناء عمليَّة التحرير.

ألصقتُ الكابلات الكهربائيَّة بالجدران الإسمنتيَّة، وعتَّمتُ النوافذ بالفينيل، وسلَّطتُ لوحةً ضوئيَّةً نحو الكرسيِّ حيثُ يفترض أن يجلس الضيف. ثمَّ ثبَّتتُ مرشحاتٍ ضوئيَّةً ملوَّنةً على مصباحي إضاءةٍ مستأجرَين- أصفر بقوَّة ٢٠٠ وات وأحمر بقوَّة ٨٠٠ واط- جعلاني أتصبَّبُ عرقًا بحلول وقت الغداء إلى أن حصلتُ على ارتداد وهجهما على الجدران، وذلك كي أتمكَّن من تصوير القتلة والمغتصبين في ضوء برّاقٍ ودافئ.

كلُّ ما سبق كان بانتظاري في غرفة نومي، وهي مهمَّةٌ أكثر لطفًا وإغراء في نظري من العودة إلى حادثة تشزلي والصبيّ ذي الدرَّاجة.

على الجانب هادئ الريَّاح من جبل الألماس، بنى صهري شقَّةً أطلق عليها اسمه النخلتان التوأم، وهي تمثّل نسخته الصحراويَّة الحديثة ذات السقف المسطَّح عن شقّة فرانك سيناترا القديمة. كان شين قد نصبَ عَلَمًا أميركيًا جديدًا على السارية في الأسبوع نفسه الذي غرِق فيه؛ والآن، بعد سبع سنواتٍ من مقارعة الرياح، أمسى العلمُ مِزقًا.

بثَّ مُشغِّل الموسيقا أغنية شوغر مان لرودريغيز، مع العلم أنَّ شقيقتي تعرف تمامًا أنَّني أمقت هذه الأغنية. لذا كان من الواضح أنَّها بانتظاري، وقرَّرَت أن يرافقَ وصولي المتأخِّر لحنٌ يزعجني الاستماعُ إليه. لم أجِد لها أثرًا سواء في الصالة أو المطبخ، فأوقفتُ مشغِّل الموسيقا ثمّ سرعان ما رددتُ على صيحتها بأن

مكتبة ياسمين

"لا توقِف الموسيقا!" بـ "بل سأوقفها!".

كانت شقَّة النخلتان التوأم بمثابة كاتدرائيّة المتعة بالنسبة إلى شين. ودلَّ على هذا ما علَّقه على الجدار من صورٍ ولوحاتٍ وراء مجموعة أسطواناته الموسيقيَّة: صورة للانا ترنر ترتدي معطفًا من الفرو، وأخرى لسامي ديفيس جونيور مع آفا غاردنر في مرقصٍ في لاس فيغاس، وثالثة صغيرة لامعة لشرلي ماكلين في جلسةٍ عفويَّةٍ مرحةٍ تضمُّ جميع أفراد رات باك ببدلات رسميّة، بما في ذلك ماكلين نفسها. كانت هناك أيضًا صورة طُبِع عليها تاريخ ١٩٤٧ لعقارٍ في بالم سبرنغز- لفظها شين بلكنة أميركيَّة-، وإلى جانبها لوحة لفرانك سيناترا يقود سيّارته بكلّ ثقةٍ إلى الأبد.

أدَّى صهري مهمَّته على أكمل وجه؛ فاختار البُسُط بألوان وتصاميم مشابهةٍ قدر الإمكان لصورةٍ للبيت الأصليّ، والأمر نفسه بالنسبة إلى الطلاء والألواح الخشبيَّة، والأسرَّة الطابقيَّة من خشب البلوط، والبلاط الورديّ في الحمام الرئيسيّ، والحوض المستورد مربَّع الشكل مع ورق الجدران المُزَّين بسعف النخيل في شاليهات الضيوف في الباحة الخلفيَّة للمنزل. حتَّى أنَّه نحت طاولة قهوة من مقطعٍ عرضيٍّ لجذع شجرة باوباب.

قال شين حينما عرض عليَّ مخطَّطات مهندسهُ المعماريّ أوَّل مرَّة: "لو كان سيناترا من جوهانسبرغ، لبنى لنفسه مثل هذا المكان بالضبط". قدَّرتُ وقتها، بناءً على تلك الرسومات، أنَّ ذلك سيكلِّف الكثير من مونيكا- ومونيكا تعني المال في المحليَّة المثليَّة الجنوب أفريقيَّة. فأجابني من دون تفكير: "بل سيكلِّف مونيكا لوينسكي"- وأعتقد أنَّه عنى بإضافة الكنية أنَّ بضعة أصفارٍ أخرى ستُضافُ على أيٍّ قدرٍ من المال خطر في ذهني.

لم يكن مخطئًا فيما قصد إذ كاد بناء النخلتان التوأم أن يتسبَّب بإفلاسه. لقد وضع في هذا المكان كلَّ ما جناه من الغطس بحثًا عن الألماس خارج الحدود، فضلًا عن أنَّه أمضى كلَّ وقته على اليابسة في بنائه. أصبح شخصًا مستهترًا نتيجةً للإرهاق والتوتُّر.

في العموم، كانت علاقتي معقَّدةً بذلك المنزل، وليس فقط بسبب وفاة شين. كان متحمِّسًا جدًا بصدد ما سعى إلى تحقيقه حتَّى بتُّ مضطرًا للتظاهر بأنَّ نسخته المقلَّدة كانت بمستوى جودة المنزل الأصليّ نفسه، في حين أنَّني كنتُ أشعر دائمًا بخطبٍ ما في أبعادِ منزل شين. كان المطبخ ضيِّقًا مكتظًّا، أمّا غرف النوم فكبيرةٌ على نحوٍ مبالغ فيه. عقب رحيل شين، عشتُ فترةً قصيرةً في هذا المنزل كي أساعد شقيقتي- حدث هذا قبل انتقالي إلى جوهانسبرغ- وتحسَّنت مشاعري تجاهه بمرور الوقت.

في المساء، وجدتُ شقيقتي تمسحُ البلاطات حول حوض السباحة الفارغ الذي كان على شكل بيانو ضخم. (كان شين قد قسَّمَ الممشى بفواصل طوليَّة كي تُلقيَ بظلالٍ كمفاتيح البيانو على النهاية الضحلة للحوض). لم يَحدُث أن رأيته ممتلئًا بالماء.

ارتاح وجه شقيقتي حين تبسَّمَت.

"تبدو أنيقًا"، قالت، بعد سلّمت عليَّ بقبلة. "أعجبتني سترتُك. لكن شعرك رطب وجسدك يرتعش".

"كنت أسبح للتو".

"لكنّ الجوّ شديد البرودة".

كانت الأضواء مُنارةً في شاليه الضيوف، عند آخر باحة المنزل الخلفيّة. (أتمَّ شين بناء شاليه واحد فقط، وأمَّا الخمسة الباقية،

فكانت بلا أبواب أو نوافذ). سمعتُ بصعوبةٍ أصواتًا خافتةً من جهة الشاليه، لكنّ الرياح حملَت صوت الضحك، أو المجادلة ربّما، بعيدًا من أذنيّ. وقبل أن أسأل، قالت شقيقتي: "سينضمون إلينا في غضون بضع دقائق".

"لم أكن أعلم أنَّ لديكِ ضيوفًا هذا المساء".

"وصل كلٌّ من أماندا وويل في صباح اليوم بعد سفرٍ شاقّ- من لندن إلى ويندهوك، ثمّ من ويندهوك إلى هنا- لذا طلبتُ منهما أن يقضيا الليلة هنا لأنّني لم أرهما منذ مدَّةٍ طويلة. أردتُ أيضًا أن أعرِّفك بويل. والآن عُد إلى الداخل قبل أن تصاب بنزلة برد".

علَّقتُ ملابسي المبلَّلة في الحمَّام والتقطتُ منشفة جديدة. "هل جرحت يدك؟"، سمعتها تقول.

"أجل، في وقتٍ مبكّرٍ من صباح اليوم. على الصخور. سبحتُ مرَّةً أخرى في المساء، لذا أعتقد أنّ مياه المحيط قد عقَّمت موضع الجرح".

"عليك أن تعتني بنفسك أكثر، يا هنري". أحضرَت قطنًا طبيًّا ومُطهِّر جروح من خزانة الأدوية، وبدأت بتنظيف الجرح. ساعدتها في تغطيته بلاصق طبيّ قبل أن تشرَع بتجفيف شعري لئلّا يصيب البلل يدي. عندما انتهت، أعطيتها كتابها أحضرتُه معي وكان لا يزال داخل غلافه البلاستيكيّ. كان واحدًا من سلسلة إيفري مانس لايبراري[1]، وآخرَ ما اشتريتُه من جوهانسبرغ.

"دائمًا ما تتذكَّر"، قالَت متبسِّمةً من صميم فؤادها، ومرَّرت

1 إيفري مانس لايبراري: Everyman's Library – سلسلةٌ تُعنى بإعادة طباعة أبرز كلاسيكيّات الأدب الغربيّ، وتصدُر حاليًا عن راندم هاوس. م.

إبهامها على العنوان المنقوش بطباعة بارزة، قبل إن توصلني إلى غرفة النوم الاحتياطيَّة، إلى مكتب شين القديم، حيث خزانة الكتب الممتدَّة من الأرض إلى السقف. رأيت دزّينة من كتب سلسلة إيفري مانس على واحدٍ من الرفوف، في حين كانت البقيّة فارغةً تمامًا.

شممنا رائحة صفحات الكتاب الجديد، والتي كانت تُذكِّرنا بشين الذي لو كان حيًّا لكنَّا نحتفل اليوم بعيد ميلاده التاسع والثلاثين. كان يودُّ أن تمتلئ مكتبته قبل تقاعده في سنِّ الأربعين. وبعد أن أفسحنا مكانًا للكتاب الذي لن يفتحه أيٌّ منَّا مرَّةً أخرى، شعرتُ في داخلي برغبةٍ في مشاركة ذكرياتي عن شين مع شقيقتي، ذكرياتي كلّها. لكن عندما أوشكت على التحدُّث، أحسستُ بأنَّني سأنطق كلماتٍ لا تريدُ سماعَها. كنت بحاجةٍ إليها بالقرب منِّي في تلك اللحظة، بيد أنَّ شدَّةَ انطوائها أذهلَتْني.

لذا تأمَّلتُ قليلًا الإضافة الجديدة على الرفّ قبل أن تقول شقيقتي، بعد أن بدت عليها ملامح التعب مرَّةً أخرى، إنَّ من الأفضل لها أن تذهب إلى المطبخ لتحضير العشاء. ذهبتُ إلى الصالة لأسترخي قليلًا، وهناك فكَّرتُ مطوَّلًا بصعوبات التواصل فيما بيننا، والتي تكاد تُكافئ مقدار حزني على صديقي المتوفَّى.

صبَّت شقيقتي لي كأسًا من النبيذ قبل أن تضع تسجيلًا موسيقيًّا آخر.

صدح مشغِّل الموسيقا بأغنية سينر مان، فقلت: "وهذا هو المطلوب". انضمَّ غيتار الباص إلى البيانو، وغنَّت نينا سيمون. طلبتُ من شقيقتي أن تجلس على الأريكة بجانبي، ثمَّ طرقتُ

كأسي بكأسها، وشربتُ بصمتٍ نخب شين في عيد ميلاده.

سألَتني عن فيلمي الوثائقيّ، فأخبرتها بآخر المستجدّات بإيجازٍ قبل أن آتي على ذكر حفل زفاف تشزلي، والذي كانت شقيقتي قد تعمدَّت عدم حضوره، وحادثة الدهس الوشيكة، إلى أن انتهى بي المطاف أسألُها عمَّا إذا سمعت أخبارًا من ياغو.

أجابَت، على نحوٍ عامّ: "لديه اعتقادٌ بأنَّ المساعدة الأجنبيَّة التي نحصل عليها قد تنضب، وهذا النبأ يُثقل كاهلي".

"ربَّما ليس الوضع بالسوء الذي يصفه. أو لعلَّه قلِق بشأن نفسه فقط".

"أتعتقد ذلك؟ كلَّا، إنَّه شاب طيِّب. لكنَّني أحسب أنَّه يظلُّ يُهدِّد بالعودة إلى ألمانيا، لذا من يدري؟" كانت لا تزال تنتظر معرفة ما إذا كانت مؤهَّلةً للحصول على تمويلٍ إضافيٍّ من الاتِّحاد الأوروبيّ، أو أنَّها قد تضطرُّ إلى اتِّخاذ قرارات صعبة في العام المقبل.

رشفَت نبيذها، قبل أن تقول بنبرةٍ جادَّة: "هل تحتاج إلى نقود؟"

أكَّدتُ لها أنَّ في حوزتي ما يكفي لهذا الشهر. "وبصرف النظر عن ياغو"، قلتُ، "كيف يسير عملك؟"

نظرَت إلى ساعتها وتنهَّدَت. "أنت تدري كيف الوضع. في بعض الأيَّام، أشعرُ أنَّنا نُحدِث فرقًا- وأظنُّ أنَّه أمرٌ جيِّد- لكن بعد ذلك يأتيك يومٌ مثل هذا اليوم تشعر معه بأنَّني أريدُ إغلاق المكتب نهائيًا، و، ربَّما، أن أهرب؛ أن أنضمَّ إلى سيرك؛ أن أفعل أيَّ شيءٍ بخلاف القلق بشأن العنف المنزلي أو الفقر أو فيروس

نقص المناعة البشريّ. لكن الناس بحاجةٍ إليّ، كما تعلم. وهنالك أيضًا ديون شين التي يجب سدادُها إذا ما كنتُ أرغب بإبقاء منزل النخلتان التوأم. لذا، أجل.. سنرى على أين تسير الأمور".

بينما صبَّت مزيدًا من النبيذ، وقعت عيني على مجسَّم الكرة الأرضيَّة المدرسيّ الذي كان مُلكًا لعمَّتي، في الكوَّة فوق المدفأة، والذي لا تزال فيه الهند الصينيّة فرنسيَّةً، وكوريا غير مقسَّمة. نهضتُ نحوه لإلقاء نظرةٍ عن قرب. "أين عثرتِ على هذا بحقِّ الجحيم؟"

قالت: "عادةً ما أبقيه في شاليه الضيوف، لكنَّني قرّرتُ في صباح اليوم إخراجه إذ لم أرِد أن يتضَّرر".

تعلَّمتُ من المجسَّم القديم أنَّ الغرب جيِّد. وذكَّرتُ لوسيَّا كيف كانت عمَّتنا تضع أصبعًا على كيب تاون، عند أقصى جنوب أفريقيا، ثمَّ تتركني لأقِّرر أيَّ خطٍّ ساحليٍّ- من بين الشرقيّ أو الغربيّ- ينبغي أن أتبع كي أصل شمالًا. عندما اختار، على نحوٍ صائبٍ، الطريق الغربيّ، كانت تقول لي: "أحسنت". ثمَّ أتتبَّع مسارًا يبدأ من كيب تاون، متقفِّيًا الخطَّ الأسود الرفيع الذي يفصل المحيط الأطلسيَّ الأزرق، بتيَّاراته المطبوعة على المجسَّم، عن الأرض الورديَّة المُقسَّمة إلى أقاليم، وصولًا إلى مصبِّ نهر أورانج، حيثُ يعتريني التردُّد مجدَّدًا.

نظرتُ إلى الخلف حيثُ شقيقتي، وقلت: "كان عليَّ أن أنتظر إيماءةً منها".

"لقد كنت أشجع منّي".

"كان بالنسبة إليَّ الشعور الأكثر رعبًا في العالم؛ أن أكون

المستكشف".

"لأنَّ مجرَّد خطوة خاطئة واحدة فقط تكفي للقضاء عليك؟"

نظرَت إليَّ بينما مرَّرتُ أصبعي بتؤدة على المجسَّم المكوَّر إلى أن وصلتُ إلى موضعٍ مجهولٍ في جنوب ناميبيا، حيثُ تلتقي الصحراء بالبحر؛ أكَّدت لنا عمَّتنا أنَّه موقع منزلنا.

"أطلقَ مستكشفٌ برتغاليٌّ على هذا المرفأ اسمَ خليج سانت كريستوفر"، قلتُ بلكنة عمَّتي الألمانيَّة، والتي نجحت في إضحاك لوسيَّا. شعرتُ بالارتياح لرؤيتها سعيدة، فعدتُ إلى الأريكة لأكون قريبًا منها.

"الربُّ القدير..."، قالت لوسيَّا لتحثَّني على المتابعة.

"الربُّ القدير أرسل السيِّدَ لودريتز، وكان رجلَ أعمال ألمانيًّا وصاحب شخصيَّةٍ أخلاقيَّةٍ أسمى من الغطرسة البرتغاليَّة، كي يُنقذ هذه الأرض من القنوط".

"يا لتلك المرأة!" قالت شقيقتي. "لقد أحببتُها".

ثمَّ، ومن دون سابق إنذار، أتبعَت كلامها بلكمةٍ في كتفي.

"لم تُحدِّثني عن الوقت الذي أمضيتماه في حوض السباحة معًا"، قالَت. "أقصدُ في مساء الأمس، أيُّها الملعون الماكر. هذا إذًا ما دفعك للسؤال عمَّا إذا كنتُ على تواصلٍ معه. إنَّ ياغو كثيرُ الـ..."

قاطعتها مبتسمًا، على الرغم من أنَّني كنت أتحرَّق للقائه اليوم، وقلت: "لا بدَّ أنَّه وصل إلى ويندهوك بحلول هذا الوقت".

"يا لمكرك، يا هنري! وتجلس في مكانك هُنا بوجه خالٍ من أيِّ تعبير! ماذا حدث؟" وأتبعَت السؤالَ بلكزةٍ ثانية.

"كان لقاءً لطيفًا". بدا أنَّها تنتظر مزيدًا من التفاصيل، لكنَّني لم أرِد الاعتراف بأنَّنا لم نلتقِ مجدَّدًا. "ربَّما سأتواصل معه حين عودته إلى لودريتز".

"حينما تحدَّثتُ إليه صباحًا، أخبرني أنَّه أمضى وقتًا ممتعًا في حوض السباحة".

"حقًّا؟"

فكَّرتُ بأن أطلب رقمه منها، بيد أنَّها لمحَت ضيوفها خارج الشاليه، فنهضَت وقالت بسرعة: "أشعِل النار، من فضلك. وأنا سأعودُ إلى تتبيل جراد البحر. لقد وعدتُهم بتحضير طبقٍ من المشويَّات".

عرَّفتني لوسَّيا على كلٍّ من ويل وأماندا. احتمى أربعتنا من الريح بينما أخبرني ويل كم كان متشوِّقًا للقاء بي. كان شخصًا ودودًا، ومن جيلي نفسه تقريبًا؛ كان أيضًا فارع القامة، بطول مترين تقريبًا، وبدا برأسه الكبير على جسده النحيل وكأنَّه سرعوف.

"وأخيرًا تسنَّت لي فرصة لقاء المخرج"، قالَ، مربِّتًا على ذراعي.

لم أكن على ثقةٍ ممَّا إذا كانت زوجته أماندا، بتعابير وجهها الجادَّة، على وشك أن تعانقني أو تستجوبني. انتهى بها المطاف بفعل الأمرين كليهما. كان شعرها قصيرًا جدًّا، وتضعُ نظَّارةً قديمة الطراز، وبسنٍّ يمكن تقدير عمرها ما بين الثلاثين والخمسين سنة.

"أخبرت أماندا توًّا كم نحن محظوظين لأنَّنا نسكنُ في هذا المكان المميَّز من العالم"، قال ويل، ناحتًا كلماته في مقدِّمة فمه ليلفظها بلكنة أوضح من إنكليزيَّتي العميقة المضجرة. "أعني..

مكتبة ياسمين

انظـر إلى تلك النجوم. ألماسٌ يتدلَّى في السماء، ألا تعتقدُ ذلك؟ وهنالك أيضًا قصيدة ييتس[1] بالطبع. لسببٍ ما، أجدُ نفسي أفكِّر بالشعر الأيرلنديّ هذه الليلة".

أطبقتُ فمي حينما ضحك وأمال رأسه إلى الوراء، كاشفًا عن أسنانٍ ضئيلةٍ جدًّا إلى حدٍّ يثير الدهشة. وعلى الرغم من أنَّ حيويَّته بثَّت فيَّ بعض النشاط، إلَّا أنّ حركات فمِّه الذي كان يُصدر ذلك الصوت الجميل قد أزعجتني.

استأذنَت شقيقتي مُغادِرةً- هربَت إلى المطبخ، مؤكِّدةً لأماندا أنَّها ليست بحاجةٍ إلى أيِّ مُساعَدة- وتخلَّت عنِّي قبل أن أسألَ ويل أوَّل سؤالٍ خطر في بالي.

"في الخدمات المصرفيَّة الاستثماريَّة"، أجابت أماندا بالنيابة عن زوجها.

"كنتُ مدير مشاريع"، قال موضِّحًا، "ليس مبهرًا، على النقيض من العمل مداولًا". ألقى نظرةً مرتابة نحو بركة السباحة خلفه؛ أراد التأكُّد ربَّما من أنَّه ليس على وشك السقوط فيها. "أجدُ لزامًا عليَّ القول إنَّ هذه الحفرة في الأرض تُمثِّلُ مصدر قلقٍ عظيمٍ على الصعيدين الصحيّ والأمنيّ معًا، ولا سيما في الليل. أعني، لقد كدتِ أن تسقطي فيها حينما وصلنا، أليس كذلك، يا أماندا؟"

"كم هو لطيفٌ أن نلتقي أخيرًا"، قالت أماندا، متجاهلةً سؤال زوجها. "لكن لماذا.. لماذا يجب أن يكون الجوّ باردًا؟". كانت قد غطَّت نفسها بشالٍ ووشاحٍ لفَّتهُما بإحكام.

على الرغم من استمتاعي عادةً بلقاء أصدقاء شقيقتي، إلَّا أنَّني

---

1 في إشارة إلى الشاعر والمسرحيّ الأيرلنديّ المعروف وليام بتلر ييتس (1865-1939). م.

مكتبة ياسمين

كنتُ أفضِّل لو أنَّنا بقينا وحدنا الليلة. وعلاوةً على ذلك، فكنتُ قد استنفذتُ مخزوني الأسبوعيّ من كلٍّ من الجاذبيَّة الشخصيَّة والقدرة على تبادل الأحاديث برفقة ياغو، لذا لم يعد بمقدوري التفكير بأيِّ شيءٍ آخر أقوله للزوجين المتبسِّمين اللذين يجلسان قبالتي في حالة ترقُّب.

أنقذتني أماندا من ورطتي، فسألت: "هل درست في كليَّة الحقوق؟" بدا أنّها سألت لوسيًّا عنِّي.

"كلَّا، بل في كليَّة الهندسة المعماريّة".

"العمارة؟" قال ويل. "هذا جيِّد، شيء مفيد. لقد أفضى هوسي بإليزابيث بارِّت براونينغ[1] إلى نيلي شهادة دكتوراه مخيِّبة للآمال في أورورا لي[2]".

أوضحتُ أنَّ صهري شين كان محاميًا.

"مهندسٌ معماريٌّ إذًا؟" قالت، بتأنٍ وتفكير، قبل أن تضيف: "حسنًا، هذا المنزل مثيرٌ للاهتمام.. غيـر عـاديّ". ثمَّ ضيَّقَت عينيها كأنَّها تحدِّق في وجهي عبرَ عدسةٍ مكبِّرة، وقالت: "لستَ من صمَّمه، صحيح؟"

وكعثَّةٍ مُصبَّرة، لم يكن في وسعي إلَّا أن أهزَّ رأسي، وأقول: "صحيح. يبدو أنَّ أيًّا منَّا لم يفعل شيئًا ضمن مجال تخصُّصه العلميّ. وبالنسبة إليَّ، فلم أحصل على شهادتي إلَّا بشقِّ النفس".

---

1 إليزابيث بارِّت راونينغ (1806-1861): شاعرة إنكليزيَّة ومن الأبرز ما بين شاعرات العصر الفيكتوريّ وشعرائه. م.

2 بالإنكليزيَّة: Aurora Leigh. رواية شعريَّة ملحميّة لبراونينغ، كتبتها بأسلوب الشعر المرسل، وصدرت في سنة 1856. اعتبرتها براونينغ أكثر أعمالها اكتمالًا وإبداعًا، ووصفها الناقد الإنكليزيّ جون راسكن بأنَّها أعظم قصيدة طويلة في القرن التاسع عشر. م.

"لا بأس"، قال ويل، "عـاديّ! على المرء أن يبذل قصارى جهده كي يتخـرَّج من ضمن الأوائل أو العاديِّين. فالذين يحصلون على المركز الثاني متواضعون، وأمَّا التخرُّج في المرتبة الثانية العليـا، فهو أمرٌ على درجةٍ عاليةٍ من الابتذال واللامعنى، لدرجة أنَّه ربَّما لا يستحقُّ أن يُهدر المرء مالًا عليه؛ وكأنَّها عائلةٌ ريفيَّةٌ متوسِّطة من البيض المغايرين والمغايرات".

افترضتُ أنَّه تخرَّج أوَّلَ دفعته، ولهذا تحدَّث بكُلّ ثقةٍ عن درجات التحصيل العلميّ. بالنسبة إليّ، كنت سأحبُّ أن أتخرَّج في المرتبة الثانية العليا.

"أرجو ألَّا يزعجك سؤالي، لكن متى يَجهز الطعام باعتقادك؟" سألَت أماندا. "كلُّ ما في الأمر أنَّني لم آكلْ شيئًا منذ أن تناولنا طعام الفطور قبل الهبوط في ويندهوك".

"قريبًا"، قُلت. "يفترض بي أن أوقِد النار".

"وربَّما ينبغي أن أرى ما إذا كانت بحاجةٍ إلى أيِّ مُساعدة في المطبخ".

تخلَّيتُ عن محاولتي طمأنتها بأنَّ أختي تُفضِّل أن تكون في المطبخ لوحدها، إذ ظَّلت البريطانيَّة تومئ برأسها مؤكِّدةً طوال الوقت أن لا مشكلة لديها بفعل ذلك، قبل تتّجه إلى الداخل.

بدأنا، أنا وويل، بتكديس الأخشاب داخل حوضٍ صخريٍّ يشبهُ إلى حدٍّ ما بيضةً عملاقةً قُطِع الجزء العلويّ منها. كان شين قد ثبَّتهُ بالإسمنت على بلاط الأرضيَّة.

"أتريد أن تشوي فوق هذا الشيء؟" قال ويل، بنبرةٍ يشوبها الحذر.

"كلَّا، هذا من أجل تدفئتنا. سنجلس حوله. وبعد أن أوقده، سأضرم النار في الشوّاية".

بسبب قضاء الوقت داخل الماء مع ياغو، مساء الأمس، بتُّ أشعر بألمٍ في عضلات فخذيَّ كلَّما قرفصْت.

كانت الأخشاب جافَّةً واشتعلت على الفور. وحرصًا على ألَّا يعبث ويل بألسنة اللهب الصغيرة، دلَلتُه على الشوَّاية، وعلَّمتُه كيف يصنع كرةً من ورق الجرائد.

"ليس في وقتٍ قريب، لو كان الأمر بيدي"، أجاب على استفساري عن موعد عودته إلى إنكلترا. "نأملُ أن نعيش هُنا بصورةٍ دائمة. في الواقع، نحنُ نسكن هنا منذ بضع سنوات بالفعل. أعتقدُ أنَّني صرتُ مهاجرًا الآن. حسنًا.. ليس بصفةٍ رسميَّة، لكن من المؤكَّد أنَّني لن أعود إلى المملكة المتّحدة. لقد عدنا هذه المرَّة من أجل تثبيت عقد بيع منزلنا في لندن فحسب. والآن، بعد أن أتممنا العمليّة، فإنَّ معظم روابطنا بتلك البلاد قد انقطعت، لحسن الحظّ. أودعنا شقيقتي بعض الأغراض، لكنَّنا ذاهبون إلى هارموني في صباح الغد". كان يثني ورق الجرائد أكثر من اللازم، لكن لم أوقِفه. "حاولتُ اللقاءَ بك قبل سفري، لستُ أدري إذا ما أخبرتك لوسيًا عن ذلك. كنت آمل أن أتحدَّث إليك منذ عودتك إلى لودريتز".

انتظرتُ أن يُكمل حديثه.

"لا تقلق، لا شيء مهم"، قال. "كلُّ ما في الأمر أنَّني بحاجةٍ إلى مساعدتك، لكن بمقدورنا أن ندردش في وقتٍ آخر".

عادَت أماندا وبيدها زجاجة نبيذ، وبالأخرى كأسٌ من عصير

البرتقال لويل. "هل سمعتَ إصداراتٍ أخرى لهذه الأغنية؟" قالَت مبتسمةً حينما عاد مشغِّل الموسيقا لبثّ أغنية سينر مان مرَّةً أخرى. اختلط الصوت بصوت مذيعِ أخبارٍ مثابر، ذلك أنَّ لوسيًّا تُبقي المذياع مضبوطًا على تردُّد خدمة الإذاعة العالميَّة لهيئة الإذاعة البريطانيَة، ويبدو أنَّها رفعَت الصوت فصرت أسمع مقتطفاتٍ من الأخبار.

"إنَّها ترنيمةٌ مسيحيَّةٌ أفريقيَّة"، واصلَت أماندا حديثها، "جرَت محاولاتٌ مبكِّرةٌ من مغنِّيين أميركيِّين بيض كثر لغنائها، بيد أنَّ معظمها كانت فظيعةً جدًّا، لكن سيمون هي الأفضل. لا بـدَّ أن تكون عبقريَّةً من تقدرُ على أداء مقطوعةٍ مهيبةٍ كهذه، وسيمون تستحقُّ ما حصلت عليه من جوائز وتكريم. إنَّ طريقة عزفها للبيانو تجعلني أتأثَّر حدَّ البكاء. هي انتقلت أيضًا إلى أفريقيا".

"عقب زيارة أماندا ناميبيا أوَّلَ مرَّةٍ، قبل بضع سنوات، صارت هذه البلادُ شغلها الشاغل ومحور أحاديثها"، قال ويل أثناء شرب العصير، وقبل أن يستأنِف التنكيل بورق الجرائد. "وحين وطأت قدماي هذه الأرض، أدركتُ بالضبط عمَّا كانت تتحدَّث".

"أخبرني ويل أنَّكما ستهاجران"، قُلت.

"أظنُّ أنَّه من المبكِّر قليلًا البتُّ في مسألة مهمَّةٍ مثل الهجرة"، أجابت، والتقطت كأس النبيذ الفارغة التي تركْتُها بالقرب من البيضة المحترقة. "أترغب بشرب المزيد الآن أم لاحقًا؟"

"فلنُشعِل الشوَّاية أوَّلًا".

وضعَت الكأس جانبًا، واقتربَت منَّا تحكُّ إبهامها بأظفرها كما لو أنَّها تحاول تقشير برتقالةٍ.

"هل قلتَ للتوِّ أنَّك كنت ترغب بلقاء هنري؟" سألَت زوجها.

"كلَّا"، أجاب. "أقصدُ.. نعـم. قلتُ إنَّني ذهبتُ إلى منزل هنري قبل أسابيع قليلة، لكن لم أجده. لديه منزل صغيرٌ جميل".

التفتَت إليَّ، وقالت: "هل يقصدُ المنزل الأزرقَ الذي ورثَتهُ عن المرأة التي تُناديها عمَّتك؟"

فاجأني سؤالها الفظّ.

"كان والداك يعملان لديها، صحيح؟" قالت موضِحة، "أمْ تراني أسأتُ فهمَ العلاقة التي جمعتهم؟"

لمس ويل ذراعها.

"ما بِك؟" قالَت. "أحاول أن أفهم فحسب".

أشغلَ نفسَهُ بالجريدة لئلَّا ينظر إليها.

"هيَّا، أسرِعْ بإشعال النار، يا ويل"، قالَت. "إنَّني أتضوَّر جوعًا، وكذلك أنهيتُ للتوِّ شرب كأس نبيذٍ مع لوسيَّا لأنَّك في الخارج هُنا تُشتِّتُ انتباهَ هنري".

فتحتُ كيس الفحم الذي تركتهُ شقيقتي لي في الخارج، وأفرغتُ محتوياته فوق الخشب وورق الجرائد، وأمَّا ويل وأماندا، فذهبا إلى جانب البيضة، حيثُ دار بينهما حديثٌ بصوتٍ خفيض. عندما انقشعَ غبار الفحم، أوقدتُ النار في ورق الجرائد المكوَّر. ومن دون النظر إلى البريطانيّ والبريطانيَّة، قُلت: "قد تكونُ عادةً أفريقيَّة، أقصدُ تسميةَ أصدقاء العائلة بالعمِّ أو العمَّة. لكنَّ ذلك المنزل لي الآن. أعني لنـا، لوسيَّا وأنا".

"أريدُ أن أسألك عن الطراز المعماريِّ في لودريتز، يا هنري"، قال

مكتبة ياسمين

ويل، "تقول أماندا إنَّ المنازل بافاريَّة[1] الطراز".

"يوغندشتيل[2]"، قلتُ وكرَّرتُ الكلمة مُهجِّئًا مرَّةً أخرى، "أي طرازُ الفنِّ الجديد الألمانيّ. وهو، مقارنةً بنسخته الفرنسيَّة، أكثر تحفُّظًا وأقلّ رشاقة. مع أنَّني أعتقدُ أنَّ تسميته بالفنِّ الجديد الألمانيِّ في حقبة الاستعمار ستكون أكثر دقَّة على الأرجح، أو ربَّما الفنّ الجديد الألمانيّ في حقبة استعمار أفريقيا؟"

"لا يبدو لي أنَّها تنتمي لحركة الفنِّ الجديد"، قال.

اقتربا منِّي مرَّةً أخرى، وأحضرَت أماندا كأسي معها، ووقف كلٌّ منهما بجانب.

"ناميبيا.."، قال ويل مع صوت احتراق الورق. "يجبُ أن تصنع فيلمًا وثائقيًّا عن هذه المدينة". ثمّ أضاف، بصوتٍ ناعمٍ وخفيض كما لو كان صوت طفل: "إن لم يكن لأجل لودريتز، فلأجلِ من؟! أعتقدُ أنَّها أنقذتْ حياتي".

اضطررنا إلى إزاحة كراسينا بعيدًا من البيضة لأنَّ فرقعة النيران كانت تهدِّد بإمطارنا جمرًا. لعقتُ إبهامي ورفعتهُ إلى أمام وجهي، لكنَّ الخرافة القديمة لم تجد نفعًا في إبعادِ الدخان الليلة.

"آه، أشمُّ الرائحة المنبعثة عن إزالة الغابات.."، قلت.

أرادت أماندا أن تعرف المزيد عن شين، فأخبرتُها بأنَّني تعرَّفت عليه عن طريق فريق الجامعة لكرة الماء، "ثمَّ تعرَّف بدوره على

---

1 نسبةً إلى بافاريا، أكبرُ الولايات الاتِّحاديَّة الألمانيَّة، وعاصمتها مدينة ميونخ. م.

2 Jugendstil: (وتعني حرفيًّا الطراز الحديث). هي طراز فنّ جديد، آرت نوفو، انتشرت في ألمانيا ما بين 1895 و1910، ولا سيما في ميونخ وفايمار ودارمشتات. تُعنى فنون الزخرفة، وتأثَّرت في بداياتها بطراز الفنِّ الجديد البريطانيّ. م.

لوسيًا عن طريقي"، قلت. "وقرَّر في نهاية المطاف أن ينتقل إلى لودريتز لأنَّه كان مُغامرًا أكثر من اللازم للعمل كمحام". ناديتُ على شقيقتي التي كانت لا تزال في الداخل من أجل أن تُحضِر مزيدًا من المشروبات.

جاءت وبيدها زجاجة نبيذٍ جديدة، وإبريقُ ماء، وقالت: "انزَعِ السدادة وصبّ، يا فتى". ظلَّت رائحة الفلفل والخلّ في الهواء بعد عودة لوسيًا إلى المطبخ. أمَّا أماندا، وبناءً على ملامح الاشمئزاز التي ارتسمَت على وجهها، فلا بدَّ أنَّها شعرَت بالذهول ممَّا حدث.

"كان في وسعك أن تُحضِر المشروبات بنفسك، كما تعلم"، قالت.

"لا تسمحُ لوسيًا لي بدخول مطبخها حينما تكون مشغولة"، أجبتُ، مُشغِلًا نفسي بالنظر إلى الأرض من حولي وكأنَّني أبحث عن شيء ما، كي أتجنَّب نظراتها الساخطة. عثرتُ على مفتاح قنِّينات النبيذ تحت كرسيّي. "هل أصبُّ لك بعضًا من هذا النبيذ الأبويّ، يا أماندا؟"

ابتسمَت ابتسامةً خافتةً، ومع ذلك رفعت كأسها لي كي أملأها.

"ماء، من فضلك"، قال ويل.

"بالطبع"، قلت.

"هل عشت هُنا طوال عمرك؟" قالت أماندا بعد رشفة نبيذ.

"أجل، ولِدتُ وترعرعتُ في لودريتز".

"حدَّثتني لوسيًا أنَّك قضيتَ بعض الوقت في جوهانسبرغ. وكنتُ أعتقدُ أنَّ فيها فرصًا للعمل أكثر من هُنا".

"حسنًا، صحيح أنَّه لا تتوافر فرص عملٍ كثيرة في لودريتز، لكنَّني أفضِّلُ العيش هنا، أكثر بكثيـرٍ من جوهانسبرغ. أشعرُ بالحنين إلى هُنا، وأشتاقُ إلى مشويَّات شقيقتي. الحياةُ هانئة في الخليج، طالما أنَّ لديك ما يساعدك على التخلُّص من التوتُّر. يلجأ بعض الرجال إلى الصيد، بيد أنَّه لا يثير اهتمامي؛ أنا بحاجةٍ إلى ما هو أقوى قليلًا. وعلاوةً على ما سبق، فإنَّ العزلة تساعدني على التركيز".

"أخبرتني لوسيًّا بأنَّها تريد منك تقديم المساعدة في مؤسَّستها الخيريَّة. شيءٌ ما بصدد تعليم الأطفال صناعة الأفلام، على ما أظن".

"سأتّحدثُ معها عن ذلك لاحقًا. يبدو لي أنَّكِ تعرفين عن خططها أكثر ممَّا أعرف".

تطوَّعت أماندا قبل بضع سنوات لدى بِنغِلا تْرَسْت، وهكذا تعرَّفت على شقيقتي. "في ذلك الوقت، كان ويل يؤسِّسُ لمستقبله، وكان عليَّ أن أهرب من لندن. شخصيًّا، أُفضِّل العطلات المستدامة- حيثُ تذهبُ أموالي إلى المجتمعات المحليَّة- وهذا ما دلَّني على الجمعيَّة. حزمتُ حقيبةً مليئةً بالكتب، وقضيتُ أسبوعين في تعليم القراءة للأطفال المحليِّين. كانت تلك أسعدَ تجربةٍ مررتُ بها في حياتي على الأرجح. وبسبب انزعاجنا من العيش في لندن، بدأتُ أقلّبُ في رأسي فكرة الانتقال إلى هُنا بصفةٍ دائمة".

"هل تستمتعين بالتطوُّع؟" سألت.

"إنَّه تجربةٌ مُجزيةٌ للغايـة. كنتُ سأحبُّ أن أساعد شقيقتك،

لكنَّني مشغولة جدًّا لسوء الحظّ. ولأكون صريحةً معك، فإنَّ الشيء الوحيدُ الذي لا أحبُّه في لودريتز هو رياحُها التي لا تهدأ أبدًا. لقد ظلَّت الطائرة تنحرفُ على طول المدرَج أثناء هبوطنا اليوم، وتساءلتُ أثناء ذلك عمَّا إذا كانت الرياح شديدةً إلى هذه الدرجة على الدوام؟"

استأذنتُهما كي أتفقَّد النار، مفسحًا لهما المجال ليتحدَّثا على انفراد.

"يا هنري، هل ستستقرُّ في لودريتز بصفة دائمة؟" سألَت أماندا بعد فترةٍ وجيزة.

"لا أظنُّ ذلك، ليس بصفةٍ دائمة. أحبُّ أن أعيش في مكانٍ غير مألوفٍ بالنسبة إليَّ، مثل لندن أو برلين، مع العلم أنَّني ينبغي أن أتزوَّج كي أحصل على جوازِ سفرٍ أوروبيّ. أحسبُ أنَّ الوضع في أوروبًا أفضل من هنا إذا ما أردتُ المضيَّ قدمًا في مجال الفنون، وخاصَّة فيما يتعلَّق بالعلاقات المهنيَّة". خطر في ذهني ياغو، وسررتُ أنَّه لم يسمع أيًّا ممَّا قلتُ للتوّ.

"يبدو لي أنَّك أحسنُ حالًا في لودريتز"، قالَت، وأفرغت في كأسها ما تبقَّى في زجاجة النبيذ.

"لا أحد يتدخَّل بشؤوني هُنا، هذا صحيح. كما أنَّه لا داعي للقلق بشأن المنافَسة؛ فليس هنالك تقريبًا أيُّ صنَّاع أفلام من ناميبيا غيري، فضلًا عن أنَّ في جعبة هذه البلاد حكاياتٍ لا حصر لها. لكن، وبصراحة، المال شحيحٌ هنا. المال أكبر مشكلةٍ لديّ. علاوةً على أنَّه الجمهور قليل أيضًا.. ربَّما ما كان ينبغي أن أتذمَّر".

"المكان هنا هادئ للغاية"، قال ويل. "أكاد أشعر أنَّ هذا المكانَ

يحبس أنفاسه؛ كما لو أنَّه يترقَّبُ حدوث شيءٍ ما".

"وهذا جزءٌ من المشكلة"، قلتُ قبل أن أجلس مجدَّدًا.

"ناميبيا رائعة"، قال. "بلادٌ مُسالِمة.. آمِنة.. مثل رُقعةٍ فارغة.. لكنَّها تجعلني أشعر أحيانًا ببعض الضيق".

ذهبت أماندا إلى المطبخ لجلب زجاجة نبيذٍ أخرى بعد أن شعرت على الأرجح بأنَّني على وشك طلب ذلك من شقيقتي. نهضَ ويل وجلس على مقربةٍ من النار ومنِّي. فعلى على الرغم من أنَّ المنزل كان يحجب عنَّا الرياح، إلَّا أنَّ الهواء كان باردًا. تغطّى ويل ببطانيَّةٍ وأمال رأسه إلى الوراء في كرسيّه كي يستطيع النظر إلى سماء الليل بصورة أفضل.

قرَّرتُ ألَّا أسأله عن الموضوع الذي كان يريد الحديث معي بشأنه، خشية أن أثير مخاوفه. فالناسُ، وبحكم تجربني، يُفشون أسرارهم دائمًا إذا ما عوملوا بلطفٍ واهتمامٍ غير مباشر.

"أخبرتني لوسيًا عن أفلامك الوثائقيَّة بصدد الفصل العنصريّ"، قال.

"لديَّ فيلمٌ وثائقيٌّ واحدٌ فحسب؛ طفلي الوحيد. لكنَّني أعملُ حاليًا على الطفل الثاني".

"وهل حقَّق طفلك البكر أرباحًا وفيرة؟"

"عملي مموَّلٌ ذاتيًا، وربَّما هي طريقةٌ أخرى للإجابة على سؤالك بلا. لقد اخترتُ لنفسي مهنةً عالية المخاطر منخفضة العوائد، للأسف. لكنَّني أعوِّضُ ما أُنفِقهُ بفضل مشاريع صغيرة على غرار حفلات الزفاف، وأمور من هذا القبيل". لم أخُض في تفاصيل أيٍّ من المنحة التي حصلتُ عليها قبل بضع سنوات، أو ما تغدقه

عليَّ شقيقتي من سخائها. وبدلًا من ذلك، عدتُ إلى حيث الشوَّاية ومددتُ راحة يدي فوق شبكتها لأقيس درجة الحرارة. ارتفع صوت المذياع في المطبخ عمَّا كان عليه.

قُلت: "هل تمانع أن نتحدَّث في موضوع آخر؟ كنت أعمل على حاسوبي طوال اليوم، وأشعرُ أنَّ دماغي على وشك..."

"الانفجار؟"

"أجل، أظنُّ ذلك. إذًا، ماذا تفعلُ في لودريتز؟"

"أعتقدُ أنَّني جئت إلى هُنا كي أغيِّرَ العالم"، قال ضاحكًا، "أو جزءًا صغيرًا منه.."، وخفَتَ صوتُه بسبب تقرير أخبار يُشتِّتُ الانتباه. "يبدو أنَّ خطبًا ما قد حدث، أليس كذلك؟"

كانت أماندا تغطِّي فمها بيدها حينما دخلنا إلى المطبخ.

"لقد ضربوا باريس مرَّةً أخرى"، قالت.

بدأ ويل بطرح الأسئلة، لكنَّها أسكتته لأنَّ المراسل كان لا يزال يتحدَّث. لم تُعلِن أيُّ جهةٍ مسؤوليَّتها عن الانفجار. قُتِل أناسُ كثر. أربعة أشخاص.. بل خمسةٌ تأكَّد مقتلهم.. من المتوقَّع أن ترتفع حصيلة القتلى.. وصل أفراد الشرطة إلى موقع الانفجار.

"هل ذكروا أين حدث ذلك؟" قال ويل بمجرَّد أن أتاح المراسلُ له فرصة للكلام.

"ساحة الجمهوريَّة".

"وأيُّ أماكن أخرى؟"

"لا ندري بعد".

"ها نحنُ نعود إلى هذا من جديد..."

"لا أستطيع تصديق ما يحدث"، قالت شقيقتي.

واصل المذياع بثُّ ما استجدَّ من أنباء، وفي نهاية المطاف أخفضت أماندا الصوت متذرِّعةً بأنَّهم يُكرِّرون الخبر نفسه. "لا أفهم تلك الرغبة في التدمير"، قالَت. "يجبُ أن يدفع الدينُ ثمن ما يجري".

"الدين؟" قال ويل.

"الدين مسؤولٌ تمامًا عن كلِّ ما يحدث هنالك. بيد أنَّ أفراد الشرطة سيقتلعونهم من جذورهم".

"تحكمُ البلدان الأوروبيَّة أنظمةٌ بوليسيَّة"، قال ويل لي. "إنَّ الحكومات هي أسُّ المشكلة. ليستَ المشكلة في متعصِّبٍ أو اثنين يقتل كلٌّ منهما نفسه مع حفنةٍ من الأشخاص غير المحظوظين. إنَّني أجد نفسي أكاد أشجِّعهم على الاستمرار في هذه التفجيرات إذا كان ذلك يعني سقوط تلك الحكومات".

"يا له من قولٍ مُعيب، يا ويل!" قالَت أماندا. "لا أصدِّقُ أنَّك تفوَّهتَ بهذا للتوّ".

"سيحرقون أوروبَّا على بكرة أبيها أيًّا كان ما أقول. إنَّ هذه.. كم مرَّةً حتَّى الآن؟ الرابعة في غضون أربعة أشهر؟"

"أظنُّ ذلك"، قُلت.

"أوروبَّا قارَّةٌ من الهمج، وإنَّه لمن الجيِّد أنَّنا هجرناها. الوضع هنالك مرعبٌ أكثر ممَّا تتخيَّل، يا هنري". أحسبُ أنَّهُ حرِص على توجيه كلامه لي مباشرةً لأنَّ زوجته كانت تتجاهله. "إنَّها مجرَّد مسألةُ وقتٍ فحسب قبل أن تندلع حربٌ أخرى. لكنَّها ستشملُ جميع من في المنطقة هذه المرَّة. ولا بدَّ أنَّ الشرق الأوسط

مكتبة ياسمين

سينضمُّ إلى المعركة في ظلّ بوجود العديد من أنظمة الاستبداد التي تحكمه. وهُنالك أيضًا مسيحيُّو أميركا المحافظون المشغولين طوال الوقت؛ صَّفاقٌ يستمنون داخل أقبيتهم المحصَّنة، وبُلهاءُ يحكمون البيت الأبيض. لا أدري... ستكون النتيجة غير سارَّةٍ كيفما قلَّبت فيها النظر. أنا سعيدٌ لأنَّنا استطعنا الرحيل عنها حينما أردنا ذلك".

"تقول هذا وكأنَّ المسألة كانت بيدك"، قالت أماندا.

لم يعد في وسع شقيقتي أن تنتظر أكثر. "أنا جاهزة"، قالت مُقاطِعة. "ابدأ الشواء من فضلك، يا هنري".

تواصل الجدال ما بين ويل وأماندا حين التقطتُ صينيَّةً معدنيَّةً مليئةً بجراد البحر المُتبَّل. وقبل أن أخرُج بها ذكرتُ لشقيقتي أنَّني سأعود إلى منزلي بعد تناول الطعام، فردَّت عليَّ بابتسامة. أسعدَني أنَّني تمكَّنتُ من إدخال بعض السرور إلى قلبها من خلال استضافتي أصدقاءها، لكن في الوقت ذاته لم أعدُ واثقًا من قدرتي على احتمال المزيد من فرط الحساسيَّة البريطانيّ. كنتُ بحاجةٍ إلى كامل نشاطي لأتابع العمل في صباح الغد على فيلم حفل زفاف تشزلي.

كان الزوجان البريطانيَّان قد توقَّفا عن الكلام بحلول الوقت الذي خرجتُ شقيقتي فيه تحمل الأواني الفخّاريَّة وسلَّة صغيرة تحتوي شرائح ليمون. تناولنا جراد البحر، كلٌّ منَّا في مكانه، مستمعين في تلك الأثناء إلى نشرة الأخبار. ارتفع حصيلة القتلى إلى أكثر من عشرة. تقول مصادر غير مؤكَّدةٍ إنَّ منفِّذ الهجوم من ضمن القتلى.

"جيِّد"، قالَت أماندا.

شرع ويل بالحديث على الرغم من أنَّ نشرة الأخبار لا تزال مستمرَّة. ولأنَّني لم أستطع التركيز على مصدرَي الصوت معًا، اخترتُ أن أركِّزَ على ما يقوله ويل. "إنَّ الغرب مُجبَرٌ على الاختيار ما بين الهمجيَّة والوحشيَّة، أو الحضارة. والأخيرةُ، كما تعلمون على الأرجح، هراءٌ مُطلَق، لذا لن يكون القرار صعبًا بالنسبة إلى بعض الناس، وأنا منهم"، قال.

"ماذا تعني؟" قُلت.

"النظام كلُّه بحاجة إلى إعادة تمهيد".

"بسبب إرهابيٍّ واحد؟" قالَت أماندا.

"لكنَّ المشكلة لا تكمنُ فيه"، قال ويل.

"أو فيها".

"أو فيها. بل بالحضارة؛ بالرأسماليَّة؛ بأوجُه عدم المساواة التي تُشكِّل أساس المجتمع. ولأنَّ الرأسماليَّة لا تفعل شيئًا للقضاء على هذه التفاوتات"، صحَّح لنفسه، "لن تفعل شيئًا أبدًا للقضاء عليها، فإنَّه يجب رمي الجمعيَّة بأكملها في سلَّة القمامة. وأيًّا كان ما يحدث، فسببه أنَّ الرأسماليَّة تقتضي الفقر وانعدام المساواة للدرجة التي تدفع الناس إلى محاولة نسف الدولة اللعينة عن آخرها. ومع ذلك، ها نحنُ نضرب الكفَّ بالكفِّ؛ كيفَ يُعقل أن يحدث هذا؟ ماذا يُريدون؟.. أليس من المحتمَل أن يُفضي الحرمان من الحقوق إلى السخط؟! إنَّ الرأسماليَّة، في صورتها الراهنة، مسؤولةٌ عن كلِّ ما يتعلَّق بهذا الهجوم. بيد أنَّنا نقبلُ الرأسماليَّة بلا شكٍّ أو تردُّد- على الأرجح لأنَّنا نحسَبُ أن لا أحد

منَّا معرَّضٌ للفقر؛ أنَّه يحلُّ فقط على غير المحظوظين، على الأجانب، على الكسالى..."

قاطعَتهُ أماندا، ثمّ ما لبث أن قاطعها. وهكذا استمرَّت المشاحنات بينهما إلى أن أغلقت المذياع.

"أظنُّ أنَّك اشتراكي، صحيح؟" قُلت له.

"كلَّا، قطعًا كلَّا".

"بمقدورك أن تُنظِّرَ قدر ما تشاء، يا ويل"، قالَت أماندا، "لكنَّ الإرهاب مرفوض".

"ربَّما..."

"كلَّا، مرفوض مُطلقًا".

"إذًا، اسمحي لي بصياغة المسألة على النحو الآتي"، قال، "في وسعي أن أفهم السبب الذي لأجله تريدنا البنية الفوقيَّة أن نعتقد أنَّ الإرهاب مرفوض، لكنَّني واثقٌ تمام الثقة أن أيًّا منَّا لم يتفاجَأ كثيرًا بحدوث ما حدث. إنَّه لمن الطبيعيِّ أن يتملَّكنا الفزع، لكن هل نحن متفاجئين حقًّا؟"

أذهلَني انعدامُ قدرته على قراءة مزاجنا؛ على الإحساس بالضيق الذي يعتري جمهوره. وشعرتُ أنَّه لا بدَّ سيكون مثيرًا للاهتمام تصوير فيلمٍ قصيرٍ عنه إذا ما تمكَّنتُ من إقناعه أن يسمح لي بتصويره. لطالما أردتُ صنع فيلم عن شخصٍ يؤمن أنَّه ملمٌّ بالعالم بأسره، شخصٍ مجنونٍ بعضَ الشيء، لكن لم يحدُث أن التقيتُ من قبل بالشخص المناسب، حتَّى هذه الليلة.

"ينبغي أن تُخبري هنري عن هارموني"، قالَت شقيقتي، أملًا بتحويل مجرى الحديث بعيدًا من موضوع الإرهاب.

وضعَت أماندا صحنها على الأرض. "هو أكبر بقليل من منتجع"، قالتَ بنبرة حادَّة بعض الشيء. "بضعة أفكار من أجل حياةٍ أفضل. كانت نيَّتي في الأصل أن..." توقَّفتْ برهة، كما لو أنَّ شيئًا شَّت انتباهها. "أنا آسفة. لقد نال منِّي الإرهاق".

أخبرني ويل، دون أن يطلب أحدٌ منه ذلك، عن قطعة الأرض التي تقع على مشارف لودريتز، على الطريق إلى دياز بوينت، حيثُ بدأوا ببناء المرحلة الأولى من هارموني. "لدينا حتَّى الآن صالة طعام- مساحة كبيرة يغمرها الضوء- وغرف للمعيشة. كما أنَّنا نزرع خضارنا بأنفسنا، ولدينا كهرباء ذاتيَّة".

"ربَّما بإمكانك زيارة المكان"، اقترحَت شقيقتي. "إنَّه رائع حقًّا".

"لقد سئمتُ الحياة كفأرٍ لندن"، قال ويل، مستغرقًا في التفكير. "كنتُ أستيقظُ قبل الساعة السادسة، وأهرع إلى قطار الأنفاق حيثُ أحشرُ نفسي داخل مركبة، وأصلُ إلى المكتب قبل شروق الشّمس..."

"هكذا الحال في الشتاء"، قاطعتهُ أماندا موضِّحة. "أمَّا في الصيف، فالشمس تشرُق قبل أن أغادر المنزل".

تابعَ ويل كلامه كما لو أنَّ أماندا لم تنبس ببنت شفة: "كنتُ أحدِّق في الشاشات.. أركضُ لتناول شطيرةٍ بين اجتماعٍ وآخر. وإذًا كنتُ محظوظًا، فإنَّني أعودُ إلى المنزل بحلول الساعة الثامنة أو التاسعة مساءً، مع الكثير من العمل غير المُنجَز، فأقضي المساءات في الردِّ على رسائل البريد الإلكترونيّ، أو مواصلة مع العمل على كلِّ ما لم يتسنَّ لي إنجازه خلال النهار. ناهيك عن الاجتماعات الهاتفيَّة المزعجة؛ سواءٌ في آخر ساعات الليل مع

عملاء في الولايات المتَّحدة، أو أوَّل ساعات الفجر مع عملاء في منطقة آسيا والمحيط الهادئ. ثمَّ يوقظني منبِّه اليوم التالي، فأجدُ نفسي أهرول مرَّةً أخرى. لقد قضيتُ في ذلك المكتب معظم عطلات نهاية الأسبوع. ما هكذا تُعاش الحياة، صحيح؟"

"لكن دعنا لا ننسى نشاطاتكِ خارج أوقات العمل"، قالَت أماندا. "إنَّه ليس من المفيد أن يُحمِّلَ المرء نفسه فوق طاقتها. أنا أيضًا كنتُ سألقي اللوم على عملٍ يبقيني مستيقظة طوال ساعات النهار إذا ما كنتُ أقضي الليل قبله في الشرب حتَّى الثمالة".

"لأنَّني كنتُ أفعل شيئًا أحتقِرُه يومًا بعد آخر من أجل أن أتدبَّر أمور المعيشة. كنت أجلسُ وراء مكتبٍ كاد أن يقتلني".

"بعض الأشخاص يستمتعون بالعمل المكتبيّ. كنتُ أحبُّ رؤية مرضاي".

"كنت أجلسُ وراء ذلك المكتب..."

"دعنا نتَّفق فقط على أنَّ الوقت قد حان من أجل التغيير". ثمَّ وجَّهت أماندا كلامها لي، قائلة: "لم يكنُ الميل المربَّع ملائمًا لشخصيَّة زوجي".

"حسنًا، يبدو أنَّكما اتَّخذتما القرار الصائب بمجيئكما إلى ناميبيا"، قلت. "بلادنا ليسَت روتينيَّة إلى هذه الدرجة".

"أنـتِ تصنعين تغييرًا من خلال عملك، أليس كذلك، يا لوس؟" قالَت أماندا لشقيقتي التي أحضرَت لنا بطَّانيَّات.

"أما من لفافة حشيشة الليلة؟" همستُ لشقيقتي عندما أعطيتني البطَّانيَّة. كنتُ بحاجةٍ إلى كلٍّ مُساعَدةٍ ممكِنة، لكنَّها تجاهلت سؤالي.

"لستُ متأكِّدةً من مدى الفارق الذي تصنعه منظَّمَتي"، قالَت لأماندا مُسلِّمة، "لكنَّني أحاول".

أشارَت أماندا إلى قراءتها في موضعٍ ما أنَّ أفضل وسيلةٍ للإصابة بخيبة الأمل من قطَّاع المؤسَّسات الخيريَّة هي أنَّ يعمل المرء في واحدةٍ منها. "هل تعتقدين أن ذلك صحيح، يا لوس؟"

استغلَّ ويل انشغالهما بالحديث ليفضي إليَّ بسرّ، وأخبرني أنَّه متوقِّفٌ عن تعاطي المخدِّرات منذ سنتين. تُرى هل سمع ما همستُه إلى لوسيًّا؟ ثمَّ أردف قائلًا إنَّ السبب الرئيسيَّ وراء انتقاله إلى ناميبيا هو الابتعاد عن التأثيرات السيِّئة في حياته. عند هذه اللحظة، أمسكت أماندا بيده دون أن تنظر إليه، فأمسكَ بدوره بيدها قبل أن يُعدِّل وضعيَّة جلوسه لئلَّا يعود بمقدورها أن تصلَ إليه.

"أدركتُ، عقب ليلةٍ جهنَّميَّةٍ، أنَّني كنتُ أتَّخذُ قرارات سيِّئة"، قال.

شغَّلت أماندا المذياع، كما لو كانت تريدُ إسكاتَه. تأكَّد مقتلُ أربعة أشخاصٍ آخرين لترتفع حصيلة القتلى إلى عشرين قتيلًا. يتلقَّى بعض الجرحى العلاجَ في موقع الحدث، في حين نُقِل آخرون إلى المستشفى.

"وصلتُ إلى مرحلةٍ هجرتُ فيها عملي وأوشكت على تدمير علاقتنا"، قال ويل، مُتجاهلًا الأخبار التي تبثُّها الإذاعة.

نهضَت أماندا ودخلَت المنزل.

"أنتِ من أنقذني، يا جميلتي..."، قال، لكنَّها لم تعد تجلس بجانبه. فأضاف، خافضًا صوته إلى همس: "كان يمكن أن أكون

في عِداد الموتى". بعد ذلك هدَّأ من روعه، وقال: "لو سألَت أماندا لأخبرتكَ إلى أيِّ درجةٍ كنت تعيسًا في السابق. كما لو أنَّني نجوتُ من حادثة تحطُّم طائرة؛ كنتُ فيها الطائرة نفسها! بيد أنَّني خرجتُ سليمًا بأعجوبةٍ عدا بعض الخدوش، والفضل كلُّه في ذلك لأماندا. لكن لديَّ من الإدراك ما يكفي لمعرفة أنَّني قد لا أكون محظوظًا إلى هذا الحدِّ في المرَّة القادمة.

اسمَع، إنَّني على علمٍ أنَّ ما سأقوله قد يبدو مُبتذلًا، لكنَّني أؤمنُ بصدقٍ أنَّ هنالك خطَّةً لكلِّ شيء. لقد وضعَت أماندا قدميها على هذه الأرض وقالت إنَّه كان يتعيَّن عليها الرحيل عن لندن، بعيدًا من الوضع الكارثيِّ الذي وصلتُ إليه. ومع أنَّنا لم ندرك كلانا ما كان يحدث حينئذٍ، إلَّا أنَّ أماندا كانت تقودنا إلى هُنا. عندما طُرِدتُ من عملي، وجَّهَت لي إنذارًا نهائيًا: اصنع شيئًا ذا قيمةٍ في حياتك، أو اخرُج من حياتي. وهذا هو السبب تقريبًا وراء مجيئنا إلى لودريتز وكلِّ ما نصنعه هُنا".

كانت رغبته في الحديث بهذه الصراحة بشارة خيرٍ إذا ما قرَّرنا صناعة فيلمٍ عنه.

"أخبرتنا شقيقتك أنَّك مُخرِج"، قالَت أماندا، بعد أن أقنعها كلٌّ من ويل ولوسيَّا بالخروج مرَّةً أخرى. تغيَّرَ موضوع الحديث بصورةٍ رسميَّة.

"مُخرِجُ أفلامٍ وثائقيَّة"، قُلت.

"حسنًا، يا له من أمرٍ مذهل!" قالَت. انتظرتُ لأرى ما إذا كانت ستطرح سؤالًا آخر، لكنَّها لم تُضِف سوى أنَّ ويل يعرفُ عددًا من المُخرِجين المحترفين في لندن". نظر إليها حينما سمع اسمه،

بيد أنَّه لم يجرؤ على الكلام. ثمَّ، عودةً إليَّ، قالَت: "قالت لوسيًّا إنَّك أخرجت فيلمًا وثائقيًّا عن الفصل العنصريّ".

"أجل، عن رئيس الوزراء فيرورد[1]، مهندس الفصل العنصريّ".

"أعتقدُ أنَّ لديَّ نسخةً من الفيلم هُنا في المنزل"، قالت شقيقتي .

"هل بإمكاننا مشاهدته الليلة؟" سألَت أماندا.

"أجل، ما المانع؟" قال ويل.

كنت جالسًا أضعُ ساقًا فوق الأخرى باسترخاء، لكن شعرتُ بأنَّ جلدي غارقٌ بالعرق لدرجة أنَّ ساقي العليا انزلقَت عن السفلى وسمعنا جميعًا صوت خبط قدَمي على الأرض.

"كلَّا"، قُلت، وهززتُ رأسي لشقيقتي ألَّا تفعل.

بدأت أماند تلحُّ على مشاهدة الفيلم معًا. "سوف يزيحُ تفكيرنا عمَّا حدث الليلة"، قالَت، ولم أدرِ ما إذا كانت تقصدُ بذلك باريس أو زوجها.

تواصلت مناشدات الزوجين البريطانيَّين إلى أن توقَّفتُ عن الاعتراض. وصار ويل يرغب بمعرفة كلِّ شــيءٍ عن رئيس وزراء جنوب أفريقيا المُغتال، وأخذ يمطرني بأسئلةٍ كثيرة حتَّى حسمَت أماند الأمر بصدد بأنَّنا سنشاهد الفيلم.

أخرجنا أريكةً من الداخل عبر بابٍ مُنزلقٍ إلى منطقة الشواء. (لم نغامر بتحريك الأريكة الثانية لأنَّ إحدى قوائمها كانت

---

1 هندريك فرِنش فيرورد (1901-1966): رئيس الوزراء السادس لجمهوريَّة جنوب أفريقيا، معروف على نطاق واسع بوصفه مهندس الفصل العنصريّ. م.

مكسورة). جلسَ ويل ما بين أماندا ولوسيًّا، في حين عدتُ إلى كرسيِّ البلاستيكيّ.

ضغطَت لوسيًّا زر التشغيل، فإذا بجولي آندروز[1] تركضُ في سالزبورغ برداء راهبةٍ وبرفقتها سبعة أطفالٍ، كلُّهم على الجدار الأبيض فوق الشوَّاية. صدح صوتُ الأغنية المألوفة من مكبِّرات الصوت التي كان شين قد وضعها داخل أقفاص معدنيَّةٍ لحمايتها من الطقس السيِّئ والسرقة.

"بدايةٌ آسِرة"، قالَت أماندا، تهكُّمًا، على ما أظنّ.

"لم تسمح ميزانيَّتي بالتعاقد مع نجماتٍ من هوليوود، للأسف..."

قاطعَتني لوسيًّا حينما أوقفت تشغيل الفيلم وتحوَّلَ لون الشاشة إلى أزرق: "أعتذر عن الخطأ. لا بدَّ أنَّه فيلمٌ من المجموعة الخاصَّة بنادي مشاهدة الأفلام".

بالكاد أخفى ويل سعادته عندما قالت أماندا: "يبدو بوضوحٍ إذًا أنَّني لم أستطع تمييز أن ما عُرِض للتوِّ كان من فيلم صوت الموسيقا، أليس كذلك؟"

وضعَت لوسيًّا القرص الرقميَّ المحمَّل بفيلم اغتيال الفصل العنصريّ، قبل أن تعود إلى مكانها بجوار ويل.

كان فيلمي فظيعًا. مجموعة حلولٍ توفيقيَّةٍ وقراراتٍ سيِّئة. كان مثل طفلٍ غير محبوبٍ أو مرغوبٍ فيه. آلمَني وجهي لشدَّة ما شعرت به من خزي. انقضى الكثير من الوقت منذ آخر

---

1 جولي آندروز: ممثِّلة ومغنِّية ومؤلِّفة بريطانيَّة. م.

مرَّةٍ شاهدت الفيلم فيها، ولم أعد الآن قادرًا على التركيز على اللقطات المعروضة بسبب اللكنة الأميركيَّة التي غاب عن ذهني أنَّني استخدمتُها في تسجيل تعليقي الصوتيّ. حينئذٍ كنت أعتقد أنَّ ذلك سيكون عاملًا جوهريًّا في تسويق فيلمي الوثائقيّ داخل الولايات المتَّحدة. كان سماعُ كلٍّ من خنخنتي وطريقة نطقي لحرفِ الراء بفمٍّ مُدوَّر أمرًا لا يُطاق.

كانت الترجمة إلى الألمانيَّة هي الجزء الوحيد الذي لم أتدَّخل فيه؛ أي الشيء الوحيد الذي لم أتعذَّب بسببه. لذا ركَّزتُ انتباهي على النصّ الأبيض الظاهر في أسفل الشاشة- تلك النقوش الغريبة- إذ لم يكن بمقدوري أن أحتمل رؤية أيٍّ شيءٍ آخر سوى الكلمات. كان فيلمي قد حصل، بفضل أعجوبةٍ ما، على عرضٍ محدودٍ على واحدةٍ من الشبكات الأميركيَّة المحليَّة بعد أن وقع الاختيار عليه أثناء مهرجان للأفلام، لكنَّه لم يكتسِب زخمًا- متواضعًا، حتّى بمعايير الأفلام الوثائقيَّة- إلَّا في السوقَين الألمانيَّة والسويسريَّة؛ وكان هذا سبب حصول لوسيًّا على نسخةٍ من الفيلم مترجمةٍ إلى الألمانيَّة. دار حديثٌ وقتها أيضًا بصدد دعوتي للسفر إلى أوروبًّا، لكنَّه لم يسفر عن شيء.

كنت قد حضرتُ في مهرجان غراهام تاون السينمائيّ، قبل بداية العمل على صناعة الفيلم، محاضرةً لمخرجةٍ أرجنتينيَّةٍ ذكرَت فيها أنَّها تنتقي دائمًا لوحةً فنيَّةً لتسترشد بها أثناء انشغالها بصناعة فيلمٍ وثائقيّ. قالَت إنَّها اختارَت لوحة المرأة الباكية لبيكاسو لإثراء تحضيراتها عملًا عن ثلاث أمَّهات فقدنَ أطفالهنّ. تذكَّرتُ نصيحتها مرّتين، الأولى عندما شرعت بإجراء الأبحاث بصدد رئيس الوزراء فيرورد، والثانية عندما أوشكتُ على التخلّي

مكتبة ياسمين

عن المشروع برمَّته بعد أن صار ينذر بالتحوُّل إلى مهمَّةٍ أشدّ ترهيبًا وصعوبةً بكثير ممَّا كنتُ أتصوَّر. وخلال نوبةٍ طويلةٍ من التسويف وجلد الذات، شاهدتُ تقريرًا عن استثمارات البنك الألمانيّ يتضمَّنُ واحدةً من لوحات فرانسيس بيكون[1] التي تُصوِّرُ البابا صارخًا. جسَّدت تلك اللوحة جوهر ما كنتُ أحاول أن أعرِضَه على الشاشة: كان قُبحُ فيرورد هو نفسه بابا بيكون.

توطَّدَ هذا الإحساس داخل مشروعي، وعلى الرغم من أنَّ التردُّد والقلق لم يفارقاني قطّ- مثلما يبدو جليًّا الليلة- إلَّا أنَّني شعرتُ بما يكفي من الثقة لأباشر التصوير. فاستعنتُ بمجموعة ألوانٍ مماثلةٍ لألوان لوحة بيكون كلَّما أمكن، وصوَّرت الأشخاص الذي قابلتُهم بلقطاتٍ واسعةٍ كي تُكافئ الأبعاد في فيلمي نظيراتها في اللوحة. وأمَّا في مرحلة ما بعد الإنتاج، فقد أثَّر بيكون على قراري بصدد جعل حركة شارة البداية لتبدو كما لو أنَّها تَقطُر على الشاشة، في محاكاةٍ للطخات ذهبيَّة اللون في لوحته.

أمسكَت أماندا بيد ويل اليسرى مجدَّدًا، في حين أرخى يُمناه على الأريكة بجانب فخذ شقيقتي، والذي كان يلمسه بأصابعه بين حينٍ وآخر. ربَّما ليست غاياته الخيريَّة السببَ الوحيد وراء انتقاله إلى ناميبيا.

انتبَهت شقيقتي أنَّني أراقبهم. ووضع ويل يُمناه في حجره. أمَّا أماندا، فكانت تُحدِّق إلى الأمام، ولم تُفلت يد ويل اليسرى، لكنَّها تحرَّكت قليلًا حينما تثاءبَت.

"ليس من عادتي الذهاب إلى السينما"، قالَت، بعد انقضاء

---

1 فرانسيس بيكون (1909-1992): رسَّام بريطانيّ من أصل أيرلنديّ. م.

اثنتين وثمانين دقيقةً وسبع عشرة ثانية. "لقد ذكَّرني فيلمك بذلك الوثائقيّ الرائع الذي شاهدناه في لندن عن قصَّة حياة نلسون مانديلّا- ذلك الفيلم الذي حصد كلَّ الجوائز. سمعتُ أنَّ لدى مخرِجه فيلم جديد سيُعرَض قريبًا، إن لم أكن مخطئة".

"لا أدري"، قُلت. لم أعد واثقًا من أنَّ ويل سيسمح لي بتصويره بعد أن شاهد فيلمي الكارثيّ الليلة. "ربَّما من الأفضل أن أغادر..."

"هل تُحضِّر لفيلم جديد في هذه الفترة؟" سأل ويل.

"هل فكَّرتَ يومًا في رسومات سان[1]؟" سألَت أماندا مقاطِعة. "كم أحبُّ أن أرها؛ وأن أشاهد فيلمًا عنها!"

لم يُظهِرا أيَّ حماسةٍ بصدد الحديث عن فيلمي، لكن، من ناحيةٍ أخرى، بدا أنَّ تلك التجربة لم تُثِر هلع أيٍّ منهما أيضًا، على عكس ما فعلته بي.

هدَّأتُ نفسي، وعلى نحوٍ لا يخلو من التهكُّم، شرعت أشرحُ عن مجموعة المعدّات العجيبة التي تلزم لتصوير فيلم عن النقوش الصخريَّة لأن الجمهور لن يشعر بالرضا ما لم يكن الفيلم بالتصوير المُجسَّم ثلاثيّ الأبعاد، أو- لا أدري- ربَّما بتقنيَّة لم تُختَرَع بعدُ تكون دقَّة الصورة فيها أعلى من نظيرتها في شبكَّة العين البشريَّة. بيت القصيد هُنا هو أنَّني لا أستطع تحمُّل هكذا تكلفة. ناهيك عن مسألة الأذونات والتراخيص المطلوبة؛ فمعظم مواقع التصوير على أراضٍ خاصَّة، وسأحتاج إلى موافقة كلٍّ من

---

1 شعب سان (أو بوشمِن): مجموعة عرقيّة يتواجد معظم أفرادها في صحراء كالاهاري ما بين ناميبيا وبواتسوانا. يُعتقد أنّهم من أقدم الجماعات البشريّة التي تعيش بأسلوب الصيد وجمع الثمار على وجه الأرض. يشتهر البوشمِن بنقوشهم الصخريّة المذهلة التي يعود بعضها إلى ما يزيد عن 70 ألف سنة. م.

المزارعين وزعماء القبائل والحكومات المحليَّة. وفي اللحظة التي سيسمعُ أولئك أنَّني أصنع فيلمًا، سيعتقدون جميعًا أنَّني هوليوود قادمة، وسيطلبون في المقابل الكثير من المال... وسرعان ما ستتحوَّل مونيكا إلى مونيكا لوينسكي. وحتَّى لو دفعتُ للجميع، وحصلتُ على الأذونات والتراخيص المطلوبة، فإنَّه يظلُّ ينبغي أن أنقل المعدَّات عبر أميال من السهوب وفوق الجبال. كلَّا، إنَّه أمرٌ في غاية الصعوبة...

"إذا خطَّطتَ لكلّ شيءٍ قبل البدء"، قال ويل ناصحًا، "وطالما أنَّ معادلتــك الفيلميَّــة مرسومةٌ بطريقةٍ صحيحة، فإنَّك سيكون في وسعك تقدير حجم كلٍّ من المال والجهد اللذين سيتطلَّبهما تصوير النقوش الصخريَّة، وذلك ضمن قدرٍ معقولٍ من الدقَّة".

معادلتي الفيلميَّة؟ "إنَّ صناعة الأفلام الوثائقيَّة تميل عادةً إلى أن تكون أكثر فوضويَّةً بقليل ممَّا وصفت"، قلت.

"لديَّ سؤالٌ عن فيلمك؟" قالَت أماندا. "لم أفهم تمامًا ما كان يحدث داخل مبنى البرلمان. هل كان القصد أنَّ ذلك هو رئيس الوزراء يخطو جيئة وذهابًا في تلك الأروقة؟"

"لا شكَّ أنَّ ذلك يُعبِّر عن حالة الوهم التي استولَت على عقله، صحيح؟" قال ويل.

فسَّرتُ لهما أنّني كنت أرغب بإظهار منظور القاتل قُبيل طعن رئيس الوزراء مباشرة.

"ربَّما كان عليك الاستعانة بممثِّلين في تصوير الجريمة"، قالَت أماندا. "أقصدُ لتوضيح الأمور. لا أقول هذا من باب النقد، لكن مرَّت أوقات لم أكن واثقةً فيها تمامًا ممَّا كان يحدث. لكن قد

مكتبة ياسمين

تكون تلك مشكلتي وحدي فحسب". أرادت أن تعرف المزيد عن السجّادة البرلمانيَّة التي استمرَّ استخدامُها في القاعة الرئيسيَّة طوال عقود بعد مقتل رئيس الوزراء، على الرغم من أنَّها كانت مُلطَّخة بدمه. "أتقصدُ أنَّه كان بمقدور الجميع رؤية بقع الدم تلك؟"

"أجل، في حال كانوا يعرفون أين ينظرون. حينئذٍ قرَّر الحزب الوطنيُّ إبقاءها لأنَّهم أرادوا ما يُذكِّر بمقتل زعيمهم؛ كانت بمثابة كفن تورينو[1] بالنسبة إليهم. كانت سجَّادة الفصل العنصريِّ خاصَّتهم. لم يكن في نيَّتهم أن يصفحوا أو ينسوا".

"هذا جنون".

"كان عصرًا جنونيًّا"، قالت لوسيًّا.

"وتلك السجَّادة تُبرِّرُ تشخيصكم بالجنون"، قال ويل. "لعلَّ الاستجابة العقلانيَّة الوحيدة لموقفٍ مضطربٍ كهذا هي استجابةٌ غير عقلانيَّة".

"ماذا تقصد؟" سألت.

"دعني أفكِّر... ربَّما شيءٌ من قبيل إجهاض الجنين من أجل تجنيبه مَشاقَّ الحياة طفلًا".

"يا للهول، ويل!" قالَت أماندا. "أخبرني، يا هنري، لماذا قُلتَ إنَّ الجميع افترضوا أنَّ القاتل من كيب تاون؟"

---

1 كفن تورينو: قطعة قماش من الكتَّان كان يُعتقد أنَّها كانت كفنًا للمسيح، موجودة في كنيسة تورينو بإيطاليا منذ سنة 1578. م.

مكتبة ياسمين

"عقب الجريمة، سلَّمت الصحافة جدلًا بأنَّ تسافينداس[1] من مُلوَّني[2] العاصمة كيب". حينما قلتُ كلمة "مُلوَّني"، هزَّت أماندا رأسها بصورةٍ طفيفة وكأنَّها تعرَّضَت لصعقةٍ كهربائيَّة. "كان والدُه يونانيًا ووالدته مُلوَّنة"، تابعت الكلام متجاهلًا ردَّ فعلها. "وبالنسبة إلى الجنوب أفريقيِّين في ذلك الوقت، فإنَّ كون المرء ملوَّنًا يعني أنَّه من كيب. لكنَّ الرجل كان من موزمبيق".

"تقصدُ أن تقول من عرقٍ مُختلط، أليس كذلك؟" قالَت، مُتشوِّقةً أن تُصحّح كلامي.

"نحنُ جميعًا من عِرقٍ مختلط".

"ماذا تقصد؟"

"لا أريُد إثارة أيِّ حساسيَّةٍ هُنا، لكنَّني لا أستخدمُ مصطلح العرق المختلط لكونه ينطوي على أن هنالك مجموعةً مختلطة، وأخرى صافية عرقيًا، وهذا محض هراء! وكذلك الأمر بالنسبة إلى مصطلح ثنائيَّة العرق. أنا ضدَّ الإساءة إلى أيٍّ كان، بيد أنَّ تلك المفردات ليست سوى تجميعاتٍ مُريحة؛ وخاطئة أيضًا". لقد حضرتُ إلى منزل النخلتين التوأم أملًا في قضاء أمسيةٍ هانئةٍ

---

1 ديمتري تسافينداس (1918-1999): ناشط سياسيّ يونانيّ-موزمبيقيّ كان يعمل ساعيًا برلمانيًا في جنوب أفريقيا. اغتال تسافينداس رئيس الوزراء هندريك فيرورد طعنًا خلال جلسة للبرلمان في كيب تاون، في السادس من أيلول 1966. م.

2 المقصود بالملوَّنين في هذا السياق Cape Coloureds، وهو تصنيف عرقيّ لمجموعة إثنيَّة مُتعدِّدة الأعراق، وواحدة من أربع مجموعات عرقيَّة في جنوب أفريقيا خلال حقبة الفصل العنصريّ. في حين يعتبر مصطلح Coloured في جنوب أفريقيا توصيفًا مُحايدًا، إلَّا أنَّه في أميركا والمملكة المتَّحدة ذو دلالةٍ تحقيريَّة إلى حدٍّ بعيد. م.

بصحبة شقيقتي، لكن انتهى بي المطاف عالقًا في محادثةٍ عن العرق. "حسنًا، تأخَّر الوقت ولا بدَّ أن أذهب إلى منزلي". لم يعترِض أحد.

كنتُ في الحمَّام، أجمعُ ملابس السباحة، حينما لحقَت شقيقتي بي.

قالَت، مُعتذِرة: "لم أتوقَّع أنَّهما سيصَّران على مشاهدة فيلمك ".

"لا بأس. لقد نجوت".

"لا يزال يُعجبني، حقًّا".

بذلتُ قصارى جهدي كي أبتسم. "اسمعي، هل بإمكانك أن تعطيني بعض الحشيشة؟ لقد نفذ ما لديّ".

"لا أدري كم تبَّقى في خزانتي".

"لا مشكلة إذًا".

"كلَّا، انتظِر وسأحضرُ لك". كانت على وشك الذهاب قبل أن تُغيِّر رأيها. "أعطِني مِنشفتك. سأقابلك عند الباب الأماميّ".

عندما وصلتُ إلى آخر الممرّ، سمعتُ أماندا تخُبر ويل أنَّها لم تستطع التركيز على مشاهدة الفيلم. ثمَّ امتنعَت عن الكلام بمُجرَّد أن رأتني.

انضمَّت شقيقتي إلينا تحمل المنشفة التي لفَّتها حول المُهرَّبات لإخفائها. عرضَ ويل أن يتمشَّى معي وصولًا إلى المخرَج.

في الشارع المفتوح، جلبَت الرياح الجنوبيَّة الغربيَّة عاصفةً عبثَت برؤوس النخيل وكأنَّها كُرات ريشة. وخلفها بدت أماندا وشقيقتي كخيالي ظلٍّ عند مدخل المنزل.

بدأ ويل الكلام، لكن بالكاد استطعت سماعه ما يقول بسبب الرياح، فاقتربتُ منه. قال: "كان فيلمك الوثائقيّ غايةً في الروعة".

ساورني شكٌّ إزاء صدق قوله، ولا سيما بعد ذلك التعليق من أماندا، لكنَّني شكرتُه على أيِّ حال.

"لم أكُن أعني ما قلتُهُ بصدد عدم الاكتراث بالإرهاب"، قال.

"لا تقلق بشأن ذلك".

ثمَّ أمسك بذرعي، وأضاف: "كنتُ أتساءل عمَّا إذا كان من الممكن أن أتحدَّث إليك قليلًا. إنَّه اقتراح شقيقتك، هذا كلُّ ما في الأمر".

"أليس من الأفضل تأجيل هذا إلى يوم غد؟" قلت، ليس بسبب أنَّه كان يرتدي قميصًا لا يقي البرد فحسب، لكن لأنَّني أردتُ العودة إلى منزلي.

"الطقس باردٌ نوعًا ما، لكن لا بأس. ما أحاولُ قوله هُنا هو أنَّني آملُ أن أقنعك بالمشاركة في مشروعٍ لي. الموضوع على الشكل الآتي: إنَّني بصدد تحضير كلمةٍ موجزةٍ ألقيها أمام لمجموعتي- أقصد مجموعتنا- لكن أحسَبُ أنَّه ليس لديك وقتٌ كافٍ لمراجعة ما كتبت، أليس كذلك؟ أنا على ثقةٍ من أنَّها بحاجةٍ إلى جهدٍ كبيرٍ على صعيد التحرير، وهذه ملكةٌ لا أجيدها أبدًا".

"هل تريد أن ألقي نظرةٍ عليها؟"

"أجل، أجل. لكن فقط إن لم يكن لديك مانع، وبحسب ما

يتيحه لك وقتك، بالطبع".

"والقصدُ من هذه الكلمة هو..."

"حسنًا، إلى مجموعتي، على ما أعتقد. لا؟ تريد أن تسأل عن موضوعها؟ في هذه الحالة، هو تجربتي الشخصيَّة مع التنوير الراديكاليّ، وأفكاري بصدد هارموني. ستكون أقربَ إلى محاضرةٍ قصيرةٍ من عرضٍ تعريفيّ. لكن إياك والقول إنَّني لم أحذِّركَ مُسبقًا من نزعاتي النرجسيَّة".

"حسنًا".

"ماذا؟"

"سأفعل ذلك. سأراجع كلمتك".

"أحقًّا تقول؟!" ومال نحوي كي يُعانقني.

والآن حان دوره لردِّ الجميل.

"لديَّ فكرة"، قُلت.

أطلقَ سراحي من عناقه.

"إذا صوَّر شخصٌ ما محاضرتك، فسيصيرُ لديك تسجيلٌ لها تحتفظَ به".

"وهذا الـ (شخص) هو أنت، صحيح؟"

"ولم لا؟"

"لا يبدو لي أنَّ التوقيت الحالي مناسبٌ للخوض بمزيدٍ من التفاصيل عمَّا يدور في ذهني".

ثمَّة وجاهةٌ فيما ذكر إذ ليسَت الظروف مثاليَّةً بعد أن تجاوز الوقت منتصف الليل، والريح تعصف بنا من كلِّ اتِّجاه. لو كانت

لديَّ ذرَّة إحساس بالمسؤوليّة، لكنتُ الآن نائمًا في سريري؛ خاصَّةً وأنَّ عليَّ متابعة العمل غدًا على حفل زفاف تشزلي.

"جَرِّبني"، قلتُ، مُحاولًا إظهار أكبر قدرٍ ممكنٍ من الاهتمام لأنَّني ما زلتُ، في قرارة نفسي، أظنُّ أنَّ هذه الأمسية قبل انقضائها إلى مكاسب غير مُتوقَّعة.

"إنَّني أؤمنُ أنَّ حضارتنا مؤسَّسةٌ مغرورة"، قال. "وهي غير مستعدَّةٍ للتسامح مع أيِّ تساؤلاتٍ بصدد بُناها البالية".

لو كنت أحمل كاميرتي، لاقترحتُ عليه أن نعود إلى المنزل مرَّةً أخرى لكي يخبرني بكلِّ ما يرُيد قوله، وذلك على الرغم من الإرهاق والبرد اللذين أشعر بهما. يا إلهي! لو قُدِّر حدوث هذا، فلأجعلنَّه يتحدَّث إلى أن تنفذ الطاقة في بطَّاريات الكاميرا.

"أريدُ بناء مجتمعٍ أفراده جميعًا متحفِّزون للعمل"، قال، مكتسِبًا بعض الزخم، "يحفِزهم كلٌّ من التنافس وتقدير الذات؛ مجتمعٍ يُقرُّ بدوافعنا وأهوائنا بصدد الثروة والمتعة". بدا وكأنَّه في أفضل حالاته. "لعلَّك لا تزال تعتقد أنَّني ماضٍ في درب الاشتراكيَّة، صحيح؟ إنَّ الجميع، بصرف النظر عن طبقاتهم أو فرصهم أو تعليمهم أو ظروف تنشئتهم، يستحقُّون العيش في ظلِّ بُنيةٍ فوقيَّةٍ تستوعبُ رغبتهم في تحقيق الربح، وحاجتهم إلى اللذَّة الحسيَّة. وبصريح العبارة: يجب على المجتمع أن يفعل كلَّ ما يستطيع في سبيل تشجيعنا على كسب المال وممارسة الجنس؛ هذا هو قانون الجذب العاطفيّ الذي أعتقد به شخصيًّا. ولا أظنُّك ستستغرب في حال أخبرتُك أنَّني أؤمن بأنَّ هذه الحضارة تُقيِّدُ رغباتنا وتحبطها. هذا ما يفضي بأحدهم إلى تفجير ساحة الجمهوريَّة أو عمود يوليو أو غير ذلك. إنَّها حضارةٌ

تستفيدُ من التعاسة؛ حضارةٌ قائمةٌ على الفقر والفاقة والحرمان من الحقوق؛ قائمةٌ على أُسِّ الشرور جميعها، ألا وهو الإحبـاط".

ظلَّ ويل يعبث بخاتم زواجه أثناء كلامه؛ كان يلفُّه حول أصبعه وكأنَّه يُدوِّر غطاء زجاجة، ويخلعه بين حينٍ وآخر. وكان كلَّما لاحظَ أنَّ تلك الحركة تُشتِّتُ انتباهي، أعاد خاتمه الذهبيَّ إلى مكانه وفرك يديه ببعضهما كما لو أنَّه يُدفِّئ نفسه. لكن سرعان ما كان يعاود العبث به مرَّةً أخرى وهكذا.

"لا بدَّ لي من تصوير هذا"، قُلت. "ليس الآن، لكن قريبًا.. من أجل مجموعتك، ولنشره عبر شبكات التواصل الاجتماعيّ".

"أتعتقد ذلك؟"

"بالتأكيد".

"هل تظنّ أنَّ عليَّ نشر مثل هذا الكلام عبر شبكات التواصل الاجتماعيّ؟"

"بمقدورنا بالطبع أن نُعطِّل خاصيَّة التعليقات في حال كان ذلك ما يُقلقك".

"حقًّا؟ ولأيِّ سببٍ قد أفعلُ شيئًا مثل هذا؟"

"مقصدُ كلامي أنَّه ينبغي عليك إتاحة فرصة التعرُّف على أفكارك لأكبر عددٍ من الناس".

"أجل، معك حقّ. لكن هل تعتقدُ بصدقٍ أنَّ هذا الموضوع قد يثير اهتمامهم؟ كنتُ أرغب أن أعرض عليك بعض المال لقاء مساعدتي على تحرير النصّ، لكنَّ اقتراحَك سيغيِّرُ المشروع كليًّا".

"للأفضل، صحيح؟"

"أجل، للأفضل".

مكتبة ياسمين

"وهل سيكون في وسعك أن تدفع لي أجرًا مقابل وقتي؟"

"لا شكَّ في ذلك. سأدفع لك مقابل وقتك ومعدَّاتك وكلّ شيءٍ من هذا القبيل. هذا أمر محتوم. وربَّما سيكون في استطاعتي أن أساعدك بوسائل أخرى أيضًا. لديَّ صديقةٌ تُشرِف على كلِّ ما يحدث خلف كواليس مهرجان شيفيلد للأفلام الوثائقيَّة. وأنا واثق من أنَّها ستكون مسرورةً بتزكية فيلمك القادم حينما يصير جاهزًا للعرض. أمَّا الآن، فعِدني أن تزور هارموني. لقد أعجبني فيلمك حقًّا". قبيل أن انطلقَ في العاصفة الباردة متَّجهًا إلى منزلي، سمعتُه يُنادي: "سنُشكِّلُ فريقًا رائعًا. أنا متأكّدٌ من ذلك".

استدرتُ كي ألوِّحَ مودِّعًا إلى أماندا وشقيقتي، لكنَّهما لم تكونا تنظران نحو المدخل الأماميّ.

—

قضيتُ أسبوعين مُنهكين دخَّنتُ فيهما مخزون شقيقتي من الحشيشة كي أخفِّفَ من الضجر الناجم عن قلَّة الإنتاج- الرعب الخافت كما يسمُّونه- أثناء البحث ما بين لقطاتٍ مُصوَّرةً لا حصر لها، وذلك من أجل إعداد فيلم حفل زفاف تشزلي.

لم نتواصل، أنا وياغو، منذ عودته إلى ويندهوك. فكَّرتُ بأن أرسل إليه صورةً لحوض السباحة في جزيرة القرش، لكن، وبقدر رغبتي بالحديث معه، كنُت غير متأكّد من وجود شيءٍ نتحدّث بشأنه.

في صباح يوم الخميس، وبعد أن قضيت الليل كلَّه منهمكًا في العمل، وجدتُ نفسي أمام مكتبي، مُشوَّش التفكير، وبالكاد قادرًا على الحراك. كنتُ أحاول أن أفرغ من فيلم تشزلي في

مكتبة ياسمين

جلسةٍ واحدة، وذلك على وقع أغاني ألبوم ذا دارك سايد أوف ذا مون[1] لأحجب صوت النباح الإيقاعيّ الذي لم ينقطع في الطرف المقابل من الشارع.

مع سماع صوت فتح باب حجرة المؤن، إيذانًا بوصول روبرتين، كنتُ قد انتهيتُ من رفع النسخة النهائيَّة للفيلم على قرصٍ رقميّ. تكرَّمَتْ السيِّدة بتحضير عجَّة البيض لي بعد أن نفذَت من عندي الخضراوات، وأعطتني الطبق حينما كنتُ أُدقِّقُ للمرَّة الثانية الجدول الخاصّ بالميزانيَّة. استلقيتُ في سريري، ونمتُ طوال النهار والليل، غير منزعجٍ من أصوات نباح الكلاب أو الأطفال على درَّاجاتهم الهوائيَّة، لأنَّ فيلم حفل الزفاف أضحى جاهزًا.

أيقظتني صباحًا الرائحةُ الهانئة لأرغفة المربَّى الطازجة.

"لا طعام في هذا المنزل"، قالَت روبرتين حين وجدتها في المطبخ.

"سأتسوَّق اليوم"، قلت، وشكرتُها على العجَّة التي حضَّرتها في صباح الأمس. أومأت برأسها بينما كانت تدهنُ الأجزاء العلويّة للأرغفة المخبوزة للتوّ بالمربّى منزليِّ الصنع. بعد أن أحكمت إغلاق مرطبان المربَّى، قلَت روبرتين بيضتين لي من دون أن تسألني إن كنت جائعًا.

ارتديتُ سترة وربطة عنق، وتوجَّهت بالسيَّارة إلى مكتب تشزلي الذي يقع في منتصف الطريق ما بين منزلي وجزيرة القرش. وعلى

---

1 The Dark Side of the Moon: الألبوم الغنائيّ الثامن للفرقة الإنكليزيّة المعروفة لموسيقا الروك بينك فلويد. صدر في الأوَّل من آذار سنة 1973. م.

الرغم من أنَّني لم أحجِز موعدًا، إلَّا أنَّه استقبلني من دون أيِ انزعاج.

استُبدِلت معدَّات طبيب الأسنان بخزانتين لحفظ الملفَّات. على مكتب تشزلي تقويمٌ ورقيٌّ على هيئة خيمة، تذكَّرتُ بفضله أنَّ اليوم جمعة.

بعد الرجوع إلى حاسوبه المحمول، قال تشزلي: "لديَّ مكالمةٌ هاتفيَّةٌ بعد سبعٍ وعشرين دقيقة"، استغلَّ معظمها في الحديث عن شهر العسل الذي قضاه في منتجعٍ خاصٍّ على مقربةٍ من أخدود نهر فيش حيثُ يَدفع النزلاء بالدولارات الأميركيَّة. ثمَّ طلب منِّي أن آتي إلى جانبه من المكتب بغية الاطمئنان من عدم وجود مشكلة في تشغيل القرص الرقميّ الخاصّ بحفل زفافه. ووعدني أن يعرضه مساءً على زينيد.

في محاولةٍ لإبهار تشزلي، طبعتُ الملاحظات التي دوَّنتُها أثناء لقائنا السابق، بالإضافة إلى الرسائل الإلكترونيَّة التي وردتني من زينيد، بما فيها من طلبات وأفكار إضافيَّة، وأخبرتُه أنَّني أدخلتُ معظمها على الفيلم. أعطيته الأوراق كلَّها قبل أن أعود إلى كرسيي.

"أخبِر زينيد من فضلك بأنَّ تتواصل معي في حال رغبت بإجراء أيِّ تعديلات" قلت، "وسأكون سعيدًا بإنجاز ما تُريد".

"أنا على يقينٍ من أنَّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يُرام"، قال، مُربِّتًا بلطف على الأوراق، "لكن من يدري بم تُفكِّرُ النساء". ظلَّ يُلقي نظراتٍ خاطفةً إلى حاسوبه بين حينٍ وآخر، فافترضتُ أنّه قد حان وقتُ مكالمَته الهاتفيَّة. بيد أنَّه قال: "لفتَت انتباهي معرفتك الكثير من الناس في يوم حفل الزفاف".

"في الواقع، أظنُّ أنَّ المسألة هي أنَّهم من يعرفونني. أنا لم أميِّز سوى عددٍ قليلٍ منهم فحسب. لكن عمَّتي زرعت فيَّ اللباقة وحُسن السلوك".

"أجل، سمعتُ عنها. على أيِّ حال، من المؤكَّد أنَّك كنت تعرفُ خلال الحفل أشخاصًا أكثر ممَّا عرفتُ، وذلك لأنَّ والدتي من وضعَت قائمة الضيوف".

"إنَّها سيِّدة لطيفة؛ والدتُك".

لم نمضِ إلى ما هو أعمق من ذلك؛ فتجنَّب كلانا ذكر حادثة الصبيِّ ذي الدرَّاجة، أو علاقتنا العائليَّة المعقَّدة. سألتُه أخيرًا عمَّا إذا كان سيدفع لي أجري خلال موعدٍ قريب.

"أجل، بالطبع"، قال، وشرع يبحث في أدراج مكتبه. "فلننتهِ الآن من هذه المسألة".

"كلُّ ما في الأمر أنَّ الشهر على وشك الانتهاء و..."

"أكيد، هذا حقُّك". تحقَّق ممَّا يدين لي به قبل أن يُحرِّر شيكًّا بالمبلغ لصالح إنترلوبر فيلمز؛ شركة الإنتاج الخاصَّة بي. وعد أيضًا بترشيح خدماتي لرجل أعمالٍ صينيٍّ- عميل لديه- وخطيبته، "والأمر نفسه ينطبق على أيِّ شخصٍ آخر يبحث عن مصوِّر حفلات زفاف طبعًا"، قال، وأعطاني المال. "سنُبقيك هانئًا ومشغولًا".

"شكرًا لك. ثمَّة مسألةٌ أخرى أريد الحديث إليك بشأنها".

"ما هي؟"

"إنَّني أبحث عن عملٍ لصالح مؤسَّسة. وكنتَ قد أخبرتني عن المقابلات التي تُجريها..."

"حقًّا؟"

"أجل، لذا أردت الاستفسار، لأنَّني متحمِّسٌ جدًّا بصدد العودة إلى هذا النوع من العمل". تبادر إلى ذهني فضول زوجته إزاء تجربتي التلفزيونيَّة، فأضفتُ قائلًا: "يجب أن أستفيد من الخبرات التي اكتسبْتُها في وكالتَي رويترز وأسوشيتد برس بصورةٍ أفضل".

"إنَّها بضع مقابلات فقط، يا هنري. لا شيء مغرٍ فيها. وأستطيعُ أن أخبرك منذ الآن بأنَّها ليست فنيَّة. كلُّ المطلوب أن يقرأ أحدهم قائمة الأسئلة بصوتٍ عالٍ، ثمَّ يُصوِّر الإجابات. لكن، إن لم أكن مخطئًا، عثر شريكٌ لي في كيب تاون على شخصٍ يناسب هذه المهمَّة. أنت في غنى عن هذه المشقَّة: استمتعِ بحياتك الهادئة في لودريتز".

"ليس لديَّ خيار آخر".

أجاب، باهتمام" "لا شكَّ أن المستقبل سيحمل معه مفاجآتٍ سارَّة".

جلستُ باستقامةٍ لأبيِّن له شدَّة اهتمامي بأيِّ عملٍ قد يعرضه. "إنَّ إجراء المقابلات هـو عملي، يا تشزلي. هذا ما أجيدُ فعله. الفارق هو أنَّني أطرح أسئلتي الخاصَّة عادةً، لكن بمقدوري أن أسألهم أيَّ شيء تُريده. أحبُّ أن أسمع حكايات الناس؛ أحبُّ أن أمنحهم صوتًا".

"أجل، لكن المهمَّة أبعد ما تكون عن ذلك. إنَّها قضيَّةٌ ضخمة ومملَّة. أيضًا، مثلما ذكرتُ لك، عيَّن شركائي شخصًا ما لتنفيذها، على الأرجح. وأقول لك سرًّا: إنَّ هذا المشروع لن يستمرَّ طويلًا. بالإضافة إلى أنَّه ينطوي على الكثير جدًّا من السفر في السيَّارة في

جميع أنحاء البلاد. كلُّ ما في الأمر أنَّنا بحاجةٍ إلى أرشيف".

"باعتباره دليلًا؟"

"شيءٌ من هذ القبيل؛ سيكون بمثابة مادَّةٍ داعمةٍ لادِّعاءاتنا بصورةٍ أساسيَّة. ليس دليلًا، بحدِّ ذاته، لكن سيكون بمقدورنا الاستفادة منه".

"وما القضيَّة؟"

"أنتَ لا تستلم بسهولة، أليس كذلك؟"

"أريدُ فقط أن تثق بأنَّه في وسعك الاعتماد عليَّ في حال لم يتمكَّن المخرج الآخر من الاضطلاع بالمهمَّة".

رنَّ هاتف مكتبه، فصاح إلى مُساعِدته أن تقول لزملائه إنَّه سيتأخَّر مدَّة خمس دقائق.

"قبل فترة، تواصلَ ممثِّلو العيادة القانونيَّة في جامعة كيب تاون مع شركتي"، قال، عندما صمتَ هاتفُه، "والآن نعملُ بالشراكة معهم في دعوى جماعيَّة. نحنُ نقاضي كيانًا اعتباريًّا ضخمًا بغية الحصول على تعويضات. لكنَّنا، كي تُجدي ادِّعاءاتنا نفعًا، بحاجةٍ إلى شهاداتٍ موثوقةٍ تُساعد كلًّا من الإعلام والرأي العامّ على فهم ما هو جوهريٌّ بالنسبة إلى موكِّلينا. لقد أُنيطَت بي هذه المسألة في ناميبيا لأنَّ والدتي من هُنا؛ هذا سبب مجيئي إلى لودريتز. لم آتِ إلى هُنا بهدف لمزاولة المهنة فحسب. بل حتّى لو حصلتُ على تمثيل كلَّ القضايا في هذه المدينة، فإنَّها لن تكون كافيةً لدفع راتبي. لكنَّني لجأت إلى هذه الطريقة كي يبدو كلُّ شيءٍ طبيعيًّا وعلى النحو المعتاد أثناء عملنا على بناء قضيَّتنا. فإنَّ أدنى تسريبٍ إلى الطرف الآخر بصدد المقابلات سيفضي إلى

تعقيد موقفنا خلال التفاوض".

"ولهذا السبب أنا الأنسب للمهمَّة، يا تشزلي. فإذا ما أرسل شركاؤك مخرجًا من كيب تاون، فإنَّ جميع من هُنا سيتساءلون عمَّا وراء هذا الشخص الذي يحشر كاميرته في شؤونٍ تخصُّ ناميبيا".

صرفَت شاشة حاسوبه انتباهه.

"أنا بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى هذا العمل"، قلتُ، بعد أن انتهى من الكتابة على لوحة المفاتيح.

رنَّ هاتفه مرَّةً أخرى، فصاح إلى مساعدته أنَّه سينضمُّ إلى الاجتماع بعيد خمس دقائق.

"إنَّها والدتُك"، قالَت مساعدته.

رفع سمَّاعة الهاتف. "مرحبًا، ماما"، قال. "أجل، حصلتُ على التفاصيل. إذًا، أنتِ بحاجة إلى ثلاثة أطباق بلو هيل، ودزِّينة من أطباق الخبز والزبدة. أجل، نوريتيك. لقد دوَّنت كلَّ شيء. أجل، داخل حقيبة يدي". ثمَّ غطَّى بكفِّه صوان المتكلِّم في السمَّاعة، وقال: "أنا آسف، لكنَّني مضطرٌّ لفعل ذلك".

جمعتُ أغراضي من على مكتبه، وقلت: "من في الطرف الآخر؟ أعني، مَن تُقاضون؟"

"الحكومة الألمانيَّة".

انضممتُ إلى طابور البنك في فترة الغداء. كان اجتماعي مع تشزلي قد استغرق مدَّةً أطول ممَّا توقَّعت، وغادرتُ مكتبه أشعرُ بدوارٍ خفيف، وببعض الارتباك والتشتُّت إلى حدٍّ ما. فعلى الرغم من أنَّ الأموال التي تلقَّيتها منه كافية لسداد كلٍّ من فواتيري

المستحقَّة وديوني في جنوب أفريقيا، إلَّا أنَّها لن تُغيّر في الوضع العامّ أيَّ شيء.

عندما حان دوري، أخبرتُ الصرَّافة أنَّني أريد إيداع راتبي، وبحاجةٍ إلى أن يكون المبلغ متاحًا على الفور.

ألقت نظرةً سريعةً إلى الشيك، وقالت: "أعتذر منك. لا يمكننا فعل ذلك".

"ماذا تقصدين؟"

"سيستغرقُ صرف الشيك بضعة أيَّام".

"حتَّى لو كان راتبًا؟"

"اسمع، أنا فقط أخبرك عن آليَّة عمل نظامنا. إنَّ هذه الأموال تُحوَّل من مصرفٍ في جنوب أفريقيا".

"ليس في حال سجَّلتِ دخولها باعتبارها راتبًا".

هزَّت المرأة رأسها، لكنَّها مع ذلك أدخلَت بياناتي على حاسوبها قبل أن تُسلّمَني إيصالًا مختومًا.

سبحتُ مسافة عشرة أطوال تقريبًا قبل أن أتَّجِه إلى المتجر المركزيّ. مرَّ وقتٌ ليس بقصيرٍ منذ آخر مرَّةً تسوَّقتُ فيها دون تقدير ثمن ما تحمله سلَّتي.

كان أمين الصندوق يُسجّل مشترياتي عند طاولة الدفع حينما فركتُ على يديَّ بعضًا من المُرطّب المستورَد من السويد. هزَّ الرجل رأسه بما معناه أن ثمَّ خطبًا ما بعد أن مرَّر بطاقتي المصرفيَّة عبر جهاز الدفع الخاصّ بالمتجر من دون جدوى. فرك بعد ذلك الشريطَ الممغنط على كمِّ قميصه قبل أن يُحاول مرَّة ثانية. في هذه المرَّة، قال بصوتٍ عالٍ سمعَهُ كلُّ من كان قريبًا:

مكتبة ياسمين

"بطاقتك غير مصرّح بها".

أعدتُ البطاقة إلى محفظتي.

كان الزبائن الآخرون ينظرون محاولين معرفة سبب هذه الجلبة؛ بل إنَّ امرأةً أدخلَت يدها في حقيبتها الجلديَّة الناعمة كما لو أنَّها على وشك إعطائي بعض النقود المعدنيَّة لإنهاء مشكلتي. اعتذرتُ إلى أمين الصندوق، وأخبرته أنَّني سأعود سريعًا.

"المصرف هو السبب"، قلتُ موضِّحًا. "لديَّ مال في حسابي المصرفيّ، لكنَّهم ارتكبوا خطًا ما".

ألغى الرجل الفاتورة، في حين بدأ زميله بوضع أغراضي- وكانت علبة قهوة مستوردة، ومرطبان مربَّى الكرز، وزجاجة نبيذ جنوب أفريقيّ، وعشرين بيضة لروبرتين، وبعض الخضراوات والفواكه المعلّبة- داخل سلَّةٍ فارغة. أنفقتُ آخر ما تبقَّى معي من أوراق نقديَّة في شراء مُرطِّب اليد ولوح شوكولا.

طلبتُ من مدير فرع المصرف الاتِّصال بالمقرّ الرئيسيّ في ويندهوك بغية وضع حدٍّ لهذه الفوضى. بيد أنَّ الرجل في المقرّ الرئيسيّ ظلَّ يطلب مني أن أهدأ، مُكرّرًا عدَّة مرَّاتٍ أنَّه لا يُمكنه إبطال السحب المقرَّر في نهاية الأسبوع.

"لا أدري من أخبرك خلاف بذلك"، قال الصوت عبر الهاتف، "لكنَّ المال لن يودع في حسابك قبل منتصف الأسبوع المقبل، لأنَّه مُرسَل من جنوب أفريقيا". بدا أنَّه ليس بمقدور أحدٍ، ولا سيما هو، فعل شيء حيال ذلك.

"دعني أتحدَّث إلى مديرك".

"أنا المدير. والآن بحكم أنَّنا نتحدَّث معًا، يا سيِّد فان فيك،

فإنَّني أودُّ الاستفسار منك عن الدفعات المستحقَّة الخاصَّة بقرضك. أرى في قاعدة البيانات هُنا أنَّ لديك تأخيرًا عن السداد".

"أحقًّا تقول؟! لا يستطيع مصرفك أن يجد حلًّا لشيك راتبي، لكن لديك ما يكفي من وقتٍ لتستجوبني بصدد قرضي؟"

"يا سيد فان فيك".

"في وسعك أن تتفهَّمَ إحباطي، أليس كذلك؟ لو أنَّكم أودعتم المال في حسابي، لَما خضنا هذه المناقشة في المقام الأوَّل".

"أجل، في الواقع، أردتُ التأكُّد فقط من أنَّك على درايةٍ..."

"في الواقع، ها نحنُ ذا. أنا الآن على دراية، وأنت على درايةٍ أيضًا، لكن لن ينال أيٌّ منَّا مُراده. مع السلامة!"

جلستُ في شاحنتي الصغيرة، حانقًا لدرجة أنَّني بالكاد أستطيع التفكير، حتَّى أنَّني لم أكلِّف نفسي عناء فتح النوافذ. أقحمتُ قطع الشوكولا فمي، لكن لم أشعر بأيِّ تحسُّن. ولم تُعدِّل علبة المرطِّب الإسكندنافيّ الملقاة على مقعد الراكب مزاجي أيضًا، لذا وضعتُها داخل الصندوق. الأمر الوحيد الذي كنتُ واثقًا منه هو أنَّني لا أريد- ولا أستطيع- اقتراض المال من شقيقتي.

فتحتُ النافذة عقبَ مرور بضع دقائق من الضيق والجوع والتعرُّق. وكما لو كنتُ مدمِنًا لا يقوى على كبح جماح نفسه، اتَّصلتُ بشقيقتي، واستمعتُ إلى صوت الرنين البعيد بعينين مغمضتين.

"هنري؟ انتظِر ثانية!" سمعتها تقول. تابعَت مُحادثةً أخرى في حين جعلني الانتظار أرغب في إنهاء المكالمة. لم يكن الاتِّصال بها فكرةً صائبة. لا شكَّ لديَّ أنَّها ستعطيني بكلِّ سرورٍ المال

لشراء بيضٍ لروبرتين، وطعامٍ يكفيني لتجاوز نهاية الأسبوع، لكنَّ معرفتي بذلك مُسبقًا جعلت مسألة تسوُّل المال أكثر صعوبةً.

"أهلًا، أنا أسمعك"، قالَت.

"أهلًا. أنا... أنا آسف. أمهليني لحظةً فقط. سأعاود الاتّصال بك".

"هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟"

"أجل. سأتَّصل بك ثانيةً".

"حسنًا..."

إذا انطلقتُ الآن، فسأصلُ في الوقت المناسب إلى المنزل وأطلب من روبرتين أن تقرضني بعض المال حتَّى نهاية الأسبوع. بل هنالك ما هو أفضل من ذلك: سأنتظرُها حتَّى تغادر المنزل، وبعدها سأدخل حجرة المؤن، باستخدام المفتاح الاحتياطيِّ، وأحصل لنفسي على بعض الأغراض الضروريَّة من دون أن أزعجها. ومن ثمَّ سأعيد كلَّ شيءٍ إلى مكانه في الأسبوع القادم.

رنَّ هاتفي، فانطلقَت من فمي شتيمة.

"هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟" قالت شقيقتي.

"أجل. سلَّمتُ إلى تشزلي قبل قليلٍ فيلمَ حفل زفافه".

"هل أعجبه؟ بل لا بدَّ أنَّه أحبَّه".

"بلى، أو هذا ما آمله. أأنتِ في البيت؟"

تنهَّدَت. "لا.. أنا في المكتب. تعال واشرب الشاي معي".

"لا أستطيع، شكرًا على الدعوة. هل بإمكاني أن أزورك مساء اليوم؟"

"أجل، تعال لتناول العشاء. لقد دعوتُ ويل وأماندا".

"حسنًا، بالطبع".

"ما الأمر؟"

"لا شيء، أنا بخير... بعض التعب فقط".

أخبرتني أنَّها كانت تتحدَّث إلى ياغو عبر الهاتف حينما اتَّصلْت، بيد أنَّني لم أستطع التركيز على ما قالته، فقاطعتُها عن غير قصدٍ، قائلًا: "إذًا، سيزورك الزوجان البريطانيَّان؟"

"أجل. انضَمّ إلينا".

"أو تظنّين أنَّ ويل قد يكون في موقع مشروعه الآن؟"

"أتقصد هارموني؟ بلى، إنَّه هناك. سأرسل إليك رقم هاتفه".

"أفكِّر أن أزوره بعد ظهر اليوم، على الأرجح. لقد طلب منّي المساعدة في تحرير نصّ".

"سيسرُّه أن يصطحبك في جولةٍ بالمكان. أتَذكُر برج الشرطة القديم الذي احترق تمامًا؟"

"هل هو في ذلك المكان؟" قُلت. اللعنة!

لم يكن لديّ سبب من قبل للعودة إلى المبنى الدائريّ العشوائيّ على الطريق إلى المنارة. لا بدَّ أنَّني زرتُه آخر مرَّةٍ حينما كنتُ طالبًا في المدرسة، وكان الزيارة بقصد التحضير للامتحانات نهاية الفصل الدراسيّ. كانت أيضًا المرَّة الأولى التي ألتقي فيها شخصيَّةً مشهورة، بين قرَّاء الصحف على الأقلّ.

ذات صباحٍ باكر، أيقظتني صفَّارات إنذارٍ بعيدةٌ، لتنجحَ بما

مكتبة ياسمين

لم يقدر مُنبِّهي أن يفعله، فخرجتُ إلى الشرفة مُتعثِّرًا ورأيتُ نهرًا موحلًا من الدخان يتدفَّق إلى السماء من الجانب الآخر من جبل الألماس. كانت الرائحة الكريهة لاحتراق البلاستيك عالقةً في الهواء. كنتُ لا أزال نصف نائم، إلَّا أنَّني أخذتُ كاميرتي ذات العدسة الصغيرة، قياس ٣٥ ملم، ومفاتيح سيَّارة عمَّتي، وذهبتُ لاستقصاء ما يحدث.

يقع المبنى المكوَّن من طابقين على بُعد كيلومترات قليلةٍ خارج المدينة على أرضٍ منبسطةٍ حيثُ تنمو جزر الكريستال في خنادق طويلةٍ من مياهٍ مالحة. كنتُ قد سمعتُ من قبل بعض الشائعات عن هذا المكان؛ على غرار استخدام جيش الفصل العنصريّ البرج الضخم كموقعٍ لاستجواب الإرهابيّين أو إجراء الاختبارات. لكنَّنا كنَّا نتجاهل ذلك في ناميبيا ما قبل الاستقلال، على الأقل حتَّى استرعى ذلك الانفجار الصباحيُّ انتباهنا.

عندما وصلت، رأيت رجل إطفاءٍ يقف على سُلَّمٍ محدِّقًا عبر إحدى النوافذ المهشَّمة، ومتجنِّبًا بحذرٍ الدخان الكثيف. أحاطَت بالمكانِ هالةٌ من الزجاج المهشَّم والحطام المحترِق، سرعان ما اتَّسخ حذائي بسببها.

التقطتُ بعض الصور من بين الحشود. أقسم واحدٌ منهم أنَّه يشتمُّ رائحة البوتان؛ أنَّ قنبلةً غازيَّةً غير مُحكمة الإغلاق قد انفجرَت بمدخِّنٍ تعيس الحظّ بالقرب من نافذةٍ فوقنا. في حين زعم آخر أنَّه شاهد جثَّةً شرطّيٍ نصف عاريةٍ تُحلّقُ فوق جبل الألماس باتِّجاه الميناء، فضحك الجميع من قوله.

أبقيتُ عينًا على مدخل البناء طوال الوقت. فُتح الباب كاشفًا عن رجلٍ يرتدي بزَّةً عسكريَّةً ويحمل حقيبةً من الورق المقوَّى.

عندما هرع مسرعًا نحو واحدةٍ من السيَّارات مركونة، أخفيتُ كاميرا والدي وراء ظهري داخل حافظتها.

حين مرَّ بجانبي، صرخ في وجهي أنَّه لا يريدُ رؤيتي في هذا المكان حين عودته.

التقطت بسرعة صورةً لسيّارته. ولأنَّ ما يجري كانت فرصةً لتصوير حدثٍ مثيرٍ للاهتمام بدلًا من المدينة أو الصحراء، ثبَّتتُ وحدة الفلاش على الكاميرا، وتسلَّلتُ إلى المبنى.

منحني وجود الباب خلفي قدرًا كافيًا من الضوء لأتبيَّن مخطَّط المكان، وأتأكَّد من أنّني بمفردي. كان في منتصف الغرفة قفصان معدنيَّان يتسَّع كلٌّ منهما لشخصٍ مُقرفِص. وعلى مقربةٍ من الجدار المقابل، كان هناك مكتبٌ بجانب درَجٍ إسمنتيٍّ يتسرَّب من خلاله الدخان إلى الطابق السفلي. كانت الغرفة هادئة، بصرف النظر عن الأصوات المكتومة في الخارج.

التقطتُ صورةً للقفصين، ما عنى أنَّه لم يتبقّ لي سوى ثلاثة صورٍ فقط باستخدام لمبة الفلاش.

كانت هناك خزانة ملفَّاتٍ بجانب المكتب. حاولتُ أن أفتح أدراجها- لكن كانت مقفلة كلّها- قبل أن ألتقط صورةً لها. صاحَ شخصٌ ما من أعلى الدرج، فما كان منّي إلّا أن حشرتُ نفسي إلى الجدار مختبئًا وراء الخزانة، ولم أجرؤ بعدها على أيِّ حركة.

سمعتُ أصوات ثلاثة انفجاراتٍ من الطابق فوقي. تعاظمَ الظلام من حولي، وشعرتُ بلسعةٍ في عينيَّ كما لو كانتا مفتوحتين في مياهٍ مالحة. ثمَّ صار من الصعب التنفُّس.

دفعتُ الكاميرا إلى داخل جيب بدلتي الرياضيَّة، وشرعت أتلمَّس

طريقي إلى المخرج. خنقَ الغرفة مزيدٌ من الدخان. كنتُ أسمع صراخ شخصٍ ما خلفي. أمسَك شخصٌ ما بذراعي- ممَّا أفقدني توازني- فسقط كلانا على الأرض. حينما كنت أزحف باتِّجاه الباب- أو ما أظـنّ أنَّه الباب- أخذ إحساسي بالعالم من حولي يخفت رويدًا رويدًا؛ شعرتُ بأنَّ غيمةً غامضةً ترفعُني من الأرض حتَّى السقف.

كنت مستلقيًا على ظهري حينما استيقظت تحت ضوء الشمس الساطع مُشوَّشًـا بسبب الإجهاد. تقافزَت ألف نقطةٍ سوداء أمامي، وتيبَّس جسدي كلَّما سعلت.

حملقَت فيَّ وجوهٌ بملامح غير واضحةٍ إلى أن سكب أحدهم ماءً فوق عينيّ، فسال بعضه إلى داخل أنفي ممَّا دفعني إلى هزِّ رأسي لئلَّا أختنق.

على صفحتها الأولى، نشرت صحيفة ويندهوك أوبزرفر الصورة التي التقطتُها لرجل الإطفاء على السلَّم، ومعها اسمي وسنِّي بين قوسين، تحت عنوان "لهبٌ كيميائيّ". وصفَت المقالة المبنى بأنَّه مُنشأة أبحاث علميَّة".

لم تنشر الصحيفة الصور التي التقطتُها في الداخل. وعندما أرسلوا إليَّ شيكًا بأجري، أرفقوا معه شريط الصور السالبة بعد أن اقتطعوا منه تلك الصور. غاب القفصان المعدنيَّان عن ذاكرتي منذ ذلك الوقت حتَّى ركنتُ سيّارتي في ظلّ مبنى هارموني بجوار شاحنةٍ صغيرةٍ من طراز تويوتا، كانت جوانبها مغطَّاةً بطين صلبٍ سميك.

نفذَت الريح عبر جدارٍ مُنحنٍ من الطوب كان لا يزال أسود بسبب الحريق القديم.

عثرتُ على ويل في الداخل. عانقني، وقال: "يا لها من مفاجأةٍ رائعة! مرحبًا بك في فُلكي".

ذكَّرني التصميم الداخليُّ للمكان بالكهف المعتم الذي كنت أزوره في صغري. كان أصغر حجمًا بكثير- مثل غرفة الجلوس في منزلي تقريبًا- وبسقفٍ منخفض. وأمَّا الجدران التي لا تزال غير مصقولة، فأعادت إلى ذاكرتي ملمسها الخشن على ظهري أثناء هروبي من الحريق. ميَّزتُ الدرج المنحني.

في غرف المعيشة بالطابق العلويّ، فاقَت الألواحُ الشراعيَّة المراتبَ عددًا. حدَّقت عبر كاميرتي في غرفة استحمامٍ مشتركةٍ تفوح منها رائحة الرطوبة، وجدت فيها رجلًا يصنفر لوحًا سآخر من الألياف الزجاجيَّة.

ومن دون أيّ وقفة، قال ويل: "واحدٌ من أهدافي الرئيسيَّة- لديَّ سبعة أهدافٍ في المجمل- هو إضفاء المتعة على الزراعة والصناعة. إنَّ أكبر إخفاقٍ لهذه الحضارة يتمثَّل في كونها لا تشجِّعُنا على حبِّ ما نعمل. لم يسبق أن حدث مثل هذا. والبديل أنَّنا نقضي وقتنا متمنِّين الفوز باليانصيب، أو الحصول على إرث، وذلك كيلا نضطَّر أن نعمل مرَّة أخرى. يا له من خزي! يا لها من خسارة!".

أخبرَني عندما عدنا إلى الطابق السفليّ عن خزَّان المياه الذي يسقي بالتنقيط الخضارَ داخل بيت زراعةٍ بلاستيكيّ، واقترح أن يصطحبني كي أراه.

لم أكن أسجِّلُ ما يقول حينما انطلقنا مسرعَين عبر الأرض البيضاء التي لفحتها الشمس حتَّى أصبحت بصلابة الإسمنت، لكنَّني مع ذلك ظللتُ أحثُّه على الكلام. لا أظنُّ أنَّني سأحتاج إلى إجراء الكثير من البحث في حال قرَّرتُ صناعة فيلمٍ وثائقيٍّ عنه. كلُّ ما في سأفعله هو توجيه الكاميرا نحوه، والهمهمة باسترخاء إثناء حديثه المسهَب. بيد أَنَّ العمل الحقيقيَّ يكمن في التحرير إذ سيتعيَّن عليَّ بناء الذروة، لكن سأؤجِّل القلق حيال ذلك إلى وقتٍ لاحق.

كنتُ أتصبَّبُ عرقًا بحلول الوقت الذي بلغنا فيه وجهتنا، وصرتُ بالكاد أسمع صوت ويل بسبب ضجيج مُولدِّ الديزل الذي كان يضخّ ماءً عذبًا، عبر أنبوبٍ ممدودٍ تحت الأرض، إلى مبنى هارموني الرئيسيّ. بدا المكان مهجورًا، من خلال عين الكاميرا: برج مراقبةٍ منسيٌّ يعود إلى حقبة نظامٍ مخلوع، ويمتدُّ البحر خلفه. وأمَّا النتوء في جبل الألماس، من جهة مهبّ الريح، فبدا مثل قمَّةٍ مستدقَّةٍ لكنيسةٍ ألمانيَّةٍ محفورةٍ في الصخر. لم يكن ورائي أيُّ شيءٍ يحجب المنظر. كنتُ آخر رجلٍ على الأرض.

كان الهواء داخل البيت البلاستيكيّ مُثقلًا برائحة الطماطم والسماد الطبيعيّ. وغطَّت معظم الأرض عشرات من الأكياس البلاستيكيّة المليئة بالتراب الرطب، والمكدّسة جنبًا إلى جنب. كلٌّ كيسٍ منها كان مقسَّمًا طوليًا بواسطة نباتاتٍ ذات شعيراتٍ واخزة تخترق الشقوق الغامقة. صوَّرتُ امرأةً تحمل كيسين جديدين إلى الركن البعيد من البيت حيثُ وضعتهما بدقَّةٍ وعنايةٍ عند آخر الصفّ. لوَّحت إلينا مُسلّمةً عندما رأتنا.

"إنَّه أكبر ممَّا توقَّعت"، قلتُ بعد أن توقَّف المولد عن العمل.

تابع ويل أمام الكاميرا شرحَ الطريقة التي يعتمدها في الريِّ أثناء خروجنا نحو خزّان الماء- والذي كان نسخةً أصغرَ عن برج هارموني. سألتهُ وقتها عن عدد المرّات التي يشتري فيها ماءً عذبًا.

"مرّتين في الأسبوع"، قال. "إنَّها أكبر نفقاتنا بعد الطعام والوقود". (ذكّرني قوله هذا بأن أطلب منه مالًا). "نطمَحُ إلى تحقيق نظامٍ بيئيٍّ متوازنٍ هُنا، لكنَّنا بحاجةٍ إلى مساحةٍ أكبر. سأشتري تلك القطعة من الأرض"، قال، وأشار في اتِّجاه بعض الصخور. "أتعتقدُ أنَّ بمقدورك ربَّما أن تُصوِّرني هُنا؟"

"لا مشكلة في الأمر".

"أتقصدُ أنَّه من الممكن تسجيل المحاضرة في هذا المكان؟ لقد أعجبتني فكرتك عن صناعة محتوى للنشر عبر شبكة الإنترنت".

"لا، المكان هُنا صاخبٌ أكثر من اللازم. ستُفسِد الرياح تسجيل الصوت في ميكروفوناتي الرخيصة. لكن أريد أن أصوِّرك هُنا الآن، إن كان لديك وقت. أودُّ، من خلال تحريك الكاميرا لتشمل مشروع هارموني كلَّه، أن يشعر الجمهور بمدى اتِّساع هذا الجزء من العالم. تلك الشاحنات الصغيرة ستُضفي إحساسًا ملائمًا بمنظور المكان".

"أتريدُ أن ننطلق الآن؟"

"بالتأكيد، هيَّا بنا".

على الرغم من الرياح القويَّة، بلَّل العرق قميصي حتَّى التصق بظهري. ندمتُ في ذلك القيظ أنَّني لم آكل شيئًا وقت الغداء سوى قطعة من الشوكولا. حميتُ بيدي عدسات الكاميرا من الهواء المشبع بالرمل، والتقطتُ صورةً لِما يبدو من بعيدٍ أنَّه

رجل يلحم عنفة الرياح الخاصَّة بالمشروع. كنَّا نقترب من الألواح الشمسيَّة- وهي عبارةٌ عن مجموعةٍ من الوحدات الكهروضوئيّة على مستوياتٍ مختلفةٍ من الجاهزيَّة- الموجَّهة نحو الشمس بصورةٍ مائلةٍ.

"إنَّهُ كيانو"، قال ويل. "أودُّ التحدُّث إليه قليلًا عن أحدث مخطَّطاتي الهندسيَّة".

ابتعدتُ عن كلٍّ من البريطانيّ واللحّام إلى المدى المفتوح خلفهما، وفوقي حلقَّت طائرةٌ شراعيَّةٌ على ارتفاعٍ منخفضٍ باتِّجاه دياز بوينت. اتّبعَت الخطّ الساحليّ قبل أن تحلّق عائدةً في نهاية المطاف فوق الماء، ورافق ذلك ارتفاعٌ في هدير محرّكها حيثُ كانت تقاوم رياحًا معاكسةً في طريقها البطيء نحو الجنوب.

لوَّح ويل إليَّ من على صفٍّ من الصخور التي تناثرت كنقطٍ على الأرض وقد لوّنت كلُّها بالأبيض، مما يوحي بأنّهَا تحدُّ المكان نوعًا ما.

"هذا ميدان رمايتنا"، قال ويل موضحًا حينما وصلت إليه.

"انظر إلى هذا"، قال كيانو. ومن دون سابق إنذار، أطلق ستَّ رصاصاتٍ على هدفٍ من ورق. ثمَّ وضع بندقيته أرضًا من أجل أن يُلوّح بذراعيه، وركل الهواء وكأنَّه ساموراي، فيما افترضتُ أنَّه استعرض فنونٍ قتاليَّةٍ من أجلي. أخيرًا، انحنى أمام كاميرتي وسعل سعالًا قاسيًا وحادًّ الصوت حينما عاد منتصبًا. كان صغير السنِّ بما يكفي ليكون في المدرسة الثانويَّة.

"أنت مُتحمِّس، صحيح؟" قلت.

نظرًا إلى الفضاءات المفتوحة في ناميبيا- البلد التي لا يتجاوز

عدد سكَّانها مليونين ونصفًا، في حين تبلغ مساحتها ضعف مساحة ألمانيا- فإنَّني لم أقتنع بفكرة أنَّه ثمَّة من سيدفع المال مقابل خدمة إطلاق النار داخل الميدان المخصَّص في هارموني في حين بإمكان المرء أن يُطلق النار بكلّ سهولة أينما شاء تقريبًا. لكنَّني احتفظتُ بهذه الفكرة لنفسي.

بيد أنَّني لم أستطع إلَّا أن أعبّر عن مخاوفي بصدد عدم وجود حواجز تفصل ميدان الرماية عن بقيَّة المشروع؛ وأنَّ ويل كان يعتمد على الرماة من أجل إبقاء أسلحتهم مصوَّبةً على أهداف التدريب التي رسمها بيده، وليس على من يُصادِف أنَّه يعتني بالخضراوات مثلًا.

"لكن هذا مجرَّد جنون"، قال ويل.

"وماذا عن الرصاصات الطائشة؟"، قلت.

"وماذا عنها؟ أنا لست على وشك البدء في بناء الأسوار".

ثمَّ شرع يشرح كيف أنَّه لطالما شكَّلت الوحشيَّة، والهمجيَّة، والحضارة، والحواجز، إحباطًا للانجذاب العاطفيّ؛ والحواجز على رأس هذه القائمة.

"ولأكون صادقًا، فإنَّه لا شيء جديد في كلّ هذا. هنالك نظريَّاتٌ عن الحركة الاجتماعيَّة منذ آلاف السنين، لكنَّ كلًّا من الميتافيزيقيا والسياسة قمعَتا معظمها. إنَّ العلم البحت يطرحُ أسئلةً تتعلَّق بالواقع، في حين أنَّ الانجذاب العاطفيَّ يناقش تلك الحقائق. وعلى الرغم من أنَّني أشعر بالضيق لأنَّ أحدًا لن يفهم ما أنا بصدده".

أكَّدتُ له أنَّ أفكاره منطقيَّةٌ جدًّا.

"أتعتقد ذلك؟"، قال، وقد بدا أنَّه مسرورٌ بما سمع من ردّ، "كلُّ ما في المسألة أنَّني أقلقُ أحيانًا لكوني أسعى إلى تحقيق المستحيل. أعني.. لقد أجريتُ أدقَّ الحسابات ولم أجدِ أيَّ خطأ، لكنَّني ما زلتُ أشكّ".

"سيشعرُ أيُّ شخصٍ يزور هذا المكان بمدى جديَّتك".

فركَ ويل يديه بحماسة، وقال: "يجب أن تأتي في وقتٍ أبكر في المرَّة القادمة. قريبًا نباشر يومنا ابتداءً من الساعة الثالثة والنصف فجرًا".

"حقًّا؟"، قلت. "بما في ذلك راكبو الأمواج؟"

حيَّرَه ما قلت. "ليس أولئك الرجال جزءًا من هارموني؛ إنَّهم مصدر للعملة الصعبة فحسب. لقد أجَّرَت أماندا بعض الغرف لعددٍ قليلٍ منهم، لكنَّنا سنطردهم بمجرَّد أن نحتاج إلى مساحةٍ إضافيَّة. دعني أوضِّح لك الأمر: لن يضطرَّ أحدٌ إلى الاستيقاظ عند الساعة الثالثة والنصف فجرًا؛ وإنَّما سنفعل ذلك عن طيب خاطر. سيستمرُّ يومنا ابتداءً من الساعة الرابعة صباحًا وحتَّى الساعة العاشرة ليلًا. سنُطلِق ورشتي عملٍ، مدَّة كلٍّ منهما بضع ساعات من التنظيف أو البستنة، وذلك بناءً على جداول زمنيَّةٍ محدَّدة. وستتنوَّع النشاطات بغية إضفاء الحماسة.

يتناول الجميع فطورهم ما بين الساعة السابعة والساعة السابعة والنصف صباحًا، ثمَّ تلي ذلك ثلاثُ ورش عمل أخرى- تتضمَّن أيَّ شيءٍ؛ من صنع الأحذية إلى الإشراف- حتَّى الساعة الواحدة ظهرًا. ثمَّ هنالك خمسون دقيقةً مخصَّصةً لوجبة الغداء، وبعدها نصلِّي صلاة الشكر لعشر دقائق قبل أن نعود إلى

العمل حتَّى الساعة الثامنة مساء موعد اجتماع الجميع من أجل الاتِّفاق على خططهم لليوم التالي. يُقدَّم العشاء عند الساعة الثامنة والنصف مساءً، يليه بعض الترفيه قبل الخلود إلى النوم في نهاية المطاف. أعتقدُ أنَّ عليك تصوير يومٍ كاملٍ من الحياة هُنا".

ذكَّرني حديثُه عن الطعام بأنَّني لم أتناول أيَّ وجبةٍ هذه الظهيرة عدا عن لوحٍ من الشوكولا، مع العلم أنَّني وصلت إلى هارموني منذ قرابة ساعة. "إذًا، وبناءً على جدولك الزمنيّ، فأنا في الوقت المناسب لتناول طعام الغداء؟"، قلت.

"إنَّ جدولنا في الفترة الراهنة أقرب إلى الفنّ منه إلى العلم. نحنُ ما زلنا نتناقش.. نحاول البتَّ في مسألة زيادة عدد الوجبات. ما أخبرتُك به من قبلُ هو ما ستكون عليه الحال في هارموني بمجرَّد يستقرَّ الجميع في علاقاتهم العاطفيَّة، يا هنري".

"فإذًا لا أحد يستيقظ حاليًا عند الساعة الثالثة والنصف فجرًا؟".

"كلَّا، ليس بعد. ما زلتُ أقيِّمُ الإمكانيَّات. فعلى سبيل المثال، أتوقَّعُ أنَّه لن يمرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يصير موعد تقديم الفطور عند الساعة الرابعة والنصف، والغداء عند الساعة الثامنة..."

"صباحًا؟"

"صباحًا"، قال مؤكِّدًا. "الفطور عند الساعة الرابعة والنصف فجرًا، والغداء عند الساعة الثامنة صباحًا. صفِّ ذهنك من الافتراضات المجتمعيَّة. موعد تناول العشاء عند الساعة الواحدة، وربَّما وجبةٌ خفيفةٌ عند الساعة السادسة- لم أقِّرر

بعد- ثمّ العشاء أخيرًا عند الساعة التاسعة مساءً، ويعقبه وقتٌ للترفيه. وفي يومٍ ما عمَّا قريب، عندما تسير الأمور هُنا في هارموني كما ينبغي، لن نحتاج إلى النوم إذ سيخلقُ عملنا إثراءً كبيرًا. ولكونه مناسبًا لشخصيَّاتنا وأمزجتنا، فإنَّه سيُنعشنا ويبعث النشاط في داخل كلٍّ منَّا".

"وماذا عن عطل نهاية الأسبوع؟"، قلت، "أم أنَّها أيضًا..."

"افتراضٌ مجتمعيّ؟ أجل. لقد كيَّفتنا الحضارة بحيث صرنا نقسّم حياتنا فيما يتعلَّق بأيَّام السبت والأحد. لكنَّ هارموني يلغي المعنى من مفهوم الأسابيع- أو بالأحرى العطل". أطلق تنهيدةً عميقة، كما لو كان غير قادرٍ على استحضار المزيد من القوَّةٍ لإكمال الشرح. "لكن في الوقت الحالي، يكفي القول- إلى أن نفرغ من تكوين علاقاتنا العاطفيَّة على الأقلّ- إنَّنا نعمل لمدَّة خمسة أيَّامٍ في الأسبوع ونرتاح لمدَّة يومين، على غرار ما تفعلون. لكن سيتغيَّرُ ذلك يومًا ما..."

عندما عدنا إلى المبنى الرئيسيّ، كشف ويل لي عن نموذجه المصغَّر من هارموني، والمصنوع من كراتين البيض وعلب الصفيح. امتدَّ جناحان منمنمان- بمساحات للمعيشة، وغرف استشاريَّة، وورش عمل- على كلا جانبي المبنى الدائريّ الحاليّ. وأمَّا محطَّة تحلية المياه، فستُبنى على أرضٍ ستُشترى عمَّا قريب على مقربة من الصخور أراها لي أثناء جولتنا.

"لقد صمَّمتُ كلَّ شيء"، قال، "من طراز العمارة إلى الجدول الزمنيّ. وعملتُ على تكييف أساليب الزراعة في الكيبوتسات[1] لتتلاءم مع كلٍّ من مناخ ناميبيا وفلسفتي أيضًا. سنعمل ذات

---

1 جمع كيبوتس: شكلٌ من أوائل أشكال الاستيطان الصهيونيّ في فلسطين المحتلّة. م.

يومٍ في حدائق وورش عمل فاخرة".

أطفأ ويل ضوء الفلورسنت في السقف كي يمنع رجفان وميضه، وطلب من كلّ من في المبنى أن يبقوا الأبواب والنوافذ موصدةً لئلَّا يلتقط المكيروفون هدير المحرِّك المملَّ أو أيَّ ضجيجٍ آخر. لم تكن الظروفُ مثاليَّة، لكنَّ كانت خياراتنا محدودةً؛ كان فيلمًا على طراز أفلام الدوغما [1]، لكن بحكم الضرورة. ولأنَّني شجَّعتُ راكبي الأمواج على مواصلة ما كانوا يفعلونه، شرع رجلٌ مجدول الشعر بصبِّ الصمغ من برميل سعته ٥٥ غالونًا في دلوٍ بلاستيكيٍّ وراء ويل.

"إنَّ نقص المياه هو أكبر مشكلاتنا. والتربة السطحيَّة أيضًا. أعني.. هذه مسائل ضخمة. لكن من ناحيةٍ جيوسياسيَّة، تعتبر لودريتز المكان الأكثر أمانًا على هذا الكوكب في الوقت الراهن، فضلًا عن كونها عرضةً لكمياتٍ مهولةٍ من ضوء الشمس والرياح اللازمة لانطلاق المشروع. ولن نحتاج إلَّا لبعض الوقت قبل الحصول على التقنيَّة التي ستتيحُ لنا إنتاج مياه عذبةٍ بأثمان رخيصة". وراء ويل، أعاد راكبُ الأمواج البرميل الثقيل إلى مكانه أسفل الدرج قبل أن يحمل دلوه وفرشاة الطلاء إلى الطابق الأوَّل.

"يا لك من أداة باهظة الثمن!"، قال ويل، مخاطبًا صفيحة الحليب المكثَّف الفارغة التي تُمثِّل محطَّة تحلية المياه. ثمَّ قال، مخاطبًا الكاميرا: "باهظة جدًّا في الوقت الحاليّ. وأمَّا فيما يتعلَّق بالتربة، فتكاد تكلفتها تُعادل تكلفة الأرض تقريبًا، لكن بمجرَّد أن

---

1 حركة سينمائيَّة تعتمد على فكرة عدم الاعتماد في صناعة الأفلام على الميزانيَّات الضخمة أو السلطات، من أجل الحدّ من سطوة المؤثِّرات البصريَّة مقابل أكبر قدر من التركيز على القصة والأداء. م.

نفرغ من ترتيب الأنفاق الزراعيَّة، فسيكون بمقدورنا الاعتناء بالتربة التي استثمرنا فيها، ومع الحبِّ والرعاية، وبعض الحظّ، فإنَّنا لن نضطرّ إلى استبدالها إلَّا فيما ندر".

ثُبِّتت على طرف الطاولة ملاحظةٌ مكتوبةٌ بخطِّ اليد ورد فيها أنَّ القدرة الاستيعابيَّة لمشروع هارموني تبلغ خمسة عشر ألف شخص.

"من يدري؟"، قال، عندما سألتُه عن الرقم. "اخترتُ الرقم خمسة عشر كبدايةٍ لأنَّه ليس في وسع الجميع أن يروا ما هو ماثل أمام أعينهم؛ أو أن يتخيَّلوا الإمكانيَّات. لم أجرِ سوى بضع تعديلاتٍ على خطَّتي وفقًا لما اقتضته الأمور مذ بنيتُ هذا المجسَّم، والآن صار هدفي أن ترتفع القدرة الاستيعابيَّة لتبلغ عشرين ألف شخص".

أشرتُ إلى أنَّني لم أر بعدُ أيًّا من السكَّان المحليِّين خلال جولتنا في هارموني.

"كيانو من ناميبيا"، قال ويل، بنبرةٍ دفاعيَّة إلى حدٍّ ما.

"هل من أحدٍ غيره؟"

"إنَّ محطَّ تركيزنا"، قال، "لبضع سنوات، على الأقل، هو تعزيز فريقنا الأساسيّ. على أمل أنَّه، في المستقبل غير البعيد، ستستثمرُ مجموعةٌ من المعالجين النفسيِّين في هارموني. لكنَّنا، وحتَّى ذلك الوقت، سنعملٍ بصورةٍ تعاونيَّة؛ أي أنَّنا سنُقسِّم العوائد بما يتناسب مع حجم العمل المُنجَز إلى جانب تبرُّعٍ أوَّليّ. نحنُ بحاجة إلى العملة الصعبة في الوقت الراهن؛ وهذا ما يدفعنا إلى دعوة الأجانب الذين لم يعودوا يشعرون بالانتماء إلى الغرب

للانضمام إلينا. إنَّ تكوين فريقٍ أساسيٍّ عمليَّةٌ تستغرق بعض الوقت. لكن قبل أن يصبح هذا الفريق اتِّحادًا عاطفيًّا، فإنَّه لن يكون بمقدورنا سوى ضمّ أولئك القادرين على الاستثمار هُنا".

"أي بعبارةٍ أخرى، ليس هنالك أعضاء محليّون، صحيح؟"

"حسنًا، هذا منظورٌ واحدٌ للمسألة. لكنَّ هدفينا الرئيسيَّين- مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ لدينا سبعة أهداف- هُما الاستقطاب الصناعيُّ والتوازن العاطفيّ. ونحتاج من أجل تحقيق هذه الأهداف إلى دولارات وجنيهات إسترلينيَّة"، توقَّف قليلًا قبل أن يقول: "دعنا نصوِّر محاضراتي هُنا!".

على الرغم من أنَّ الغرفة كانت ملائمةً لأغراض شائنة- على غرار الوثائقيِّ الذي أنوي إعداده عن ويل- لكن أحدًا لن يُصدِّق أنَّ هذا المكان، موقع البناء هذا، مناسبٌ لترويج مشروعٍ كهارموني. كلَّا، عليه أن يبذل بعض الجهد إذا ما أراد جذب أعضاء جدد. كما سيكون أكثر إثارةً للاهتمام بالنسبة إلى جمهوري أيضًا أن أصوِّر في مواقع متعدِّدة.

"أعتقدُ أنَّ من الأفضل العثور على مكانٍ آخر"، قلتُ مقترحًا. "إلى أن تفرغ من التحسينات على الأقلّ".

"لم أفهم ما تقصد".

"أنت تريدُ أن تمنح القادمين الجدد أفضل انطباعٍ عن هارموني، أليس كذلك؟ أي أنَّك لا ترغب أن يفترضوا أنَّ المشروع لا يزال قيد الإنشاء، صحيح؟"

بدا جليًّا أن هذه الفكرة لم تخطر في باله من قبل، فنظر سريعًا إلى السقف والجدران غير المصقولة وكأنَّه يراها للمرَّة الأولى.

"أجل"، قال، "أظنُّ أنَّ هذا المشهد قد يبدو غير مكتملٍ في نظر العين غير المدرَّبة، لكنَّنا نبتكر شيئًا جديدًا هُنا. وليس لدينا الوقت الكافي للجماليَّات".

"لم أقصِد الإساءة إليك".

"بالطبع لا. فلنفكّر بمكانٍ آخر إذًا". صمتَ برهة. "بإمكاني أن أجرِّب في المدرسة. أتروق لك فكرة المدرسة؟ إنَّ شقيقتك على معرفةٍ بالمدير المحليّ، وهذا يستطيعُ مساعدتنا".

"ربَّما في مكانٍ أكثر أناقةً بقليلٍ من مدرسة؟"

"أجل..."

"أنا أقدِّم الاقتراحات فحسب".

"بالطبع"، قال، وأومأ برأسه.

"ثمَّة شيءٌ آخر"، قلت. "من الواضح أنَّ هذه النظريَّات مهمَّة بالنسبة إليك، لكن ينبغي أن تتحدَّث عن نفسك".

"ماذا تقصد؟"

"لقد أخبرتني، في تلك الأمسية في منزل شقيقتي، عن الوقت الذي قضيتَه في لندن. عن الصعوبات التي واجهتها".

"آه، تلك المحادثة"، قال، وحكَّ جبينه. "تلك الأمور كئيبةٌ بعض الشيء ولا أعتقد أنَّها تتناسب مع ما أحاول فعله هُنا".

"أعتقدُ أنَّها قد تساعد الناس".

"لا أدري. لا يروق لأماندا أن أتحدَّث عن تلك المرحلة. تقول إنَّ ذلك يعيدُ إليَّ الصدمة". ضمَّ يديه إلى صدره، وكذلك راحتيه، وكأنَّه سيصلّي، لكن بدلًا من ذلك أرخى شفتيه وأنفه على أطراف أصابعه.

"لستَ مضطرًّا لإخبارهم بكلّ ما حدث معك بالتفصيل"، قلت، "لكن عليك البوح ببعض ما في داخلك".

"أو تظنُّها فكرةً صائبة؟ أعرف شخصًا واحدًا على الأقل ستصفها بالفكرة السيّئة للغاية".

"كلُّ ما أقوله إنَّ عليك إظهار نفسَك سريع التأثُّر- كلَّا، ليس هذا بالتوصيف المناسب؛ بل أقصد مألوفًا. إذا أردت من جمهورك أن يَفهمك، فعليك أن تتواصل معهم. لكن في الوقت نفسه، لا أعني أن عليك إرخاء دفاعاتك وإفشاء كلّ شيء". وبعد أن منحتُه برهةً ليُقلّب فيما قُلت، أردفت: "بماذا تُفكّر؟"

"إنَّها أمورٌ مؤلمة، يا هنري. ومحرِجة. وأكثر بكثيرٍ ممّا تحتملُ أماند سماعه".

"أنا على يقينٍ من أنَّ بإمكاننا إيجاد طريقةٍ للتواصل عاطفيًّا مع جمهورك دون الحاجة إلى الكشف عن أيٍّ منكما".

"ولم عليَّ أن أخبر أيَّ شخصٍ عن تلك المرحلة من حياتي؟"

كانت صياغة الردّ أصعب ممّا توقَّعت، ولا سيما أنَّه في ذلك الوقت تمامًا بدأ رجلٌ لم أرَهُ من قبل يُلوّح بذراعيه محاولًا أن يلفت نظر البريطانيّ، لكنَّني قلت في نهاية المطاف: "أنت تطرحُ نظريَّاتٍ تألَفُها عقولنا بصدد كيفيَّة ارتباطنا بالرأسماليَّة والمجتمع: فإمَّا أن نقبل بحجَّتك أو نرفضها. لكن إذا كنت مستعدًّا لمشاركتنا بعض شؤونك الشخصيَّة، فسيترك ذلك صداه في داخل كلٍّ منَّا. إنَّ البشر يألفون المشاعر؛ هذه خصلة لا نستطيع مقاومتها". لم أكن متأكّدًا من أنَّني استطعت إيصال ما أردتُ قوله على نحوٍ كافٍ، أو أنَّ ويل كان يُصغي إليَّ في الأصل بعد

مكتبة ياسمين

أن رأى ذلك الرجل، لكن حسبتُ أنَّه يُفضِّل إيجاد حلٍّ فكريٍّ لهذا الانفصال العاطفيّ بغضّ النظر عمَّا قلت.

"حان موعد تقديم الشكر"، قال ويل، كما لو أنَّ كلماته غنيَّةٌ عن التفسير، قبل أن يتبع الرجل إلى الخارج، في الاتِّجاه المعاكس للبيت البلاستيكيّ، نحو منطقةٍ بحجم ملعب كرة قدمٍ ومحدَّدةٍ بصخورٍ صغيرةٍ بيضاء. لمحتُ كيانو الذي كان في ميدان الرماية يقف وحيدًا في منتصف ذلك المستطيل.

"ها هو رياضيُّنا"، قال ويل.

بدأ كيانو يهتف بأسماءٍ في حين ضربَت امرأةٌ طويلةٌ على طبلٍ كبيرٍ يتأرجح من رقبتها وسارت ببطء باتِّجاهه. لحق بها قرابة عشرة أشخاص، بعضهم يتحرَّكون على إيقاع الطبل مثل جنودٍ في موكبٍ عسكريّ، بينما يسير البقيَّة خلفهم بتثاقل، إلى أنَّ انتظموا في مجموعتين مقابل كيانو.

في تلك الأثناء، انضمَّت أماندا إلينا، أنا وويل. لم أرها خلال جولتي. ابتسمَت ابتسامةً خافتة، وأغلب الظنّ أنَّها كانت للكاميرا وليس لي، ممَّا جعل من الصعب تقدير ردِّ فعلها إزاء المسير التي تحدث أمامنا.

"هنالك متَّسعٌ لمئة شخص"، همس ويل لي. "تخيَّل فقط أنّ هنالك مجموعتين أو ثلاث مجموعات بحملة ألوية، ومقسَّمة إلى فرق، مثل أوركسترا. وعلى رأس كلٍّ منها مستشارٌ روحيّ. وقد نتمكَّنُ ذات يومٍ من ضمِّ الماشية إلى الاحتفاليَّة أيضًا".

أزعجَت أنفاسُه الحارَّة أذني، وشعرتُ بالامتنان لتوقُّف قرع الطبل. غضَّنت عيناي مضطرًّا لأنَّ وهج الشمس أشعرني بالغثيان.

مكتبة ياسمين

تدلَّت مطارق الطبل الناعمة بخجلٍ من معصمي المرأة الطويلة في حين أحنى الجميع رؤوسهم، بما في ذلك ويل. شعرتُ بوخزٍ خفيف في فروة رأسي التي كانت تحترق في الشمس. ولم أكن واثقًا كم من الوقت بإمكاني أن أصمد واقفًا هناك من دون حماية، ولا سيما بعد جولة البيت البلاستيكيّ؛ بيد أنَّ الاستعراض كان قيِّمًا للغاية في نظري، ولم يكن بمقدوري أن أفوِّتَه.

"نحنُ نقرُّ بوجود الربِّ ونعبده"، صاح ويل، بصوتٍ عالٍ وواضح.

أتبع ذلك ضرب على الطبل ثمَّ تصفيق. صفَّق الجميع في الوقت الذي لوَّح فيه الأشخاص في الميدان براياتٍ بيضاء كانوا يخفونها حتَّى تلك اللحظة. هبَّت زوبعةٌ صغيرةٌ ودارت حول تلك الفرق.

استدار جمهور المتظاهرين وأخذوا يبتعدون عن المستطيل. في ذلك الحين، بدأت الألوان تخبو داخل عالمي، وبينما كنتُ أشاهدها وهي تتلاشى، فكَّرتُ: اللعنة، سيغمى عليَّ.

واصل ويل كلامه، غافلًا عن حالتي الباهتة: "في المستقبل، سننشدُ ترنيمةً- لم يتسنَّ لي الوقت لتأليفها بعد- قبل ورشة عمل بعد الظهر".

بدا أنَّني لسببٍ ما اعتبرتُ ما قالَه بمثابة إشارةٍ لي كي ألتقط بعجالةٍ صورةٍ له وهو يحدِّق نحو أرض الاستعراض الخاوية، فتقدَّمتُ للأمام. استدار ونظر إليَّ بعينين ملؤهما الدهشة. راقبَني كيف كنتُ أراقبه حينما زلَّت قدماي عن الأرض الساخنة تحتهما.

ثمَّة علبةٌ مفتوحةٌ من بسكويت الشاي على طاولةٍ مشمَّعةٍ ما بيني وبين ويل وأماندا. وعلى الحوض، كان هناك إبريقٌ ساخنٌ من شاي الروبوس قيد التخمير. ومع أنَّني واجهتُ صعوبةً في تركيز انتباهي، إلَّا أنَّني كنتُ في مطبخ هارموني الصغير، وكان الزوجان البريطانيَّان يراقبانني بقلق.

"كيف تشعر؟"، قالت أماندا.

كان رأسي يؤلمني من حيثُ لا بدَّ أنَّه موقع ارتطامه بالأرض.

"أمهليني بعض ثوان. أين كاميرتي؟"، قلت.

"هُنا"، قالَت. كانت على كرسيٍّ شاغرٍ ما بيننا. بدا أنَّ العدسة لا تزال بخير، وأنَّه ما من أثرٍ لأيِّ ضرر على الهيكل الرئيسيّ.

"لقد مكثتُ في ضوء الشمس طويلًا".

شربتُ الشاي الذي أعدَّاه لي؛ وتناولتُ على مضضٍ بعضًا من ذلك البسكويت القاسي.

"أفضل؟"، قالت أماندا.

"أظنُّ ذلك".

غادرت أماندا بعد محادثةٍ مقتضبة. تركت قطعةً من البسكويت مأكول نصفها لتلين في الشاي الذي سكبَ بعضًا منه في صحن فنجانها. حدَّقتُ وويل مليًّا في تلك البقايا المبلَّلة بالشاي. لم أكن متأكِّدًا ممَّا يمكن فهمه بصدد علاقته بأماندا، أو مدى تورُّطه مع شقيقتي، أيًّا كان معنى ذلك.

"أن نجعلَ العالم مكانًا أفضل"، قال، كما لو كان يحدِّث نفسه.

على نحوٍ يتعارضُ مع رغبتي، تركتُ الكاميرا في مكانها وقلتُ له: "حدِّثني عن لندن".

قال وقد فاجأهُ طلبي: "أحدِّثُك عن لندن؟ لكنَّك تعـرف أنَّني وصلت إلى طريقٍ مسدود، يا هنري. لقد تهاوى كلُّ شيءٍ من حولي. أنت تعرفُ كلَّ ذلك". ثمَّ أومأ برأسه إلى الكاميرا، وأردف: "لا مانع لديّ. صوِّرني، إن كنت ترغب بذلك. لا مانع لديَّ حقًّا. لو كنتُ لا أزال في لندن الآن، لكنتُ صورتُ نفسي بنفسي على الأرجح. لعلَّك على حقّ: قد يشعر الناس بشيءٍ يربطهم بي؛ قد يتعلمون من أخطائي".

"هل أنت على علاقةٍ بشقيقتي؟"

"آه"، قال، متنهِّدًا. "أجل، بيد أنَّني لم أتعمَّد حدوث ذلك، أوكِّدُ لك. لكن أظنُّ أنَّني كذلك. ثمَّة صلةٌ وثيقةٌ بين هذا الأمر وقرارنا ببيع منزلنا". استبدَّ بي هاجسٌ بصدد أنَّه على وشك السؤال عن والديّ، لكنَّه لم يقل سوى: "هل ستفعل هذا من أجلي؟"

أومأت برأسي.

"حسنًا" قال. "ثمَّة ما أريدُ أن أسألك عنه، إن لم يكن لديك مانع".

هيَّأتُ نفسي: عن والدك...

"لا أريدُ منك أن تقضي في العمل أكثر من بضع ساعات على كلِّ محاضرةٍ من محاضراتي"، قال.

لم يكن ما توقَّعته. "ماذا تقصد؟"

"حدِّد عملك بفتراتٍ زمنيَّةٍ مدَّةُ كلٍّ منها ساعتان فقط؛ مثلما نفعل هُنا في هارموني. هذا مهم حقًّا بالنسبة إليّ".

لم أستطِع تحديد ما إذا كان في نيَّته أن يُبعِد انتباهي عن المزيد من الحديث عن لندن أو عن شقيقتي؛ أو ما إذا كان مهتمًّا بصدقٍ بأسلوب عملي.

"أريدُ منك أن تُقسّم يومك إلى مجموعةٍ متنوّعةٍ من المهام".

طمأنته، قدر المستطاع، بأنَّني بعد أن شاهدتُ بأمّ عيني كيف حوَّل رؤيته إلى واقعٍ بفضل عمله الشاقّ، فإنَّني سأكون سعيدًا بفعل كلّ ما ينصحني به.

"أنت رجلٌ طيِّب. هل تشعر بتحسُّنٍ بعد سقطتك؟"، قال. "لقد سقطت بقسوة. دعني أوصلك إلى منزلك على الأقل".

"أنا بخير، سأتدبَّر الأمر. كنت أتساءل فقط عمَّا إذا كنت قد فكَّرت بميزانيَّةٍ مخصَّصةٍ لهذا العمل. كم بمقدورك أن تدفع لي؟"

"أكيد، بالطبع"، قال، "كنت آملُ أن أتحدَّث إليك بهذا الصدد. لكن ما رأيُك بأن نتوقَّف عن العمل عند هذا الحدّ، على الأقلّ ريثما تتسنَّى لي فرصة للتفكير ومن ثمَّ سيكون في وسعنا أن نتناقش في ذلك معًا؟ لقد شعرتُ ببداية صداعٍ نصفيٍّ مذ كنَّا نُقدِّم الشكر، وأخشى أنَّني لن أستطيع أن أكون بكامل تركيزي إذا ما حاولنا الحديث الآن عن المال".

"صداعٌ نصفيّ؟ أنا من أغمي عليه!"

ابتسم ابتسامةً خافتة. "كلُّ ما في الأمر أنَّني كنتُ أتساءل إن كان بوسعك، ربَّما، التفكير بالتبرُّع بوقتك لصالح هذا المشروع". انحسر نظره نحو البسكويت المبلَّل بالشاي في صحن فنجان أماندا. "ادعمني على هذا النحو. وفقط إذا كان ذلك ضمن نطاق الممكن، بالطبع..."

"تبرُّع؟"

"لقد أردتُ أن أقول لك إنَّني تواصلتُ مع صديقتي التي حدَّثتكَ عنها بصدد مشاركتك في مهرجان شيفيلد. وقد أخبرتني

بأنَّها ستحبُّ أن ترى ما لديك وتعطيك بعض النصائح أيضًا بمجرَّد أن تكون جاهزًا. بل وربَّما ستعرضُ فيلمك على الأشخاص المناسبين ضمن لجنة الاختيار الخاصَّة بالمهرجان".

"هذا لطيف"، قلتُ، غير واثقٍ من أنَّ بوسعي تصديقه.

"أجل، اعتقدتُ أنَّ ذلك سيسرُّك. لقد حدَّثتُها عن فيلمك الوثائقيِّ الرائع عن الفصل العنصريّ، وقد ذهِلَت بما سمعت". ثمَّ نهض عن كرسيه، وقال: "حسنًا، على أيِّ حال، سنتحدَّث مرَّةً أخرى قريبًا. لدينا أمورٌ كثيرةٌ ينبغي التفكير فيها، لكن لا بدَّ أن أستلقي الآن".

لحقتُ به حتَّى الباب الذي تسلَّلتُ عبره أيَّام مراهقتي، لكنَّني لم أخرج.

"كولمانس"، قلت.

استدار قائلًا: "ماذا؟"

"كولمانسكوب؛ القرية المهجورة. ينبغي أن نُصوِّر هناك. إنَّها موقع جميل للتصوير".

"عليَّ أن أراها أوَّلًا. سبق لي أن قدت السيارة على مقربةٍ منها فحسب".

أخذتُ نفسًا عميقًا. "أنا متحمِّسٌ للعمل معك يا ويل، بكلِّ صدق. ولديَّ الكثير من الأفكار بشأن إنتاجٍ فنِّيٍّ لمحاضراتك؛ على نحوٍ يجعلها تبدو احترافيَّة".

"هذا لطيفٌ جدًّا..."

"لكن سأحتاج منك أن تدفع لي مقابل وقتي التي أنفقته اليوم".

خفَت البريق من عينيه. "لا أحمل مالًا معي الآن. وفي الواقع، ليس لديَّ الكثير من المال".

لم أصدِّق أيَّ كلمةٍ ممَّا قال. إنَّ سعر صرف العملات كفيلٌ بتحويل أيِّ عجوزٍ لندنيّ، بما في ذلك أفقرهم، إلى ثريٍّ في ناميبيا.

"لستُ أطلب الكثير"، قلت، "لكنَّني توقَّعتُ أن أتقاضى أجرًا اليوم؛ حتَّى لو كان تعويضًا عمَّا استهلكت سيَّارتي من وقود".

لولا شقيقتي، لاستبعدني على الأرجح من العمل وأوقف المسألة عند هذا الحدّ. لكنَّني تمسَّكتُ بموقفي؛ وما كنتُ لأتزحزح قيد أنملة. وحتَّى لو لم يحر جوابًا، فقد كان بمقدوري احتمال الصمت غير المريح إلى أن يجد ما يقول. لقد تعلَّمتُ من المقابلات المشحونة التي أجريتُها ألَّا أبرح مكاني؛ أن أصمُت وأنتظر حدوث أمورٍ جيِّدة.

صعدَ إلى الطابق العلويّ ثمَّ عاد يحمل ظرفًا. فتحتُ الظرف أمامه. شكرتُه بعد أن عددتُ المال إذ كان أكثر ممَّا توقَّعت.

"كيانو بحاجةٍ إلى توصيلة"، قال، بنبرةٍ لا تخلو من الازدراء.

إذا كانت طريقته في تصفية الحسابات هي التعامل معي كسائق سيَّارة أجرة، فهذا أمرٌ بمقدوري أن أحتمله.

وجدتُ كيانو في الخارج متَّكِئًا على شاحنتي.

"سلام، يا صاح"، قال.

"سلام، يا صاح"، قلت. "هل المكان الذي تقصِدهُ في طريقي؟"

"أنت تعمل لدى ويل الآن، أليس كذلك؟"

"لستُ في مزاجٍ مناسب للسخرية".

"أجل، هناك بالقرب من محطَّة الطاقة القديمة".

"اصعد!" فتحتُ النافذة في الطريق إلى القرية بسبب رائحته الكريهة نتيجة العرق والجعة.

مكتبة ياسمين

"مهلًا، ألا تمانع دخول الرمال إلى سيّارة الأجرة خاصَّتك؟"

"أحبُّ الهواء الطلق".

"جيِّد!... هذا جيِّد!".

ذكَّرتني رائحته المالحة بالمدانين السابقين الذين صوَّرتهم في جوهانسبرغ. تُرى ماذا سيكون رأي أولئك الرجال بمشروع هارموني؟ لا شيء مغرٍ هُنا للسرقة. بل ربَّما سيدركون أنَّ هذا المكان لن يستمرَّ طويلًا؛ ليس في وسط مُسطَّح ملحٍ من دون مياهٍ عذبةٍ أو أرضٍ صالحةٍ للزراعة، بصرف النظر عن نوايا أصحابه.

لمحتُ زغبًا على وجنتي كيانو، وبعض قشور الجروح على مفاصل أصابعه. أخبرتُه بأن يحمي يديه أثناء العمل، لكنَّه قال لي بفخرٍ إنَّ هذه الآثار ناجمةٌ عن ممارسة لعبة كيك بوكسنغ.

"سأضرب كلَّ ما تقع عليه عيناي، يا صاح"، قال. "جدران، وصخور. وكلُّ شيء. سيجعلني ذلك قويًّا".

بدأ يتحدَّث إليَّ عن مسابقة ركوب الأمواج- مشيرًا بين حينٍ وآخر إلى أسماء اللاعبين كما لو كنت أعرفهم- في حين انجرفَت أفكاري إلى الفيلم الوثائقيّ الذي أصنعه عن السجن. تكمن إحدى مشكلات فيلمي في أنَّ جميع المدانين السابقين فيه قد ارتكبوا جرائم شنيعة؛ ولم أكن واثقًا من أنَّه سيكون في وسع جمهوري تجاهل هذه الحقيقة. لكن ينطبق الأمر نفسه أيضًا على وثائقيّ الفصل العنصريّ: لم يكن هناك ما هو جذَّاب بصدد فيرورد أو اغتياله. لقد شعرتُ بالتعاطف مع تسافيندااس، لكن ليس بالقرب منه أبدًا، وبالتأكيد لم أشعر بشيءٍ سوى الاحتقار إزاء رئيس الوزراء.

وهذا ما سيزيد من فرص نجاح فيلمٍ عن ويل وأماندا؛ فمشهدُ تجوال رجلٍ وامرأةٍ من لندن في هذه القفار قد يجعلهما مُحبَّبين في نظر الجمهور. إذا تمكَّنتُ من صنع فيلمٍ عنهما، فسيكون بمثابة انطلاقتي الأولى في لودريتز؛ والأوَّل بالتأكيد من ناحية أنَّه مموَّلٌ من قِبل موضوعه. وسأكون كاذبًا إن لم أقل إنَّ فكرة الحصول على تمويل من ويل من أجل تصوير الفيلم، برغم كلِّ ما لديّ من نقصٍ في الإمكانيَّات، لا تروق لي.

"رأيتكَ قبيل أيَّامٍ تسبح في جزيرة القرش"، قال كيانو. "هل تذهب للسباحة يوميًّا؟"

"أحاول ذلك".

"أنا لا أحبُّ البحر".

"أنا لا أسبح في مياهٍ مفتوحةٍ حقًّا، وإنَّما في حوضٍ مدّيّ".

"تبدو بصحَّةٍ لائقةٍ باعتبارك كبيرًا في السنّ. لا أقصد أنَّك عجوز. لكن، أنت تعرفُ ما أقصد".

"يتطلَّب الأمر تدريبًا وممارسة. أظنُّ أن ويل يبقيك مشغولًا".

"أجل، إنَّهُ رائع. يبدو مثل عالِمٍ مخبول بكلّ تلك الأفكار التي في جعبته".

سيتعيَّنُ عليَّ إجراء مقابلةً مع كيانو، بالطبع. فإيمانُه الأعمى بهارموني سيكون إضافةً قيّمةً على الشاشة.

"هل ستحضر حفل الشواء؟"، قال.

"عمَّ تتحدَّث؟"

"لدينا حفل شواءٍ شهريٍّ في هارموني. إنَّ شقيقتك تحضره على الدوام. يُقام الحفل على شاطئ العقيق". وشرع يصف موقع

الشاطئ لكن سرعان ما قاطعته لأنَّني أعرف المكان. كانت عمَّتي قد اصطحبتنا إلى هناك في نهاية العطلة المدرسيَّة كي نودِّع البحر ونشاهد آخر غروب شمسٍ لنا في ناميبيا قبل رحلتنا المضنية إلى جنوب أفريقيا.

"يـا إلهـي!" قلتُ، بعد أن انتبهت إلى السلاح الملقى في حجر كيانو. "ضع ذلك الشيء بعيدًا".

أضحكَهُ ردُّ فعلي.

"ضعهُ في صندوق لوحة القيادة"، قلت. "لماذا أحضرتَهُ معك؟"

"إنَّه معي في كلِّ مكان". بينما كان يُخبِّئ سلاحه، قال: "ما هذا؟"، ولوَّح بعلبة مرطِّب اليد.

"ينبغي أن تستخدم بعضًا منه".

عصر مقدارًا ضئيلًا من المرطب على كفِّ يده، وقال: "أتريدُ بعضًا منه أيضًا؟"

"أنا أقود".

ذكَّرتني رائحة الفانيلَّا بمدى جوعي. كنت سأوصل كيانو قبل أن أهرع إلى المتجر وأشتري البقالة بالمال الذي حصلت عليه من ويل.

"رائع"، قال كيانو، متفحِّصًا يديه وكأنَّهما ليستا له. عالقًا مع ويل في تلك القفار، بدا جليًّا أنَّه لم يكن يهتمُّ بنفسه.

"بإمكانك الاحتفاظ بها"، قلت.

"المرطِّب؟"

"أجل، سأشتري لنفسي علبةً أخرى. واحرص على ارتداء القفازات سواءٌ عندما تضرب تلك الجدران أو أثناء اللحام".

دفعَه هذا إلى الحديث عن حامل العنفة الجديد في هارموني، وقد جعلني توصيفه للمحرِّك، باعتباره أعجوبةً ميكانيكيَّة، أتساءلُ عمَّا إذا كان جنونُ ويل معديًا. وفي الحدِّ الأدنى، بدا أنَّ حماسة البريطانيِّ قد أصابَت هذا الفتى. لكنَّني أشكُّ، بحكم معرفتي المحدودة بأماندا، أنَّ الأمر نفسه حدث لأماندا.

"من أين أنت؟"، قلتُ، مقاطعًا.

"من سواكوب".

"والهدف من وراء مجيئك إلى هُنا..."

"طلبًا لثروة، يا صاح. في السنة الفائتة، أعطاني والدي تركتي بحسب ما أوصَت به والدتي، وأخبرتُه أنَّني سأضاعف المبلغ".

"أنا آسف لرحيل والدتك، يا كيانو".

لم يقل سوى "أجل".

"حذار من أن تعطيه كلَّ مالك!"

"يقول ويل إنَّه على المرء أن يُنفق المال كي يكسب المال".

"أحقًّا يقول ذلك؟"

لم أستفسر عن عائلته لئلَّا أبدو متطفِّلًا. كما لم أقدر أيضًا على احتمال معرفة ما إذا كان ويل قد أقنع كيانو بالاستثمار في مشروعه السخيف- ربَّما عليَّ أن أجد سبيلًا للتحدُّث مع شقيقتي في هذا الشأن.

دلَّني كيانو على مكانٍ أركن فيه سيَّارتي، على مقربةٍ من المصانع القديمة في دياز بوينت. ترك باب الراكب مفتوحًا، وهرع إلى بوَّابتين معدنيَّتين هزَّهما بقطعتين من الورق المتناثر في كلِّ مكان. قعقعت الأبواب عاليًا منبِّهةً الكلاب في الحيّ.

"استمتِع"، قلت، وكأنَّني أخاطب نفسي وليس كيانو، وأرخيتُ حزام الأمان كي أتمكَّن من إغلاق بابه. "عليَّ أن أمضي الآن".

أخذ كيانو في تلك الأثناء يصيح على الحيوانات كي تصمت. ولمَّا فشِلت محاولاته في ذلك، صوَّب سلاحه في الهواء وأطلَق منه ثلاث عياراتٍ ناريَّة.

عُلِّقَت على البوَّابة المفتوحة لافتةٌ كبيرةٌ كُتب عليها: "غرفة برسم الإيجار".

"كفى سخفًا أيُّها الأحمق!"، صاح رجلٌ في طريقه نحونا. بدا من لهجته أنَّه أستراليٌّ أو نيوزيلنديّ. "ضع السلاح من يدك".

تعرَّفتُ على الرجل حيثُ كان على العوَّامة عند الميناء، ونزلت من السيَّارة لأحيِّيه. كان قميصُه مشدودًا على ندباتٍ غامقةٍ وكاشفًا عن ذراعين متناسقتين مفتولتي العضلات بفضل العمل الشاقِّ لا الصالة الرياضيَّة على غرار ياغو. ضغط بطنُه الصغير على قميصه.

"لقد أحضرت معك صديقًا، يا كيانو"، قال، قبل أن يُعرِّفني بنفسه؛ كوينتي- مايك كوينت- ومضيفًا: "لا أستطيع مصافحتك الآن"، لأنَّ قفَّازيه كانا لزجين بفعل الصمغ. "هل تودُّ الانضمام إلينا؟ لكن ينبغي أن أفرغ من شيءٍ قبل ذلك..."

"بالتأكيد، لديَّ بعض الوقت"، قلتُ، وأقفلتُ باب سيَّارتي.

على صفٍّ من الخطَّافات المعدنيَّة، تدلَّت أدواتٌ على طول الجدار البعيد في ورشة كوينتي، كأنَّها شرائح لحمِ بيتلونغ في محلِّ جزارة. لم تُزعجني رائحة الستايرين الحلوة، بيد أنَّ كيانو فضَّل الانتظار في الخارج بذريعة أنَّ هذه الرائحة تسبِّبُ له الصداع في كلِّ مرَّة.

"أحتاج إلى بعض الوقت كي أنتهي من هذه"، قال كوينتي حين صرنا بمفردنا.

سررتُ بمشاهدته وهو يضع طبقةً من الألياف الزجاجيَّة في القالب، ويطلي السجَّادة البيضاء حتَّى تتشبَّع بصمغ الإيبوكسي. تراجع خطوةً إلى الوراء، حاملًا بيده الفرشاة، كي يتحقَّق من عمله. ولعلَّه نسي لوهلةٍ أنَّني كنت واقفًا هناك حين دفع طرف يده التي ترتدي القفَّاز إلى خصيتيه كي يمنح نفسه بعض الراحة. ثمَّ سرعان ما ألقى فرشاته في دلوٍ وانتقى أداةً معدنيَّةً رقيقةً كأنَّها قلم رصاص، وبدأ يُقلِّب الألياف الزجاجيَّة المنقوعة بالصمغ.

"فقاعاتٌ من هواء"، علَّقَ من دون أن يرفع رأسه. "سأتخلَّصُ من هذه الأشياء الدقيقة التافهة. أعطني دقيقةً أو دقيقتين فحسب".

اختار بعد ذلك صفيحةً جديدةً من ألياف الزجاج ومزَّقها كي يُغطِّي القالب. ثمَّ عقب نقعه بالصمغ، صقله بالمدحاة قبل أن يرمي قفَّازيه على كرسيٍّ خشبيٍّ صغير. نادى على كيانو حينما بدأ يغسل يديه في دلوٍ مليءٍ بالأسيتون. ثمَّ صافحني في نهاية المطاف.

"الآن تعارفنا على نحوٍ لائق. دعني أخمِّن"، قال لكيانو حينما

انضمَّ إلينا، "جئت كي تدفع لي؟"، قال مبتسمًا. "كلَّا؟ لا عجب في ذلك! تولَّ شأن هذا الدلو، يا كيانو. أبعِدهُ من هنا، وسأضيفه إلى فاتورتي. واحذر من الصمغ، فإنَّه لم يجفَّ بعد".

قادنا كوينتي إلى طاولة العمل خاصَّته، حيثُ بسط براحة يده لُفافةً لمخطَّطٍ معماريّ، وثبَّت زواياها الأربعة بأثقالٍ معدنيَّة. طُبِعَت عبارة "سُلامى لودريتز" في أعلى اللفافة. كان المخطَّطُ مشابهًا لمخطَّط ويل الذي شاهدته في هارموني. لكن مع فارق أنَّ الجناحين لم يكونا مستويين: فالجناح الأيمن على شكل الحرف Z والأيسر على شكل Z بالمقلوب. كان كلاهما مقسَّمًا وفقًا لوظيفته: "غرفة نوم"، و"معالجة"، و"مجموعة عمل"، و"إشراف"، و"نجارة"، و"أشغال معدنيَّة"، و"جِلديَّات"، وما إلى ذلك.

"سأريكما ما كنتُ أحاول أن أشرحه للقسّ مون عبر الهاتف"، قال كوينتي. ثمَّ، وبالتركيز على نتوءات الشكل Z، شرع يسرد المشكلات التي تتعلَّق بتصميم ويل، والتي ينبغي إيجاد حلول لها قبل بدء أعمال البناء.

بدأتُ في تلك الأثناء بالتصوير، تحت نظرات كيانو المتشكِّكة.

"هذا من أجل ويل"، قلتُ كذبًا ومن دون أن أخفِض الكاميرا.

"ركِّز!"، قال كوينتي، مطقطقًا أصابعه كي يلفت انتباه كيانو. رسم دائرةً حول جزء من المخطَّط بواسطة قلم رصاص ثخين. "سيكون لديك أشخاص يعملون هُنا، على بعد أمتارٍ قليلةٍ من غرف النوم. هذا ليس مناسبًا. وإنَّني أدركُ أنَّ ويل يُكرِّر باستمرارٍ أنَّه لن تكون هناك حاجة إلى النوم مجدَّدًا في المستقبل، لكن

بمقدوري أن أحلِف لكما أنّ ذلك لن ينجح البتَّة. ثمَّ كيف ستتمكَّن من نقل المواد الخامّ إلى هذه المصانع من دون إحداث فوضى في المكان المخصَّص للمعيشة؟ وينطبق الأمر نفسه على البضائع التي ستغادر المبنى أيضًا. وعلاوةً على ذلك، لا أدري حقًّا إن خطر ذلك على بالك؛ أنَّ هذا النوعَ من العمل شديدُ الصخب".

حملق إليَّ مُطوَّلًا، كما لو انتابه الفضول بشأن دوري في كلّ هذا، قبل أن يعيد انتباهه إلى كيانو الذي كان يحاول يُصحّح له.

"ورش عمل"، قال كيانو.

كرَّر كوينتي القول: "إنَّ مشكلتك الرئيسيَّة تكمن في أنَّ كلًّا من غرف المعيشة والعلاج شديدة الالتصاق بمصانعك".

"ورش عمل"، قال كيانو مرَّةً أخرى. "ليست مصانع".

"أيًّا كان اسمها! دعك من الانشغال بالمصطلحات الآن". حرَّك كوينتي أصابعه أمام وجهه، وقال: "هذه يد، وليسَت عصا سحريَّة. ما أريد قوله هو إذا كان ثمَّ مسكينٌ أحمق يبوح بمكنونات قلبه للمعالج النفسيّ، فإنَّه سيسمع في تلك الأثناء كلَّ ضربة مطرقةٍ في الغرفة المجاورة". ورفع حاجبيه في استنكار.

قال كيانو: "يقول ويل إنَّ الجميع سيعملون".

"أدري ذلك. وأنا على ثقةٍ من أنَّ زعيمك ماو[1] يصنع المعجزات هناك، لكن ماذا سيحدث في حال كُسِرت ساق أحمقٍ ما؟ أو بلغ من السنّ حدًّا لم يعد يسمح له بالعمل؟ أو، لا أدري: إذا اضطرَّ

---

1 في إشارة إلى الزعيم الشيوعيّ الصينيّ ماو تسي تونغ مؤسِّس جمهوريَّة الصين الشعبيّة.

مكتبة ياسمين

أحدهم إلى رعاية طفلٍ مريض. هناك سببٌ يدفع مخطِّطي المدن إلى عدم بناء المستشفيات في وسط المناطق الصناعيَّة".

نظر كيانو مليًّا إلى المخطَّط كما لو كان يحمل الإجابة. في ذلك الوقت، ألقى كوينتي نظرةً سريعةً إلى سروالي، في حين أزحت عيني عن محدِّد النظر في الكاميرا كي أتأكَّد من أنَّ سحابَه غير مفتوح. تبسَّم لي.

"هل تسكنُ في البرج المركزيّ؟" سألَ كيانو.

أجبتُ بدلًا من الأخير الذي ظلَّ صامتًا: "أجل".

خاطبَني كوينتي، قائلًا: "كما ترى، ليس بمقدورهم تحمُّل تكلفة الإضافات على الجناحين- جناح للمعيشة وآخر للإقامة- لذا عليهم أن يقدِّموا بعض التنازلات. وهذا ما أوقعهم في هذه الورطة". ثمَّ سأل كيانو عمَّا إذا كان يُدركُ مدى ضآلة غرف المعيشة الجديدة، لكن لم يحر الأخير جوابًا، فأخبرنا كوينتي بأن نتبعه إلى الفناء حيثُ بسطَ على الأرض مُخطَّطًا لغرف النوم والاستحمام في هارموني. حينما تحرَّك، التصق قميصه الرطب بصدره وظهره. كانت الغرفة ضيِّقة جدًّا بحيث بالكاد تتسِّع إلى سرير. ذكَّرتني أبعادها غير المتطابقة بمنزل النخلتين التوأم.

"هل ترغب بمزيدٍ من الشرح؟" قال كوينتي.

لم يجد كيانو ما يقوله، لذا عدنا نحن الثلاثة أدراجنا باتِّجاه سيَّارتي. فتحت باب السائق فقط إذ لم يكن في نيَّتي أن أعيد كيانو إلى هارموني مجدَّدًا.

"أتريد تأجير غرفتك؟"، تمتم كيانو قبل مغادرتنا.

"على حسب المستأجر"، قال كوينتي.

مكتبة ياسمين

"أعرفُ شخصًا من هارموني يبحث عن غرفةٍ شاغرة".

"إذًا فجوابي لا في هذه الحالة".

"لكنَّه شخصٌ لطيف".

"ما زال جوابي نفسه".

"بإمكانه أن يدفع لك".

"كلّا".

"لم كلُّ هذا الرفض، يا صاح؟"، سأل كيانو. "على الأقلّ، تعرَّف عليه أثناء حفل الشواء قبل أن تقول لا. ستأتي، أليس كذلك؟"

"ماذا عنك؟"، سألني كوينتي.

"أجل"، أجاب كيانو في الوقت الذي كنت أقول فيه إنَّني سأحاول الحضور.

"بالتأكيد"، قال كوينتي، "سأكون هناك".

"هذا رائع"، قال كيانو. "سنتحدَّث لاحقًا. عليَّ أن ألتقي بعددٍ من أصدقائي في القرية".

"سيذهب إلى الحانة"، قال كوينتي لي حينما سار كيانو على مهلٍ باتّجاه دياز بوينت. "لا بأس. إنَّه فتى لطيف لكن عديم الخبرة عندما يتعلَّق الأمر بالمشاركة في سخافات ويل. أنا بحاجةٍ إلى شخصٍ يستطيع اتِّخاذ القرارات؛ والقيام بشؤونٍ مهمَّةٍ لا يعبأ ويل بها. إنَّهم ليسوا أشخاصًا عمليّين. لكن كان الوضع أسوأ حينما اضطررتُ للتعامل مع أماندا".

"لا تنتظر منِّي جوابًا"، قلت، فضحِك لما سمع.

"ما علاقتك بكلّ هذا؟"

مكتبة ياسمين

"شقيقتي تعرفُ ويل. لوسيًّا".

"لوسيًّا شقيقتك؟"

"وأنا أصوِّرُ فيلمًا عنه".

"احرص على أن يدفع لك أجرًا؛ ذلك الكلب المتملّص".

"أحسبُ أنَّ لديه مالًا".

"حسنًا! لقد انتظرتُ أن يبيعا منزلهما في لندن كي يدفعا ما يدينان به لي مقابل عملي في نزوتهما الأفريقيَّة. لكن مع عودتهما إلى المدينة، بدا لي شيئًا فشيئًا أن ذلك لن يحدث في القريب العاجل. لذا أظنُّ أنَّهما يريدان الاحتفاظ بكلِّ شيءٍ لنفسيهما". ثمَّ لمس صدري مودِّعًا، في حين تركت يدي تحطُّ ببطءٍ على ظهره الدافئ الرطب.

كنت أحمل البقالة إلى مطبخي حينما لمحتُ جاري يدخل منزله على الطرف المقابل من الشارع. فوضعتُ الحليب داخل الثلَّاجة، وقرَّرتُ التحدُّث إليه بصدد عواء كلبه التعيس.

عندما اقتربت، انتبهتُ إلى أنَّ باحة منزله مليءٌ بقمامةٍ أكثر ممَّا استطعتُ رؤيته من منزلي؛ علبٌ كرتونيَّةٌ للوجبات جاهزة، وعظام دجاجٍ جافَّة، وورقٌ مشمَّع.

قرعتُ الجرس. لم أكن متأكِّدًا ممَّا أريد قوله عندما يجيب. كانت هناك كاميرا مراقبةٍ مثبَّتةٌ على الجدار بجانب الباب الأماميّ. لم أتلقَّ جوابًا عندما قرعت الجرس للمرَّة الثانية، مع العلم أنَّ الكلب بدأ ينبح. صاح الرجل على الحيوان كي يصمت، لكنَّه لم يفتح الباب.

مكتبة ياسمين

شعرتُ بالانزعاج، بل الغضب، وبالسرور إلى حدٍّ ما لأنَّ جاري كان خائفًا جدًا من الحديث معي. مبتهجًا بهذا الانتصار، عدتُ إلى منزلي وكتبت له ملاحظةً أطلب فيها أن يهتمَّ بكلبه وينظِّف باحة منزله الأماميَّة. اختتمت الملاحظة بعبارةٍ عن الفئران، وهرولت عائدًا على منزله حيثُ وضعت الورقة داخل صندوق بريده. طويتُها إلى ثلاثة أجزاء، وكتبتُ على الجزء الخارجيِّ رقم منزله. تشقلبَت الرسالة في الهواء قبل أن تحطَّ، ووجهها إلى أعلى وكذلك كتابتي؛ كما لو أنَّني وضعتها داخل الصندوق بيدي. ابتسمتُ ابتسامةً عريضةً أمام كاميرا المراقبة.

خلال العشاء، شعرتُ بدوخةٍ نوعًا من الإثارة. كان لديَّ ما يكفي من المشاهد المصوَّرة داخل هارموني للبدء بصناعة وثائقيٍّ عن ويل؛ وفي حسابي المصرفيِّ مالٌ حصلت عليه من تشزلي؛ لكنَّ الأهمَّ من ذلك كلّه أنَّني التقيتُ بكوينتي. تصفَّحت بعد ذلك المواقع الإباحيَّة المفضلَّة لديّ، لكنَّ الصور لم تكن مُرضيةً بالنسبة إليّ. كنتُ بحاجةٍ إلى لمسةٍ من أحدهم؛ أنّ تطوّقني ذراعا ياغو، أو كوينتي، القويّتان. وطوال ذلك الوقت، ظلَّ كلب جاري، ذلك المخلوق المنبوذ، ينوح إلى سماء الليل.

"قُل لي ما رُتبتُك".

كانت تلك أولى تعليماتي لكلّ المدانين السابقين الذين قابلتهم، وكذلك طريقة تحقُّقي من مستويات الصوت. (أثناء العمل على وثائقيّ فيرورد، كان سؤالي عن وجبة الفطور، لكن سرعان ما تبيَّن لي أنَّ سؤال "الفطور" فيه الكثير من التعقيد بالنسبة إلى تلك

المجموعة من الرجال الذين كانوا يصِلون عادةً إلى الأستوديو جائعين ومنتشين في آن).

كنتُ قد أمضيتُ الأسابيع الأخيرة قبل الرحيل عن جوهانسبرغ غارقًا في مستنقعٍ من حيواتٍ شنيعة- مراحل طفولة مروِّعة، وحرَّاس أشرار، وأمراض عضال (ذكرَ البعضُ أنَّهم مصابون بالسلّ، لكن لم يفصح أحدٌ عن إصابته بالتهاب الكبد الوبائيّ أو فيروس نقص المناعة البشريّ) – ومع ذلك كنتُ متردِّدًا للغاية بصدد مشاهدة دولار عندما عدتُ إلى لودريتز. لقد أجلّتُ العمل على المقابلة التي أجريتها معه حتَّى النهاية إذ كان كلّ شيءٍ يتعلّق به يجعلني أشعر بالحكَّة.

كان اسمهُ الحقيقيُّ يان نوت، بحسب بطاقة هويَّته التي أرسلتها إليَّ الجمعيَّة الأهليَّة في جوهانسبرغ. كان قد مرَّ عامٌ على الإفراج عنه من السجن بعد أن أمضى فيه مدَّة ثلاث سنوات فقط بتهمة السطو المسلَّح. وعلى غرار الرجال الآخرين، قضى يان معظم مرحلة الرشد من حياته داخل السجن.

عثرت مصادفةً على الجمعيَّة الخيريَّة للمدانين بتكرار الجرم بينما كنتُ أنجز بعض الأعمال لصالح جامعة ويتس. كانت منظَّمة غير ربحيَّة صغيرة؛ تعنى بتوزيـع مضادَّات الفيروسات القهقهريَّة وتقديم الاستشارة مجانًا للمدانين السابقين بشأن مكافحة أحمالهم الفيروسيَّة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت تزوِّدهم بعلاجٍ مُركَّبٍ لمرض السلّ، وتعالج في بعض الأحيان ما ينتقل إليهم من عدوى منقولة جنسيًّا.

تجاهلَني دولار عندما دخل إلى الأستوديو. جرَّ الكرسيَّ المعدنيَّ من الموقع الذي وضعتُه فيه، أمام الكاميرا، ووضعه قبالة الجدار. ثمَّ سرعان ما انشغل بهاتفه، مديرًا ظهره لي.

مثل البقيَّة، كان دولار مجرمًا "مكرِّرًا"؛ كانوا جميعًا مجرمين مُكرِّرين، وقد اقتضى هذا بالضرورة انتماءهم إلى عصاباتٍ بغية البقاء على قيد الحياة داخل السجن. طلبتُ من الجمعيَّة الخيريَّة في البداية ألَّا ترسل إليَّ أيَّ مجرمين خَطِرين، لكن سرعان ما تبيَّن لي أنَّ المدانين السابقين لا يخضعون إلى توصيفٍ دقيق. وعلى أيِّ حال، من الممكن أن يكون الشخص غير المدان بارتكاب جريمة قتل قاتلًا.

كانوا مُدمِنين جميعًا، من دون استثناء. لم يُشِر أيٌّ منهم إلى المخدِّرات؛ كما لم يرغب معظمهم بالتحدُّث إليَّ عن العصابات التي ينتمون إليها، والتي كانت موضوع فيلمي الوثائقيّ؛ لكنَّهم أجاوبوا على أسئلتي على مضضٍ بفضل المال الذي كنت أدفعه.

"انظر إلى الكاميرا، من فضلك"، قلتُ لدولار. انتبهتُ إلى أنَ نبرة صوتي كانت قاسيةً حين أعدتُ الاستماع إلى التسجيل. أضفى التوتُّرُ عليَّ ملامح الغضب. ظللتُ أذكِّر نفسي بأن أسترخي.

أدار رأسه باتِّجاهي، ولم أتفاجأ عندما رأيت عينيه محتقنتين بالدم بسبب تدخين الحشيشة.

"ما رتبتُك؟"، سألتُه.

"عقيد"، قال، باللغة الأفريقانيَّة. لوَّح برأسه وأماله يمينًا وشمالًا كما لو كان على وشك الانقضاض. كان بمقدوري أن أتخيَّله مُنتظِرًا خارج أحد المجمَّعات السكنيَّة المسوَّرة، تلك

مكتبة ياسمين

القلاع الريفيَّة المليئة بالأثرياء، بغية اختطاف أيِّ شخصٍ غنيٍّ بما يكفي لقيادة سيَّارته ببطءٍ بالقرب من بوابَّةٍ أمنيَّة غير مفتوحةٍ على آخرها. سيركبُ السيَّارة ويطلب من المخطوف أن يُكمل إلى منزله، وهنالك سيجمع كلَّ من يعثر عليهم في مكانٍ واحد، وسيربط أيديهم وأرجلهم بكابلات كهربائيَّة ويقحم جوارب في أفواههم قبل أن يحكم إغلاقها بشريطٍ لاصق. سيترك الخادمة وأفراد العائلة مُقيَّدين على أرضيَّة المطبخ بينما ينهبُ المكان. أكَّد لي المسؤولون في الجمعيَّة الأهليَّة أنَّ دولار لم يبلغ قطُّ مرحلة إطلاق الرصاص على مؤخِّرة رأس أحد؛ أو يرفع شخصًا من شعره كي يحزَّ رأسه. لكن على الرغم من ذلك، كانت حياةً قاسيةً بالنسبة إليّه وإلى ضحاياه على حدٍّ سواء.

"ما هذا؟"، قال. كان يقصد بسؤاله الكاميرا الصغيرة التي ثبَّتتها في حافظةٍ على حزامي من أجل التقاط الصور بسرعة. استغرق السجناء الآخرون وقتًا أطول قبل أن ينتبهوا إليها، لكنَّه رآها على الفور.

تجاهلتُ سؤاله، وطلبتُ منه، بصوتٍ أعلى هذه المرَّة، أن يعيد الكرسيَّ إلى موقعه الأصليّ، ويخبرني عن رتبته باللغة الإنكليزيَّة. كنتُ قد أعددتُ أبعاد المشهد بحيث خصَّصتُ مساحةً كافيةً على الجانب الأيسر من الإطار من أجلِ وصفٍ سأدرجهُ لاحقًا أثناء التحرير: نصٍّ توضيحيٍّ للزيِّ الموحَّد الذي يرتديه دولار. (استلهمتُ فكرة تلك اللقطات المتوسِّطة من رسومات دا فينشي التشريحيَّة).

"كم عمرك؟"، قلت.

مكتبة ياسمين

"ثلاثون سنة".

تجمَّدت الصورة على عيني دولار المغمضتين حيثُ أوقفت التسجيل مؤقَّتًا كي أدوِّن العلامة الزمنيَّة. جهَّزتُ قلمًا لكتابة ما يقول، وأعدتُ تشغيل التسجيل.

"حدِّثني عن الزيّ الموحَّد لعصابتك".

برغم أنَّه كان يرتدي سترةً طويلةً زرقاء وسروالًا عسكريًّا فضفاضًا أثناء المقابلة، إلَّا أنَّه قال: "أنا أرتدي معطفًا أحمر بعشرة أزرار ذهبيَّة". ورسم بأصبعه خطًّا من الرقبة إلى المعدة، متتبِّعًا مسار تلك الأزرار المتخيَّلة. "الياقة سوداء، وكذلك القفَّازات. يحفُّ اللون الأسود لونٌ ذهبيّ".

أوقفت التسجيل مؤقَّتًا مرَّة أخرى بغية التأكُّد من تسجيل أقواله كاملة.

"كم عدد النجوم التي تحملها؟"، سألت.

"أربعة نجوم. أنا العقيد".

"وهل ترتدي خوذةً أم قبعة؟".

"خوذةٌ بيضاء تحمل علامةً ذهبيَّة"، قال، وأمسك بيده الهواء فوق رأسه في إشارةٍ إلى موضع العلامة غير المرئيَّة. "الرقم ثمانية وعشرون في قلب تلك الدائرة. أنا عضوٌ في الثامنة والعشرين".

كانت "عصابات الأرقام" هي المهيمنة في سجون جنوب أفريقيا؛ السادسة والعشرون، والسابعة والعشرون، والثامنة والعشرون. في الأصل، كان في نيَّتي أن أسأل كلًّا من أولئك الرجال عن حياته بوصفه عضوًا في عصابة، لكن تبدَّل اهتمامي عندما بدأوا يحدِّثونني عن أزيائهم الموحَّدة.

مكتبة ياسمين

أغلبُ الظنِّ أنَّ ما لديَّ من مشاهد مصوَّرةٍ للمدانين السابقين يكفي لصناعة فيلمٍ مقبولٍ إلى حدٍّ ما، وذلك قبل أسبوعٍ حتَّى من لقائي بدولار، لكن باعتباري مخرجًا متفائلًا يتعامل مع مواضيع تشاؤميَّة، فإنَّني أجدُ نفسي في رحلة بحثٍ عن المزيد طوال الوقت. كان الدرس الذي تعلَّمتُه أثناء صناعة فيلم اغتيـال الفصل العنصـريّ هو أنَّ العمل يظلُّ مستمرًّا إلى حين إنجاز النسخة النهائيَّة: فبصرف النظر عن كميَّة المشاهد الجيِّدة التي ظننتُ أنَّها بحوزتي، إلَّا أنَّني قضيت الوقت خلال مرحلة المونتاج ألعن قراراتي الرديئة بصدد التصوير وسُبل اختصار الوقت. لذا وعدتُ نفسي هذه المرَّة، في وثائقيّ السجن، بأكبر عددٍ ممكنٍ من الهدايا القيِّمة. وكان دولار هديَّةً غير متوقَّعة الحدوث بالنسبة إليّ.

ومن دون أن أكمل المشاهدة، بدأتُ أدخِلُ وصفَه لزيِّه الموحَّد ذهبيِّ الأزرار في البرنامج الذي أستخدمه للمونتاج. وقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن أشعر بالرضا عن المكان من الشاشة الذي أدرجتُ فيه هذا النصّ. بدَّدتُ بضع ساعاتٍ من الإلهاء قبل أن أعود إلى إعداد جدول ميزانيَّتي.

بعد مرور أسبوع، اتَّصلَت بي مساعدة تشزلي لتخبرني بأنَّه مديرها قرَّر الاستعانة بمخرجٍ من كيب تاون في نهاية المطاف. نقلتُ هذه الأنباء السيِّئة إلى شقيقتي التي توعَّدت بدورها أن تشتكي إلى السيِّدة أركيبيلاجو. أخبرتها ألَّا تفعل ذلك لأنَّني أردتُ زيارة والدة تشزلي بنفسي.

سكن ذلك الجزء من العائلة في ضاحيةٍ عمَّاليَّةٍ شرقيَّ البلدة

القديمة في لودريتز؛ لم أُدرِج المنازل المتواضعة ضمن جولة الاستمتاع بالعمارة التي اصطبحت فيها ياغو.

كشفَت لي شقيقتي أنَّ أوَّل ما اشتراهُ تشزلي، بعد أن صار شريكًا في شركة المحاماة، كان منزلًا جديدًا لوالديه. لقد أقنع والدته بالتقاعد من العمل الاجتماعيّ وسحْبِ معاشها التقاعديّ الحكوميّ. وبالفعل اتَّبعت نصيحته، لكنَّها لم تدع سمسار التأمين الخاصّ بابنها يقترب من مالها قطّ. بدلًا من ذلك، نوَّعَت استثماراتها من خلال افتتاح صالون بوز للتدليك- على نحوٍ لا يتماشى تمامًا مع خطَّة تشزلي- والذي أثبت مع الوقت أنَّه استثمارٌ بديلٌ عصيٌّ على الكساد. انطلق عمل الصالون من منزل آل أركيبيلاجو القديم على الطرف المقابل من الشارع حيث يقيمون الآن.

"تتقاضى السيِّدة أركيبيلاجو أجرًا في الساعة مقابل تقديم السعادة"، قالَت شقيقتي بمكر، "وهذا يبهجُ جميع الأطراف، باستثناء ابنها".

قرعتُ الجرس. فتح البوَّابة الأمنيَّة موظَّفة استقبالٍ ظلَّ يُحدِّق في ضوء الشمس عندما دخلْت. تحوَّل المطبخ القديم إلى غرفة انتظار، وكان يمكن الوصول إليها سرًّا من جانب المنزل. أشارَت إليَّ المرأة بيدها نحو كرسيٍّ بالقرب من الغسَّالة.

"لن أمكث طويلًا"، قلت، لأنَّني لم أرغب بالجلوس. "أحضرتُ شيئًا للسيِّدة أركيبيلاجو". أخذَت موظَّفة الاستقبال هديَّتي المغلَّفة، وكانت صورةً مؤطَّرةً لتشزلي وزينيد راكعَين عند المذبح في حفل زفافهما، ونادت على مديرتها.

"يا هرمانوس"، قالَت السيِّدة أركيبيلاجو من إحدى الغرف، "أهذا أنت؟"

"أجل، يا خالتي"، قلت.

جاءت عبر الممرّ بذراعتين ممدودتين. كانت تضعُ مئزرًا فوق ثوبها. "كيف حالك؟ كيف حالـك؟ يا لها من مفاجأةٍ رائعة! لطيفٌ جدًّا أن أراك، يا عزيزي".

"لم أقصد المقاطعة..."، قلتُ بعد أن عانقتني.

"لا تقل مثل هذا الكلام. نريدُ أن نجعل هذا المكان أجمل. اليومُ مخصَّصٌ لموعد التنظيف الربيعيّ".

"خالتُك؟"، سألَت امرأةٌ عند نهاية الممرّ.

أعطت موظَّفة الاستقبال هديتي للسيِّدة أركيبيلاجو.

"ما هذه؟"، قالت خالتي.

"مجرَّدُ هديَّةٍ بسيطة".

فضَّت الغلاف عن الصورة.

"ياه، إنَّه ملاكي! يا لروعتها!". مسحَت عينيها بظهر يدها وعانقتني مرَّةً أخرى. "لو أنَّ والدتك هُنا لشعرت بفخرٍ عظيمٍ بطفلها الصغير الذي غدا رجلًا نبيلًا".

"بمجرَّد أن رأيتُ الصورة عرفتُ أنَّها يجب أن تكون من نصيبك".

عرضَت موظَّفة الاستقبال أن تحضر لي فنجان قهوة، لكن تحجَّجت بالقول إنَّ عليَّ العودة إلى عملي.

"كلام فارغ"، قالتَ السيِّدة أركيبيلاجو، "ابقَ لبعض الوقت. ربَّما بمقدورك أن تساعدني".

تبعتها إلى الغرفة الأولى على الجهة اليمنى، حيثُ ثمَّ سرير تدليك مثلما هو متوقَّع، وكذلك حجر استحمامٍ عند الزاوية. كانت هناك امرأةٌ تنحني فوق خزانةٍ منخفضة الارتفاع تحتوي على تلفزيون ومُشغِّل أقراص فيديو. التفتت ولوَّحَت مُرحِّبة.

"ماذا تفعلين، يا لوف؟" سألَتها السيِّدة أركيبيلاجو.

"إنَّه التلفزيون"، قالَت لوف.

"أرغب أحيانًا بتكسير أصابع زبائني الذين يعبثون به"، قالَت لي السيِّدة أركيبيلاجو. "إذا ضبطتِهم، يا لوف، فاصفعيهم بالنيابة عنِّي".

"خالتك؟"، قالَت امرأةٌ أخرى أطلَّت للتوِّ من الغرفة خلفنا. وعندما رأتني، قالت: "تعال واجلس مع سوزي، يا عزيزي".

"أريد أن أرى هذا الحمَّام يلمع حين عودتي، يا سوزي"، قالَت السيِّدة أركيبيلاجو مُحذِّرةً من دون أن تنظر إلى الخلف.

"أنا لستُ خادمةً لديك!"، قالت سوزي. "إنَّني شريكةٌ في هذا المشروع المشترك".

"فإذًا لمِّعي الحمَّام من أجل شراكتنا".

جرَّت سوزي قدميها بقرف. "حسنًا، يا سيِّدتي...".

"هل من مشكلة؟"، قلت، قاصدًا التلفزيون.

"لا يتوقَّف الرجال عن العبث في أفلامي طوال الوقت"، قالَت السيِّدة أركيبيلاجو، "إلى أن ينتهي بهم المطاف إلى تشويش نظام التشغيل كُلِّيًا، فأضطرَّ إلى التخلُّص من المعدَّات أو طلب أحد عملاء لوف الذي يصادف أنَّه يعمل كهربائيًا"- تملَّكَت الحيرة لوف لفترةٍ قصيرة- "ذلك الرجل ذو الساق الغريبة، كي يُساعدنا في إخراج قرص الفيديو العالق. لكنَّني جئتُ اليوم بفكرةٍ

مكتبة ياسمين

عبقريَّة".

كانت المعدَّات عتيقة. "من أين اشتريتِ هذه المعدَّات البالية؟"، قلت.

"هل سمعتِ؟!"، قالَت السيِّدة أركيبيلاجو للوف. "ألم أخبركِ أنَّنا بحاجةٍ إلى إجراء بعض التحديثات؟ يُدرِك هرمانوس أنَّ هذه الأشياء تُكلِّف مالًا كثيرًا، لكنَّكنَّ أيَّتها السيِّدات تردن وضع المال كلِّه في جيوبكنَّ بدلًا من إهداره على الرجال. أليس هذا صحيحًا؟".

"الزبائن يُخرِّبون كلَّ شيء"، قالت لوف بنزق، وأعطت السيِّدة أركيبيلاجو بكرة شريطٍ لاصق. "وإن اشترينا أجهزةً غالية الثمن، فسنتعرَّض للسطو في أقلَّ من أسبوع".

"من المعتاد أن نتعرَّض للسرقة ما بين ثلاث إلى أربع مرَّاتٍ سنويًّا، صحيح؟"، قالَت السيِّدة أركيبيلاجو موضِّحةً وهي تفكُّ التوصيلات عن الجزء الخلفيِّ من التلفزيون بغية نقله مع مشغِّل أقراص الفيديو إلى الأمام. "إنَّ كلَّ من يأتي إلى الصالون يرى ما نملك. وعليه، لا بدَّ للسيِّدات من الشرح لزبائنهنَّ أنَّ أجورنا سترتفع كلَّما تعرَّضنا للسرقة؛ وأن هذا من أجل تعويض خسائرنا. وكم ستكون مفاجأةً عظيمةً أنَّ السرقات ستتوقَّف وقتذاك! لكنَّني أشتري الرخيص بكلِّ الأحوال درءًا للفتنة.. قمامة صينيَّة.. وهكذا فإنَّنا لا نشعر بالقلق إلَّا حينما يتعطَّل نظام التشغيل".

بدأتْ بتغليف لوحة التحكُّم بواسطة الشريط اللاصق، وساعدتُها بتمريره على طول الجزء الخلفيِّ من الجهاز قبل إلصاق نهايته تحته؛ ممَّا جعل نزع الشريط صعبًا ما لم يُرفَع الجهاز كلُّه.

أخبرتني ألّا أقلق في حال سدَّ الشريط جزءًا من فتحة التهوية.

"إذًا، كيف حال شقيقتك؟"، قالَت. "لوسيَّا؛ أكثر من أعرفُ تفانيًا وإخلاصًا".

"إنَّها ترسل إليكِ محبَّتها وتأسف لعدم تمكُّنها من حضور حفل الزفاف".

"سُعدتُ برؤيتك هناك، يا هرمانوس".

"أجل، لقد استمتعتُ بالحفل. وعلاوةً على ذلك، وفَّر لي دخلًا إضافيًّا أعانني في هذه الأيَّام".

"هذا رائع. من الضروري جدًّا أن يحصل كلٌّ منَّا على عمل. ها أنا أمامك: لا أستطيع البقاء مُتقاعدةً طوال اليوم".

"ذكرَ تشيز أنَّه قد يستطيع تأمين عملٍ إضافيٍّ لي".

"حقًّا؟ يُسعدني سماع ذلك".

"كلُّ ما أرجوه أن أحصل عليه فحسب".

"ما هذا الكلام؟ ولماذا قد لا تحصل عليه؟"

"لقد أخبرني أنَّهم ربَّما سيوظِّفون شخصًا من كيب تاون".

"بدلًا منك؟ كلَّا. هذا غير منطقيّ. سيكون محظوظًا لو استطاع أن يعيِّنك".

ساعدتُها في تثبيت أجهزة التلفزيون المتبقيَّة. وبعد أن فرغنا من العمل، قبَّلتُ خدَّها وطلبتُ منها أن تبلِّغ تحياتي إلى عمِّي. وفي وقتٍ لاحقٍ من ظهيرة اليوم نفسه، اتَّصلت بي مساعدة تشيزلي واعتذرت عمَّا جرى من خلط، مؤكِّدةً في نهاية المطاف أن شركة ابن خالتي ترغبُ بالحصول على خدماتي.

"هي تشعرُ بتأنيب الضمير"، قالَت شقيقتي بعد أن أخبرتها بما حدث، "وهو طفلٌ مطيعٌ لا يرفض لوالدته طلبًا".

كولمانسكوب

سحب تشزلي ورقةً من إضبارةٍ من خلف مكتبه، وردَت فيها المقطعُ الآتي مُظلَّلا باللون الأصفر:

يجب أن يَرحل شعبُ هيريرو عن الأرض. سنطلق النار على كلِّ أفراد هيريرو داخل الحدود الألمانيَّة، سواءٌ أكانوا مسلَّحين أم عُزَّل. ولن أذرَ بعد اليوم منهم امرأةً أو طفلًا؛ بل سأدحرهم بنفسي إلى حيثُ أتوا، أو سيكون مصيرهم الموت أيضًا. هذا كلُّ ما لديَّ لأقوله لشعب هيريرو.

أعدتُ قراءة المقطع السابق بضع مرَّات. لم تكن المفرداتُ صعبةً، بيد أنَّني واجهتُ صعوبةً في فهمها.

"هل لديك الوثيقة الأصليَّة؟"، قلت.

وضع تشزلي ورقةً أخرى فوق هذه. كانت باللغة الألمانيَّة هذه المرَّة، لكنَّ المعنى ظلَّ نفسه، بحسب ترجمتي.

قال: "ما مدى معرفتك عن جزيرة القرش؟".

"أعرف أنَّ لها صلةً ما بالحرب، أليس كذلك؟". أذكرُ أيضًا أنَّني قرأت بعض الأمور عن لودريتز عبر الإنترنت مصادفةً، لكن لم أكن على ثقةٍ من مدى صدقها. "إنَّها مكانٌ رائع حقًّا: أنا أسبح هنالك كلَّ يوم".

"حسنًا، لكنَّ تاريخها مُروِّع"، قال، "ولا يريدُ التحدُّث عنه سوى قلَّة من الناس. وليس هذا التحفُّظ على صعيدنا نحنُ فحسب، بل يمتدُّ أيضًا ليشمل الحكومة: فلا أحد من وزرائنا يريدُ نبش ذلك التاريـخ أيضًا. في الواقع، نعتقدُ أن المسألة ستستغرقُ سنواتٍ قبل أن تطأ أقدامنا أرضيَّة قاعة المحكمة، لكنَّنا سنقاضي الألمان جرَّاء ما ارتكبوه في بلادنا حينما كانت مُستعمَرةً لهم.

أصغ إليّ، ثمَّة حقيقةٌ واحدةٌ ليس بمقدور أحدٍ الجدال فيها كائنًا من كان: من الممكن النقاش في كلّ ما سواها بمليون طريقةٍ وإلى حدٍّ معقول، لكن، في العقد الأوَّل من القرن العشرين، أصدرَ الألمان أمرَ الإبادة هذا"- ضغط بأصبعه على الورقتين- "ضدَّ شعب هيريرو. ارتكبَت ألمانيا إبادةً جماعيَّةً في ناميبيا، ونحنُ نطالب بالتعويضات. وكان الجنرال لوثر فون تروثا، الرجل الذي صاغ هذه الكلمات، قائدًا لقوَّاتهم الاستعماريَّة آنذاك؛ أي أنَّ هذه الورقة أمرٌ رسميٌّ صادرٌ عنه. الوثيقة الأصليَّة محفوظةٌ في بوتسوانا".

فكَّرتُ مُطوَّلًا بتلك الكلمات: سنطلق النار على كلّ أفراد هيريرو. "لا أظنُّها كلماتٍ يتضمَّن أيَّ تحذير"، قُلت.

"كلَّا، لقد أراد أن يمسح القبيلة من الوجود. وأعتقد أنَّه نجح في مسعاه إلى حدٍّ بعيد؛ لذا لا يُشكِّل شعب هيريرو اليوم سوى أقلَّ من عشرةٍ بالمئة من تعدادنا. تشيرُ تقديراتنا إلى أنَّ قرابة ثمانين بالمئة من شعب هيريرو إمَّا قتلوا أو طُرِدوا خارج ناميبيا مع انتهاء المذبحة".

مكتبة ياسمين

"أقلت ثمانين بالمئة؟"

"تتفاوت النسب- هذا في حال كان من الممكن الوصول إلى إحصائيَّاتٍ دقيقةٍ بصدد حدثٍ مثل هذا- لكن ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ عددًا لا يُحصى من الناس قُتِلوا في تلك الإبادة الجماعيَّة".

"إذا فعل الألمان هذا..."

"ليس إذا، لقد فعلواها، وبذلوا لأجلها قصارى جهدهم حقًّا! أجل، ما حدث إبادة جماعيَّة".

"فالقضيَّة إذًا محسومة النجاح بالفعل، صحيح؟"

"في الواقع، هُنا تأخذ الأمور منحى أكثر تعقيدًا".

"وكيف ذلك؟"

"لدى حكومتنا سجلٌ لا يخلو انتهاكات حقوق الإنسان أيضًا..."

"أحقًّا تقول؟ أمن المعقول أن يُقارَن هذا بالإبادة الجماعيَّة؟"

"لا أقول إنَّ في الأمر مقارنة، لكن ما ارتُكِب من انتهاكات في أثناء مرحلة النضال من أجل التحرير هي بمثابة إحراجٍ بالغٍ لبعضٍ من سياسيِّينا".

"فليتعاملوا معها إذًا!".

"حسنًا، إنَّهم قلقون من أنَّه في حال بدأ محامون مثلي بنبش الماضي، فسيكون ثمَّ احتمالٌ كبيرٌ أنَّ يكشف الطرف الآخر أسرارًا عن الحكومة على القدر نفسه من السوء. نعلمُ أنَّ بعضًا من رفات هيريرو قد استُعيدَ إلى الوطن من ألمانيا، وهنالك أيضًا نصبٌ تذكاريٌّ مكرَّسٌ للإبادة في متحف الاستقلال في ويندهوك، لكنَّني أعتقد بصدقٍ أنَّ ما تأمله الحكومة أن تطوى هذه القضيَّة إلى الأبد. <ما حدث قد حدث؛ يجب أن نتطلَّع إلى المستقبل...>،

وإلى آخره من هذا الكلام. وبمرور الوقت، سيموت المزيد والمزيد من أفراد هيريرو الذين يتذكَّرون هذا التاريـخ".

"وستمَّحي ذكرياتهم". تخيَّلتُ أرواح الموتى وهي تطفو نحو السماء.

"مهمَّتُك هي التأكُّد من ألَّا يحدُث ذلك".

"ماذا تريد منِّي أن أفعل؟"

"أن تجري مقابلاتٍ مع عائلات هيريرو الذين نجوا من المذبحة".

"ماذا تعني بذلك؟"

"يجبُ أن تُصوِّر مع أكبر عددٍ ممكنٍ من ذُرِّيَّاتهم، وتُسجِّلَ كلَّ ما سمعوا به من أجدادهم عن الإبادة الجماعيَّة. المصنوعات اليدويَّة.. التذكارات.. لقد أزال الألمان آخر معسكر اعتقال في سنة ١٩٠٧، لكنَّنا نعلم أنَّ هناك أحفادًا وأبناء أحفادٍ ممَّن سَمعوا عن تلك القصص. ثمَّة أيضًا الكثير من المعلومات في الفضاء العامِّ إذا بحثت في المكان الصحيح. لكنَّنا بحاجةٍ إلى أشخاصٍ حقيقيِّين، إن كنت تعرفُ ما أقصد، لنُبيِّن أنَّ الغرض من هذه الدعوى القضائيَّة تحقيق العدالة لهم. إنَّنا بحاجةٍ إلى سماعِ أصوات، ورؤية وجوه، والإحساس بمشاعر تجعلنا نؤمن بصدق رواياتهم. وأنا وشركائي نعلم أنَّ فرصتنا في الفوز ستكون الأفضل في حال نشرنا هذه الشهادات الحيَّة عبر الإنترنت".

قلت: "أعرفُ تمامًا ما يشعر المرء به عندما يتظاهر الناس بأنَّ شيئًا ما لم يحدث؛ أعرفُ معنى التجاهل والنسيان؛ لكن يظلُّ التاريـخ كامنًا في الخفاء".

أعاد أوراقه إلى الإضبارة قبل أن جلس على كرسيِّه ويعدِّل بضع مرَّات من جلسته وكأنَّه يواجه صعوبة في الجلوس مرتاحًا. أخيرًا، نهض كي يغلق باب مكتبه. قال، عند عودته: "هناك أسئلةٌ قانونيَّةٌ تتعلَّقُ بما نعنيه باستخدامنا مصطلح إبـادةٍ جماعيَّـة؛ ودفوعٌ قانونيَّةٌ بصدد ما إذا كانت المستعمَرة في حالة حربٍ مع شعب هيريرو، أو أنَّ الألمان كانوا يتعاملون مع تمرُّد هيريرو محليٍّ فحسب.. لكن لا تقلق بشأن هذه الأمور. مع ذلك، وبناءً على كيفية إجابتهم على تلك الأسئلة، فإنَّه قد لا تكون لدى نسل هيريرو الصفة القانونيَّة اللازمة للتقاضي. لذا نحنُ بحاجةٍ إلى شهاداتٍ قصيرةٍ لاذعة، بحيث يمكن نشرها بسهولةٍ وأن تحظى بشعبيَّة كبيرةٍ تكفي لكسب الرأي العام لصالحنا.

ومثلما ذكرتُ لك؛ فالحكومة في ناميبيا لا تدعم مطالبنا، بل إنَّهم سيفلعون كلَّ ما بوسعهم لإسقاط الدعوى. لا يريدون عزل الناميبيِّين من أصلٍ ألمانيٍّ أو قطع العلاقات مع ألمانيا نفسها. نحنُ أكبر متلقٍّ في أفريقيا للمعونة الإنمائيَّة الألمانيَّة. فكِّر بمعنى كلِّ ذلك. وهذا فضلًا عن أنَّهم يرسلون إلينا مئة ألفٍ من السيَّاح الذين ينفقون ملايين اليوروات سنويًّا. لذا سياسيُّونا قلقين بصدد أن يُستخدَم المال كورقةٍ للمساومة، أو العقاب".

"تعتمدُ جمعيَّة شقيقتي الخيريَّة على تمويلٍ أوروبيّ"، قلت.

"أجل، وهي في معظمها أموال ألمانيَّة إن لم أكن مخطئًا".

أومأت برأسي إيجابًا.

"أترى ما أقصد؟"، قال. "اسمع، يا هنري. سأتفهَّمُ وجهة نظركَ إذا قرَّرت عدم المشاركة في هذا المشروع بسبب شقيقتك.

لأنَّه في حال اكتشفَ الألمان أنَّك تعمل لصالحنا، فلن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن يعرفوا أنَّ لوسيًّا شقيقتك".

"لقد قضيتُ معظم حياتي كاتمًا للسرّ، يا تشزلي".

"لكنَّهم سيضيّقون على شقيقتك الخناق. أرجوك فكّر في الأمر. تقول والدتي إنَّ كلَّ ما يعنيها في الأمر أنَّك الرجل المناسب لهذه الوظيفة. لذا في حال غيَّرتَ رأيك، فعليك أن تخبرها بذلك".

"بمقدورك الاعتماد عليّ. أتعتقد أنَّهم سيقطعون التمويل عن شقيقتي؟"

"لا أظنُّ أنَّهم سيبذلون قصارى جهدهم لاستهداف عملها مباشرة، لكن لن يكون صعبًا بالنسبة إليهم العثور على عشرات الطرق لسحب دعمهم. الميزانيَّات عرضةٌ للتغيير والتخفيض طوال الوقت، وهنالك مليون سببٍ منطقيٍّ وراء تعديل الأولويَّات. لقد سمعتُ أنَّ في ويندهوك جمعيَّةً خيريَّةً على الأقلّ تخضعُ لتدقيقٍ شاملٍ بمجرَّد أن اكتُشِف أنَّها جزء من هذه القضيَّة. أعتقد أنَّ هذا ما يُدعى بالقوَّة الناعمة. لذا سأتفهَّمُ رغبتك إن قرَّرت الانسحاب. لكنَّني سأحتاج منك حينها إلى أمرين لا ثالث لهما: التعامل مع والدتي، والحفاظ على سريَّة هذه القضيَّة".

حدَّثتُه عن لقاء شقيقتي الأخير بباغو، ومخاوفها بشأن تمويل العام المقبل.

"أجل"، قال تشزلي، "سمعتُ بهذا. فضلًا عن أنَّ الوضع غير مستقرٍّ في الأصل. لكن ينطبق الأمر نفسه على معظم الجمعيَّات الخيريَّة الأخرى في ناميبيا؛ فحتَّى لو لم تكن تتلقَّى تمويلًا مباشرًا من ألمانيا، فإنَّه عادةً ما يكون هنالك رابطٌ معقَّدٌ ما بها بصورةٍ

أو أخرى. وهذه تمكن المشكلة".

"ربَّما لأنَّ ألمانيا قد دفعت بالفعل تعويضاتها عبر خلال كلّ هذه الأموال التي يرسلونها إلينا على مرِّ السنين؟"

"كلّا؛ لا يمكن لبلدٍ ارتكب إبادةً جماعيَّةً أن يبتاع حبل نجاته بالمال".

—

انطلقتُ مسرعًا من لودريتز باتِّجاه المنازل المتداعية في كولمانسكوب، ومرورًا بسيَّاح مبتهجين يتمرَّغون في الرمال الساخنة. سلكتُ الطريق السريع، تُسابقني سكَّة حديدٍ عبر بحرٍ رمليٍّ تمتدُّ فيه أفاريزُ ملوَّنةٌ وزخارفُ متموِّجةٌ سمراء على طول الدرب إلى الأفق. ظلَّت تلك السكَّة رفيقة دربي الوحيدة عبر المتنزَّه الواسع والمغطَّى بعشبٍ أشقر ناعم، إلى أن هجرتني عند صخرةٍ صقلتها مياهٌ عتيقةٌ قد ارتفعت مُكوِّنةً تلالًا على جانبي الطريق، والتي بدورها اندفعَت بقوَّةٍ نحو السماء لتتحوَّل إلى جبالٍ سجِّيليَّةٍ هوَت بي في وادٍ سحيق. انتصبَت أشجار كويفر[١] مثل حرسٍ على المنحدرات الحادَّة، بجذوعها الرماديَّة التي يستدقُّ كلٌّ منها تدريجيًا حتَّى تتحوَّل إلى أوراقٍ سميكةٍ وحادَّةٍ وكأنَّها آلافٌ من نجوم البحر. وهنالك، على بُعدِ مجرَّةٍ بعيدة فوق تلك الأشواك، ترتفعُ سماءٌ طباشيريَّة.

---

1 الكويفر نوعٌ من الصبَّاريَّات التي تنمو في الأصل في جنوب أفريقيا، ولا سيما في مقاطعة كيب الشماليَّة في جنوب أفريقيا، وبعض المناطق في جنوب ناميبيا. م.

تقعُ عاصمةُ ناميبيا ويندهوك على بُعدِ مسافةٍ متساويةٍ تقريبًا من الساحل الغربيّ للبلاد وحدودها مع بوتسوانا إلى جهة الشرق، وكذلك أنغولا شمالًا وجنوب أفريقيا جنوبًا. ونظرًا لموقعها البارز، مثَّلت المدينة بالنسبة إليَّ قاعدة انطلاقٍ نموذجيَّةً لإجراء المقابلات. حجزَت لي مُساعِدة تشزلي في نزلٍ هادئ، مع موقف سيَّاراتٍ مؤمَّن، على مقربةٍ من الحيّ التجاريّ المركزيّ.

على مدى أسبوعين، تجاوزت درجة الحرارة نهارًا في ويندهوك أربعين درجةً مئويَّة. كانت المنطقة بأسرها حارَّةً على غير ما هو في هذا الوقت من السنة؛ وهو تغييرٌ جذريٌّ أيضًا عن لودريتز التي تنخفض فيها درجة الحرارة بقرابة عشرين درجةٍ مئويَّةٍ. قضيتُ معظم هذه المدَّة على الطريق؛ أسبوعين لم تتخلَّلهما رحلات سباحةٍ صباحيَّة، بل الكثير من آلام الظهر.

أدركتُ عاجلًا أن دوري لم يكن "صانع أفلام" فحسب، بقدر ما كان "صانع أفلام وسائقًا في آن" نظرًا للمسافات الطويلة التي اضطررتُ إلى قطعها. تشتَّت شعب هيريرو في مختلف مناطق شمال ناميبيا، على طول الطريق إلى بوتسوانا؛ كان هذا الشتات جزءًا ممَّا خلَّفه فرار أسلافهم من الجنرال فون تروثا وجيشه. لم تسمح ميزانيَّتي بالسفر إلى بوتسوانا، لكن ذكر تشزلي أنَّه قد يكون ممكنًا تمويل زيارةٍ وجيزةٍ للبلد المجاور إذا وجد شركاؤه فائدةً من ذهابي إلى هنالك. (قرَّرتُ أنَّني سأسافر يومًا ما، حتَّى من دون مساعدتهم، لزيارة أرشيف غابورون[1] الوطنيّ وتصوير آخر نسخةٍ متبقِّيةٍ من وثيقة أمر الإبادة).

---

1 غابورون: عاصمة بوتسوانا. م.

مكتبة ياسمين

عزمتُ ألَّا أتَّصِل بياغو على الرغم من أنَّه أرسل رسالةً إليّ. (أخبرتهُ لوسيًّا في زلَّة لسانٍ أنَّني هُنا في ويندهوك).

من ضمن الأسماء الواردة في قائمة تشزلي، وبخلاف عددٍ قليلٍ من الأشخاص الذين لم أستطع التواصل معهم، فإنَّني صوَّرت في الغالب أقاربَ تربطهم علاقاتٌ مُعقَّدةٌ بمُعتقَلي معسكرات الاعتقال- على غرار أبناء عمومةٍ ثانية من الجيل الثالث، وهكذا- لأنَّ الألمان أبادوا أسلافهم المباشرين. كانت المقابلات ضبابيَّة الفحوى حدَّ الإحباط، ولم تروِ إلَّا النزر اليسير عن الإبادة الجماعيَّة.

من دون الضغط عليهم، حاولتُ تشجيع أفراد هيريرو الذين قابلتُهم على الحديث عن أيِّ شيءٍ قد نجا من الذاكرة الجماعيَّة لعائلاتهم. لكن سرعان ما تبيَّن لي أنَّ معظم لم يعرفوا سوى القليل عن أسلافهم المقتولين، ووجدتُ نفسي أطرحُ أسئلةً عن الموتى الذين ربَّما لم يكن لهم وجودٌ إلَّا مؤخَّرًا.

كان النفي جوابًا ثابتًا كلَّما طلبتُ من أحدٍ صورةً لسلفه المتوفَّى، لكنَّني ظللتُ أسالُ كلَّ من قابلتُ آمِلًا الحصول على صورة بمعجزةٍ ما. بين حينٍ وآخر، كنتُ أحصل على حذاء أو أغراض أخرى قد تعود في الأصل للسلف المقصود، أو ربَّما لشخصٍ آخر رحل أيضًا منذ عهدٍ بعيد.

بمقدوري القول إنَّ مقابلتي الأخيرة رجلًا عجوزًا من هيريرو، على مقربةٍ من كوخٍ في محميَّة صيدٍ في ضواحي أومارورو[1] في الشمال الغربيّ، كانت تجربةً مشوِّقة، وإن كانت مُخيِّبةً للآمال.

---

1 أومارورو: مدينةٌ تقع في إقليم إيرونغو في وسط ناميبيا. م.

ظلَّ يلمس الكاميرا- يريدُ النظرَ عبر مُحدِّد النظر فيها- حتَّى أوضحتُ له، بمساعدة عائلته، أنَّه عليه النظر إلى عين الكاميرا الزجاجيَّة من أجل أن تراهُ بدورها أيضًا، وأنَّ يتكلَّم بصوتٍ عالٍ من أجل أن تتمكَّنَ الآلة من سماعه.

"هل ترينني الآن؟"، كانت كلماتُه الأولى بعد أن استقرَّ في مجلسه. ثمَّ قال للعدسة موبِّخًا: "أنا أنتظرُ جوابك لأنَّك نسيتِنا".

"ليست هذه الآلة هاتفًا"، قالت ابنته، فأشرتُ إليها بأن تلتزم الصمت. وفي تلك الأثناء، بدأ أحفاد الرجل، الذين كانوا يشاهدون ما يجري، يضحكون.

ومع أنَّه وافق على الحديث لوقتٍ أطول، إلَّا أنَّ الرجل لم يقل سوى "أنا أنتظر"، ثمَّ طوى ذراعيه كما لو أنَّه يعدُّ خطَّةً لمنازلة خصمه ذي العين الواحدة.

"ستُصغي هذه الآلة، يا تيت"، قالَت ابنته، فطلبتُ منها للمرَّة الثانية ألَّا تتدخَّل.

"لطالما حمدناكِ وشكرناك"، قال. "نتبع في حمدكِ أمَّهاتنا وآباءنا، وأمَّهاتهم وآباءهم. إنَّه درسٌ تعلَّمناه وأطعناه، ونعلِّمه لأولادنا. أنتِ مصدرُ كلِّ لقمةٍ من طعام، وكلِّ رشفةٍ من شراب. والمطر والحيوانات. أنتِ من يساعدنا في الحصول عليها. لكنَّكِ تصمُتين أيضًا، وتتركيننا قيد الانتظار. فأيُّ أبٍ ذاك الذي يتجاهل أطفاله؟"

بدا لي أنَّ كلماته الأخيرة تخاطبُ شيئًا غير مرئيّ. كان ذلك ما فكَّرتُ به في طريق العودة إلى لودريتز.

—

لم يمرَّ وقتٌ طويلٌ منذ عودتي إلى المنزل حتَّى سافرت مرَّةً أخرى إلى كولمانسكوب. لكن المختلف هذه المرَّة أنَّني كنتُ واحدًا من أصل تسعة أشخاصٍ في حافلة ويل الصغيرة من طراز فولكس فاجن. غادرنا لودريتز مع شروق الشمس. كانت وجهتنا مدينة الأشباح التي تبعُد بضعة كيلومترات، على حافَّة الصحراء.

كانت أماندا تخبرُ سيكستن بحماسة- وهو رجُل إسكندنافيٌّ طويل القامة كان يميل رأسه جانبًا لئلَّا يصطدم رأسهُ بسقف الحافلة الجلديّ- عن حصولها على تدريبٍ كعازفة بيانو، وأنَّ في وسعها أداء مقطوعاتٍ لفرانز إكزافير موزارت. (دعَت هذا المؤلِّف الموسيقيّ، وهو ابن أبيه الأكثر شهرةً[1]، بـ "فولفغانغ أماديوس جونيور"). وبجواري، أصغى إليها أيضًا رجلٌ من زيمبابوي ذو لحيةٍ صغيرةٍ وأحلكُ عينين رأيتهما في حياتي. في الوقت نفسه، سأل كيانو ويل عن سبب رغبته في التصوير في كولمانسكوب، فردَّ البريطانيُّ بأنَّه رأى هذه الفكرة في منامه، ممَّا جعلني أبتسِم. كنَّا عند ذلك الجزء من الطريق السريع، الذي يمرُّ عبر حقلٍ من كثبان الرمل هِلاليَّة الشكل، عندما صاح ويل وانقذفنا جميعًا إلى الأمام حين ضغط على الفرامل كيلا يصطدم بمؤخِّرة كاسحة رملٍ صفراء.

"يا إلهي!"، قال ويل، وكنَّا جميعًا نرتجف في أماكننا. "آسف بشأن ما حدث".

سألَت أماندا عمَّا إذا أصيب أيٌّ منَّا بأذى.

فرك سيكستن رقبته، وقال: "بعض الألم فحسب".

---

1 المقصود هُنا المؤلِّف الموسيقيّ النمساوي المعروف فولفغانغ أماديوس موزارت (1756-1791). م.

أعاد ويل تشغيل محرِّك السيَّارة في المحاولة الثانية.

"لقد قلتُ لك، يا كيانو، ألَّا تشتِّت انتباه ويل أثناء القيادة"، قالَت أماندا. "لا تتجاهلني عندما أخاطبك".

"ترفَّقي به. أنا من فقدتُ تركيزي"، قال ويل.

نظرتُ سريعًا إلى شقيقتي التي كانت تجلس خلفي فأومأت برأسها.

"دعونا جميعًا نأخذ نفسًا عميقًا"، قال ويل. "ولنتذكَّر بأن نحظى ببعض المرح بينما نبتكر شيئًا مميَّزًا. سنبني لأنفسنا مكانًا رائعًا للعيش وممتعًا للعمل".

غافلًا عن كلِّ الإثارة التي تحدث في الخلف، واصل العامل في كاسحة الرمل الصفراء رحلته البطيئة لكنس رمال الصحراء التي غطَّت الطريق الأسفلتيّ بين عشيَّةٍ وضحاها. تقدَّمنا ببطءٍ متجاوزين لافتةً قديمةً كُتب عليها كولمانسكوب بالألمانيَّة وتشير إلى المستوطنة المهجورة. علِّقَت لافتاتٌ تحذيريَّةٌ بعدم الدخول في الطرف الآخر من الطريق، على طول السياج الفاصل ما بين مدينة الأشباح والصحراء. انعطف ويل يمينًا ببطءٍ على طريقٍ مغطًّى بالحصى يُفضي إلى مدخل كولمانسكوب، حيثُ استقبلتنا لافتةٌ سوداء وبيضاء كُتِب عليها بكلٍّ من الإنكليزيَّة والألمانيَّة والأفريقانيَّة ما يلي:

تحذير.

غرامةٌ وقدرها ٥٠٠ جنيه إسترلينيّ، أو السجن لمدَّة عامٍ واحد.

يمنع اقتراب العامَّة من منطقة الألماس من دون تصاريح

مرحبًا بكم في منطقة الألماس المحظورة. إنَّ دخول هذه

الملكيَّة من دون تصريـح يعني التوقيف أو السجن فـي حـال عثر الحرَّاسُ عليكم. وأمَّا أولئك الذين يفلتون من الكشف فهم تعساء الحظّ: لا ينجو المفقودون هُنا أكثر من بضعة أيَّام.

بصرف النظر عن الكازينو المعاد ترميمه، وكذلك المقهى ومتجر الهدايا اللذان يتبعان إليه، فإنَّ المباني المتهالكة في المدينة لا تزال مهجورة. منذ زمنٍ بعيد، قبل الحرب العالميَّة الأولى، عاش الأثرياء من تجار الألماس والمنقِّبين عنه وحقَّقوا نجاحاتهم هنا حتَّى أغرق سوق السلع المتدهورة ثرواتهم في نهاية المطاف. لم يبقَ من تلك الحقبة الجميلة سوى أصداف خاوية. صقلَت رمالُ الصحراء المتموِّجة على مهلٍ جدران القرميد وستغمر لاحقًا المنازل الشبحيَّة.

قادنا ويل إلى المسرح المعاد ترميمه. كانت الصالة الرئيسيَّة بارتفاع أربعة طوابق ومطليَّةً بسلسلةٍ من الأقنعة المسرحيَّة على طول كلٍّ من جدرانها. كان يريدُ أن أصوِّرهُ على خشبة المسرح الفارغة، لكن الوهج الآتي من نوافذه العملاقة، حيثُ يُفترض أن تكون الستارة الخلفيَّة، سيُحوِّل ويل إلى صورةٍ ظلّيَّة. أخبرتُه بأنَّ علينا استخدام القسم الخلفيِّ من القاعة كحلٍّ بديل. لم يسرَّه اقتراحي تمامًا، ربَّما لأنَّه لا يتماشى مع رؤيته الجماليَّة حديثة العهد، لكن لم تكن في يده حيلة، اللهم خلا استحضار بضع ستائر معتِّمة!

نصبتُ حامل الكاميرا ثلاثيَّ القوائم خلف الصفِّ الأخير من المقاعد البلاستيكيَّة، في حين عثر كيانو على طاولتين صغيرتين لأضع معدَّاتي عليها. جاء الإسكندنافيُّ الهزيل ليُقدِّم المساعدة. (وذكَّرني بأنَّ اسمه سيكستن).

"كان عليك ألَّا تسمح للسيِّدة موزارت بالحديث معك بهذا الأسلوب"، قلتُ لكيانو في أثناء عملنا.

"أماندا؟"، قال سيكستن الذي كان قريبًا بما يكفي ليسمعني.

تجاهلتُ الإسكندنافيّ. "يجب ألَّا تسمح لها بتصغيرك على مرأى ومسمعٍ من الناس، يا كيانو. ويل مسؤولٌ عن قيادة حافلته"، قلت.

"آه، إنَّها طيِّبة"، قال كيانو.

"قِف في وجهها، أو ستزداد معاملتها لك سوءًا".

"إنَّها تشعر بالتوتُّر"، قال سيكستن مُقاطعًا.

لم يقوَ أيٌّ منهما على النظر في وجهي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلِّ من كان يستمع أيضًا.

"اطلُب منها الاعتذار منك إن خاطبتك بهذه الطريقة مرَّةً أخرى"، قلتُ بهدوء. "ولسوف تُذهِلك النتائج. وحتَّى لو غضِبَت، وهذا ما سيحدث، فإنَّك ستكون قد بيَّنت لها أنَّك مستعدٌّ للدفاع عن نفسك".

"لكنَّني أريد الانضمام إلى المجموعة".

"ليس على حساب أن تدعها تحوِّل حياتك إلى جحيم".

كنت مستعدًّا للبدء بالتصوير.

رأيتُ ويل يحتسي القهوة مع شقيقتي في المقهى. لم يكن هناك أيُّ أثرٍ لأماندا.

"ما رأيك بأن نصوِّر في الخارج اليوم؟"، اقترحَ بمرح.

"لقد فرغت للتوِّ من تجهيز موقع التصوير في الصالة، يا ويل".

"امنحنا بضع دقائق، يا هنري"، قالَت شقيقتي في عجالةٍ بعد أن شعرَت بانزعاجي.

تركتهما وعدتُ إلى الصالة الرئيسيَّة، مُرورًا بصالة البولينغ المحاذية المكوَّنة من مسارين للكرات. خرجتُ من الباب الخلفيِّ للحصول على بعض الهواء النقيّ. انتابني شعورٌ جيِّدٍ حين صرت بمفردي بعيدًا عن الجميع. لم أشعر بأيِّ شكلٍ من الأشكال أنَّني جزءٌ منهم، وكنتُ أفضِّل قضاء اليوم في استكشاف كولمانسكوب بمفردي، أو متابعة العمل في شرفة منزلي على مقابلة دولار.

كنتُ على يقينٍ من أن تشزلي قد قرأ الرسالة التي أرسلتها إليه برفقة المقابلات. لو كان بمقدوري فقط معرفة رأيه فيها. أظنُّ أنَّها تفتقرُ إلى شهاداتٍ مُقنِعة، وإذا كانت المجموعة التالية من المقابلات على الدرجة نفسها من الضجر، فهنالك احتمالٌ كبيرٌ بأنَّ يعيد تشزلي النظر في مهمَّتي في كلِّ هذا المشروع. ما هي إلَّا مسألة وقتٍ قبل أن يتَّصل. شعرتُ بنفسي شارد الذهن تائهًا على الرغم من لم أتعاطَ أيَّ مخدِّر.

كان الضوء الباهت أضعفَ بعض الشيء ممَّا أحتاج إليه: فجعل الكثبان حادَّة الحواف، وصفَّ المنازل المتداعية المبنيَّة على طراز يوغندشتيل والممتدَّة أمامي، تبدو أكثر لينًا. وأمَّا الذنب في هذا الصباح القاتم فيعود لسحابةٍ مكفهرَّةٍ اجتاحت معظم الأفق وطمسَت ما تبقَّى من السماء. وفي حال استمرَّت هذه العملاقة بالنمو، فستصل إلينا عمَّا قريب.

كان هناك ملامح شخصٍ يتقدَّمُ ببطء إلى أعلى التلّ الرمليِّ أمامي باتِّجاه المنازل المهجورة. نظرتُ نحوها عبر محدِّد النظر

مكتبة ياسمين

في الكاميرا من أجل رؤية أوضح. لم تكن سوى أماندا. عندما أصبحت بالقرب من أوّل مبنى مهجور، استدارت وظلّلت بيدها عينيها، ثمَّ لوَّحت إليَّ، غافلةً عن مشهد نهاية العالم في السماء فوقها.

كان كلٌّ من ويل وشقيقتي في صالة البولينغ الصغيرة خارج المسرح.

"لا أشعر بأنَّني بخير"، كان ويل يقول.

"سيختفي ضوء النهار عمَّا قريب"، قلتُ مُنبِّهًا. "لا بدَّ من أن نبدأ التصوير قبل أن تصل السحابة إلينا".

"لستُ واثقًا من قدرتي على المضيّ في هذا"، قال.

"هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟"، سألت.

"عليك أن تخبر الجميع أنَّني ببساطةٍ لن أستطيع التصوير اليوم. أنا في حالةٍ لا تسمح لي حتَّى بقيادة الحافة إلى هارموني ولو كانت حياتي متوقِّفةً على ذلك. إنَّها نوبة صداعٍ نصفيٍّ أخرى".

بذلت شقيقتي قصارى جهدها لطمأنته وتهدئته، لكنَّه سرعان ما ازداد هياجًا وتعنُّتًا: فلم يعد بمقدوره التحدُّث اليوم، وصار اختيارُ المكان خاطئًا تمامًا، وكلُّ ما سبق صعبٌ جدًّا احتماله بالنسبة إلى شخصٍ واحد.

"ستكون بخير"، قلت. "أنت مُتوتِّرٌ بعض الشيء فحسب".

"إذًا فلماذا أشعر بأنَّ هذا العالم اللعين على وشك الانهيار؟"، صاح. "أمن الضروري أن يكون الوضع بهذه الصعوبة حقًّا؟".

أسندتُ يدي إلى أبواب المسرح المتأرجحة حتَّى انفتحت قليلًا.

"دعنا نتحدَّث على غرار ما نفعلُ عادةً"، قلتُ بلطفٍ قدر

المستطاع. "كلُّ ما عليك فعله هو التحدُّث إليَّ.. دع كلَّ ما تَبقَّى لي. وإذا كنت قلقًا بشأن المجموعة، فبمقدورنا أن نخلي الصالة، لكنَّني أعتقدُ أن وجود الجمهور سيزيدُ من وتيرة الإنجاز. وستكون قادرًا أيضًا على تقييم ما إذا كانوا يفهمونك أو إذا كنت بحاجةٍ إلى شرح الأمور بصورةٍ مختلفة".

"لا أعتقدُ أنَّني..."

أسكتَتهُ شقيقتي. "ستكون على ما يرام، يا ويل"، قالت، وابتسمَت إليّ. "أعطنا خمس دقائق، يا هنري. سنفعل ما تريد"، قالَت باقتناع. "كلُّ ما في الأمر أنَّ ويل بحاجةٍ إلى التقاط أنفاسه..."

مكتبة ياسمين

"أين أماندا؟"، قال.

"لا أعلم".

t.me/yasmeenbook

"في الخارج"، قلت.

"نادها، لو سمحت. أحضِرها إلى هنا".

قبل أن أخرج من الباب الخلفيّ، قالَت لوسيًّا: "سأبحثُ عنها بنفسي. أمَّا أنت فاذهب واستعدّ".

عندما جاء ويل أخيرًا إلى الصالة الرئيسيَّة، فإنَّه لم يضع نصب عينيه شيئًا عدا الكاميرا. بدا غير مدركٍ لوجود كلٍّ من شقيقتي وأماندا إلى جانبيه، ولا للمجموعة في الصالة أمامه.

"حسنًا.."، قال لعدستي المترقِّبة. "فلنلقِ نظرةً فاحصةً على المجتمع".

تحدَّث ويل عن الحسد والحاجة إلى التواضع، وتخلَّل ذلك وقفاتٌ قصيرةٌ ليكتب بعض الملاحظات على لوحٍ ورقيّ. سرعان

ما امتلأت الأوراق بكتاباتٍ بخطّ يده الأنيق: "نظريَّة الموجة المنعزلة ٥٧٦"، وفولتير"، و"لايبنيتز"، و"نلسون مانديلا"، و"قيصر" (رسم دائرةً حول الكلمة الأخيرة وكتبَ إلى جانبها "هِبتانون"، و"سبع عواطف مهيمنة")؛ و"بونابرت"، و"عيدي أمين"، و"ويني مانديلا"، و، من بين كلّ الناس، "فريدرش العظيم"، وجمع أولئك الأربعة معًا تحت عنوان "هِكساتون" و"ستّ عواطف مهيمنة". من خلال محدِّد النظر في الكاميرا، بدا لي أنَّ رأسه أكبر وأكثر شبهًا بالحشرات ممَّا هو عليه في الواقع.

لم تتحسَّن الإضاءة- بل يمكن القول إنَّها كانت تسوء باطّراد- لذا ظللتُ أجري تعديلاتٍ طفيفةً على فتحة عدسة الكاميرا بينما أخذت السحابة تحجب ضوء الشمس.

في البداية، كان أداء ويل غنائيًا حقًّا، لكن بعد سبعين دقيقةً من الإطالة والتباطؤ في مواضع عشوائيَّة- مع مدِّ أصوات أحرف العلَّة- صار صوته تدريجيًا مُتكبِّرًا ومتضرِّرًا في آن. فضلًا عن أنَّه كان يفرك طرف أنفه كلَّما توقَّف برهةً للتفكير، وقد أزعجني ذلك الأمر. بيد أنَّ الجمهور ظلَّ هادئًا وأمضوا معظم الجلسة يومئون برؤوسهم، على الرغم من أنَّهم بدأوا يتململون عند حدٍّ مُعيَّن. لم يسعني فهم كيف بإمكان أيِّ شخصٍ أن يحتمل الإصغاء لأكثر من بضع دقائق من هذا الكلام.

أخيرًا، طلبتُ من ويل أن يأخذ قسطًا من الراحة كي يتسنَّى لمن يريد من المجموعة استخدام دورة المياه أو تدخين سيجارة. اعتبرَت كلٌّ من شقيقتي وأماندا أنَّ الوقت قد حان لتشجيعه. صوَّرتهما بينما كانتا تواسيانه؛ مقطعٌ مصوَّرٌ قد يكون مثيرًا للاهتمام.

سيتعيَّن عليَّ تعديل إضاءة هذه اللقطات في أثناء العمل على مونتاج الفيلم، أن أرفع من سطوعها، في حال أردتُ أن أستخدمها في فيلمي. في الأحوال العاديَّة، كنتُ سأقترحُ أن نؤجِّل التصوير إلى يومٍ آخر وحالة طقس أفضل، لكنَّني، بعد أن سمعتُ شكوكه في صالة البولينغ، لم أعد واثقًا ممَّا إذا كان سيوافق على إعادة التصوير.

"هل المكان معتمٌ أكثر ممَّا ينبغي؟"، قال عندما رآني في الجوار.

"لا تقلق بشأن ذلك"، قلت. "لكن أحتاجُ منك أن تصلح ياقتك".

ربَّت على صدرِه شارد الذهن.

"ستسير الأمور على ما يرام"، قلتُ مُطمئِنًا في أثناء ضبط وضعيَّة الميكروفون اللاسلكيّ.

"التكنولوجيا..."، تمتم.

انتهزتُ الفرصة وقلتُ له بلطف: "حدِّثهم عن لندن". لم يُبدِ أيَّ علامةٍ بأنَّه سمع ما أقول، لذا حاولتُ مرَّةً ثانية. "أخبرهم عمَّا حدث لك في لندن". ازداد وميضُ أضواء الصالة الرئيسيَّة، فصار المكان أكثر دفئًا. لكنّني لم يحر جوابًا بعد.

ابتعدتُ بضع خطواتٍ إلى الخلف بعد أن فرغت من تثبيت ميكروفونه. "لقد انتهيت. أنا جاهز عندما تكون كذلك، يا ويل".

"أردتُ أن..."، قالَ ويل حين وصل إلى علامة وقوفه. "كنت أريدُ أن..."

حرَّكَ فكُّه حركةً طفيفَة جدًّا من جانب إلى آخر، محدِّقًا إليَّ بنظرة اتِّهام.

مكتبة ياسمين

"كما تعلمون"، قال أخيرًا. "أنا من لندن". تلعثمَ بعض الشيء حينما نطقَ اسم المدينة. أمَّا أنا فوسّعتُ إطار المشهد المصّوَر ليشملَ جمهوره، وخاصَّة كلًّا من شقيقتي وزوجته. "لقد اقترحَت أماندا أن ننتقل إلى ناميبيا".

ضحك ضحكةً مكتومة. "إذًا، من أين أبدأ؟ ربَّما ينبغي أن أخبركم كيف بدأ كلُّ ذلك. كان كلٌّ منَّا، أنا وأماندا، يعمل في لندن حين التقينا. عندما أعيد النظر اليوم في تلك المرحلة، أفترضُ أنَّني كنتُ أعيش في فوضى عندما قرَّرنا العيش معًا. بيد أنَّ أماندا بذلت قصارى جهدها، وأكثر ممَّا تعتقد، مع مساعدةٍ طفيفةٍ لكن ثمينة منّي، لإبقائي عاقلًا. للأسف، لم يكن الأشخاص الذين كنت أحسبُهم أصدقائي سعداء حينما انتقلَت أماندا للعيش معي. ربَّما لأنَّني كنتُ المموّل الرئيسيَّ لهم، لذا ليس من المستغرب أن يُشكّل وجودها في حياتي تهديدًا لهم".

بدا وجهُ أماندا خاليًا من أيِّ تعبير، راسخًا.

"كنت أنتظرُها حتَّى إذا نامت تسلَّلتُ من شقّتنا للقاء أصدقائي في شقَّة وكيل أعمالي المحاذية للبحر. وذات مساء، دلفت إلى الشقَّة لأرى الجميع يتعاطون الكوكايين. شاركتُهم لمرَّةٍ واحدة. ثمَّ فكرت بأنَّني سأتَّصلُ بأماندا في حالِ خرجت الأمور عن السيطرة. لقد جعلَتْني أعدُها بأنَّني سأفعل ذلك كلَّما شعرتُ بالإغراء بشأن ارتكاب أيِّ حماقة.

ثمَّ جرعَة ثانية، وفكَّرت: من حسنِ حظّي أنَّني أعلمُ أنَّ في وسعي الاتِّصال بها. ثمَّ جرعتين من الكيتامين. فكَّرت: ربَّما ينبغي أن أتَّصل بها. وبحلول الساعة الثانية أو الثالثة من صباح ذلك

اليوم، كنَّا جميعًا داخل جاكوزي على شرفة المنزل، مع العلم بأنَّنا كنَّا وقتها في منتصف فصل الشتاء. كنتُ في حالةٍ سيِّئة للغاية إذ رأيتُ وجوه أصدقائي تذوب أمامي مثل كما لو كانت مصنوعة من شمع، وسمعتُ نفسي أقولُ بصوتٍ عالٍ: يجبُ أن أتَّصل بها. قادني إلى هذا الإدراك خليطٌ من الويسكي الأسكتلنديِّ، والحليب، والكوكايين، والكيتامين. لذا على أيِّ حال، وبعد بضع دقائق، قفزَ رجلٌ من الجاكوزي عاريًا مثلما ولدَته أمُّه، وهرع يبحثُ في أنحاء الشقَّة عن آخرَ من نسج خياله. طبع الرجل آثار قدميه المبلَّلتين في غرف النوم، وداخل الخزائن، ثمَّ في المطبخ حيثُ أخذ منه سكِّينًا.

"وصلَت أماندا عند الساعة الخامسة صباحًا لتجدني وقد دلَّيتُ ساقًا خارج الدرابزين الزجاجيّ. لذا لا بدَّ أنَّني اتَّصلتُ بها. وكان ذلك الفعل الصائب الوحيد الذي فعلته يومذاك. ضحك الجميع من منظري لأنَّ نصفي كان مُعلَّقًا على ارتفاع ثمانيةٍ وعشرين طابقًا عن الأرض في حين كنتُ أُنقِّلُ ثقلَ جسدي يسارًا ويمينًا... ذهابًا وإيابًا... يسارًا ويمينًا، في أثناء ما كان ذلك المعتوه هاجمًا عليَّ بسكِّينه. دفعَته أماند بقوَّةٍ جانبًا وأمسكَت بي. وأقسمُ أنَّها التقطتني في اللحظة الأخيرة حينَ أوشكتُ على السقوط.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي متذكِّرًا بوضوحٍ كلَّ ما حدث. تذكَّرتُ أوّل جرعةٍ من الكوكايين وأنَّني لم أتَّصِل بأماندا. ثمَّ الجرعة الثانية، وعدم الاتِّصال. ثمَّ قطرات الكيتامين في الجزء الخلفيِّ من حلقي ووجوه سلفادور دالي من حولي. ولم تكن بحاجةٍ إلى إخباري بأيِّ حالٍ عثرَتْ عليّ: بساقين تتدلَّيان ومؤخِّرةٍ في الهواء، مُمتطيًا ما سماكته نصف بوصةٍ من الزجاج وكأنَّه خيلُ

موستانج في حلبة روديو؛ لأنَّني أتذكَّر. لكن أتعلمون ما الأسوأ من كلِّ ما سبق؟ مع حلول المساء، شعرتُ ببعض التحسُّن وعادَ إليَّ نشاطي، لذا شعرتُ بأنَّني مستعدٌّ للقاء أصدقائي مجدَّدًا. أرعدَت هذه الفكرة فرائصي. ولم يُنقِذني على الأرجح سوى سفرنا إلى ناميبيا بحلول نهاية ذلك الأسبوع".

بدأ شخصٌ ما بالكلام. استغرقَ الأمر منِّي بضع ثوانٍ قبل تمييز صوت سيكستن لأنَّه كان يبكي. اقتربتُ منه كي يتمكَّن الميكروفون الخارجي من التقاط صوته.

"لقد أُنقِذت"، واصل سيكستن. "ناميبيا أنقذتني أيضًا".

تسمَّرت نظراته باتِّجاه ويل.

"كنتُ في الرابعة عشرة من عمري عندما حاولتُ قتل نفسي لأوَّل مرَّة. وبعدها مرَّةً أخرى بعد سنة، ثمَّ مرَّة أخيرة في ميلادي الثامن عشر. يا يسوع كم كنتُ مضطربًا! حاولتُ في مناسباتٍ أخرى وكنتُ قريبًا من النجاح بالطبع، لكن كانت تلك الثلاث أخطرها. كنتُ أشعرُ بمزيدٍ من الثقة عقب كلِّ محاولة، وفي الثالثة ابتعلتُ الكثير من حبوب الأدوية. بعد أن غسل الطبيب معدتي في المستشفى، سألني عمَّا أظنُّ أنَّني فاعله. كنتُ مقتنعًا، قبل أن يتحدَّث إليَّ ذلك الرجل، أنَّه ما كلماتٍ يمكن قولها ويكون من شأنها أن تجعلني أعدل عمَّا أريد فعله. لكنَّه بدلًا من مناقشتي بعقلانيَّة، ظلَّ يطلب منِّي أن أتخيَّل، ولو للحظة، أنَّني لستُ أسَّ المشكلة؛ وأنَّ حبوب الأدوية قد لا تكون سبيلي الوحيد للهرب من حياتي؛ وأنَّه ربَّما هنالك حلٌّ لا يتضمَّن موتي. لعلَّ الحلَّ ببساطةٍ أن أبتعِد عن سبب بؤسي.

"لذا عدتُ إلى منزلي. أنهيتُ دراستي الثانويَّة، ثمَّ هربتُ إلى دراسة علم الأحياء البحريَّة في جامعة ستوكهولم. كنتُ أتَّصل بوالدتي مرَّةً كلَّ شهرٍ كما لو أنَّني أردت القول لها: أنا ما زلت حيًّا، أيَّتها العاهرة الحمقاء. على الرغم من كلّ ما فعلتِهِ بي، أنا ما زلت حيًّا. تندلع بيننا هذه المعركة الصامتة في كلّ مرَّةٍ نتحدّث فيها معًا.

كنتُ قد عزمت على زيارتها مودِّعًا عند نهاية السنة الدراسيَّة الأولى. لكن ما لم تُخبرني به هو أنَّ زوجها قد عاد للعيش معها في ذلك الشتاء. كان رجلًا مُعنِّفًا، لطالما كان هكذا على الدوام، وبعد بضعة أشهرٍ ضربها ضربًا مبرِّحًا إلى حدٍّ إدخالها إلى المستشفى. لكن اتَّضح أنَّها لم تكن محظوظةً بما يكفي لمقابلةٍ طبيبٍ كالذي تحدَّث إليّ. وبدلًا من ذلك، عالجوها وأخرجوها من المستشفى. بالطبع أقسم زوج أمِّي أنَّه لن يمسَّ منها شعرةً واحدةٍ بسوءٍ مرَّةً أخرى، فصدَّقتهُ. دعته بعدها إلى العيش معها مجدَّدًا وبدء حياةٍ جديدةٍ معًا، واحتفلا بذلك. ثمَّ، وبعد ساعاتٍ وساعاتٍ من شرب الخمر، قتلها".

نظر سيكستن إلى المجموعة كما لو كان يأمل العثور على شخصٍ ما. كانت خدَّاه مبلَّلين بالدموع، لكن لم يتزحزح أحدٌ من مكانه. بدا الأمر كما لو أنَّه كان يتحدَّث بلغةٍ غير مفهومة.

"اذهبوا إليه"، همستُ، لكن ظلّوا متسمِّرين كلٌّ في مكانه. كان بحاجةٍ إلى مواساة، بيد أنَّهم لم يشعروا بمعاناته.

"نحنُ هنا من أجلك"، قالَت أماندا أخيرًا. سارَت باتِّجاهه كي تعانقه. "نحنُ نحبُّك، ونريد أن تعلمَ أنَّنا هُنا من أجلك. ثقِ بنا".

ارتفعَت أصوات همهمةٍ من جهة المجموعة مرافقةً كلماتها، وأخذوا واحدًا تلو الآخر يقتربون ويلفُّون أذرعهم حول أماندا وسيكستن. حاولتُ التقاط صورةٍ أفضل لوجه سيكستن، لكنَّه تاه بين تلك الكتلة المتمايلة من الجمهور.

"ثمَّ سببٌ وراء مجيئك إلى هنا"، قالَت أماندا.

تبِعنا جميعًا ويل إلى الخارج. سبقتُهم ببضع خطواتٍ إلى أعلى التلَّة من أجل التقاط صورةٍ جيّدةٍ للمجموعة كلّها معًا.

"كيف تبدو الصورة؟"، سألني ويل.

"إنَّها رائعة"، قلت.

بدا كما لو أنَّ بوح سيكستن بمكنونات صدره قد هدَّأ ويل الذي صار ألطف حديثًا. كانت شقيقتي تحدِّقُ إليه مثل أمٍّ تحدِّق إلى طفلها المريض: بمزيجٍ من الشفقة والقلق. لم أرها قطُّ تنظرُ إلى شين على هذا النحو، ولا أظنُّ أنَّه كان بدوره يتوقَّع منها شيئًا كهذا.

"أمستعدٌّ للمزيد؟"، سأل ويل مُتلهِّفًا.

"هيَّا بنا!"، قلت. "أمامك بضع دقائق قبل سقوط المطر".

ألقى نظرةً خاطفةً وكأنَّه لاحظَ للتوِّ الضباب الخفيض الذي يوشك على تغطية كولمانسكوب. بدَت الشمس مثل قرصٍ أبيض؛ وكأنَّها قمرٌ مُشتعِل. "تخيَّلوا أنَّنا في هارموني الآن"، قال مُخاطبًا الكاميرا. "هُنا، حيثُ نقف، غرفة الطعام. وفي يومٍ ما،"- أشار بيده- "هنـاك في الأعلى، ستكون لدينا مكتبة، ومكتب، ومرقَبٌ للتفكير العلمانيّ، ودراسات اليوغا، وخلفها كلّها ساحةٌ مركزيَّةٌ مخصَّصةٌ للتأمُّل. من ورائي ساحةُ التدريب. وتليها

إسطبلاتنا، ومستودعاتنا، ومخازننا، ومرافقنا الزراعيَّة".

تحرَّكَ خطوةً إلى يساره ورفع ذراعيه ببطء في السديم الهابط. لم تعد أصابعه مرئيَّة. "بعد أن شرعنا بالعمل على جناحنا الجديد، ستتوفَّر هناك مساحةٌ لأعضاء جدد ليعيشوا ويتلقَّوا المعالجة ويعملوا". ثمَّ سار بعض خطواتٍ باتِّجاهي. "هُنا، غرفة المعالجة". اقترب أكثر. "هُنا، ورشة النجارة". اقترب أكثر. "هُنا، ورشة الحدادة. ستكون فرقة موسيقيَّةً تعزف أجمل ما سمعته أذنٌ من ألحان. سنبني قاعة اجتماعاتٍ ليكون بمقدور الزوَّار التعرُّف على الحياة في هارموني، ومطعمًا ليستمتعوا بمنتجاتنا المحليَّة".

الرجل من زيمبابوي ذو اللحية الصغيرة، الذي كان جالسًا بجواري في الحافلة، قال مُقاطعًا: "ومتى سنحصل على كلِّ ذلك؟"

"بمُجرَّد أن تفرغ من بنائه، يا ميشاك"، قالَت أماندا.

"ليس لدينا في الوقت الراهن سوى المنشأة القائمة بالفعل"، أقرَّ ويل. "وأعتذر لكونها لا تُحقِّق المستوى المأمول، لكنَّنا سننتقل إلى الجناح الجديد فور إتمام بنائه".

"ماذا عن المتطوِّعين؟"، سأل ميشاك، قابضًا بإبهامه وسبَّابته على شعر لحيته.

"دعنا نعدَّ المكان أوَّلًا لاستضافة الأعضاء الأساسيِّين في هارموني، وبعد ذلك سنبني غرفًا لاستقبال المتطوِّعين والمرضى جنبًا إلى جنب مع مَشرَفٍ مركزيٍّ للأطفال. وسيقيم البالغون والأزواج في الغرف المشتركة، في الطابق الثاني من جناح المطعم.

لكنَّني تحدَّثتُ مطوَّلًا، وأشعر الآن بالتعب. لقد كان نهارًا شاقًّا".

"هل لي أن أطرح سؤالًا بشأن العائلات؟"

"عليك أن تتذكَّر يا ميشاك أنَّ العائـلات والعلاقات جزءٌ من البنى الحضارة؛ إنَّها روابط المجتمع القمعيَّة. ونحتاج إلى التفكير في أنفسنا كأنداد؛ وأنَّنا أحرار بحبِّ من نريد. لم تعدُ الروابط العائليَّة مواكبةً للعصر. وفقط عندما نفهم هذه المسألة سنستطيع التعبير عن أنفسنا بحريَّة، ومن دون أن تُقيِّدنا توقُّعات الآخرين؛ وسيكون بمقدورنا بناء علاقاتٍ حميمةٍ خاليةٍ من أيِّ مكائد. في هارموني، ستستمرُّ العلاقاتُ كلُّها، علاقاتُ البالغين والبالغات كلُّها، طالما أن أطرافها يرغبون بذلك". قرَّبتُ الصورة من وجه أماندا الذي بدا مرَّةً أخرى خاليًا من أيِّ تعبير؛ كما لو أنَّها توقَّعت حركة عدستي المتطفِّلة.

حاولَت امرأةٌ أن تسأل عن التصويت، لكنَّ قاطعها ويل قائلًا: "لا بدَّ أن نتوقَّف لليوم. أدعوكم جميعًا للحاق بي إلى القاعة مجدَّدًا كي نتأمَّل في كلِّ ما سمعتموه".

"لكن لا يحصل الجميع في هارموني على التقدير مقابل ما يقدِّمونه. لقد وعدتَ بمعالجة هذه المسألة اليوم".

"بصمت، من فضلك"، قال ويل. "التأمُّل بصمت".

آخرُ مشهدٍ صوَّرْتُه كان للمجموعة تُعكِّر صفو السديم في أثناء مرورها عبر جدران هارموني الوهميَّة في طريق العودة إلى الكازينو. استقرَّ السديم عقب رحيلهم، وبقيتُ وشقيقتي بمفردنا.

"لقد اعتقدتُ حقًّا أنَّه لن يقدر عل المتابعة"، قلتُ، مثبِّتًا واقي عدسة الكاميرا البلاستيكيّ.

"شعرَ ويل بتوتُّر"، قالَت. "هذه الأمور ترهقه. ماذا قلتَ له في منتصف محاضرته؟".

"اقترحتُ عليه الحديث عن نفسه".

أومأت برأسها.

"هل تعتقدين أنَّ هنالك من يفهم نظريَّاته؟"، سألتها.

"لا أدري. ولا أكترثُ لذلك حقًّا. إنَّ هذا الفعل يسعده. أريدُ أن أسألكَ معروفًا. سيعني الكثيرَ بالنسبة إليَّ إن استطعت تجهيز ما صوَّرتَه له في أسرع وقتٍ ممكن".

"بالطبع"، قلت.

شكرَتني. "إنَّه يواجه صعوباتٍ مع بعض الأشخاص في المجموعة، ويريدُ اجتذاب أعضاء جددٍ في أقرب وقتٍ ممكنٍ كي يتسنَّى لهم البدء بعلاج المرضى".

"انتهَيت من أوَّل مهمَّة، ولا يزال لديَّ مهمَّتين"، قلت. أدركَت شقيقتي بعد لحظاتٍ أنَّني كنتُ أقصد نشاط مجموعتِها السينمائيَّة.

"أنا آسفة لأنَّني طلبتُ منك تعليم أطفالي اليوم"، قالَت.

"لا بأس. سيكون عملًا ممتعًا".

بعد أن اتَّفقنا على الالتقاء في واحدٍ من المنازل أعلى التلَّة، مضَت كي تُحضِر الأولاد.

خرجَ مريدو ويل من الكازينو في تلك الأثناء- فافترضتُ أنَّهم فرغوا من التأمُّل- ولذا بدأتُ أتسلَّقُ الرمال الناعمة بغية الابتعاد عنهم. كان عليَّ الإسراع في العثور على موقعٍ مناسبٍ لتعليم الأولاد. وعبر السديم من ورائي سمعتُه يقول: "لقد تطلَّب الأمر

منّي دراسةً مطوّلة كي أدرك أنَّ النجاح لن يحالفنا ما لم نكن أسرةً موحَّدة...".

صعدت إلى أوّل منزلٍ صادفتُه؛ كان مختبئًا مثل طفلٍ وسط الضباب الذي يحجب الرؤية. وحينما توقَّفتُ كي ألتقط أنفاسي، انتبهتُ إلى أنَّ حذائي يقع على مستوى الارتفاع نفسه لمنتصف الجدار في غرفة الضيوف، لأنَّ الرمال ملأت نصف الغرفة.

اجتزتُ المنحدر الطفيف وصولًا إلى القسم الخلفيّ من الغرفة مُنحنيًا بعض الشيء كي أتجنَّب الشرائط السائبة من الجصّ. بدا أنَّ الرمل يُحاول جاهدًا غمر هذا المكان، مثلما يحاول أن يفعل بكلّ مكانٍ آخر. سيأتي يومٌ لن تبقى فيه إلَّا بضعة جيوبٍ هوائيَّةٍ تحت السقف. كانت ثمَّة بالكاد مساحةٌ كافيةٌ لي- فما بالك بالطلّاب الذين ستحضرهم شقيقتي- لذا جاهدت للوصول إلى المطبخ، وبعدها، بصعوبة، زحفتُ على طول كثّب رمليٍّ قبل أن أخرج عبر النافذة الخلفيَّة باحثًا عن مكانٍ أكبر.

رأيتُ إلى الأمام منّي منزلًا كبيرًا ذا طابقين، بعوارض خشبيَّةٍ مكشوفة، وصفائح من الحديد المموَّج ترتكز على جدرانه. بدا المبنى وكأنَّه يخضع لعمليَّة ترميمٍ مدَّتها مئة سنة.

بلغَت الرمالُ سقف غرفة الضيوف في كلّ زاوية، فأصبح المكان مُعشَّرًا. كان المنزل مُناسبًا لأغراضي، لكنَّني احتجتُ إلى التحقُّق من أنَّ بقيَّة الغرف آمنةٌ في حال أراد الأولاد استكشافه.

تسلَّقتُ كثيبًا رمليًّا كبيرًا سدَّ معظم طريقي إلى الممرّ، وبعدها انزلقتُ على خاصرته حتَّى وصلتُ إلى أسفل الدرج. على مرّ السنين، كشطت الرياحُ الجنوبيَّة الغربيَّة سقف المنزل ولم يتبقَّ

فوقي سوى أسياخ الحديد المسلَّح تثقف الجدران من دون أن يعزِّزها شيء.

كانت ألواح الأرضيَّة في الطابق العلويّ نظيفةً، وكأنَّها مثبَّتةٌ للتوّ، وقويّةً بما يكفي لحمل وزني أيضًا. وأمَّا في غرفة النوم الرئيسيَّة، فقد صنعَت طبقةٌ رقيقةٌ من الرمال المتموِّجة بركةً متجمِّدةً لم أجرؤ على تعكير صفوها.

استرخيتُ على الكثيب الرمليّ في غرفة الضيوف، وسط رماله الناعمة كأنَّها مسحوق، ويرافقني خنفسٌ أسود. انتظرتُ شقيقتي. سقطت الحشرة داخل ثلمٍ أحدثتُه بحذائي من غير قصد، ثمَّ تقدَّمت ببطءٍ فوق المنطقة التي أصبحت الآن وعرة. مددتُ إليها سبَّابتي بغية مساعدتها، وعقب عدَّة محاولاتٍ فاشلةٍ، زحفَت أخيرًا فوق جلدي على نحوٍ يثير الحكَّة. رفعتُها إلى خارج تلك الهوَّة المنمنمة، ووضعتها برفقٍ في منطقةٍ ساكنةٍ مُسطَّحة.

سررتُ جدًّا بتصوير كلٍّ من ويل حينما أخبر المجموعة عن حياته في لندن، وسيكستن حينما شارك قصَّته أيضًا، لكنَّني كنتُ بحاجةٍ إلى المزيد منهم. وعلى الرغم من أنَّني جنيتُ مبلغًا لا بأس به من المال جرَّاء عملي لدى تشزلي إلى الآن، إلَّا أنَّني قرَّرتُ تذكير ويل بدفع أجرٍ مقابل عملي اليوم بسبب خشيتي من عودةٍ حتميَّةٍ لضغوطاتي الماليَّة.

قرَّبت الصورة من شكلٍ غير منتظمٍ على بعد بضع بوصاتٍ من الخنفس. لم تمتزج تلك البقعة الغريبة تمامًا مع الرمال الناعمة: بدت وكأنَّها قطعةٌ من أحجيةِ صورٍ مُقطَّعة.

في مكانٍ بعيدٍ خارجًا، أخذ صوتان خفيضين يرتفعان باطّراد.

"ألم تفرح بها؟"، سألَت أماندا. أو ربَّما: "هل أنت سعيدٌ بها؟".

"مثلما توقَّعتُ إلى حدٍّ كبير، صِدقًا"، كانت تلك أوَّل الكلمات التي فهمتُها من حديث ويل.

"تبدو مهمومًا".

"حقًّا؟"

"وكأنَّك منهك القوى".

"فعلًا؟ لم أتوَّقع أن يتحدَّث سيكستن عن ماضيه علانية. شكرًا لك على مواساته".

لمحتُهما يمضيان في اتِّجاه منزل مدير المنجم القديم.

"أسئلةُ ميشاك..."، قال ويل، مُتنهِّدًا.

"كنت أريدُ أن أسأل عن ذلك".

"ليس بمقدوري أن ألومهم على رغبتهم في العيش في مكانٍ مستقرٍّ ومستدام. إنَّ نيَّته طيِّبة. لكن هل يجب أن يسألوني طوال الوقت عن موعد بناء المرحلة الثانية مع أنَّهم أنفسهم الذين يبنونها؟".

"إنَّهُ يريدُ إرضاء دادي".

"ها!"، كان تعبيره الصوتيّ هذا أقرب إلى الإدراك أكثر منه ضحكًا. "أخشى أنَّ هارموني يُشتِّتُ انتباهنا؛ أنَّ ما نبنيه هُنا يحيدنا عن مسارنا. هل فكَّرتِ بصدد ما قلتهُ عن الخليج؟ أنا على يقينٍ من أنَّنا إذا تحرَّكنا بصورةٍ أعمق في الصحراء، فسنكون قادرين على الهروب من كلّ هذا الهراء السطحيّ. أخشى أنَّنا قريبون من لودريتز أكثر ممَّا ينبغي".

قالَت أماندا: "هل راجعت الأرقام التي أعطيتها لك؟"

"ليس بعد".

"يا إلهي! لقد وعدتني يا ويل بأنَّك ستُحوِّل المال، وما زلتُ أنتظرُ حدوث ذلك. ليس الخليجُ أولويَّتنا".

"أعلم هذا، وأنا آسف. كلُّ ما في الأمر أنَّ البيع يضفي شعورًا بأنَّ الفعل نهائي؛ أنَّه ما من رجعةٍ بعد إرسال المال".

"أليس هذا ما كنت تريده طوال الوقت؟".

"بلى، بكلِّ تأكيد. لكن هذا لا يجعلُ الأمر أسهل.

كنتُ أمدُّ يدي محاولًا الوصول إلى الخنفس لأساعده على صعود لوح أرضيَّةٍ حينما اهتزَّ فجأةً بابٌ مسحورٌ مموَّه، مُعكِّرًا صفو حُبيبات الرمل القريبة من حذائي، قبل أن يُفتح. خرج منه عنكبوتٌ[1] بحجم يدي، ببطنٍ مرجانيٍّ منتفخٍ وأرجلٍ سوداء بشعة، ولفَّ نفسه حول الخنفس. ثمَّ سرعان ما جرَّ فريسته وأغلق باب عشِّه بعد أن اقشعرَّ جسدي تقزُّزًا.

شعر الأولاد المراهقين بالخجل من تنفيذ تعليماتي بعدم طرح الأسئلة في أثناء مشاهدتهم لي أُنقِّل أصابعي حول الكاميرا. كانت خطَّتي أن أشجِّع الأولاد على التدرُّب على التقاط صورٍ مُقرَّبة، وموضعة أنفسهم أمام عدسة الكاميرا أيضًا كي أوضِّح لهم كيف تنقل الكاميرا المعلومات إلى المشاهِد.

لم ينظروا إليَّ مباشرة، وإنَّما كانت أعينهم مثبَّتةً على يديَّ،

---

1 عنكبوت الباب المسحور: عنكبوتٌ ذنبيٌّ يحفر جُحره في الأرض، ويغطي مدخله ببابٍ مسحورٍ من الحرير والطين. م.

بخلاف واحد منهم، وكان فتى جسورًا يُدعى بِن. نظر بن بإمعانٍ إلى وجهي. كنتُ قد أثرتُ اهتمامه حينما أطفأتُ المصابيح الحمراء في الكاميرا كي أصوِّرَ خلسة، لكن بعد نصف ساعةٍ أو نحو ذلك شعرتُ بأنَّ الملل تسلَّل إليه وخسرتُ تركيزه.

لم أمضِ مؤخَّرًا وقتًا طويلًا مثل هذا بصحبة شقيقتي، وكنَّا مستمتعين معًا. كنتُ أخبرها عن عنكبوت الباب المسحور حينما بدأ صوت ويل يعلو من بعيد.

"لقد صُعقت بشدَّةٍ عندما خرج من بابه"، قلتُ ضاحكًا. "ليس هذا جيِّدًا لقلبي".

"يا للخنفس المسكين!"، قالت.

"أجل، يا لتعاسة حظِّه!".

تردَّد صدى كلمات ويل عبر السديم، قائلًا: "لم يعد بمقدوري الاستمرار بفعل هذا".

التفتَ الأولادُ نحونا.

قلت: "هل من داعٍ إلى هذه الهستيريا؟"، فقهقهت المجموعة. "سمعتُه وأماندا يتحدَّثان عندما كنتُ أنتظرُك"، قلتُ لشقيقتي.

استأنفتُ إعطاء الدرس لجميع الأولاد، ما عدا بن الذي كان جالسًا في الرواق بينما يتناوب الآخرون على الكاميرا. أمَّا لوسيًا، فكانت تمدُّ رأسها بين الفينة والأخرى إلى الخارج للاطمئنان على الفتى. سألَ عمَّا إذا كان بإمكانه الخروج لجمع بعض ورود الصحراء- وقصد بذلك البلَّورات الجصيَّة ذات الرقائق الحادَّة- فسمحَتْ له شريطة ألَّا يهيم بعيدًا. سمعنا صوت خطواته في الخارج جيئةً وذهابًا.

قالتَ لي: "إنَّني قصدتُ ما قلتُه لك في السابق؛ بصدد تشجيعك لويل. شكرًا لك".

"سيتعيَّنُ عليه إخبارهم بكلِّ شيءٍ عن مرحلته تلك في لندن".

"لدى كلٍّ منَّا أسراره".

عاد بِن ليري شقيقتي كلَّ الباقات الحجريَّة التي عثر عليها قبل أن يبدأ رحلته في استكشاف المنزل. وعندما وصل إلى الممرِّ، قلتُ له إنَّ عليه النظر إلى النمط الرمليِّ فوق أرضيَّة غرفة النوم في الطابق العلويّ.

"تهجرينني!"، قال ويل، مُقاطعًا. "تهجرينني وأنا في أمسِّ الحاجة إليك!".

خاطبتُه أماندا بغضب: "لم يعد بمقدوري الاستمرار. لن أنتظر حتَّى تُخفِق في ناميبيا أيضًا. أنا أهتمُّ لأمرك حقًّا، مع العلم أنَّ من الواضح أنّك لا تكترث بشأني. لكن يجبُ أن ينتهي كلُّ هذا. نحنُ لم نأتِ إلى هُنا كي تنغمس في نزواتك".

"يبدو الأمر خطيرًا"، قلت. "على غرار ما حدث بين العنكبوت والخنفس إلى حدٍّ ما".

"ليست المرَّة الأولى، لكن عادةً ما يعود كلُّ شيءٍ إلى حاله سريعًا. يقول إنَّ ردود فعلها مبالغٌ فيها دائمًا".

كان جدالهما في الخارج يُشتِّت انتباه الأولاد مثلما فعل بكلٍّ منَّا أيضًا، وسرعان ما أغفلوا الكاميرا.

"أهكذا تنتهي حكايتنا؟"، قالَت أماندا.

"لا تقولي ذلك".

"إنَّها تتَّسمُ بذاكرةٍ انتقائيَّة"، قالَت شقيقتي بينما لا يزال

الجدال مستمرًّا. "أتمنَّى أن تتركه وشأنه".

"لماذا لا يهجرها؟"، سألت.

هزَّت شقيقتي كتفيها غير مبالية.

أصررتُ على مقصدي، قائلًا: "لِم لا يقول لها إنَّ ما بينهما انتهى ببساطة؟".

"حتَّى وقتٍ قريب، كان المال هو السبب. كان الأمور ستنتهي على ما يرام حتَّى باعا منزلهما في لندن. والآن أتمنَّى لو أنَّهما اقتسما كلَّ شيءٍ فيما بينهما كي نتمكَّن جميعًا من المضي قدمًا في حياتنا".

قرَّرتُ إنهاء الدرس بتعليم الأولاد طريقة تقريب الصورة وتعديل التركيز في العدسة، وخطر لي حينها أنّه، وبصرف النظر عن الضجيج الراهن، فإنَّ المنزل كان صامتًا إلى حدٍّ لافتٍ للنظر.

"هل رأيتِ بن؟"، سألتُ شقيقتي، فقالَت إنَّها على وشك الذهاب للبحث عنه.

قلت: "انتظِري هنا. سأصعدُ إليه". ناديتُ اسمَه في أثناء صعودي الدرج. لم أرِد تخريب نمط الرمل في غرفة النوم، لذا ألقيتُ نظرةً خاطفةً لأرى ما إذا كان بِن مختبئًا في داخلها.

حينئذٍ تمامًا لمحتُ كيانو يتقدَّم باتِّجاه المنزل.

"ماذا يحدث؟"، سألتُ بصوتٍ عالٍ حينما مرَّ كيانو بجواري من دون أن يتوقَّف.

عدتُ إلى الطابق السفليّ وأخبرتُ شقيقتي بأنَّ بِن لا بدَّ تسلَّل خارجًا. "إنَّه يجمع الحجارة على الأرجح".

كان الضباب ثقيلًا. آلمَ وهجه عينيَّ في أثناء تسلُّقي المنحدر مُناديًا اسم بن. رأيتُ منزل مدير المنجم ماثلًا أمامي، أكبر مَسكنٍ في المنطقة، حيثُ يتجادل ويل وأماندا.

سرعان ما شعرتُ بقدميَّ تحترقان وصرتُ أتنفَّسُ بصعوبة. إن لم يكن بِن في المنزل، فسأمضي نزولًا إلى الطريق السريع قبل أن أعود أدراجي وأبحث في المنازل الأخرى. ناديت اسمَهُ مرَّة أخرى، لكن لم أتلقَّ جوابًا.

تردَّد صدى دويِّ انفجارٍ من حولي، ثمَّ أتبعَه آخر: أقرب إلى تهشُّمِ الزجاج منه إلى عيارٍ ناريّ.

رأيتُ ويل عند باب المنزل. كان ممسكًا ببِن من كتفيه ويهزُّه بقوَّة.

ظلَّ ويل يصرخ قائلًا: "لماذا كسرتها؟" على الرغم من محاولاتي الإمساك به.

"دعه وشأنه!"، قلت، وضربتُ ويل بمرفقي نحو الدرجات الأماميَّة. تعثَّر، لكنَّه ظلَّ مُحافظًا على توازنه بشقِّ الأنفس في أثناء ما ظللُت أدفعه أبعد وأبعد. أحسسنُ في تلك اللحظة أنَّ بمقدوري سحقه.

"لِم فعلت هذا؟!"، قال لي. تيبَّست ملامحه غضبًا؛ كان وجهًا لم أره من قبل. "لقد كسر هذا الولدُ نافذة".

تناثرت شظايا زجاجٍ على الدرجات الإسمنتيَّة.

"كلَّا، لم أفعل"، قال الولد.

"أرأيته بأمِّ عينيك؟"، سألتُ ويل.

"كلَّا"، أجاب الولد.

أراد ويل أن يجيب لكنَّني قاطعتُه: "ممَّ كان كيانو يهرب؟ ماذا حدث له؟".

سمعتُ شقيقتي تنادي اسمي من جهة أسفل التلَّة.

"نحنُ بخير"، قلتُ لها بصوتٍ مرتفع. جثمتُ على رُكبتيَّ لأتحقَّق ما إذا كان بِن قد أصيب بأذى، فما كان منه إلَّا أن دفن رأسه في كتفي.

"أنتَ في ورطةٍ كبيرة"، قال ويل له.

ضممتُ رأس الصبيِّ بين يديَّ برفق. "كلَّا، يا ويل، أنت مُخطئ. أنت من سيكون في ورطةٍ كبيرةٍ جرّاء ما فعلتَه".

"ماذا تقصد؟"

"أن تشدَّه بهذه القسوة".

مدَّ كيانو رأسه من وراء زاوية المنزل. سألتُه عمَّا كان يفعل، لكنَّه لم ينبس ببنت شفةٍ أو يقترب منَّا أيَّ خطوة.

انحنى ويل ليلتقط وردة صحراء. مدَّها باتِّجاهي، وقال: "كانت هذه معه. جيوبه مليئةٌ بها".

"وما معنى ذلك؟".

"وما معنى ذلك؟!"، قال. "معناه أنَّه كان يرمي هذه الحجارة القذرة نحو النافذة".

أراد كيانو أن يقاطعه لكنَّني قلت: "عليك أن تهدأ، يا ويل".

"عليَّ أن أهدأ؟!".

همستُ في أذن بِن أن يذهب إلى شقيقتي، بيد أنَّه هزَّ رأسه رافضًا. طمأنْتُه أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام، ثمَّ وجَّهتُه نحوها.

أطلَّت أماندا من داخل المنزل عبر النافذة المكسورة. "تلاعب بك ذلك الولد تمامًا"، قالَت في أثناء مشي بن باتِّجاه شقيقتي. "لقد تعلَّم درسًا قيِّمًا اليوم".

"ماذا تقصدين؟"، قلت.

"إذا تظاهرتُ بأنَّك على وشك البكاء، فسيشعر الناس بالحزن لأجلك، وستُفلِتُ من ارتكاب أيِّ ذنبٍ دون عقاب. هذا هو الدرس الذي أقصده".

"لكنَّه لم يرتكب أيَّ خطأ".

"أتعني أنَّ من المقبول رمي الحجارة؟"، قال ويل، وشدَّ قبضته أكثر على الحجر.

"كلَّا، ولا الثوران العنيف لأنَّك في وسط جدال. لقد سمعَتِ كولمانسكوب كلُّها كلَّ حرفٍ من حديثكما، فلا تأتِ الآن وتلقِ إحباطاتك على ولد".

"إنَّه بالكاد ولد"، قالَت أماند.

"لديكما كامل الحريَّة في التعامل مع بعضكما بسوء"، قلت، "وليس هذا شأني في الأصل- لكن لا تفعلا ذلك بطفل".

نزلَت الدرج مسرعةً وعيناها مثبَّتتين نحوي، في حين قذف ويل الحجر جانبًا لأجل أن يمسك بيدها. أصاب الحجرُ منزل مدير المنجم، فتشقَّق جصّ الجدار عند موقع الارتطام مخلِّفًا ندبةً رماديَّة. ثمَّ ركل حجرًا آخر باتِّجاه الطريق السريع، وقال: "لديَّ كلُّ الحقَّ في أن أغضب".

—

"هل يرتدي جميع أفراد العصابة الثامنة والعشرين أزياء موحَّدة حقيقيَّة؟".

نقر دولار بأصبعه على جبهته، وقال: "نحنُ جميعًا نرتدي الزيَّ الموحَّد هنا".

"لكنَّه غير موجود؟"، قلتُ موضحًا. "أو تقصدُ أنَّه حقيقيّ؟". هزَّ رأسه. "وماذا عن الرتَب الأخرى في الثامنة والعشرين- الأطباء، والنقباء، وغيرهم-، هل لكلِّ رتبةٍ زيُّها الموحَّد السرّيّ؟".

كرَّرتُ السؤال بيد أنَّه لم يُجِب. حدَّق إلى العدسة بالعينين الميّتتين نفسهما اللتين لا بدَّ أن كلًّا من ضحاياه رآها. أخبرتني تلك العينان أنَّ بمقدوره ضربي وتقييدي، وقتلي إن أراد ذلك.

رفض دولار التعاون بعد أن طلب المزيد من المال- أراد إعادة التفاوض بشأن أجور مقابلته- لكنَّني لم أبدِ أيَّ استعداد لذلك.

"وما من أحدٍ يستطيع وصف الزيِّ الموحَّد لرتبة مُعيَّنة إلَّا في حال كان منها؟"، قلت.

لا جواب.

طلبتُ منه الإجابة بصوتٍ عال.

لا جواب.

"أينطبقُ النظام نفسه على العصابات الأخرى؟"

ظلَّ صامتًا.

حان دوري الآن لأتوقَّف عن الكلام.

"أجل، نفسه"، قال أخيرًا.

"ماذا يمنع شخصًا من خارج العصابة الثامنة والعشرين

بالتظاهر بأنَّه ذو رتبةٍ ما في عصابتك؟"

ازدراؤهُ للسؤال أبطلَ نفورَه من الإجابة: "كيف؟".

"لنفترض أنَّ ثمَّ رجلًا نُقِل من سجنٍ آخر. ثمَّ يأتي هذا إليك ليقول إنَّه كان عضوًا في الثامنة والعشرين من حيث أتى، لكن لا أحد في عصابتك المحليَّة يعرفه من قبل. كيف ستتحقَّق من أنَّه يقول الصدق؟".

"من سيخبره؟ أنا؟".

حاولتُ الشرح مرَّةً أخرى: "ماذا سيحدث لو عرفَ عن زيِّكم الموحَّد من شخصٍ آخر؟".

"حينها سنقتل الشخص الذي أخبرَه".

"أجل، لكن في حال تمكَّن هذا الغريب من... لا أعلم... اكتشاف أسراركم؛ ألا يُمكنه وقتئذٍ التظاهر بأنَّه عضو في الثامنة والعشرين؟"

"كلَّا".

"هل أنت واثق من ذلك؟ أظنُّ أنَّ هذا ربَّما يكون ممكنًا بالنسبة إلى شخصٍ ذكيّ؛ شخصٍ بارعٍ في ملاحظة أشياء لا يراها الآخرون".

"ماذا تقصد؟".

"قد يكون بالتظاهر سهلًا بالنسبة إلى رجلٍ ذكيّ".

بصق دولار على الأرض. "ذلك الرجل أشبه بفيروس؛ يتسلَّل إلى الجسد فيمرضه. سيكون القتل مصيرَ رجلٍ كهذا".

فككتُ عن دولار مشبك الميكروفون اللاسلكيّ، وفصلتُ الكاميرا عن حاملها ثلاثيّ القوائم في أثناء ما خلع قميصَه من دون أن أطلب منه ذلك. كانت عضلاتُه بارزة؛ عضلتاه ذاتُ الرأسين متينة، وذراعاه ثخينان. إلى ذلك الحين، كنتُ أطلبُ من الرجال خلع ملابسهم العلويَّة كي يتسنَّى لي تصوير وشومهم، لكن لا بدَّ أنَّه تحدَّث إلى الآخرين حتَّى صار على درايةٍ بطريقة عملي. لقد كان يسأل عنِّي.

ثنى عضلتيه العضديَّتين، وأبقى ذراعيه ممدودين على جذعه عسليِّ اللون، بحيثُ بدا وكأنَّه يحمل حقيبةً ثقيلةً في كلِّ يد. احمرَّ وجهه نتيجة الجهد. جعلتني مشاهدة هذا المشهد مرَّة أخرى أبتسِم، مثلما حدث حينما كنَّا في الأستوديو. وقتها أحكمتُ تثبيت مُحدِّدَ النظر في الكاميرا على وجهي لئلَّا أدعه يرى ردَّ فعلي. الكاميرات درعٌ عجيب.

انتظرتُه حتَّى فرغ من التباهي، ومن الاستعراض وكأنَّه لاعب كمال أجسام، ولم أقل له إنَّني مستعدٌّ للبدء بتصويره إلَّا بعد أن استرخى.

ثمَّ، ومن دون سابق إنذار، خلع بنطاله. لم يكن يرتدي سروالًا تحتيًّا، بل وقف أمامي عاريًا تمامًا.

"هكذا؟"، قال، بصوتٍ خفيضٍ لأنَّني أزلتُ الميكروفون.

"ارتد بنطالك"، قلت.

لطم قضيبُه السميك بطنَه عندما رفع بنطاله في نهاية المطاف.

لم يتصرَّف أيٌّ من الآخرين على هذا النحو. قلَّةٌ فقط من تجرَّدوا حتَّى ملابسهم الداخليَّة، وكأنَّه الفعل الأكثر طبيعيَّةً في

العالم، لكن، وبصورةٍ مفاجئة، بدا بالنسبة إلى الكثير منهم أنَّ خلع الملابس أمام الكاميرا يجلبُ معه إحساسًا بالضعف؛ حالةً من عدم اليقين إزاء ما قد أطلبه منهم غير التصوير.

في أوّل مقابلةٍ أجريتُها، التقيت بشابٍّ مفتول العضلات في الثانية والعشرين من عمره، وقد كان مجرِمًا قادرًا على حشر مفكٍّ داخل أحشائي من دون أن يرفَّ له جفن، وشاهدتُه كيف انكمشَ على نحوٍ متزايدٍ حينما بدأ بخلع ملابسه. كانت المرَّة الأولى التي يُركِّز فيها شخصٌ آخر غير طبيب السجن، أو الحارس، أو زميل الزنزانة، في تفاصيل جسده. ابتعدَ عنّي وكأنَّه كان يخشى أن ألمسه، وكان عليَّ تذكيره باستمرارٍ بصدد ألَّا يحجب بيديه نفسه عن الكاميرا. هل كنتُ الرجل الوحيد الذي نظرَ إلى جلدِه وتعرَّف من خلال مُذكَّراته الحبريَّة على كلِّ شيءٍ عزيزٍ عليه؛ كلّ شيءٍ يستحقُّ التذكُّر؟

—

لم يتوقّف كلبُ جاري عن النباح، وزاد أداؤه الصوتيُّ المتناوب من تعكير مزاجي السيّئ في الأصل بعد قضاء اليوم في كولمانسكوب. وبغية الهرب من صوت الكلب الدؤوب، قدتُ سيَّاتي إلى لودريتز إلى أن وجدتُ نفسي في نهاية المطاف صوب هارموني. أطفأتُ المصابيح الأماميَّة للسيَّارة عندما صرتُ على مقربةٍ من المجمَّع. توقَّفتُ على بعد مسافةٍ معقولةٍ منه، على الطرف المقابل للطريق الهادئ. كانت أضواء الطابق الأرضيّ مُنارةً، وبدا صوت المولّد وكأنَّه ضرباتُ قلبٍ مجنونة التسارع، وذلك على الرغم من أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل. لا بدَّ أنَّ الجميع كانوا في الداخل آنذاك.

لم يخمد عضبي، بل ازداد حدَّةً على الأرجح لأنَّه لم يتسنَّ لي الحديث مع شقيقتي بصدد ما فعله ويل. كان هنالك الكثير ممَّا أردتُ قوله لها، ولم أشأ المخاطرة بالتفوُّه بألفاظٍ لا يمكنني التراجع عنها. أو ربَّما تحفُّظًا، وازدواجيَّة، بناء على مسؤوليَّتي في تشجيع نزوات ويل، وسلوكه السيِّئ.

كان قد ترك لي رسالةً صوتيَّةً حذفُتها قبل سماعها. افترضتُ أنَّه اتَّصل مُعتذرًا، لكن كان هناك احتمالٌ أيضًا أنَّه أراد تبرير تصرُّفه مع بِن. وفي كلتا الحالتين، لم يكن بمقدوري التعاطي معه وقتذاك.

ومض ضوءٌ في الطابق العلويّ تزامنًا مع خروج شخصين من المدخل الرئيسيّ. وجهُ كلٍّ منهما انكشفَ تِباعًا حين ضمَّ كلٌّ منهما يده حول لهبٍ من النار كي يشعل سيجارة الآخر، بيد أنَّهما كانا بالنسبة إليَّ أبعد ممَّا يكفي حتَّى أميِّزهما. تحرَّكت النقطة المتوهِّجة حركةً خاطفة. بعدها لمعت نظيرُتها بضع ثوانٍ قبل أن تختفي. وكدتُ أنسى أنَّ هذه الأخيرة كانت بجوار رفيقتها مفرطة النشاط حتَّى لمعَت بعد سحبةٍ أخرى. أشعلتُ سيجارتي في داخل شاحنتي الصغيرة، وسحبتُ دخانها الحلو إلى رئتيَّ، وربَّما كنت أودُّ لو أكون في الخارج مع ذينك الشخصين.

نظرَ كلٌّ منهما إلى هاتفه، فأضاء الوهج الأزرق صدرَ كلٍّ منهما وذقنه. أعلن لهبٌ ساطعٌ أنَّهما يشعلان سيجارتين ثانيتين. فتحتُ قفل هاتفي وبحثتُ عن رقم ياغو. لم يكن لائقًا الاتِّصال به في هذا الوقت المتأخِّر، لذا كتبت له: "مرحبًا، عذرًا لأنَّني لم أتمكَّن من اللقاء بك. سأكون في ويندهوك في مطلع الأسبوع المقبل، وأرغب بمعرفة ما إن كنت ستظلُّ موجودًا هنالك.

سيكون لطيفًا أن نلتقي. هنري". تردَّد إبهامي بشأن رمزٍ تعبيريٍّ لقبلةٍ أم لا، لكن قرَّرتُ ألَّا أفعل، وحذفت الرسالة بدلًا من ذلك.

وددتُ أن أطلب النصح من شركائي في التدخين بخصوص ياغو. إلى الآن لم أرسل إليه ردًّا على الرسائل التي أرسلها إليَّ في ويندهوك. لا مانع لديَّ من أن أراه في رحلتي القادمة؛ بيد أنَّني، وكي أكون صادقًا، لا أشعر بأيِّ صلةٍ بيننا. كان خيالًا بالنسبة إليَّ تمامًا مثل دولار في شاشة الحاسوب: شخصًا من المتوقَّع أنَّه قد نسي وجودي. في المقابل، كان كوينتي أقرب إليّ. وربَّما لا يزال في ورشته.

اخترقَ مستطيلٌ من الضوء الجدار خلف المدخِّنَين، ثمَّ سرعان ما تحوَّلَت سيجارتا رفيقيَّ البعيدين إلى ألعابٍ ناريَّةٍ تضرب الأرض. عاد الشخصان إلى هارموني لإكمال أيِّ مهامٍّ كانا يتملَّصان منها خارجًا، ومع انغلاق الباب وراءهما، تحوَّل تفكيري نحو الأستراليّ.

كانت الأضواء داخل ورشة كوينتي مُنارةً عندما مررتُ بالجوار، فتوقَّفتُ جانبًا واتَّصلتُ بالرقم المكتوب على لافتة "غرفة برسم الإيجار".

"أتودُّ الدخول وتناول كأسٍ من شراب؟"، قال عندما فتح البوَّابة. "منزلي لطيف ودافئ".

طلب مني الاسترخاء على الأريكة قبل ذهابه إلى المطبخ ليجلب لنا شرابًا. سألتُه عمَّا إذا كان بمقدوري أن أجرى معه مقابلةً بشأن أعماله الصاخبة. ربَّما ليس هذا أفضل موضوعٍ للحديث في هذه الليلة، لكن تكمن فائدته المحتملة في قياس مدى اهتمامه بي.

"بالطبع، إذا كانت هذه رغبتك"، قال مع عودته حاملًا زجاجةً من شراب كيب فيلفيه وقدحين. "إنَّه مشروبٌ احتفاليٌّ نوعًا ما، أعلم هذا، لكنَّه أفضل بكثيرٍ من القهوة".

لمس ذراعه ذراعي حينما جلس بجانبي، لكنَّ أيًّا منَّا لم يبتعد. بعدَ قدحٍ آخر من المشروب الحلو، أرشدَ يدي إلى صدره ليدُلني كيف أمسِّدُ حلمتيه برؤوس أصابعي. دنوت إليه أكثر. تبادلنا القبل، وكانت شفتاهُ طريَّتين دافئتين. أنفاسه المتسارعة دغدغَت ذقني.

قال لي: "عليَّ أن أحذِّرك من أنَّني في خضمِّ طلاقٍ مليءٍ بالفوضى، ممَّا يعني أنَّني ما زلتُ متزوِّجًا على الورق. المسألة معقَّدة، لكن يجب أن تكون على درايةٍ بها".

بدا جسدُه أجمل ممَّا كان عليه تحت ملابسه.

مصصته، واستمتعتُ به إذ أخذ يتصلَّب في فمي، في أثناء ما كان يداعبُ هو ذكري.

إنَّ الشعور بولوج قضيبٍ في الدبر ممتعٌ على نحوٍ غامر؛ هو بالنسبة إليَّ أفضلُ ما في ممارسة الجنس من دون منازع، لكن حينما حشر عضوه في داخلي- وكان يُراقب ردَّ فعلي طوال الوقت- شعرتُ بنفسي منقبضًا وطلبتُ منه أن يُخرجه.

"تنفَّس"، قال لي مهدِّئًا. "خذ نفسًا عميقًا".

انتظرَ حتَّى سكن توتُّري، وعاد للاقتراب منِّي رويدًا رويدًا، قبل أن ينتظرَني مرَّةً أخرى لأوكِّدَ استعدادي بأنَّ في وسعه مضاجعتي.

ركع بجانبي بعدئذٍ، غامسًا رأس عضوه الطريِّ في بركة منيِّه الذي ملأ سرَّتي. كان قد قذف أيضًا على اللحاف، وكانت هناك

بقعُ رطبةٌ باردةٍ في كلِّ مكانٍ حولنا. مسحنا أنفسنا والسريرَ بمنشفةٍ قديمةٍ كانت أفضل ما عثرنا عليه في متناول أيدينا، قبل أن نتقافز شبه مُتعثِّرين إلى حمَّام كوينتي، والذي كانت تفوح منه رائحة صابونه الأستراليِّ بالأوكاليبتوس. غسلَ كلٌّ منَّا الآخر، مُتوِّقفين لتنظيف ما علق من مَنيٍّ على شعر عانة كلٍّ منَّا بأظفارنا.

—

في رحلتي شمالًا إلى ويندهوك، صببتُ تركيزي كلَّه على بيت القصيد من وراء فكرة المقارنة ما بين المدانين السابقين في فيلمي من جهة، والرجال مثليِّي الجنس في فيلم باريس تحترق من جهةٍ أخرى؛ يتنافس بعض الأميركيّين الأفارقة واللاتينيّين في مدينة نيويورك ضمن مسابقاتٍ تنتمي لثقافة الدراغ، حيثُ يتجوَّلون كعارضي الأزياء ببدلاتهم الرسميَّة مزدوجة الصدر- يخدمون "الواقعيَّة التنفيذيَّة"- في محاكاةٍ لرجال الأعمال مغايري الجنس من ذوي البشرة البيضاء.

ترى نظريتي أنَّ المدانين السابقين كانوا ربَّما يخدمون "الواقعيَّة العسكريَّة" لأنَّ أزياءهم الموحَّدة المُتخيَّلة تُذكِّرُ بالجنود المشاة البريطانيِّين الذين قاتلوا في حروب جنوب أفريقيا. تلاعبتُ بطرق تنسيق مجموعة المدانين السابقين لأزيائهم لتتناسب مع تلك التي يرتديها مثليُّو الجنس المهمَّشون في نيويورك.

لسوء الحظّ، وعلى غرار ما حدث في أثناء زيارتي السابقة إلى ويندهوك، انقضى الأسبوع دون أن أعثر على أيِّ ذكرى عائليَّةٍ تستحقُّ الذكر على الرغم من أنَّني كنتُ أخرج للتصوير كلَّ يوم. شعرتُ بالقلق بصدد أن يكون مشروع تشزلي مضيعةً للوقت.

وفي حالة يأس، اتَّصلتُ بياغو لمعرفة ما إذا كان في المدينة، بيد أنَّني سمعتُ نغمة الرنين الدوليَّة فأنهيتُ المكالمة.

في يوم الاثنين، وجدتُ نفسي أتنَّقلُ في طرقٍ ترابيَّةٍ على أطراف بلدة غروتفونتين، على بعدُ خمس ساعاتٍ شمال ويندهوك، مُحاولًا العثور على مزرعةٍ يُفترض أنَّ عاملًا ينتظرني فيها.

كان المنزل الذي أبحث عنه يقع خلفُ صفٍّ من أشجار الحور السوداء. رأيتُ خارجه رجلًا بارز العضلات ضئيل الحجم مُتَّكئًا على السياج الشائك يفصل الحرش عن ثلاث مساكب ورد. استطعتُ بالكاد سماع صوت زكريًا يخبرني باسمه لأنَّ الهواء الساخن كان صاخبًا بأزيز الخنافس. انطلقنا بعدها بمُساعَدته إلى الحظيرة.

"ما حجم هذه المزرعة؟"، سألتُ، لأنَّنا استغرقنا ثلاثين دقيقةً حتَّى وصلنا إلى تجمُّعٍ دائريٍّ الشكل من الأكواخ المسقوفة بالحديد المموَّج، والمبنية على قطعة أرض جانبيَّة، حيثُ يعيشُ مع عائلته.

"ثلاثون ألف هكتار".

بخلاف ما كانت عليه الحال في المزرعة الرئيسيَّة، لم يكن ثمَّ أيُّ أزيزٍ للخنافس هنا في المستوطنة، وإنَّما ثلاثة كلابٍ نابحة. صاح زكريًا على الكلاب كي تنصرف. لم يطيعوه، فتظاهر بركل أقربهم إليه، فانهزموا جميعًا.

كانت جدَّتُه نائمةً في غرفتها التي احتوت على سريرها وخزانة، ورفوفٍ عليها ملابسها المطويَّة بعناية، وبعض طرود التسوُّق البلاستيكيَّة الملفوفة، إلى جانب مجموعةٍ صغيرةٍ من

الزجاجات. نادى اسمها عند مدخل المنزل، لكنَّها لم تُجِب. تسلَّل كلبٌ بجانبي وقفز على السرير، فاستيقظت العجوز قبل أن يتمكَّن زكريًا من طرد الحيوان خارجًا. اعتذرتُ منها في أثناء ما أغلق حفيدها الباب خلفنا. عرَّفها بمن أكون وساعدناها على النهوض. كانت يدها طريَّتين وباردتين. قالَت لنا إنَّها كانت تقرأ كتابها المقدَّس.

خرجتُ مجدَّدًا لأبحث عن أفضل مكانٍ لتنصيب معدَّاتي- بعيدًا عن أشعَّة الشمس الحارقة- في حين جهَّزت أُوما غِندريدي نفسها في غرفتها لأجل التصوير. في تلك الأثناء، زربَ زكريًا حيواناته داخل كوخٍ وصاح بهم أن يخرسوا. لم تكن هناك ريحٌ لحسن الحظّ، وعقب وقتٍ قصيرٍ هدأت الكلاب أيضًا. وضعتُ كرسيًّا خشبيًّا في الظلّ على مقربةٍ من أكبر كوخ، والشمس من ورائي، بحيثُ يسقط الضوء على وجه أُوما غِندريدي. عرفتُ أيَّ عدسةٍ سأستخدم للتصوير.

خرجَت أُوما غِندريدي ترتدي ثوبًا تقليديًّا على الطراز الفيكتوريّ. كان نسيجه الثقيل يحيط بخصرها، وظلّ يتأرجح على طول التربة الجافَّة مرفقًا بتنهيداتٍ ناعمةٍ في طريقها باتِّجاهي. كان واضحًا أنَّها اعتنَت بالقماش على نحوٍ لائق، دون أن يخلو الأمر من بعض التصليحات المخفيَّة. على رأسها وضعَت "قرنًا بقرة": وكان هذا غطاء رأسٍ أنبوبيُّ الشكل مصنوعًا من صحيفةٍ مغطَّاةٍ بالقماش ومثبَّتًا بدبُّوسٍ ذي نهايةٍ مسطَّحةٍ لامعة مثل عملةٍ فضيَّة.

جلسَت بارتياحٍ على المقعد الخشبيّ، وعلَّقتُ الميكروفون اللاسلكيَّ على وشاحها بمساعدة حفيدها قبل أن أطلب منها مواصلة النظر إلى كاميرتي. شرحتُ لها أنَّني أريد معرفة ما بجعبتها

عن جدَّتها. بدأ زكريًا بتذكيرها بالدعوى القضائيَّة ضدَّ الألمان، فتذكَّرتها، مؤكِّدةً أنَّه ما من داعٍ ليكمل الشرح. وبدلًا من ذلك، طلبتُ منه إحضار صورةٍ من غرفتها. عاد يحمل صورة بالأبيض والأسود لوالدتها. جلستُ بمستوى أُوما غِندريدي وسألتها عن جدَّتها التي نجت من معسكر الاعتقال الألمانيّ.

"لقد جعلَت جدَّتي والدتي تحفظُ عنها هذه الكلمات"، قالتَ حاملةً صورة والدتها بجانب وجهها لتعرضها أمام الكاميرا. "أخبرتَ جدَّتي والدتي عن كلّ ما حلَّ بشعبنا".

غيَّرتْ لغة حديثها من الأفريقانيَّة إلى لغة هيريرو، لغتِها الأمّ، والتي بدأ زكريًا بترجمتها إلى الأفريقانيَّة وفي أحيانٍ قليلةٍ إلى الألمانيَّة (بمساعدةٍ من أُوما غِندريدي). عثرتُ له على ميكروفون ثانٍ، وواصلتُ تذكيره بعدم المقاطعة في أثناء استعادة جدَّتهِ لكلمات جدَّتها.

"كان الرجالُ البيضُ قد خرُّوا صرعى مع انتهاء القتال. لقد منحَنا أسلافنا ذاك الانتصار الأوَّل. بيد أنَّهم أولئك الأسلاف أنفسهم احتفَلوا وشربوا من الجعة أكثر ممَّا ينبغي، فسقطوا نيامًا. ثمَّ في المعركة التاليــة، كان هناك المزيد من الجنود في البيض فوق التلال. تضرَّعنا إلى أسلافنا أن يأتونا بنصرٍ آخر، لكنَّ الجنود البيض قتلوا رجالنا. توسَّلنا إلى أولئك الأسلاف كي يُخلِّصونا، ويرشدونا إلى الطعام والماء، لكنَّهم كانوا نيامًا. صلَّينا في اليوم التالي، بيد أن الأسلاف كانوا غارقين في أحلامهم. وفي اليوم الثالث، لم نعد نقوى على الانتظار. كنَّا نعلم أنَّه لا بدَّ من السير إلى المدينة؛ لأنَّ البيض يملكون الطعام والماء. بعضنا لم ير تلك المدينة من قبل.

تَرَّصدَنا البيض. قتلوا رجالنا، وأخذوا النساء والأطفال غنائم. لكنَّنا بشر، ولسنا عطايا كالماشية أو الأرض! كانت رائحة جِلد أولئك الرجال البيض مثل الحليب الحامض. أخبرتنا أمَّهاتُنا أن نصمت حين حشرَنا الرجالُ البيض في الحظائر. صلَّينا لأسلافنا كي ينجدونا. صلَّينا من أجل الطعام والشراب. صلَّينا إلى أن أصبحنا هزلى كالماشية في موسم الجفاف.

حين كنَّا أطفالًا، كان آباؤنا يشيرون إلى حيوانٍ يحتضر ويقولون: "ها هو. انظروا إلى تلك العيون". والآن صرنا نرى تلك العيون نفسها في الحظيرة. لكن لم يقل أحدٌ منَّا: "ها أنت، وأنت. وها أنت. انظروا إلى تلك العيون".

"ذات يوم، أخذ رجلٌ أبيض الفتيات إلى مبنى صغيرٍ في المدينة. هنالك دعكنا قطع القماش المبلَّلة على الأرض الإسمنتيَّة حتَّى جفَّ ماؤها. ولمَّعنا الأرض باللُّمّع. ثمَّ جلسنا تحت شجرةٍ وقدَّم الرجل الأبيض لنا خبزًا وشايًا حلوًا. هل استجاب أسلافنا لصلواتنا؟ في تلك الليلة، اقتحم الجنودُ الحظيرة حيثُ كان الموتى ينتظرون. جلدوا النساء بالسوط وربطوا الأطفال على ظهورهم. علِمنا من ذلك السوط المسعور أنَّ شاي النهار الحلو لم يكن استجابةً لصلواتنا.

"اقتيد سجناء جُدد إلى الحظيرة، وحدَّقوا إلينا مثلما كان يُحدِّقُ آباؤنا بالماشية المحتضرة بالضبط. لم يتحدَّثوا معنا لأنَّنا كنَّا أحطَّ من حيوانات. لكنَّ مع إحضار المزيد من الناس إلى الحظيرة في المرَّة التالية، حدَّق أولئك الناس بالجميع بالطريقة نفسها. هذا ما حدث لنا".

لم تتحرَّك أُوما غِندريدي من مكانها إلّا قليلًا، وكدت أنسى أنَّ ثلاثتنا في مكانٍ مكشوفٍ لأنَّ الهواء الجافَّ لم يحمل معه أيَّ صوت. سألتها عمَّا إذا كانت ترغب ببعض الماء، لكنَّها هزَّت رأسها نفيًا.

"هل من أيُّ شيءٍ أخر قالتهُ جدَّتك؟"، سألتها.

"ليس بكلماتها".

"هل من شيءٍ أخر؟ شيءٌ أخبرتكِ به والدتك... حتَّى لو لم تكن كلماتها حرفيًّا؟".

"أجل، لكن ليس بكلماتها"، قالَت مؤكِّدة.

"إذًا أخبريني بها، من فضلك".

"اشربي بعض الماء أوَّلًا"، قال زكريًا مصرًّا. "لقد أنهكك المرض".

قرَّبت الصورة لعلّي أحصل على لقطةٍ قريبةٍ للسيِّدة العجوز توافق على شرب الماء.

"أتريدُ أن أخبرك؟"، سألتني ومسحَت الماء عن شفتيها. "سأخبرك كيف اقتادَ الرجال البيض بعض الناس إلى المرسى بالقرب من البحر".

"هل كانت جدَّتُك من ضمن المجموعة؟".

"أجل، كانت من ضمن تلك المجموعة. كان عليهم انتظار مجيء سفينة. وفي أثناء الانتظار، سقط أحد الرجال ميتًا".

"رجل أبيض؟".

"لا، سجينٌ طاعنٌ في السنّ. غرز هذا العجوز أظفاره في رقبته حتَّى مات. ثمَّ، عقب ثلاثة أيَّامٍ على متن تلك السفينة، بلغوا

مكانًا باردًا. كان بمقدورهم تذوُّق طعم البحر عند تلك المرحلة. لقد عمِلوا في أمواجه إلى أن تخدَّرت أجسادهم. مات بعض السجناء غرقًا. سحبَهم الآخرون إلى خارج المياه، وألقوهم جانبًا، كي يواصلوا العمل. كانوا يُصلُّون يوميًّا لأجل ألَّا يحلَّ محلَّهم أحد. لكن سرعان ما تصل سفينةٌ أخرى مُحمَّلةً بالمزيد من الناس للعمل في الماء البارد".

"هل ذكرَت جدَّتُك اسم هذا المكان البارد؟".

هزَّت أُوما غِندريدي رأسها نافية.

"ماذا كانوا يبنون في تلك المياه؟ هل أخبرتك بذلك؟".

لم تحر جوابًا.

"ألم يبنوا شيئًا؟".

"لا أدري".

"وماذا قالت جدَّتك أيضًا عن المكان البارد؟".

"في ذلك المكان البارد، قال الألمانُ للجميع إنّكم ذوو حظٍّ طيِّب. "لديكم طعام وعمل. أنتُم هنا لأنَّكم أقوياء وأفضلُ من الآخرين".

"من كانوا يقصدون بالآخرين؟".

لم تستطع القول. "قال الألمان إنَّهم يجب أن يُصلُّوا شكرًا لإله الألمان. قالوا إنَّهم أفضلُ من الناس الآخرين. لكن لم يكن ذاك الماء البارد كنيسة. أنا أصلِّي الصلاة نفسها حتَّى الآن. وما زلتُ في كلِّ يومٍ أرقب الاستجابة".

تحدَّث زكريَّا إليها بإيجازٍ بينما كنت أفكِّرُ مليًّا بكلِّ ما قالَته. كنتُ أعلمُ ما أحتاجُ منها أن توضِّحه.

"ماذا قلتَ لأُوما؟"، سألتُ زكريًّا عندما فرغ من الحديث.

"سألتُها عن ذلك الماء؟".

"وبِمِ أجابتك؟".

"البحر".

تحدَّثا مرَّة أخرى.

"تقول إنَّهم كانوا يعملون في سفن"، قال زكريًّا موضحًا. "تعتقدُ أُوما أنَّ جدَّتها تحدَّثت عن سفن. تعتقدُ أن أولئك المساجين كانوا يبنون شيئًا ما".

"في البحر؟".

"أجل، في البحر".

"شيئًا على غرار حوضٍ مثلًا؟"، قلت. "هل كانوا يبنون شيئًا مثل حوض سباحة؟".

تطلَّبت ترجمةُ هذا السؤال مزيدًا من الجهد من زكريًّا. في نهاية المطاف، بدأ يسألها عن مغطس مواشٍ من الإسمنت. لكنَّ العجوز هزَّت رأسها نفيًا قبل أن ينهي حفيدها سؤاله. لم يتطابق هذا مع وصف جدَّتها للمكان، بيد أنَّ ذكرياتها كانت مشوَّشة. همَّها لأنَّها لم تفهم ما كنتُ أسألُ عنه بصدد مغطس المواشي، فطلبتُ منها ألَّا تقلق.

لم أقصد أن أضغط عليها، إلَّا أنَّني كنتُ مقتنعًا بأنَّ لديها المزيد لتخبرني به. وكنت بحاجةٍ إلى الانتهاء من كلِّ شيءٍ اليوم إذ علَّمتني التجربة أنَّ المقابلات التي تستمرُّ لأكثر من يومٍ واحدٍ غالبًا ما تُفضي إلى مشكلات. كان النوم يعطي ضيفاتي وضيوفي مساحةً لإعادة التفكير مُطوَّلًا بما قالوه في أثناء التصوير، وحين

مكتبة ياسمين

يواجهون الكاميرا في اليوم التالي، يصبحون في معظم الأحيان أقلَّ رغبة بالحديث، أو أكثر عرضةً لمناقضة أجوبتهم السابقة.

"هل هناك أيُّ شيءٍ آخر تتذكَّرهُ جدَّتُك عن المكان حيث الماء البارد؟".

"في الحظيرة الأولى، أعطى الألمانُ ملابسَ قديمةً للسجناء"، قال زكريَّا مترجِمًا كلام جدَّته. "لكن بعد أن أبحرَت السفينة، لم يعطهم الألمانُ سوى أكياسٍ مثقوبةٍ عند الرأس والذراعين". سألَ جدَّته عمَّا كانت تقصدُ بالأكيــاس، أو إذا كان قد أخطأ فهمها. كرَّرت ما قالت، وأفضل ما استطاعت استحضاره هذه المرَّة كان أكياسًـا سميكة.

"كانوا يقصُّونها عند هذين الموضعين"، قالَت ولمسَت كتفيها ورقبتها. "كانت تلك الأكياس الثخينة باردةً عند هبوب الرياح، ومبلَّلةً عند سقوط المطر. وكانت مادَّتها الخامُّ شديدة الجوع لدرجة أنَّها أكلَت جلدهم. لم تكن تشبع من دمهم".

"هل تعلمين ما إذا كانوا يرتدون تلك الأكياس في الحظيرة أم في المكان الآخر؟".

كانوا يرتدون الأكياس في المكان البارد. استحضَر سؤالي في ذاكرة أُوما غِندريدي كلامًا قالته لها جدَّتُها عن المخيَّم الشماليّ؛ وهو جزءٌ من الحكاية كان قد غاب عن ذهنها حتَّى اللحظة.

"في أوَّلِ يومٍ عدنا فيه من المستشفى، رأينا العديد من الجثث في الحظيرة. تركَ الجنودُ القتلى على الأرض. في تلك الليلة، دوَّن الجنود أسماء أولئك الموتى في سجلاتهم. يقول الجنود: "ما الاسم؟"، فنجيبهم بالأسماء. يسألون: "رجل أم امرأة؟". لم

يسألوا عن العمر. كان الجنود يقولون: "إرهاق"، أو "رئة"، أو "قلب"، أو "أسقربوط". الأسباب نفسها كلَّ مرَّة. لم يكن يُسمح سوى بأربعة مسبِّباتٍ للوفاة في الحظيرة فقط. لم تكن هنالك مساحةٌ لكتابة "الجوع"، أو "الحمَّى"، أو "الضرب"، أو المرض الآخر".

أغمضَت عينيها كأنَّما لتصلِّي. "أنهَك الموت قوى الجميع. جعلَ الحياةَ سيِّئة. قالَت جدَّتي لوالدتي: "اقتيد أناس جدد إلى تلك الحظيرة. أردنا النظر إلى وجوههم لكنّهم لم ينظروا إلى أعيننا. لم يُصدِّقوا".

شجَّعتُ أُوما غِندريدي على العودة إلى حكاية جدَّتها، ولا سيما الجزء منها المتعلِّق بالسفينة البخاريَّة التي نقلت جدَّتها إلى المكان البارد حيث أكياس الخيش. سألتُها عمَّا إذا كانت لديها أيُّ فكرةٍ عن أماكن في ناميبيا اليوم التي ربَّما عمِل فيها أولئك السجناء في الماء، لكنَّها لم تستطع الإجابة.

على الرغم من أنَّ الشمس كادت تغرب عن المزرعة، ولم تكن لديَّ رفاهيَّة التنقُّل في الطرقات المحليَّة ليلًا، إلَّا أنَّني كنتُ على يقينٍ من أنَّ لديها جزءًا آخر للحكاية لكنَّها متردِّدةٌ في الإفصاح عنه. لذا واصلتُ التصوير. ولم أكن بذلك أحاول استباق أيِّ شيءٍ قد يحتاج تشزلي إليه فحسب، بل أيضًا لأنَّني أردتُ تصوير مشاهد خاصَّة للوثائقيِّ الذي أُحضِّره عن الفظائع المرتكبة.

"هل كان من ضمن المجموعة أيُّ رجال- أقصدُ سجناء- يعملون في المستشفى؟"، سألتُها.

افترضتُ أنَّ أُوما غِندريدي لم تفهم ما قلتُ لأنَّها أجابت:

"ليس في الحظيرة".

"ماذا تقصدين؟".

تكلَّمَت بصوتٍ خفيضٍ فلم أتمكَّن من فهم إجابتها.

"ماذا قالت؟"، سألتُ زكريًّا.

"جدَّتي مريضة جدًّا"، قال. "يجب أن تخلد إلى النوم".

"أنا بحاجةٍ إلى بضع دقائق أخرى فحسب". لم أدرِ حقًّا ما إذا كان قد أخطأ فهمَها، أم أنَّه يرفض إخباري بما قالته.

خاطبتهُ بثباتٍ وصرامة، وترجمَ بتردُّدٍ شديد: "أُعطيَت بعضُ النساء إلى الجنود ليلًا".

لم أجرؤ على النظر إلى أُوما غِندريدي لئلَّا أبدو كمتطفِّل، وقلت: "ماذا حدث لجدَّتك؟ أكان ذلك في الحظيرة أم في المكان البارد؟".

"في المكان البارد"، قالت بحزم. "كان الجنود الألمان يأخذوننا كلَّما أرادوا بذلك. كانوا يلقون بنا أرضًا على مرأى ومسمعٍ من الآخرين؛ ويجبروننا. كنَّا نعلم أن أولئك الرجال وحوش. كانوا يرمون الطعام إلينا بطريقةٍ تدفعنا إلى قتال بعضنا، حتَّى الموت أحيانًا، كي نأكل. "لم يأبهوا بوجوهنا الضامرة أو عيوننا الميتة أو أمراضنا. مثل حيوانات. ظلُّوا يأخذوننا. كان أولئك الجنود أعداءً فظيعين".

ألغيتُ ما لديَّ من اجتماعاتٍ في اليوم التالي، وقضيتُه في ونيدهوك، غير قادرٍ على إرسال مقابلة أُوما غِندريدي من حاسوبي المحمول أو صرف كلماتها عن ذهني. همتُ في المدينة حتَّى وجدتُ نفسي داخل متجر كتب، أمام رفٍّ يحمل مجموعة

كتب إيفري مانس مثل التي كانت لدى شين.

لا بدَّ أنَّني كنت أحمل واحدًا منها في يدي لأنَّ موظَّفة المتجر سألَتني عمَّا إذا كنت أريدُ شراءه حين هممتُ بالمغادرة. استغرقُ الأمر منِّي بضع ثوانٍ كي أستوعب كلماتها، قبل أن أعيدَ الرواية إليها مُعتذرًا. لا شكَّ أنَّها كانت تتبعُني داخل المتجر، لأنَّها سألتني عمَّا إذا كان هناك خطبٌ ما؛ وأمَّا السبب في ذلك فهو أنَّني كنت أحدِّق في قسم التاريـخ الناميبيّ في حين كانت تقترحُ عليَّ كتبًا عن المحرقة في بلدي. اشتريت كتابًا- ألقيتُ نظرةً خاطفةً إلى عنوانه- قبل الخروج سريعًا إلى مطعمٍ قريب. جلستُ عند الطاولة، والكتابُ المغلَق في حجري، مشغول التفكير بصدد أُوما غِندريدي والمدينة ذات المياه الباردة التي لا يُمكن إلَّا أن تكون لودريتز.

ازدردتُ طعامي من دون أن أتذوَّقه؛ كان تركيزي كلُّه مُنصبًّا على شهادة اليوم السابق. كان الفصلُ بيني وبين شخصيَّات مقابلاتي، حتَّى ذلك الحين، بسيطًا مثل إيقاف تشغيل الكاميرا، لكن يبدو أنَّ الرحلة إلى غروتفونتين قد أنستني تلك المهارة. فقدتُها. كانت مُكوِّنًا أصيلًا من شخصيَّتي، مثل الذهاب إلى السباحة في كلِّ صباح، وقد شوَّشت أفكاري سهولة اختفائها بهذه البساطة.

عدتُ إلى غرفتي في النزل، والتي لم يتمَّ تنظيفها بعد، واستلقيتُ على السرير غير المرتَّب. فتحت الكتاب، وحدَّقت في صورةٍ بالأبيض والأسود لصبيٍّ من هيريرو يرتدي كيسًا من الخيش. كان واحدًا من مُعتقلي معسكر الاعتقال في جزيرة القرش، وقد جثَمت مجموعةٌ من الرجال والنساء على الصخور خلفه. بذلتُ قصارى جهدي كي أقلب الصفحة، لكنَّني لم أستطع. لم أستطع تجُنب

عيني الصبيّ. ليس بمقدور أيِّ عملٍ فنيٍّ أن يُفسِّر لي. لا لوحات فرانسيس بيكون، أو ليوناردو دافنشي، بقادرةٍ على مساعدتي في فهم أيٍّ ممَّا حدث قبل هذه الصورة، أو بعدها. بدا لي أنَّها تنتمي إلى صنفٍ مختلفٍ كليًّا.

—

"رتبة نقيب أوَّل هي الرتبة الأدنى من رتبتك مباشرةً، أو "اللاسلكيّ"، صحيح؟".

أومأ دولار برأسه موافقًا، وقال: "تسِنغالاموبا". بدَّل إلى الإنكليزيَّة، قائلًا: ""العنكبوت". ولديه ثلاث نجوم".

"إلى من ترفعُ تقاريرك؟".

"إلى كلٍّ من المشير والقاضي".

"وكم نجمةً يحملان؟".

"ستٌّ وثمان. ستُّ نجومٍ للمشير، وثماني نجومٍ للقاضي".

"هل القاضي قائدُك؟".

"لا. رئيس الثامنة والعشرين هو القائد. لكنَّه"- هزَّ دولار رأسه- "ليس الرجل المهمّ".

"ماذا تقصد؟".

"ليس القائد، أي الرئيس، الرجلَ الذي نقلق منه؛ وإنَّما الرجل الأدنـى رتبةً منه من ترتعد لأجله الفرائص".

"أتقصدُ المشير؟".

"أجل. إنَّ منصب القائد الرفيع يتسبَّبُ لهذا الأخير بالقلق، لأنَّ الرجل الأدنى منه رتبةً يسعى دائمًا أن يصبح قائدًا. يحتاج إلى أن

يحلَّ محلَّ ذلك القائد. تستحوذُ هذه الفكرة عليه مثل مرضٍ ينتشر في داخله شيئًا فشيئًا".

"وهل أنت ذلك الرجل، نائب القائد؟".

"لا، أنا مجرَّدُ عقيد. عامل. أنا في أمان".

"باعتبارك عقيدًا، ما طبيعة عملك في عصابتك؟".

بدأ يصف الأسلحة، المصنوعة على الأرجح من معادن مُهمَلةٍ وشفراتٍ مهرَّبة، والتي كان مسؤولًا عنها تصنيعها بصفته حدَّاد العصابة الثامنة والعشرين. "وترويجها"، قال.

"هل أنت عضوٌ في دائرة الاثني عشر؟".

أومأ برأسه. إن صدق فيما يقول، فستكون هذه المعلومة مادَّةً جديدة. شيءٌ أسمعُه للمرَّة الأولى.

أوقفتُ التسجيل برهةً لأضيفَ دلالة- وضعتُ علامةً زمنيَّةً كي أعود إليها مستقبلًا- قبل تصغير نافذة برنامج التحرير من أجل إدراج الملاحظة الجديدة في حاسوبي.

كنتُ أشكُّ في أنَّ أيًّا من المدانين السابقين الذين تحدَّثتُ إليهم كان عضوًا في مجلس قيادة عصابته، أو "دائرة الاثني عشر"، على الرغم من ادِّعاء البعض أنَّهم كذلك. أطلعَني خبيرٌ أكاديميٌّ بما يكفي من معلوماتٍ عن كلِّ عصابةٍ من أجل أن أكوِّنَ فكرةً عن الإجابات المختلفة أو المبالغ فيها.

"يُقتاد المتَّهمُ ليمثل أمام الدائرة"، قال. دولار. "يحضرُ محامٍ أيضًا للدفاع عنه أمام القاضي. بعدها يخضع المتَّهم للاستجواب". عدَّل طبقة صوته كي يبدو أكثر فخامة، وقال: "أقسِم أن تقول الحقيقة". "لماذا ارتكبت هذه الفعلة؟". "لماذا

قلتَ ذلك؟". "ما حجَّةُ غيابك؟". إذا كانت الجريمةُ خطرة، فعندئذٍ لا يسع الدائرة الثامنة والعشرين إلَّا أن تحكُم على المتَّهم بالموت بعد توقيع كلٍّ من أعضاء الدائرة جميعًا والقاضي على مُذكَّرة الإعدام. ثمَّ ننتظرُ حلول الليل".

كان الآخرون أميلَ إلى المبالغة في تفسيراتهم، وذلك بغية زيادة التأكيد على سلطتهم. بيد أنَّ دولار، بخلافهم، تحدَّث عمَّا كان يحدثُ وكأنَّهُ مراقبٌ خارجيٌّ.

"لماذا في الليل؟"، قلت. "لماذا تُنفِّذون أحكامكم بعد حلول الظلام؟".

"نحنُ رجالُ الليل. لا نسفك الدم إلَّا بعد مغيب الشمس. لكنَّ العصابة السادسة والعشرين..."

"أتقصد مُنافسيكم؟".

"أجل، أولئك المنافسين. هُم ينشطون بعد طلوع الشمس، ونحنُ بعد غروبها. وأمَّا المذنِب، فلا يدري ما ينتظره".

"ألا يعرفُ أنَّه محكومٌ عليه بالموت؟".

"وما رأيك أنت! كيف سينفَّذُ الحكمَ إن كان المذنب يعلم أنَّه سيُقتل الليلة؟".

تركتُ دولار كي يهدأ قليلًا قبل أن أسأله عمَّا إذا كان الموت العقاب الوحيد الذي تُنزله دائرته.

"الموت"، كرَّر الكلمة مبتسمًا، بيد أنَّ الظلام طوَّقها من كلِّ جانب. هل تعرَّف على شيءٍ في أعماقي؛ فهمٍ للرعب؟ مثل معرفةٍ لمعناه أعمق من مجرَّد كونِه موضوعًا مألوفًا. "أو نعاقبه بإخراسه إلى الأبد بغلَّايةٍ معدنيَّةٍ مربوطةٍ بجورَب، أو نجبره على

قتل شخصٍ ليس عضوًا في الثامنة والعشرين".

"أتأمرون المذنِب بقتل شخصٍ آخر عقابًا له؟".

"الرجل المذنب، صحيح"، قال مؤكِّدًا.

قلتُ مستوضحًا: "أنتمُ تحكمون على هذا الرجل المذنب بطعن عضوٍ في عصابةٍ منافِسة، أليس كذلك؟". كنت آملُ أن أحثَّهُ على الاستفاضة في إجابته لعلّي أحصل على لقطةٍ مصوَّرةٍ طويلةٍ تضيفُ إلى فيلمي، لكنَّه أومأ برأسه فحسب. أعدتُ صياغة السؤال، فقلت: "من يُحدِّدُ طبيعة العقوبة عندما لا يُحكَم على المذنِبِ بالموت؟".

"الطبيب؛ هو الذي يفحص المذنب ويُحدِّد العلاج الأمثل لسقمه".

"وماذا تقصد بالسقم؟".

"جريمته. لا بدَّ للطبيب أن يجتثَّ تلك الجريمة".

"حسنًا. ومن باب التوضيح، أنت تقصد بـ "الطبيب" رتبةً ضمن الدائرة الخاصَّة بالعصابة الثامنة والعشرين، صحيح؟ ولستَ تشيرُ إلى طبيب السجن هُنا، أليس كذلك؟".

عادت ملامحُ الازدراء إلى وجه دولار. بيد أنّي كنتُ بحاجةٍ إلى بيان هذه المسألة لجمهوري، لذا أعدتُ طرح السؤال، على الرغم من تفاهته بالنسبة إليه، حتَّى قال أخيرًا: "صحيح، أقصدُ طبيبَ الثامنة والعشرين. نحنُ الآن نتحدَّث عن الثامنة والعشرين، وليس عن مستشفى السجن. قل لي بربِّك هل من طبيبٌ في مستشفى السجن قد ينفِّذُ مهمَّة كهذه للثامنة والعشرين؟!".

"وأيُّ نوعٍ من العلاجات يصفُ طبيبكم؟".

"يُحدِّد طول السكّين اللازمة لتنفيذ العقوبة؛ أو عدد الأصابع التي يجب قطعُها؛ أو هويَّة الشخص الذي سيقتُله المذنِب؛ أو ما إذا كان سيشاهدُه يلفظ أنفاسه بأمّ عينيه. لكن أظنُّ أنَّك تعرف ذلك الشعور".

—

عاد ياغو من ألمانيا في يوم الجمعة، واتَّصل بي كي يدعوني لتناول الغداء برفقته يوم الأحد.

كان يقيم في منزلٍ ريفيٍّ في إحدى ضواحي ويندهوك، على بعد مسافةٍ قصيرةٍ بالسيَّارة من النزل حيث كنت أقيم، لكنك تشعر وكأنَّ تلك الضاحية الفاخرة تقع في كوكبٍ آخر؛ كوكبٍ أكثر ثراء بكثير؛ في عالمٍ طُرقاتُه مزيَّنةٌ بأحواض زهورٍ أنيقة تضجُّ بالألوان المشرقة، مزروعةٍ في جُزرِها المركزيَّة. أزهار أقحوان ومخمليَّة وزينيا تنبضُ بالحياة؛ وعشب البراري يتمايلُ بين أزهار عصفور الجنَّة.

رفع الحارس المتمركزُ خارج بوَّابة المجمَّع حيث يقيم ياغو مصباحَه اليدويَّ ووجهَّه نحوي، مع العلم أنَّ الوقت كان في منتصف النهار، قبل أن يتفحَّص هويَّتي مليًّا. انفرجَت أسارير وجهه بعدما عثر على اسمي ضمن قائمته، ولوَّح إليَّ أن أعبر البوابة الكهربائيَّة كي يلتفت إلى مساعدة ركَّاب المرسيدس السوداء الذين كانوا ينتظرون خلفي بنفاذ صبر.

بدا ياغو أكثر نحافةً ممَّا كان عليه في أثناء الأمسية التي قضيناها معًا في حوض السباحة، وقد أدَّى هذا تبدُّلٍ طفيف في ملامحه التي أصبَحت أكثر صرامةً بقليلٍ عمَّا كان في ذاكرتي. ومع ذلك،

سمح لي باحتضانه مكرّرًا القول إنَّه من اللطيف أن يراني. سألَني عمَّا كنتُ أفعل في ويندهوك، فأخبرتُه كذِبًا أنَّني هُنا من أجل تصوير فنِّ النقش على الصخور. تبيَّن أنَّه زار تويفلفونتين[1] مؤخَّرًا بصحبة زميلٍ أميركيٍّ له لمشاهدة ما خلَّفه البوشمِن من لوحاتٍ ونُقوش، قبل أن أتذكَّر بفضل سردِه المطنب والمفرِط بالتفاصيل عن تلك الرحلة السبب وراء عدم اتِّصالي به من قبل. بيد أنَّني سررتُ بالسماح له بالتحكُّم بمسار محادثتنا طالما أنَّ ذلك لن يضطرَّني إلى التفكير في عملي.

أعارني سروال سباحةٍ وقضينا الظهيرة معًا في بركة السباحة في منزله. لاحقًا، جلسنا بجسدينا المبلَّلين نتناول السمك والسلطة على الأرضيَّة المُبلَّطة في غرفة الجلوس- لئلَّا نُبلِّل بالماء الأريكة الثلاثيَّة البيضاء- أمام مُكيِّف هواءٍ مُستورَد. سألتُه عمَّا إذا كان لديه أيُّ ماريغوانا في أثناء ما كان يُقطِّع المزيد من ثمار الباباو الناضجة التي تناولناها بملاعق الفواكه.

فكَّر قليلًا في طلبي، وقال: "أتريد بعض الحشيشة الطبيَّة؟ اشتراها صديقي من كاليفورنيا".

"أتقصدُ أنَّه حملها معه على متن الطائرة؟".

"أجل، لديه وصفةٌ بها من طبيبه".

"وكأنَّ هذا يُشكِّل فرقًا؟ يا للعجب!".

أحضر العلبة الكاليفورنيّة المُعدَّة مُسبقًا- وفيها ستُّ لفافاتٍ

---

1 تويفلفونتين: موقعٌ أثريٌّ في منطقة كونين- شمال غرب ناميبيا. يضمُّ واحدةً من كبرى مجموعات النقوش الصخريَّة في العالم التي تعود إلى العصر الحجريِّ الحديث (النيوليثيّ). م.

ثخينةٍ وغير متراصَّةٍ- مع فلاتر ورقيَّة، فقلت: "هل اشتراها على هذا النحو؟ يا لها من خدمةٍ ممتازة! يجبُ أن أنتقل إلى أميركا".

عرضتُ عليه أن يشاركني التدخين لكنَّه رفض، فأشعلتُ اللفافة واستمتعتُ بها كلِّها وحدي. في البداية، شكَّلت الحشيشة ملاذًا من أفكاري الأكثر صعوبة. لكنَّها كانت أقوى بكثير من النوع المبهِج الذي كنت أستمتعُ بتدخينه في لودريتز، وسرعان ما ثبت نظري على تسع صورٍ بالأبيض والأسود؛ كانت لقطاتٍ مقرَّبةً لرجالٍ من قبائل أميركا الجنوبيَّة، مُعلَّقةً على الجدار البعيد. التقطَ ياغو هذه الصور لوجوههم في أثناء رحلته المضنية عبر الأمازون. كشَّر الرجل المتجهِّمُ في الصورة الوسطى عن أسنانه في وجهي، وكلَّما طالت مدَّة تحديقي إليه، ازداد امِّحاء العالم الخارجيِّ من حولي. ثمَّ غصَّ ذهني بصور سجناء من شعب هيريرو أُجبِروا على سلق جثث رفاقهم القتلى. والنساء اللواتي كشطنَ اللحم والأوتار عن العظام بشظايا من زجاجٍ بغية أن تُشحَن الهياكل العظميَّةُ نظيفةً إلى الجامعات الألمانيَّة؛ كي يرسم علماء الأعراق هُنالك خريطةً تشريحيَّةً لمواضع التشابه بين قتلى هيريرو والرئيسيَّات. على الرغم من شدَّة فعاليَّة هذه الحشيشة، إلَّا أنَّها لم تجلب لي أيَّ مواساة.

كان الظلامُ قد خيَّم حينما استيقظت. لم أرَ أيَّ أثرٍ لمضيفي. نومي على الأرض آلم رقبتي، وكذلك استخدام مسند الأريكة كوسادة. أعدتُه إلى موضعه لكن مقلوبًا لئلَّا يرى ياغو العلامة المائيَّة الباهتة التي خلَّفها شعري المبلَّل على المسند. كنتُ متغشِّيًا بمنشفةٍ فحسب، وشعرتُ بوجعٍ في عضلاتي. وأمَّا حلقي، فكان ملتهبًا لكثرة ما دخَّنت من الحشيشة، أو ربَّما كنتُ

على وشك الإصابة بالأنفلونزا.

ترك ياغو لي ورقة ملاحظاتٍ لاصقة على الثلَّاجة، يقول فيها إنَّه ذهب لشراء الحليب، وأنَّ عليَّ الاستحمام في حمَّام الضيوف. امتثلتُ لطلبه، ثمَّ جفَّفتُ نفسي بمنشفةٍ جديدةٍ وضعَ عليها ورقةً أخرى، وفيها: "استخدِم هذه!".

استغللتُ غيابه لألقيَ نظرةً سريعةً حول غرفة نومه وأتلمَّسَ بطَّانيته القطنيَّة ناصعة البياض. على الطاولة بجانب السرير، رأيتُ كاميرا قديمة من طراز لايكا. وداخل الخزانة علَّق سترًا وسراويل وقمصانًا، بدرجاتٍ مختلفةٍ من اللونين الرماديِّ والكاكيِّ. كانت قمصانه التي يرتديها للعمل بيضاء كلُّها بأكمامٍ فرنسيَّة، ولكلٍّ منها علَّاقةٌ خشبيَّة خاصَّةٌ به. أُلصِقت على الوجه الداخليِّ للباب نسخةٌ من ورقة تعليماتٍ توضِّحُ كيفيَّة عقد ربطة عنق على طريقة ويندسور.

كان ياغو قد حضَّر إبريقًا من القهوة بحلول وقت عودتي إلى الطابق الأرضيِّ. جلسنا في الفناء الخلفيِّ لمنزله صامتين، نرتشف القهوة، حيثُ لا تزال درجة الحرارة فوق الخامسة والعشرين.

في أثناء رحلتي الطويلة جنوبًا من ويندهوك، تحمَّلتُ العديد من الساعات التعيسة في القيادة عبر الضباب الكثيف الذي جثم ثقيلًا على جانبي الطريق السريع. تجاوزتُ قافلةً تلو أخرى من شاحنات المواشي التي كانت في طريقها إلى الذبح، ومررتُ بجانب مزارع أغنام الكاراكول حيثُ تُقتَل الحملان حديثة الولادة من أجل فرائها الناعمة. هجرَني خطُّ السكَّة الحديديَّة مُثبتًا أنَّه رفيق دربٍ مُتقلِّبٍ إذ انحرف على نحوٍ غير متوقَّعٍ باتِّجاه الوادي، تاركًا

إيَّاي لأتدبَّر أمري وحيدًا تحت السماء الشاسعة، متسائلًا عمَّا إذا كان المسار سينجح في العثور عليَّ مجدَّدًا أم لا. في نظر والديَّ، كان ذلك الخطُّ هديَّةً كريمةً منحها الألمان بسخاءٍ لبلادنا. وأمَّا بالنسبة إليَّ، فقد كان السبيلَ الذي دخَلت القوَّاتُ الألمانيَّة عبره إلى البلاد تنفيذًا لأوامر قائدها.

على أطراف بلدة مارينتال، لمحتُ صفًّا من الكائنات أحاديَّة الأعين ينظرون إليَّ من حافلتهم المتوقِّفة. خفض السيَّاحُ عدساتهم المقرِّبة غير مكترثين بي- رجلٌ في شاحنة صغيرة من طراز تويوتا- وإنَّما بالعاصفة الرعديَّة البعيدة وأعمدتها الداكنة من أرجلها الراقصة التي تتبخَّرُ قبل أن تلمس السهب.

استمعتُ إلى مقابلةٍ لميتش دَنكر- المخرج البريطانيُّ المهاجر إلى جنوب أفريقيا- يروِّجُ من خلالها لفيلمه الجديد عن السنة الأخيرة من حياة نلسون مانديلًا. كان فيلمه السابق عن طفولة مانديًا قد فاز بجائزةٍ في مهرجان صاندانس. ويدلُّ الأقاويل المنتشرة عبر الإنترنت بصدد فيلمه الجديد أنَّه قد يفوز بجائزةٍ هذا العام أيضًا. لا شكَّ أنَّ دنكر كان مخرجًا متمكِّنًا: لم تكن هناك أيُّ لحظات سكون فيما شاهدتُه له، لكنَّ النقَّاد أحبُّوه. كان ذا أسلوبٍ هوليوودي أنيقٍ وسلسٍ يسمحَ للجمهور بالانسياب بخفَّةٍ في عوالم أفلامه.

"ماذا سرُّ إلهامك؟"، قال المُحاور.

"لقد نظمتُ قصيدةً بصريَّةً إلى ماديبا[1]"، قال ميتش دنكر،

---

1 ماديبا: لقب عشيرة لنلسون روليهلاهلا مانديلًا، وواحد من ألقابه المشهورة عالميًا. ويعني الأب أو الزعيم. م.

"من سرديَّاتٍ متنوِّعةٍ ومتشابكةٍ مع أنَّها تبدو غير مترابطة". ثمَّ تحدَّث باستفاضةٍ عن كون فيلمه محاولةً لبناء صورةٍ شاملةٍ عن مانديلًا. "اعذرني إن بدوتُ مغرورًا"، قال صانع الأفلام الوثائقيَّة بنبرةٍ تآمُريَّة، "لكنَّني أميلُ إلى التفكير بفيلم نهايـة نلسـون روليهلاهــلا باعتبارة أنشودةً مُتعدِّدة الأصوات لهذا الرجل العظيم".

"قصيدةٌ بصريَّة" يمكنه الاحتفاظ بها لنفسه! أعطِني سردًا خطِّيًا في أيِّ يوم؛ أعطِني ما عرضَه فريد وايزمان من انتهاكاتٍ شديدة القسوة في سجن بريدجووتر[1]؛ أو الوله المتزايد لليتل إيدج بدايفيد مايسلس[2].

أضاءَت المصابيحُ الأماميَّة لشاحنتي اللافتةَ القديمة لكولمانسكوب، لكن ليس منازلها المهجورة والمعتمة. أعددتُ نفسي لِما قد أعثر عليه عند نهاية الطريق السريـع. ومن دون إنذار، شهقَ جبل الألماس مبتلعًا الطريق مثل موجةٍ برونزيَّةٍ عملاقةٍ بمجرَّد أن دخلتُ لودريتز. هل كانت عمَّتي تعلمُ بشأن معسكر الاعتقال، وهل كانت ضالعةً في ماضي هذه البلدة؟

عدتُ لأرى لودريتز كمدينةٍ غريبة؛ كمدينةٍ ذات تاريـخٍ ليس

---

1 في إشارةٍ إلى الفيلم الوثائقيِّ Titicut Follies للمخرج الأميركيِّ فريدريك وايزمان، واحد من أبرز صنَّاع السينما الوثائقيَّة المعاصرة. تدور أحداث الفيلم في مستشفى سجن بريدجووتر للمجرمين المضطربين عقليًا في ولاية ماساشوستس، أميركا. صوَّر وايزمان فيلمه في 1967، لكنَّه ظلَّ ممنوعًا من العرض حتَّى سنة 1991. م.

2 هُنا إشارة إلى إديث بوفير بيلي، المعروفة بلقب ليتل إيدج؛ وكانت راقصة ومُمثِّلة وعارضة أزياء أميركيَّة شهيرة. ذاع صيتها من خلال ظهورها في الفيلم الوثائقيِّ "حدائقُ رماديَّة" الذي عُرض في سنة 1975 من إخراج الأخوين الأميركيَّين ألبرت ودايفيد مايسلس. م.

بمقدوري تناسيه. لم يعد في وسع المباني المُشيَّدة بعمل الرقيق، بغية إدارة معسكر الاعتقال، أن تختبئ ما بين الأسطُح المائلة، أو النوافذ الناتئة، أو الطلاء الباهت. لقد تهاوى كلُّ ما كان جميلًا.

في جزيرة القرش؛ حيثُ كان سجناء المعسكر يرتدون أكياس الخيش ذات يوم؛ وحيث أجبرَ الجيش الاستعماريُ الناسَ على العمل حتَّى الموت في بناء رصيفٍ جديدٍ لميناء لودريتز؛ وحيثُ مات سبعة عشر شخصًا في ليلةٍ واحدة؛ وحيثُ جرى التخلّي عن توسعة المشروع غير المكتمل بعد أن أدوى بحياة ثلثي السجناء؛ هُناك، قدتُ شاحنتي الصغيرة على طول الطريق وصولًا إلى حافَّة الأرض حيثُ يغرق البحرُ في اللا شيء.

أخيرًا، بعد أن أضاءَت مصابيحي عوَّامة كوينتي التي كانت تنقلبُ مُقوِّمةً نفسها وسط الأمواج المظلمة، امتلأتُ ببعض الارتياح جرَّاء ذكرياتي عنه.

ظللتُ مُستيقظًا طوال الليل، عازمًا على حزمِ كلِّ ما أملك والرحيل. لم أستطع الاستسلام للنوم. وفي الصباح، ذهبتُ إلى غرفة نوم عمَّتي، آمِلًا العثور على بعض الأجوبة. وقفت في تلك الغرفة الهادئة، عند طرف سريرها، كما لو أنَّني أستدعي شبحها للظهور. تمامًا مثلما انتظرتُ في موقف السيَّارات التابع للميناء صباحَ يومِ عيد ميلادها الثمانين، بينما كانت مجموعةٌ من الميثوديِّين[1] الأميركيِّين ذوي الأصول الأفريقيَّة- يغنُّون المقطع

---

1 المثيوديَّة أو المناهجيَّة: طائفةٌ مسيحيَّة بروتستانتيَّة، معروفة بثقافتها الموسيقيَّة الغنيَّة. أسَّسها اللاهوتيّ ورجل الدين البريطانيّ جون ويزلي مع شقيقه تشارلز في القرن الثامن عشر. يُقدَّر عدد أفرادها اليوم بسبعين مليونًا حول العالم. م.

الثالث من ميدلي ترنيمة "نعمة مدهشة" مع الأغنية الفولكلوريَّة "هذه الأرضُ أرضُك"- يُفرِّغون سِلالَ النزهة والصناديقَ المُبرِّدة خارج حافلتهم. كنتُ آملُ أن تصل عمَّتي في الوقت المناسب كي تستمع إلى غنائهم.

جاءت الإرساليَّة من بلدة أوك بلوفس في ولاية ماساشوستس، وكانت لودريتز محطَّتهم ما قبل الأخيرة في طريق عودتهم إلى ديارهم عبر كيب تاون. طلب منِّي كاهنهم وقتئذٍ أن أدلَّه على موقع النقطة الحدوديَّة مع جنوب أفريقيا لأنَّ المسؤولين في أنغولا قد أخّروا مجموعته يومًا كاملًا.

مع وصول عمَّتي، كان الميثوديُّون قد بدأوا بنقل مؤنهم إلى زنجبار؛ وكان هذا اسمَ مركبهم ذا الشراعين الذي كان راسيًا بجانب قوارب الصيد المحليَّة في الطرف البعيد من رصيف الميناء. استندَتْ إلى ذراعي بينما تبِعنا المُغنِّين حتَّى آخر الممشى الخشبيّ. ما زالت تلك الذكرى العزيزة جزءًا منِّي.

لم أستطع حتَّى اليوم أن أفكّر مَليًّا بالتخلُّص ممَّا تركته وراءها من ممتلكات، لكنَّني لا أجدُ مشقَّة الآن في التفتيش في أغراضها. وضعتُ جوازَي سفرها الألمانيَّ والناميبيّ، بجانب ألبوم صورها، على غطاء السرير.

كوَّمتُ ملابسها على الأرض، وطلبتُ من روبرتين أن تأخذ منها ما تُريد. وبحلول الظهيرة، صارت الخزانة وصندوق الأدراج خاليين. ثمَّ حمَّلتُ أكياس القمامة السوداء على ظهر شاحنتي كي أوصلها إلى جمعيَّة شقيقتي الخيريَّة.

ثُبِّتت في الحائط، خلف الخزانة، خزنة بحجم فرن مايكروويف.

مكتبة ياسمين

حاولتُ فتحها بوساطة توليفةٍ من أرقام الهواتف وتواريخ أعياد الميلاد لكن لم أفلح. اتَّصلتُ بصانع الأقفال الذي حضر وربض بجوار الصندوق الأسود متفحِّصًا إياه، ثمَّ تلمَّسه بكلتا يديه قبل أن يؤكِّدَ، بابتسامةٍ كشفَت فلج أسنانه، أنَّه قادرٌ على فتحها بسهولة.

بالإضافة إلى شهادة ميلاد عمَّتي، وبعض كشوف الحساب المصرفيَّة القديمة، عثرنا أيضًا على وصيَّتين؛ وردَ اسمي في إحداهما، الأحدث تاريخًا، باعتباري الوريث الرئيسيّ لها. وجدنا كذلك حافظة أوراقٍ مغلَّفة، تحتوي على ألماسةٍ خام وخاتم زفافٍ لم أرهما من قبل. لم أعثر على أيِّ شيءٍ آخر ذي صلةٍ بماضيها، أو يربطها بتاريخ البلدة.

عرضَ صانع الأقفال أن يقتلع الخزنة من الحائط بعد أن أصبحت الآن مجرَّد قطعةٍ معدنيَّةٍ بلا فائدة. لم أحتمِل العودة إلى الغرفة الفارغة إلَّا بعد أن فكِّ الخزنة وأخذها خارجًا. أغلقتُ حينئذٍ الباب خلفي مُفكِّرًا بما ينبغي عليَّه فعله بهذا المنزل.

عملتُ طوال الأسبوع على إعداد نسختي النهائيَّة من مقابلات ويندهوك. لم أُضفِ أيَّ تعقيدات على العرض: بطاقةُ عنوانٍ تُظهِر اسم كلِّ شخصٍ، يتبعها لقطات مُقرَّبةٌ للمتحدِّث أو المتحدِّثة في أثناء الحديث إلى الكاميرا، قبل أن تتلاشى اللقطة تدريجيًّا معلنةً ظهور بطاقة عنوان أخرى، وهكذا. وبصرف النظر عن حذف بضعة مشتِّتاتٍ عرضيَّة، مرئيَّة أو مسموعة، وبعض التكرارات الطفيفة، فإنَّني ظللتُ وفيًّا لمادَّتي. رفعتُ العمل بعد ذلك على قرصي بيانات- وضعتُ على واحدٍ منهما النسخة بعد التحرير؛ وعلى الثاني اللقطات الأصليَّة- وأوصلتُهما إلى مكتب

تشزلي. أخبرتني مساعِدتُه وقتئذٍ أنَّه في كيب تاون.

حاولتُ تخصيص عطلة نهاية ذلك الأسبوع لإجراء مراجعةٍ مستفيضةٍ بصدد فيلمي الوثائقيّ عن السجن، لكنَّني وجدتُ نفسي غير قادرٍ على التركيز على المواد المصوَّرة. صادف يوم الاثنين نهاية الشهر، وحصلتُ على المال من شركة تشزلي. كان لديَّ مالٌ في حسابي المصرفيّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

عندما عاد المحامي إلى لودريتز، دعاني للحديث عن العمل الذي أرسلتُه إليه مؤخَّرًا. كان صباحًا دافئًا- ليس كالفرن كما هي الحال في ويندهوك، لكن حارًّا بما يكفي ليستحيل الطريقُ خندقًا فضيًّا يعكس العمارة الاستعماريَّة.

في الطريق، مررتُ مصادفةً بجانب كوينتي الذي كان جالسًا في حديقة نُزل كرابينهوفت آند لامب المسقوفة. كان هناك فنجانا قهوةٍ على طاولته، وحقيبةٌ جلديَّةٌ معلَّقةٌ على ظهرِ الكرسيّ قبالته.

بدا وكأنَّه يُحدِّق في اتِّجاهي، لكن بدا أنَّه لم يتعرَّف على شاحنتي الصغيرة أو يراني في داخلها، على الرغم من أنَّني لوَّحتُ إليه. خرج رجلٌ طويل القامة من مبنى النزل، ولفت انتباه كوينتي (وانتباهي أيضًا) حينما نادى "مايكل!"، بينما كنت أقود نزولًا على مهلٍ باتِّجاه شارع الجبل.

عند أوَّلِ إشارة توقُّفٍ على طريقي، رأيتُ بضعة عمَّالٍ مياومين مرتدين ثياب العمل وينتظرون في الظلال. لا بدَّ أنَّهم حسِبوا أنَّني جئتُ لأعرض عليهم عملًا بعد أن توقَّفتُ هناك وقتًا أطول ممَّا ينبغي، لذا انطلقتُ مبتعدًا بمجرَّد أن أدركتُ ذلك.

لم يطلب مني ابنُ خالتي، ولحسن الحظّ، سوى تقصير مدَّة بعض المقابلات؛ أو تكثيفها. أكّد لي أيضًا أنَّ زملاءه أحبُّوا عملي.

"نحنُ بحاجةٍ إلى المزيد من الأشخاص على غرار غيندريدي ماهاهيرو"، قال.

"سأظُّل أعمل وفقًا للقائمة التي زوَّدتني بها، ولنأمل الحصول على أفضل النتائج. سيسرُّني أيضًا أن أجري بحثي الخاصَّ بغية العثور على أشخاصٍ آخرين لمقابلتهم، إذا كنت ترغب بذلك؟". هزَّ رأسه نفيًا. "لا بدَّ أن يستمرَّ العمل وفقًا للإجراءات المحدَّدة، أو ستخرج الأمور عن نطاق السيطرة". خلاصة قوله إنَّني يجب ألَّا أصوِّر أحدًا ما لم أحصل على موافقته؛ وأنَّه له يحدث شيءٌ قبل أن يخضع لتدقيقٍ من فريقه أوَّلًا.

"لكنَّ معظم الأقارب الذين قابلتُهم لا يملكون ما يكفي من معلومات. هناك أسماءٌ أيضًا لم يسمع بها أحد، لذا يساورني شكٌّ بصدد أنَّنا قد نُحقِّقُ نتائج أسوأ من هذه بكثير. وفي حال كانت قصص البقيَّة مملَّةً، مثلما هي الحال بالنسبة إلى معظم الذين تحدَّثتُ إليهم، فقد يُقرِّر مكتبكم في كيب تاون أنَّ قصَّة أوما غيندريدي وحدها التي تستحقُّ أن تُروى".

"أفهم قصدك".

"إذا أردت منِّي العثور على أوما غيندريدي أخرى، فسأبحث في المرَّة القادمة حين أذهب إلى هنالك. أعتقدُ أنَّه قد يكون من المفيد زيارتها مجَّددًا إذ لديها الكثيرُ بعد لتخبرني به، أنا على يقينٍ من هذا".

عضَّ طرف إبهامه، ولم يُخرجه من فمه إلَّا ليقول: "إذا عثرتَ

على أشخاصٍ مثيرين للاهتمام، يا هنري، فيجب أن تخبرني قبل الحديث إليهم. لا بدَّ أن تظلَّ هذه المسألة تحت السيطرة، ولو أردنا غير ذلك لحجَزْنا مساحاتٍ إعلانيَّةً مُبوّبةً في ذا ناميبيان[1] ومنحنا المال لصاحب أفضل قصَّة. إذا عثرتَ لي على أوما غيندريدي أخرى، فسأحرضُ شخصيًّا على مضاعفة ميزانيَّتك. زُرها مرَّةً أخرى في الشهر المقبل، لكن أريدُ منك حتَّى ذلك الحين الالتزامَ بالقائمة".

في رحلتي الثالثة إلى ويندهوك، شرعت في إجراء المقابلات مع الأسماء الواردة في قائمة تشزلي الجديدة. اتَّصلتُ به خلال الأسبوع الأوَّل لأخبرَه كيف أصرَّ زعيمٌ محليٌّ، ومعه أعيانُ قريته، أن أتحدَّث إلى مستشارهم الذي كان شابًّا يزعم أنَّه يعرف ما يودُّ المحامون في كيب تاون سماعه. حضر الرجلُ جلسة التصوير، وظلَّ يُقاطع رجلَين من هيريرو، كانا متوتِّرين في الأصل، حين حاولا إخباري بقصصٍ عن أقاربهما. وبمجرَّد أن انتهت المقابلة، لم يُضيِّع المراقبُ الشابُّ أيَّ وقتٍ قبل أن يستفسر عن المال. قابلتُ شكوكه بتطميناتي بصدد أنَّ شركة تشزلي ستحرص على الالتزام بذلك: "يجب أن تدفع لهذين الرجلين الآن"، قال المستشار بإصرار. "لقد سارا مسافةً طويلةً من أجل حضور اجتماعك".

"هل تعتقد أنَّه قد يتسبَّب لنا بالقلق؟"، قال تشزلي الذين كان يسمع كلَّ ما يحدث.

"لا أعلم. لكن ينبغي أن تخبر زملاءك بأنَّ وجودي هُنا قد لوحِظ".

---

1 The Namibian: الصحيفة اليوميَّة الأكثر انتشارًا في ناميبيا، تصدُر باللغتين الإنكليزيَّة والأوفامبو. م.

مكتبة ياسمين

فكَّرتُ مليًّا قبل أن أعيد ترتيب الأسماء في قائمة تشزلي؛ بحيث أصبحت بلدة غروتفونتين قاعدةً مؤقَّتةً لي اعتبارًا من يوم الاثنين المقبل وحتَّى يوم الأربعاء. في كلّ مساء، كنتُ أملأ خزَّان شاحنتي الصغيرة بالوقود وأتفحَّص الزيت والماء وضغط الإطارات، بما في ذلك الإطار الاحتياطيّ. وفي كلّ صباح، كنتُ أشتري الوجبات الجاهزة من المتجر المحليّ، وأقضي الوقت مُتجنِّبًا المستشار الشابّ.

سمعتُ عن جزَّارٍ يبيعُ شرائح لحم الغزال المقدَّد. لذا، وفي صباح اليوم الأخير، ركنتُ شاحنتي ما بين تويوتا هايلوكس حديثةٍ وأنيقةٍ وسيَّارة مرسيدس قديمةٍ خارج محلّ الجزارةٍ الذي كان بابه السلك الشبكيّ المتين كي يمنع دخول الذباب. كان الهواء في الداخل عليلًا وعابقًا برائحة اللحوم الطازجة. رقدَت شرائح لامعةٌ من لحم الأضلاع والخاصرة تحت الزجاج، في حين تراصَّت على الجدار الخلفيّ قطعٌ ثخينةٌ من اللحم المقدَّد مُدلَّاةً من خطَّافاتٍ على شكل حرف S. لم يكن الجزار يتحدَّث الإنكليزيَّة، وكنتُ على وشك الحديث بالأفريقانيَّة حين أبعد نظره عنِّي ليخدم المُزارِع الأبيض الذي دخل المحلَّ للتوّ. بعد أن دفع هذا الزبون ثمن النقانق التي اشتراها، تفحَّص الجزَّار اللحم الجافَّ الذي أشرتُ إليه، قبل أن يأمر ابنه باقتطاعِ شريحتين لي منه ووضعهما داخل كيس. لم ينطق الرجل بأيِّ حرف عدا لفظَه للثمن الذي ينبغي أن أدفعه له.

تناولتُ بضع قضمٍ من اللحم المملَّح في شاحنتي الصغيرة في أثناء التحضير لما سأفعله بقيَّة اليوم. كان هناك اسمان مُتبقِّيين على قائمة بلدة غروتفونتين، ومع أنَّني كنتُ أميل إلى تركهما

مكتبة ياسمين

مقابل التوُّجه لزيارة أوما غيندريدي مرَّة أخرى، إلَّا أنَّني قرَّرتُ في نهاية المطاف أنَّه من الأفضل الوفاء بالتزاماتي.

كانت وجهتي الأولى عبارةً عن نُزلٍ للصيد على بُعد بضع دقائق خارج البلدة، بيد أنَّها كانت رحلةً بلا فائدة لأنَّ صاحب النزل بعث إليَّ بكبير العمَّال لديه ليقول لي إنَّ رئيسه قد ألغى المقابلة. طردَني الرجل من أرضه لأنَّني، بحسب قوله، أشتِّتُ انتباه الناس عن أشغالهم. أغلب الظنِّ أن خبر وجودي قد ذاع بين البيض المحليِّين. موعدي الثاني كان في شمال تسومِب[1]، مدينة التعدين.

كان معظم الطريق عبارةً عن خطٍّ مستقيمٍ متواصلٍ ينتهي عند الأفق. ومع أنَّني غطَّيتُ نافذة الراكب بمنشفةٍ بغية الحدِّ من وهج الظهيرة، إلَّا أن رفرفة المنشفة إلى جانبي لم تمنع السطوع الذي آلم عينيّ. حميتُ طرف وجهي بأطراف أصابعي.

فاتِرَ الحماسة جرَّاء اللحم الأحمر والرحلة الطويلة أمامي، عادَ ذهني للتفكير بصورة جزيرة القرش والفتى الذي يُحدِّقُ بذهولٍ نحو الكاميرا. شغَّلتُ المذياع، متخطيًّا محطَّةً أنغوليَّةً تبثُّ برامجها باللغة البرتغاليَّة، كي ألهي نفسي بموجز الأنباء الذي تبثُّه إذاعة بي بي سي عند ربع كلِّ ساعة. بعد مدَّة، خفتت الموجة القصيرة لخدمة البثِّ العالميَّة تدريجيًّا حتَّى تلاشت إلى تشويشٍ في نهاية المطاف، لذا كان عليَّ أن أعاني في أثناء الاستماع إلى برنامجٍ تَبثُّه إذاعة صوت أميركا، حيثُ ناقش أكاديميَّان بابتهاجٍ خيبة أوروبَّا قبل أن يتلاشى صوتهما في الهواء أيضًا لحسن الحظّ. اخترتُ الإصغاء إلى الصمت بدلًا من المذياع.

---

1 تسومب: أكبر مدن إقليم أوشيكوتو في شمال ناميبيا. م.

قبل الوصول إلى مقصدي بقرابة ساعة، عثرتُ على أيكةٍ من الأشجار الشائكة حيثُ ركنتُ شاحنتي فاتحًا بابيها على مصراعيهما. أكلتُ شطيرتي، ورشفتُ الماء البارد الذي اشتريته من المتجر حتَّى آخره لأنَني كنتُ عطشًا بسبب اللحم المملَّح. لم أحتمِل منظرَ الكيس نصف الفارغ الذي كان بجانبي ينزُّ عرقًا.

أجريتُ في تسومِب مقابلةً مع مزارعٍ مُرتبكٍ لم يذكُر شيئًا يستحقُّ التصوير، لكنَّني مع ذلك سجَّلتُ كلَّ كلامه إلى أن حان أوان عودتي.

أثارَت شاحنتي زوبعةً من الغبار ظلَّت تطاردني عبر مفترق طرق، ولم تتوقَّف عن اللحاق بي حتَّى استدرتُ إلى طريق غروتفونتين - ويندهوك. كشف لي وميضٌ في مرآة الرؤية الخلفيَّة- ضوء الشمس الساطع منعكسًا من زجاجٍ أماميٍّ على مسافة بعيدةٍ ورائي- عن جدولٍ بعيدٍ من الرمل يتبعُ شاحنة هايلوكس تشبه تلك التي رأيتها خارج محل الجزارة. يُسافر المزارعون عبر هذه الطرقات الترابيَّة طوال الوقت، وهذه الشاحنة تتبعُني إلى الطريق السريع.

"لسوء الحظّ، كان يمكن أن تكون أفضل"، قلتُ مجيبًا عن استفسارات تشزلي بشأن المقابلات التي أجريتها في غروتفونتين. اتَّصل بي حينما بلغتُ الطريق الرئيسيّ.

"أجل، قرأتُ للتوِّ رسالتك الأخيرة"، قال، وسمعتُ صوت كتابته على لوحة مفاتيح. "ألم يحالفك الحظُّ بعد؟".

"للأسف".

"تبًا، ليس هذا جيِّدًا، يا صاح". علا صوت أنفاسه شيئًا فشيئًا

وأحسَب أنَّه كان ممسكًا بالهاتف ما بين رأسه وكتفه.

"ربَّما عليَّ البقاء هُنا لفترةٍ أطول"، قلت، مُستغِلًّا قلَّة تركيزه. "لمدَّةِ أسبوعٍ أو أسبوعين آخرين. وسأقابل كلَّ من وردت أسماؤهم في قائمتك الجديدة، على أمل العثور على شخصٍ مناسب".

"ماذا؟ ألم تعثر على أحدٍ أبدًا؟".

"ليس كمثل أوما".

"لقد أخبرتَني أنَّك بصدد إجراء تحقيقٍ خاصٍّ بك. ألم تتوصَّل إلى شيء بعد؟".

فاجأني سؤاله: "ظننتُ أنَّك قلت لي إنّه يجب تأجيل ذلك".

"كلَّا، يجب أن تشرع بالبحث، يا هنري. أريدُ منك العثور على قصصٍ مُلائمة".

"حسنًا، في تلك الحالة إذًا لن أعود إلى لودريتز في نهاية الأسبوع الجاري. سأبدأ بالتقصيّ من حولي. أريدُ معرفة ما إذا كانت أوما غيندريدي أو زكريًّا يعرفان أيَّ شخصٍ بإمكاني التحدُّث إليه".

عدتُ إلى ويندهوك وبدأت العمل على المقابلات التي صوَّرتُها مؤخَّرًا. ازداد قلقي حين بدا لي واضحًا أنَّ أيًّا منها لن تكون ذات فائدةٍ بالنسبة إلى المحامين. في يوم السبت، اشتريتُ زجاجتَي نبيذٍ وزرتُ منزلَ ياغو. كان أيضًا محبَطًا من عمله بقدر إحباطي، وظلَّ يتوعَّد أنَّه سيعود إلى ألمانيا. البيروقراطيُّون الحمقى يُكرّرون الأخطاء نفسها! والسياسيُّون الأغبياء يفعلون مثلهم! جعلَ كلُّ هذا من فكرة العمل مجدَّدًا في الأسبوع المقبل، وفقًا

لقائمة تشزلي العقيمة، أهونَ إلى حدٍّ ما، لكن من دون أن تضفي الجوَّ المريـح على الأمسية التي كنت أتوق إليها.

أخذتُ سجائر الحشيش الكاليفورنيَّة معي إلى النزل، وعملتُ طوال يوم الأحد حتَّى أغلقتُ حاسوبي المحمول عند منتصف الليل كي أُوضِّب معدَّاتي لليوم التالي. وصَّلت بطَّارياتي الاحتياطيَّة جميعها بالكهرباء لشحنها، ثمَّ راجعتُ خريطة الطرقات التي سأسلكها قبل أن أنظِّف بدقَّةٍ كاميرتي وعدساتها. استلقيتُ بعد ذلك لكنّ ظللتُ مستيقظًا. عند الساعة الثالثة فجرًا، نهضتُ ونسختُ مقابلة أوما غيندريدي على بطاقة ذاكرةٍ ووضعتها في حقيبتي. حظيتُ عقب ذلك ببعض النوم قبل أن يوقظني المنبِّه.

بعد قيادة للسيَّارة استمرَّت لمدَّة ساعةٍ على الطريق السريـع B1، وقبل شروق الشمس بقليل، وصلتُ إلى مدينة أوكاهانديا، شمالي ويندهوك، كي أتزوَّد بالوقود. وعندما أعاد إليَّ عامل المحطَّة بطاقتي الائتمانيَّة، توقَّفت شاحنةٌ صغيرةٌ في الساحة ورائي. كلُّ ما احتجتُ إليه كان مجرَّد نظرةٍ خاطفةٍ في المرآة، عبر نافذتي المتَّسخة، كي أتعرَّف على صديقتي القديمة؛ شاحنة التويوتا هايلوكس.

بدلًا من الالتزام بخطَّتي المسبقة بصدد مواصلة المضيّ شمالًا على طول الطريق السريـع B1، انعطفتُ يسارًا على الطريق السريـع B2 باتِّجاه الساحل. عنى هذا أنَّ الشمس كانت تشرق من ورائي، لذا لم يكن بمقدوري تبيُّن ما إذا كنتُ مُلاحَقًا أم لا. خرجتُ من الطريق السريـع عند أوَّل فرصةٍ، نحو الطريق الفرعيّ الذي يقطع السهب، حتَّى وصلتُ إلى مستوطنة كالكفيلد. ظللتُ أتساءل طوال تلك المدَّة عن عدد السكان المحليِّين الذين يستطيعون

مكتبة ياسمين

شراء شاحنة هايلوكس حديثةٍ مثل تلك.

وجدتُ الحظيرة على مشارف مزرعة مواشٍ، فركنت سيَّارتي تحت شجرة أكاسيا لأدخِّن بضع مجَّاتٍ من الحشيشة الأميركيَّة، والتي سرعان ما وضعتني في حالةٍ ذهنيَّةٍ ملائمةٍ لإجراء المقابلات. قلَّبتُ في رأسي فكرة الاتِّصال بتشزلي كي أخبره عن الهايلوكس، لكن إذا ساوره شكٌّ بصدد أنَّني تحت المراقبة، فقد يكون هذا مبرِّرًا لإلغاء رحلاتي. ما أعرفه حتَّى الآن هو أنَّ لدى كلّ مزارعٍ في شمال ويندهوك شاحنة هايلوكس، وربَّما يعجُّ الإقليم كلُّه بها. وفضلًا عن ذلك، فمجيئي إلى هُنا هو بهدف تصوير نقوش البوشمِن الصخريَّة في نهاية المطاف.

رافقني كلٌّ من سول شيتيو وابن أخيه صاموئيل إلى مسكنهما البسيط. كان عامل المزرعة الأكبر سنًّا في الأربعين من عمره، بينما كان ابن أخيه قد بلغ مؤخّرًا عامه الثامن عشر. من حسن حظّي أنَّه لم يكن هناك أعيانٌ أو مستشارون كي يدسَّوا أنوفهم في مسار التصوير.

ارتدى سول وابن أخيه ملابس مُلائمة للمناسبة؛ ارتديا "زيًّا موحَّدًا فانتازيًّا" ذا طابعٍ عسكريٍّ كنتُ قد شاهدتُ مثلَه من قبل في التقارير الأخباريَّة التلفزيونيَّة التي تغطّي إحياء ذكرى يوم هيريرو[1]. كان العمَّ قد ارتدى سترةً باللون الكاكيّ، فوق أكتافها

---

1 يوم هيريرو: يُعرف أيضًا بيوم العلَم الأحمر، ويوم أبطال العلَم الأحمر. في هذا اليوم المصادف للسادس والعشرين من شهر آب، يجتمع سنويًّا أفراد شعب هيريرو في ناميبيا لمدَّة ثلاثة أيَّام في مدينة أوكاهانديا؛ إحياءً لذكرى زعمائهم الراحلين، وخاصَّةً الزعيم التحرُّريَّ الوطنيَّ صامونيل ماهاريرو الذي استُعيد رفاته في سنة 1932 ودفِن في أوكاهانديا. ومنذ ذلك الوقت، يرمز يوم هيريرو إلى الوحدة والكفاح

كتفيَّتان قرمزيّتا اللون تحملان ثلاث نجمات. ميَّزتُ حزامَ سام براون، الذي يلتفُّ حول أعلى خصره، بفضل البحث الذي أجريته عن الجنود المشاة البريطانيّين في أثناء التحضير لفيلمي عن السجون. كان لقبَّعته العسكريَّة شريطٌ قرمزيُّ اللون؛ وقد ارتدى ابنُ أخيه الألوان نفسها مع قبعة بيريه. طوال المدَّة التي قضيتها معها، لم يخلعا أيٌّ منهما نظّارته الشمسيَّة، المُقلَّدة من علامة شانيل، كما أنَّني تقصَّدتُ ألّا أطلب منهما فعل ذلك.

كنتُ أُنصِّب معدَّاتي عندما مزَّق صاموئيل صفحات صحيفةٍ كانت مُلصَقةً بزجاج النافذة كي يسمح بدخول المزيد من الضوء إلى الغرفة. كانت خطَّتي تقتضي أن أجري مقابلةً مع سول، الأكبر سنًّا أوَّلًا، ومن ثمَّ سؤال الفتى عمَّا إذا كان لديه ما يُضيفه؛ بيد أنَّني قرَّرتُ في اللحظة الأخيرة التخلّي عن تلك الخطَّة لصالح تصوير الاثنين معًا، جنبًا إلى جنب، توفيرًا للوقت. أصغى كلاهُما باهتمامٍ لشرحي للغاية ممَّا أفعله هُنا وكيف بإمكانهما مساعدتي. لكن ما إن بدأتُ أطرح عليهما أسئلة تشزلي حتَّى وجدتُ أنَّهما لا يستطيعان إخباري بأيِّ شيءٍ عن أسلافهما. لذا، بعد مرور وقتٍ قصير، توقَّفتُ مؤقَّتًا عن التصوير.

دخَّن الاثنان في الوقت الذي كنتُ فيه أُدخِل بطاقة الذاكرة التي تحتوي على مقابلة أوما غيندريدي في حاسوبي المحمول. طلبتُ منهما بعد ذلك الاقتراب والمشاهدة كي يُكوِّنا فكرةً عن الشهادة التي كنت آمل الحصول عليها من كلٍّ منهما.

"كان الرجالُ البيضُ قد خرُّوا صرعى مع انتهاء القتال"، قالَت

الوطنيّ ومقاومة الاستعمار الألمانيّ. م.

أوما غيندريدي على الشاشة.

شاهد سول وصاموئيل مقابلتها كاملة؛ ولم تكن وقتئذٍ المرَّة الأولى التي يخطر ببالي أنَّ لدى العجوز المزيد لتخبرني به. واصلتُ تصوير العمِّ وابن أخيه حتَّى نهاية فترة الظهيرة إذ تحدَّثا إليَّ بإسهاب. بدا لي أنَّ أوما غيندريدي قد أثارَت ذكرياتهما، وربَّما مخيِّلتهما. وهكذا سارت الأمور على ما يرام.

حين عدتُ إلى شاحنتي الصغيرة، أعدتُ تشغيل مقابلتهما لبضع دقائق كي أتأكَّد مرَّةً أخيرةً من جودة الصوت. قد يَتنبَّه المحامون إلى بعض أوجه التشابه في حال شاهدوا هذه المقابلة جنبًا إلى جنبٍ مع مقابلة أوما غيندريدي، لكن سيكون من السهل بالنسبة إليَّ أن أعالج هذه المسألة خلال عمليَّة المونتاج. كان تشزلي يدفع لي أجرًا مقابل حصوله على قصصٍ مُتوارَثة؛ ومن المستحيل أن يعرفَ من أين وصلتَت تلك القصص إلى مسامع الأشخاص الذين نقابلهم في المقام الأوَّل. على العموم، وفي حال أيَّدَت أقوالهم أقوال أوما غيندريدي، فإنّهم بذلك يُعزِّزون شهادتها.

—

وصلتُ في أمسية السبت إلى منزل ياغو مُرتديًا أكثر الملابس أناقةً من ضمن ما حزمتُه معي. ألقى نظرةً سريعةً إلى ملابسي، وأخبرني بعدها بأن أتبعه إلى غرفة النوم حيثُ أخرج من خزانته قميصًا أبيض قبل أن يفتح بلا مبالاةٍ علبةً مطليَّةً بالورنيش تحتوي على أزرار أكمام. كان يضعُ زرَّين من علامة شفاروفكسي، واختار لي زرَّين من العقيق الأزرق.

كانت طيَّاتُ القميص حادَّةً كالورق على طول الكمَّين، فضلًا عن أنَّ أثر رائحة ياغو قد تخلَّل قطنه المصريّ. شعرتُ بقضيبي يتصَّلب تحت بنطالي. بمقدوري أن أفعل أيَّ شيءٍ طالما أنَّني أرتدي ملابس هذه الملابس.

أومأ برأسه مستحسنًا ما رأى قبل أن يهبط إلى الطابق السفليّ ليُخرِجَ زجاجة نبيذ الريسلنج التي كان يُبرِّدها في ثلَّاجته. مشينا معًا إلى سيَّارته، وتخيَّلْت أنَّنا نعيش في برلين وقد خرجنا لقضاء أمسيةٍ بصحبة أصدقائنا.

شقَّت سيَّارة ياغو من طراز ألفا روميو سبايدر الطريق بحذرٍ عبر شارع الضاحية وصولًا إلى مقرّ إقامة السفير. غصَّ كلُّ ركنٍ لوقوف السيَّارات على جانبي الطريق بالكثير من السيَّارات من طراز مرسيدس بنز وبي إم دبليو ولاند روفر حتَّى ضاق طريقنا. انتبهتُ إلى شاحنة تويوتا هايلوكس مركونةً خارج بوَّابة مقرّ السفير، وعندما تجاوزناها- وسط سبابٍ وشتائم أطلقها ياغو- شعرتُ بالارتياح إذ لم يكن معقولًا أن تكون المركبةَ نفسَها التي رأيتها في الشمال، وذلك لأنَّ لهذه لوحاتٍ جنوب أفريقيَّة.

"ما مناسبة هذه الحفلة؟"، سألتُه حين عثرنا على مساحةٍ شاغرةٍ لركن السيَّارة في شارعٍ مجاور، وشعرتُ أنَّ بإمكاني صرف انتباهه بلا قلق.

"علاقاتٌ تجاريَّة، من الناحية الرسميَّة"، قال. "لكنَّ ذلك مجرَّد عذرٍ لإقامة حفلة.

"هل تجيد التحدُّث باللغة الألمانيَّة؟".

أجبته، بالألمانيَّة: "ليس بصورةٍ جيِّدة جدًّا. لغتي صدئة".

مكتبة ياسمين

صحَّح لي: "بل قل: إنَّ معرفتي باللغة الألمانيَّة ضعيفةٌ بعض الشيء".

كنتُ أعرف ما يكفي لأقول بالألمانيَّة: "إنَّ معرفتي باللغة الألمانيَّة مُشوَّشةٌ بعض الشيء"، ممَّا أضحكه على الرغم من أنَّني استخدمتُ كلمة "مشوَّشة" في غير موضعها. بيد أنَّ انتباهي ظلَّ مشتَّتًا بسبب شاحنة الهايلوكس.

خلَت قاعة الاستقبال داخل مقرِّ السفير من الأثاث، لكنَّها غصَّت بالناس. عرَّفني ياغو هناك على زِلما؛ زوجة السفير التي كانت ترتدي فستانًا مُطرَّزًا بريش طاووس. شدَّت زلما على ذراعيَّ كما لو كانت تُؤكِّد لنفسها أنَّني موجودٌ بالفعل، ولم ترخِ يديها عنيّ إلَّا لقبول زجاجة النبيذ التي قدَّمناها إليها وتطلب من خادمٍ أن يُخزِّنها داخل مُبرِّد السفير في القبو المخصَّص لحفظ النبيذ.

تحدَّث ياغو إليها باللغة الألمانيَّة، وابتهجت لمَّا عرَّفت أنَّني أستطيع فهم معظم المحادثة.

"إن تحدَّثتما بوتيرةٍ بطيئة"، قلتُ موضحًا.

"لم أزُر لودريتز"، قالَت بعد أن سألتي عن مسقط رأسي، "لكن حدَّثَني ياغو عن شقيقتك لوسي".

قال، مصحِّحًا: "لوسيًّا".

"إنَّها أعراض ألزهايمر"، قالَت مُعتذِرةً قبل أن تُعلِّق بأنَّ شمس أفريقيا قد أذبلَت دماغها.

"لا بأس بها، يا عزيزتي، طالما أنَّكِ تبقينها بعيدةً عن بشرتك"، قال.

"أجل، ولا سيما عند الرقبة"، قالت. "أرى في كوابيسي أنَّني

سأصبح دجاجةً روميَّةً مُجعَّدةً مثل زوجة المفوَّض السامي البريطانيّ. يا ربُّ خُذ حياتي بكرامةٍ قبل أن يحلَّ بي مثل ذلك!". ألقت نظرةً خاطفةً إليَّ لترى ما إذا كنتُ أفهمُ مقصدها. "إذًا، هل أنت حبيب ياغو؟".

ابتسمْت. "اسألي ياغو هذا السؤل".

"لماذا؟ هل ستكون إجابته مختلفةً عن إجابتك؟".

لم أجِد ما أقوله.

"اسمع"، قالَت، بنبرةٍ طفوليَّة، وقبضَت على ذقن ياغو بأصابعها، "لقد جعلتُك تحمرُّ خجلًا. لم يُخيّل إليَّ أبدًا أنَّني قد أرى ذلك". بعدئذٍ التفتت نحوي، وقالت: "سأخبرُك بكلِّ ما تحتاج إلى معرفته عن هذا الرجل. لكن عليك بادئ ذي بدء أن تكشف لي عن شخصيَّتك".

شَرعتُ بترديد الكلام المنمَّق عن لوحات البوشمِن إلى أن قاطعتني لتسألني عمَّا إذا كنت أقرأ لكارل يونغ: "يقول إنَّ الصور تربطنا جميعًا معًا؛ تربط عقولنا".

"وعُينـا"، قال ياغو موضحًا، بنبرةٍ حادَّة. لا بدَّ أنَّ سؤالها عن طبيعة علاقتنا قد أحرجه. "اللاوعي الجمعيّ".

"أجل، اللاوعيُ الجمعيّ"، قالَت. "عليك بقراءة أعمال يونغ لأنَّه يتحدَّث عن الصور، والأنماط الـ..."

"الأنماط البدائيَّة"، قال ياغو.

"أجل، الأنماط البدائيَّة التي لا لم تتغيَّر حتَّى يومنا هذا عمَّا كانت عليه بالنسبة إلى البشر البدائيِّين. أعني، لا أعلم ما إذا كان هذا سيساعدك في صناعة فيلمك، لكن ربَّما قد يضيف إليه شيئًا

ما. وباعتبارِ أنَّك صانع أفلام، فإنَّ في الحفل هُنا لجنةً متخصِّصةً يجب أن تجتمع بها. اسمح لي أوَّلًا بإنقاذ زوجة المسؤول الصينيِّ التي يبدو أنَّ دماغها سيسقطُ عمَّا قريب من رأسها من جرَّاء مللها الشديد من الحديث مع زوجي. ثمَّ سأعود لأعرِّفك باللجنة". قبَّلتني قبل أن تشقَّ طريقها عبر الضيوف نحو مقصدها.

اقترحَ ياغو أن نستغلَّ هذه الفرصة في العثور على زجاجتين من جعة جورج الفاخرة التي جلبها السفير معه من مدينة ميونخ صباحًا.

تبيَّن في نهاية المطاف أنَّ باربرا براون وهولغا مير- "اللجنة المتخصِّصة" التي تحدَّثت عنها زلما- لم تكونا صانعتَي أفلام. أوضحَت السيِّدتان أنَّهما يعملان لصالح المركز الألمانيِّ للإعلام ومقرُّه سفارة ألمانيا في بريتوريا[1]، وأنَّهما تزوران ناميبيا في مهمَّةٍ رسميَّة. في وسط ردِّهما المسهب، غادر ياغو برفقة زوجة السفير بحثًا عن أشخاص آخرين للحديث معهم.

"أنت تصنع الأفلام إذًا؟"، قالَت باربرا براون. بدَت حازمةً ومباشرة.

قلتُ لها الكلام الترويجيَّ الذي أردِّدهُ عادةً عن فيلمي اغتيال الفصل العنصريِّ. خرجَت العبارات المُكرَّرة بصورةٍ تلقائيَّةٍ جدًّا لدرجة أنَّني كنتُ أفقد وجودي في أثناء سردها. أين كانت تختبئ تلك الكلمات؟

"هل تعمل في ويندهوك؟"، سألَت.

"أنا هنا لإجراء بحثٍ بصدد لوحات البوشمن".

---

1 بريتوريا: ثالث عواصم جمهوريَّة جنوب أفريقيا، مع كيب تاون وبلومفونتين. تعدُّ مدينة بريتوريا المركز الأكاديميّ والجامعيّ، ومركز السلطة التنفيذيَّة، ومقرَّ السفارات الأجنبيَّة في البلاد. م.

هولغا مير، زميلةُ باربرا ذات البشرة الباهتة، والتي ربَّما كانت مُدخِّنة؛ قطَّبت حاجبيها في وجهي لأنَّها أرادت سماع المزيد عن فيلم الفصل العنصريّ. سألَتني عمَّا إذا من الممكن أنَّها شاهدَتهُ عبر الإنترنت، فأخبرتهُا أنَّه غير مُتوفِّر، لكن بمقدورها، مع بعض البحث الجادّ، إيجاد مقاطع قليلةٍ منه متناثرة هنا وهنا. ثمَّ أضفت: "الفيلم مترجم إلى الألمانيَّة".

"وهل تعتقدُ أنَّني بحاجةٍ إلى ترجمة؟"، قالَت محدِّقةً إليَّ بصورةٍ عدائيَّةٍ إلى حدٍّ ما.

"قصدتُ فقط القول إنَّ فيلمي عُرِض في ألمانيا". وهربًا من هذه المحادثة المربكة، سألتُ: "ماذا أتى بكما إلى ناميبيا؟".

"مشروع"، قالَت هولغا، ولوَّحَت إلى شخصٍ ما في الطرف الآخر من الغرفة. "يتضمَّن الكثير من القيادة على طرقٍ ترابيَّة".

"هذا مُشابهٌ لِما أفعله. ربَّما تقاطَعت طرقنا ذات يوم".

"أجل، ربَّما".

"ما طراز السيَّارة التي تقودينها؟".

"ماذا؟"، قالت. "طراز السيَّارة؟ مرسيدس. ماذا تقود أنت؟".

"مجرَّدُ شاحنةٌ صغيرة. إذًا لستما من يترصدُّني بشاحنة الهايلوكس؟"، سألتُ على سبيل المزاح.

"ولماذا تعتقدُ أنَّنا نريد أن نترصَّدك؟".

"أعراضُ جنون الارتياب".

"لا أدري عمَّ تتحدَّث". بدا من تعابير وجهها أنَّها لم تلمس أيَّ فكاهة في تعليقي.

وبدافع اليأس، سألت: "هل جرَّبتما جعة جورج؟".

"هل يُقدِّمون جعة جورج هُنا؟"، سألَت باربرا قبل أن تنطلق مغادِرة.

بقيتُ وحدي مع هولغا. اعتذرتُ منها مرَّة أخرى على سبيل الاحتياط.

"هل ستظلُّ في ويندهوك لفترةٍ طويلة؟"، سألَت.

"سأغادر في الغد. سأقضي أسبوعًا في لودريتز قبل العودة إلى هنا".

"كيف تعرَّفتَ بالسفير؟".

أشرتُ إلى ياغو، لكنَّها لم تعرفه. أخبرتُها باسمه، فقالت إنَّها تعرف من يكون لكنَّها لم تلتقِ به بعد. على عكس زوجة السفير، لم تسأل هولغا عن طبيعة علاقتنا، بيد أنَّها أبدت اهتمامًا بمعرفة المزيد عن طبيعة عمل ياغو. أخبرتها بالقليل الذي فهمتُه عن عمل مُنظَّمته. ومع أنَّني تذكَّرتُ حديثه الساخر في أوَّل ليلةٍ نقضيها معًا بصدد أنَّ الكتبَ هراء، لكنَّني قرَّرتُ عدم إخبارها بذلك لئلَّا أخاطر بحدوث سوء فهمٍ آخر.

"أتظنُّ أن باربرا ضلَّت طريقها؟" قالَت بانزعاج. "على الرغم من أنَّني أحبُّ جعة جورج، إلَّا أنَّني كنتُ آمل الحصول على شيءٍ أقوى في هذا المساء".

"ربَّما كانت تبحثُ عن أثاث منزل السفير".

نجحتُ أخيرًا في رسم ابتسامةٍ على وجه هولغا مير. "إذا كنتِ ترغبين بشيءٍ أقوى، فجرِّبي هذا"، قلتُ وأعطيتُها آخر سيجارة حشيشةٍ أميركيَّةٍ لديّ.

أخذَتها بسرور، وتمنَّيتُ لها قضاء وقتٍ ممتعٍ بتدخينها. انسللتُ

مكتبة ياسمين

من بين مجموعةٍ من الضيوف ووصلتُ حين كان ياغو يخبر زلما أنَّه سيسافر في إجازته القادمة إلى جمهوريَّة الدومينيكان.

—

امتزجَت الرائحة النتنة المنبعثة من عرق دولار وسجائره مع الأثر الباهت من الرائحة الدوائيَّة الحادَّة لمضادات الفيروسات القهقهريَّة خاصَّته. إنَّ شعر أنفي يقشعرُّ كلمَّا تذكَّرتُ رائحته: كان هناك شيءٌ من طفولتي في رائحته الكريهة.

لمحتُ على رقبته وشمًا باهتًا قد طمسَ تفاصيلَه حرقٌ حتَّى أصبح من الصعب قراءة رموزه؛ مع أنَّني أوقفتُ المقطع المصوَّر مؤقَّتًا كي أدوِّن ما كُتب فيه. كان بمقدوري أن أقرأ عبارة "حرِّر نفسك"، وبعدها كلام غير مفهوم، ثمَّ "أحبَّ ما أنت عليه"، ومن ثمَّ "لا تستسلم أبدًا" ربَّما. كلُّها عباراتٌ متفائلةٌ لدرجةٍ ملفتةٍ للنظر بالنسبة إلى رجلٍ بماضيه.

ضغطتُ على زرِّ التشغيل. ظلَّ دولار يُحدِّقُ إليَّ. رسم الضوء الذي أنار عظام وجنتيه تجاويف مثاليَّة. كان سيبدو مثيرًا من دون كلِّ تلك الوشوم وآثار الجروح؛ ربَّما كان من الممكن أن تسلك حياته مسارًا مُغايرًا: كأن يصير عارض أزياء، أو ممثِّلًا إباحيًّا. وبخلاف سائر المدانين السابقين الذين قابلتهم، وعلى الأخصِّ أولئك الذين كانت وجوههم موشومة، فإنَّني لم أكن لأشُكَّ أبدًا من مجرَّد النظر إليه أنَّه قضى معظم حياته حتَّى الآن في السجن.

"استدِر نحو الجدار"، قلت.

شوَّه شخصٌ ما ظهره بالحبر؛ يبدو أنَّ سجينًا موهوبًا بالرسم، وبعد أن ملَّ من مزج الألوان الورديَّة أو تدخين الحشيشة، قد

خربش جمجمةً غير متكافئة الأبعاد على جلد دولار المتلألئ. وإذا كان دولار قد نجا، بفضل معجزةٍ ما، من الإصابة بالتهاب الكبد أو فيروس نقص المناعة قبل أن يبدأ الوشَّام بالرسم، فإنَّه من شبه المؤكَّد أنَّه دخل في طور التحوُّل المصليّ بحلول الوقت الذي فرغَت إبرُ الرجلِ فيه من وشم تذكارها بالموت.

"هل يعجبك؟"، سأل.

"لا تتكلَّم!".

عندما طلبتُ منه الاستدارة نحوي مرَّة أخرى، لفَّ بسرعةٍ وشدَّ عضلات صدره وأمسكها براحتي يديه كما لو كان يطمئنُ نفسَه على قوَّته. انزلقَت يداه على جانبي جذعه حتَّى استقرَّتا فوق حزامه؛ حيثُ ربَّت بإبهامَيه على الطيَّات العضليَّة التي تتعامد على أُربِيَّته. وفوق أخدودَي مُنفرجه، وشِمَ أسدان هائجان، أطرافهما الأربعة مرفوعةٌ وكأنَّهما في استعدادٍ للانقضاض.

"ألم ننته؟"، سأل.

أكَّدتُ له أنَّني لا أزال أصوِّرُه.

"هل عليَّ أن أشرح؟"، قال بالأفريقانيَّة، "من سيشاهدُني؟ الأميركيّون؟".

قرَّبت الصورة من صفٍّ من الأرقام المكتوبة بخطٍّ صغيرٍ جدًّا على ذراعه. "سيكون عليك التحدُّث بالإنكليزيَّة لأنَّ الأميركيِّين لا يُحبُّون قراءة الترجمة".

"ماذا؟"، سألُ وهو يحكُّ بطنَه.

"ابقَ ساكِنًا، لا تتحرَّك!". التقطَ الميكروفون تنهيدتي العميقة قبل أن اقتربَ منه بسرعة. عدتُ إلى موقعي بعد أن التقطتُ صورةً للأرقام.

استمرَّت جلسةُ التصوير على هذا المنوال- أي أنا أقترب منه لتصوير الوشوم الصغيرة- فأسمعُ همساته التي لم يكن لي بها شأنٌ إذ لم تؤثِّر على مسار عملي. قرَّرت في البداية الاستغناء عن الأصوات التي سجَّلها الميكروفون المدمَج بالكاميرا خلال هذه المرحلة من التصوير، لكنَّني بعد ذلك لم أعد واثقًا من قراري تمامًا: صرتُ أرى أن كلماته اللاهثة قد تُشكِّلُ مُكمِّلًا مثيرًا للاهتمام. كما أنَّها لم تكن سوى إلهاء بسيط إذا ما قورنت بأفعال بعض الرجال الآخرين الذين راقبتُ سلوكهم. فواحد من أولئك مثلًا كان منهمكًا للغاية في الجدال مع نفسه لدرجة أنَّه لم يكن لديه وقتٌ للإجابة عن أسئلتي؛ في حين ظلَّ آخرُ يصفعُ نفسَه كلَّما ظنَّ أنَّني لا أنظرُ نحوه.

تحرَّكت يدا دولار باتِّجاه رقبته، وحرَّك أصابعه في تململ؛ منتظرًا بفارغ الصبر أن أنتهي من التصوير. طلبتُ منه إزاحة يديه عن حلقه لأنَّ ذراعيه ألقيا بظلالهما على جذعه المُتعرِّق. كانت الأضواء شديدة الحرارة. تذكَّرتُ ارتشاح العرق على ظهري. كان دولار يمتثلُ كلَّما طلبتُ منه التوقُّف عن الحركة، لكنَّه كان ينسى ذلك أيضًا بالسرعة نفسها تقريبًا.

غطَّت صدرَهُ على نحوٍ جزئيٍّ عبارةٌ وردَت فيها الكلمتان "دولار فضِّيّ".

"ألهذا أطلقتَ على نفسك لقب دولار، بسبب هذه الكلمات؟"، سألْت.

أومأ برأسه.

غارَت ندباتٌ طويلةٌ تمتدُّ من معصميه إلى مرفقيه على كِلا

ساعديه. يبدو أنَّه فعلها بنفسه طوليًّا، متتبِّعًا شرايينه، قبل أن ينقذه أحدهم من النزيف حتَّى الموت. ولا بدَّ أن المسعف نفسه من صنع تلك الدمامل، بصورةٍ متوازيةٍ مع كلّ موضع قطع، في أثناء خياطة جلد دولار من جديد. وهكذا ازدادت ثخانةً حتَّى أصبحَت جُدراتٍ غاضبةً.

أوَّلُ ما فعلتُه في صباح يوم الاثنين، بعد أن قضيتُ طوال يوم الأحد على الطريق، أن ذهبتُ إلى مكتب تشزلي كي أطلعه على مُجريات الأمور، لكن اتَّضح أنَّه كان عالقًا في كيب تاون.

"إنَّه هنالك لحضور اجتماع الشركاء"، أخبرتني مساعدته.

"اجتماع الشركاء؟ حقًّا؟".

"بإمكانه مقابلتك في يوم الأربعاء"، قالَت وهي تتحقَّق من مُذكَّرتها.

"ألم يخطر ببالك أن تخبرني بهذا في الأمس؟".

هزَّت كتفيها بلا مبالاة. "أنا لا أعمل في عطلة نهاية الأسبوع".

أظهرتُ امتعاضًا شديدًا في أثناء تدوين الموعد الجديد في مُذكِّرتي قبل أن أسلِّمها آخرَ فواتيري مع قائمةٍ بمصاريفي في ويندهوك مؤخَّرًا.

"هل هذا كلُّ شيء؟"، قالَت وهي تقلِّبُ إيصالات الدفع.

"لا يزال أمامي بعض المونتاج"، قلت، "لكنَّني سأدرجُ عمل الأسبوع الفائت مع العمل القادم".

"يجبُ أن تحضر معك الفواتير الجديدة أيضًا في يوم الأربعاء".

"يبدو هذا نذير شؤم".

"هناك العديد من الأمور التي تحدث الآن".

"آملُ أن تكون كلُّها إيجابيَّة".

"إنَّه لا يُخبرني بأيِّ شيءٍ على الإطلاق. يا له من وظيفةٍ رائعة!".

كنتُ مسرورًا بزيارة شقيقتي في ذلك المساء، وشعرتُ بالارتياح حين علمتُ أن ويل خارج المدينة. سيحلُّ عيد ميلادها بعد أسابيع قليلة، وجعلَتني أعدُها بأنَّني سأحتفل معها على شاطئ العقيق.

"هل سيكون جزءًا من حفلات الشواء الخاصَّة بهارموني، والتي سمعتُ عنها كثيرًا؟"، سألت.

"تمامًا".

"سأحضر بالتأكيد".

"يودُّ ويل التحدُّث معك. سيحضر الحفل مع الآخرين جميعهم، لكنَّه يريدُ أن يدردش معك قبل ذلك. ذهنه مشغولاٌ بالكثير من الأمور".

"ألا يزال يتجادل مع أماندا؟". ندمتُ على هذا التعليق.

استغرقَت شقيقتي بعض الوقت كي تتفهَّم ما قلت. "إنَّه يشعر بالأسف لأنَّهما ورَّطاك في جدالهما".

"هل هذا ما قاله لك؟".

"ماذا تقصد؟".

"لا شيء".

"إنَّه يُحاول إنعاش مشروع هارموني، لكنَّها لا تتوقَّف عن إزعاجه وانتقاده طوال الوقت. أعتقدُ أنَّه على وشك الاستسلام. ولأكون صريحة معك، فإنَّه بدأ يدرك مؤخَّرًا أنَّه لا تكترثُ لأيٍّ من أفكاره على الإطلاق. لقد ذكرَ شيئًا ما بخصوص أنَّه يريدُ منك تصوير بعض الأشخاص في أثناء عملهم. هل تعتقدُ أنَّ بمقدورك قضاء يومٍ في هارموني للتصوير؟".

"هل أنتِ جادَّة؟".

"إذا كنت لا تزال غاضبًا بسبب ما حدث في كولمانسكوب، فينبغي أن تعلم أنَّه اعتذر من بِن".

"وذلك أقلُّ ما يستطيع أن يفعله. ليس لديَّ أيُّ وقتٍ في جدول أعمالي للتسكُّعِ وراء عبدٍ في هارموني. لقد كلَّفني تشزلي بمهامٍ عديدة. لكن إذا كان ويل يريدُ منِّي التصوير حقًّا، فأخبريه أنَّني أُفضِّلُ تصوير سيكستن وهو يتحدَّث عن حياته بدلًا من تسجيل المزيد من محاضرات ويل".

"سيكستن؟".

"لقد كانت مشاركتُه الشيءَ الوحيد الذي بدا حقيقيًا في كولمانسكوب. بالإضافة إلى أنَّ سيكستن سريـع التأثُّر وبهيُّ الطلَّة، ممَّا يُشكِّل مزيجًا لائقًا أمام الكاميرا".

"لكن ماذا عن بقيَّة المشروع؟".

"يا لوسيَّا، أتعتقدين بصدقٍ أنَّ النجاح قد يُحالف أيًّا من نظريَّات ويل؟"

لم تحر جوابًا. مضَت لرفع ذراع التشغيل عن مشغِّل الموسيقا، وقال لي من وراء ظهرها: "سيعني هذا الكثير بالنسبة إليَّ، يا

مكتبة ياسمين

هنري؛ أن تتابع العمل لأجله. دعني أخبره أنَّك ستفكِّر في الأمر على الأقلّ".

"أخبريه بما شئتِ"، قُلت، "لكنَّني لا أعدك بشيء".

عندما انحنَت شقيقتي لالتقاطِ أسطوانةٍ موسيقيَّةٍ أخرى، طلبتُ منها ألَّا تُشغِّل أيَّ موسيقا لبعض الوقت إن كانت لا تمانع ذلك.

سحبَت كيسًا بلاستيكيًّا ذا سحَّابٍ من وراء مجَّسم الكرَّة الأرضيَّة الخاصّ بعمَّتنا.

"خُذه"، قالت، وأعطتني إياه.

كان الكيسُ مليئًا حتَّى آخره بالحشيشة، وأثقل ممَّا بدا عليه. "يا إلهي، يا لوسيَّا!".

سحبت منفضة السجائر من فوق الخزانة الجانبيَّة. "ما رأيكَ إذًا أن تلفَّ لنا سيجارة، ومن ثمَّ نشرع بتبادل نصائح غير مرغوبٍ بسماعها بصدد الحياة العاطفيَّة لكلٍّ منَّا؟". جلسَت باسترخاءٍ إلى جانبي.

فتحتُ الكيس ومددتُ أصابعي داخله، بيد أنَّني قرَّرتُ ألَّا أمضي في الأمر. "اعفِني من هذا. بإمكاني أن ألفَّ سيجارةً لك، لكن حالتي المزاجيَّة لا تسمح لي بالتدخين الليلة".

"هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟".

"الأمور بخير. أعطاني ياغو بعض سجائر الحشيشة الأميركيَّة قويَّة المفعول، وأظنُّ أنَّني أفرطت في التدخين منها".

"أتشعر بالارتياب؟".

"أجل، بعض الشيء".

"ضع الكيس على الطاولة إذًا. حسنًا، ماذا بإمكانك أن تخبرني عن مشروعك لتصوير لوحات البوشمن؟".

"أنَّه يتعذَّرُ الوصول إليها".

ضحِكَت. "من المؤكَّد أنَّك لم تكن مضطرًّا للسفر إلى الشمال كي تكتشف ذلك. أنتَ في مزاجٍ غريب هذا المساء".

"أعلم. المعذرة. هل يمكن ألَّا نتحدَّث عن العمل؟".

"وهل من المسموح أن أسألكَ عن ياغو؟ أظنُّ أن أمرًا خطيرًا قد حدث لأنَّه توقَّف عن اطلاعي على آخر المستجدَّات".

"لقد سررتُ بأن أكون معه"، قلتُ معترفًا، "لكنَّني لا أدري بما يشعر تجاهي. نحنُ نتحدَّث كلَّ مساءٍ تقريبًا، لذا أظنُّ أنَّنا على وفاق. لكن هل ثمَّة ما هو أعمق من ذلك؟ لستُ متأكِّدًا. هل أنا على شفا الحبّ؟ اللعنة! لا أدري سوى أنَّني على شفا شيءٍ ما!".

"لماذا لستَ هنالك معه الآن؟"

"في الحقيقة..."

"إلَّا إذا كنت لا ترغب بالحديث عن الأمر".

"لديَّ أمورٌ كثيرةٌ بحاجةٍ إلى تسويةٍ هُنا في لودريتز".

"أتريد بيع المنزل؟ ما أقصدُه هو أنَّك في حال كنت تريد بيعه، فلا تشعرْ أبدًا أنَّك بحاجةٍ إلى إذنٍ منِّي".

أدركتُ في صوتها الحزنَ نفسه الذي شعرَت به يومَ غادرتُ إلى جوهانسبرغ.

"لم أتَّخذ قرارًا بعدُ بصدد البيع"، قلت. "يبدو أنَّني غير قادرٍ في هذه الآونة على التخطيط لفتراتٍ أبعد".

مكتبة ياسمين

"هل ما زلت تريد العيش هُنا؟".

"في منزل النخلتين التوأم؟".

"يا لظرافتك! على الرحب والسعة، يا صاح، لكنَّني أعني في لودريتز".

"لا". كانت كلمةً قاسية الوقع في هذا المساء.

"من المؤكَّد أنَّ ويندهوك قد تركت أثرًا بالغًا في نفسك. لأكون صريحة معك، كنتُ أظنُّ أنَّني سأخسركُ بسبب جوهانسبرغ. لكن إذا انتقلتَ إلى ويندهوك فإنَّنا سنظلُّ في البلد نفسها على الأقل".

ذهبتُ في يوم الأربعاء إلى مكتب تشزلي لتخبرني مساعدتها بأنَّها تتوقَّع عودته في يوم الجمعة.

"ماذا يحدث؟"، صحت غاضبًا. "إنَّني أُضيِّعُ الوقت سدى هُنا في لودريتز بينما ينبغي أن أكون في الشمال الآن أجري المقابلات".

"السيِّد أركيبيلاجو مشغولٌ جدًّا في المكتب الرئيسيّ".

"لقد أرسل إليه عدَّة رسائل على هاتفه المحمول لكنَّه لم يردَّ على أيٍّ منها".

هزَّت كتفَيها في إشارةً إلى أنَّه ليس في وسعها فعل شيءٍ حيال ذلك.

"هل بمقدورك على الأقلّ إخباره بأنَّني بحاجةٍ إلى التحدُّث معه"، قلتُ مُصرًّا.

"أكيد، أكيد".

"لا أرى أيَّ سببٍ وجيه يمنعنا من التحدُّث عبر الهاتف فحسب".

"قال إنَّه يريد مقابلتك وجهًا لوجه، في المكتب نفسه".

اعتذرتُ منها عن ردَّ فعلي المبالغ فيه.

"لا مشكلة"، قالَت، على الرغم من أنَّ وجهها يوحي بخلاف ذلك. "والآن، هل أحضرتَ معك تلك الفاتورة؟".

"المعذرة، لقد نسيت". لم أستطع التخلُّص من الهاجس الذي تملَّكني بصدد أن تشزلي على وشك طردي من العمل، وكنت على يقينٍ أنَّ تلك المرأة لن تخبرني حتَّى لو كانت تعلم.

"أتعدين أنَّني سأجدهُ هنا في يوم الجمعة المقبل؟".

"هذا ما قاله. لكن دعني أتأكَّد من الأمر في وقتٍ لاحقٍ اليوم وسأعلمك عبر الهاتف".

شكرتُها، وحين هممتُ بالمغادرة خطر ببالي أن أطلب منها نسخةً من القائمة الجديدة للمقابلات التي يريد تشزلي الحصول عليها.

قالت بتردُّد: "لا أدري..."

"هل فرِغ من تحديد الأسماء الواردة فيها؟".

"نعم".

"عندما تتحدَّثين إليه اليوم، اسأليه من فضلك عن الموعد الذي يمكنني فيه الحصول على القائمة الحديثة لأنَّني أودُّ الاطّلاع عليها قبل اجتماعنا".

كان طلبي سهلًا بما فيه الكفاية.

"بالطبع".

في لحظة من الحيرة إزاء ما ينبغي فعله لاحقًا، وإذ بدا لي أنَّ

مقابلات هيريرو تضيع منّي، قرّرتُ إعادة النظر من موقفي إزاء متابعة العمل على الوثائقيّ الخاصّ بويل.

—

رأيتُ سيكستن يشرب الماء في أثناء استطلاعه للقناة المحفورة إلى مستوى الركبة في أرض هارموني الصلبة. كان قميصه مُعلّقًا على الجزء الخلفيّ من قبّعته لحماية رقبته وكتفيه من شمس الصباح. لوّح إليّ مُسلّمًا حين رآني أصوِرُ من نافذة شاحنتي الصغيرة.

"هل يمكنك رؤيتها؟"، سألَني. ثمَّ حفر في الأرض الجافَّة بدفعةٍ من قدمه على المجرفة. "هل ترى كم هي جميلة؟".

كانت أسئلةً وديَّة، لكن بدا وكأنَّها آتيةُ من عالمٍ مواز.

اقتربَت أماندا منّي حين دخلتُ إلى غرفة الطعام. كانت قد طُليَّت حديثًا وثبّتَ في سقفها ضوء فلورسنت ثانٍ.

"لم أستطع التعرُّف عليك في البداية من دون وجودِ كاميرا ملتصقةٍ على وجهك"، قالت.

"أهلًا، يا أماندا"، قلت. "سررتُ بلقائك أيضًا. هل ويل هُنا؟".

"لا".

"ألديك أيُّ فكرةٍ عن موعد عودته؟".

"لا أعلم أكثر ممَّا تعلم".

"عرفتُ أنَّه يريدُ منّي تتبُّع أثر شخصٍ ما".

"من يكون؟".

"لا أدري. شخصٌ ما، أيًّا يكن".

"متى قال ذلك؟".

"لقد كانت يتحدَّث مع شقيقتي، وهي من نقلَت إليَّ رسالته".

لم تبدِ أيَّ ردِّ فعل، لكن كان لا يزال هناك متَّسع من الوقت.

"يا فريدي!"، نادَت شخصًا يحمل على كتفه دلو تنظيف وكأنَّه حقيبة ظهر. خرج الرجل من المطبخ، وصار على مضضٍ باتِّجاه أماندا.

تحدَّثت إليه بصوتٍ خفيضٍ بحيث لا يكون بمقدوري سماع ما تقول.

"بإمكانك أن تتبَّع فريدي، يا هنري"، قالت لي بعد أن فرغا من الحديث. "حاول فقط ألَّا تعترض طريقَه".

"لقد تأخَّرْت"، همسَ الرجل بينما تبعتُه إلى الطابق العلويّ، "لذا ربَّما من الأفضل ألَّا نتحدَّث".

ما إن ابتعدنا بمسافةٍ لا بأس بها عن أماندا حتَّى أخبرتُه بأن يتجاهل الكاميرا ويمضي في عمله كالمعتاد.

"إنَّني أنجزُ عملي عادةً في وقتٍ أسرع بكثير من هذا"، قال وشرع ينظِّفُ الحمَّامات. لم ينبس ببنت شفةٍ قبل أن يطلب من شخصٍ لم أرهُ من قبل أن يذهب وينادي أماندا. وفي أثناء الانتظار، مسحَ مرآةً صغيرةً بكمّه.

تحقَّقت أماندا سريعًا من عمل فريدي، لكن قبلها وكزَت كاميرتي بلطفٍ بظهر يدها وأخبرتني ألَّا أصوِّرها. بعد نظرةٍ خاطفةٍ على الحمَّامات، قالَت له إنَّه يجب عليه تنظيف الأحواض من جديد. لم أُعِد تشغيل الكاميرا إلَّا بعد أن تركَتنا وبدأت تبتعد، مصحوبةً باعتذاراتٍ من فريدي.

"ثمَّ من يظلُّ يغسل شعره هُنا"، قال متنهِّدًا.

تظاهرتُ، في أثناء جولة التحقُّق الثانية لأماندا، بالانشغال ببعض الأمور في الممرّ؛ ادَّعيتُ أنَّني أدقِّق النظر في لوحةٍ غير منتهيةٍ لبابٍ على الجدار المجاور من أجل تسجيل صوتٍ لم يُكتشف بعد.

حينما عثر عليَّ، فسَّر فريدي لي أنَّ هذه الخدعة البصريَّة في هذه الباب إنَّما تُحدِّد مكان الممرّ الذي سيربطُ ذاتٍ يومٍ ما بين هارموني والجناح الجديد. سيكون الخندق الذي يحفره سيكستن أساس هذا التوسُّع.

دخلَ إلى غرف النوم المشتركة كي ينظِّفها، لكن قبل ذلك سلَّمَ على امرأةٍ كانت تجلس باعتدالٍ على مرتبتها وتضع وشاحًا زهريًّا حول رأسها. كنتُ قد توقَّفت مؤقَّتًا عن التصوير لأنَّني بلغت الحدَّ الذي كنت بحاجةٍ إليه من لقطاتٍ تتعلَّق بالأعمال المنزليَّة. أخبرني فريدي، بعد أن أكَّدتُ له أنَّني قد أوقفت تشغيل الكاميرا، أنَّه جاء إلى هارموني بعد وفاة زوجته، وأنَّه لم يعمل بهذه الجديَّة طوال حياته من قبل. سألتُه عمَّا إذا كان يُغيِّر المهامَّ في نهاية كلِّ ساعتين، تماشيًا مع قاعدة ويل، فأوضح لي أنَّه باعتباره مُتطوِّعًا فإنَّ عليه أن يظلَّ يعمل حتَّى إنجاز الأعمال الموكل بها. ثمَّ، واسترشادًا بتعليمات أماندا، توقَّف فريدي عن الكلام بمجرَّد أن رفعتُ الكاميرا، لكنَّني مع ذلك سجَّلتُ كلماته كلَّها.

وصَّلتُ شاحن بطَّاريَّات الكاميرا بمقبسٍ كهربائيٍّ من مولِّد الطاقة في الطابق السفليّ في أثناء تناول الغداء.

عرّفني فريدي بقرابة عشرةٍ من المتطوِّعين والمتطوِّعات الذي سعفتهم الشمس، لكن لم أستطع تذكُّر أسمائهم كلِّهم. كانوا قد

مكتبة ياسمين

أمضوا فترة الصباح محاولين تشغيل عنفة الرياح. أكَّدوا لي أنَّهم يحبُّون هارموني، وشكرني بعضهم على عملي اليوم في التصوير. بيد أنَّ أيًّا منهم لم يأتِ على ذكر ويل.

قبل انضمام سيكستن إلينا، كانت مواضيع تلك المحادثة محصورةً في ثرثرةٍ لطيفةٍ على غرار ما يحدث في مناسبةٍ عامَّة. لكن أراد الإسكندنافيُّ أن يخبرني عن قناديل البحر في أعماق المحيط الأطلسيّ؛ عن بحثه في حمضها النوويّ عن دليلٍ على الأسلاف الذين جاؤوا من خارج كوكبنا بسفنهم الفضائيَّة. ويبدو أنَّ هذه الكائنات الفضائيَّة نفسها من تسبَّب في الانفجار الكامبريّ[1] عبر تزاوجها مع قناديل بحرٍ من كوكبنا من أجل الاستمرار. كان سيكستن قريبًا من فكِّ شفرة الأجناس الحيَّة الحاليَّة التي تحمل دلالةً على أولئك المسافرين خلسة. وأمَّا بالنسبة إليَّ، فقد كانت أمنيتي الوحيدة أن تكون الكاميرا في متناول يدي.

سألتُ عن المرأة التي رأيتُها على السرير في الطابق العلويّ، فأخبروني أنَّ أماندا تتكفَّل برعايتها.

"أطباؤها لم يصغوا إليها"، قال سيكستن، "بخلاف أماندا. تلك السيِّدة شركةٌ أساسيَّة". حسبتُ ممَّا قاله أنَّ تلك المرأة مستثمرةٌ هُنا في المشروع. أضاف بصورةٍ جادَّةً: "نحنُ نطهِّرُها ممَّا لديها من سمومٍ حتَّى تصبح عضوةً قويَّةً في مجتمعنا". لم أعرِف على نحوٍ حاسمٍ ما إذا كان سيكستن شريكًا معهم في هذه اللعبة، أو إن كان بالفعل مُصدِّقًا لكلِّ ما يقول.

---

1 الانفجار الكامبريّ: يقصدَ به الظهور الجيولوجيّ لمستحاثَّات أسلاف الحيوانات المألوفة ضمن السجل الأحفوريّ الأرضيّ. يُقدَّر زمن هذا التوسُّع الكبير في الأنواع الحيوانيَّة ما بين 10 ملايين سنة من 520-530 مليون سنة سبقت. م.

طلبتُ من فريدي أن يريني غرفته بعد الغداء إن لم يكن لديه مانع.

"نحن المتطوّعون نقيم في المدينة"، قال. "أنا أسكن في غرفة هناك مع عددٍ من الأصدقاء".

أقحم سيكستن نفسه بالحديث، قائلًا: "المكان هُنا ممتلئ عن آخره، ولهذا نحنُ بحاجةٍ إلى التوسعة. إنّنا نستقبل وافدين جددًا في كلّ أسبوع، وتقول أماندا إنّه يجب أن تتساوى فرص الجميع بصدد الانضمام إلينا. يُطلق ويل على هذا اسم "فترة المراقبة". في نهاية كلّ شهر، إذا كانت هناك مساحةٌ كافية، يأمل ويل وأماندا أن يدعوا متطوّعًا واحدًا ليصبح عضوًا دائمًا في عائلة هارموني. أليس هذا رائعًا؟".

"وسيعيش ذلك الشخص هُنا"، أضاف فريدي.

"وماذا يحدث للمتطوّعين الذي لم يحالفهم الحظّ؟".

قال الجميع: "يظُّلون قيد فترة المراقبة".

"ثمَّ تحاولون مجدَّدًا في الشهر التالي؟".

"هذه هي طريقة عملنا"، قال سيكستن. "ينبغي على المتطوّعين والمتطوّعات التكفُّل بتأمين أماكن إقامتهم ونفقاتهم المعيشيَّة لأنَّنا لا نملك تمويلًا في هارموني". وأضاف بعجالة: "وهذا منطقيٌّ بالطبع". كانت تلك أوّل مرَّةٍ يشير فيها أيٌّ منهم إلى المال. "نحنُ نريد أناسًا يؤمنون بهارموني، لأنَّه لا يلائم الجميع. هناك ضغوط ومتطلَّبات..."

أومأ فريدي برأسه. "يقول ويل إنَّنا يجب أن نحيا تجربة هارموني قبل أن نلزم أنفسنا بها". أشعلَ بريقٌ من الأمل ابتسامتَه.

"ليس هذا المكانُ مَهربًا من العالم"، تابعَ سيكستن كلامه. "ولا يعني انضمامك إلينا أنَّ مشاكلك ستختفي بطريقةٍ سحريَّة. كما أنَّ ويل وأماندا لا يخشيان من طرد الناس غير المناسبين. يكرَهُ ويل أن يضطرَّ لفعل مثل ذلك، لكن ليس بمقدورنا أن نتحمَّل المتطفِّلين المستغلِّين". حملَت كلماته تحذيرًا. "كلُّنا هنا متَّفقون على فعل ما يجعلنا جديرين بالبقاء. مثلما قلتُ لك: ليس هارموني مناسبًا للجميع".

"أيمكنني إذًا افتراضُ أنَّه ليس لدى بعض المتطوِّعين أماكن يقيمون فيها؟"، سألت.

"إنَّه وضعٌ صعب"، قالوا موافقين.

"وخاصَّةً بالنسبة إلى ويل وأماندا"، قال سيكستن.

"ويل وأماندا"، ردَّدَ فريدي.

من دون أن أتقصَّدَ وضعه في موقفٍ محرج، سألتُ فريدي: "ماذا ستفعل إن لم تتوافر مساحةٌ كافيةٌ في هارموني عند نهاية الشهر الحاليّ؟". ترقَّب الجميع إجابة الرجل المسكين.

"سأصل لا بدَّ إلى هناك!"، قال بثقةٍ كبيرة.

"هذا رجلٌ لديه إيمان"، قال سيكستن مؤكِّدًا.

"يجب أن أكون مؤمنًا"، قال فريدي. "أنا لستُ غنيًّا. ليس لديَّ ما أقدِّمه إلى هارموني باستثناء ما أستطيع فعلَه بهاتين"، ورفع كلتا يديه إلى أعلى.

جاءت أماندا إليَّ بعد أن فرغنا من تناول الطعام. حسبتُ في البداية أنَّها تحمل إليَّ رسالةً من ويل، لكنَّها كانت تريد معرفة المدَّة التي سأقضيها هُنا اليوم. دخل كيانو إلى داخل المبنى في أثناء حديثها.

"لماذا لم يناديني أحدٌ كي آتي وأتناول الغداء؟"، قال مقاطِعًا.

"لقد تأخَّرْت"، قالَت أماندا من دون أن تنظر إليه. "لا يمكن إبقاء المطبخ مفتوحًا في انتظار الجميع".

لكنَّكِ تعلمين أن ساعتي قد سُرقت. لَم يتَّصِل بي أحد". كان منهمكًا بحفر الأساسات.

"إنَّ الجدول الزمنيَّ هو مسؤوليَّةٌ تخصُّ كلَّ فردٍ بمفرده. اذهب وكُل في المطبخ، لكن تذكَّر أن تُنظِّف بعد ذلك".

"هذا هراء. سأخبر ويل!".

حدَّقت أماندا في المجموعة بعينين نصف مغمضتين. "يا فريدي، ينبغي الآن أن تكون في البيت البلاستيكيّ. بمقدورك أن تواصل تصويره، يا هنري، طالما أنَّك لا تتدخَّل في عمله".

بعد أن سمعوا ما قالَته، هرع فريدي والآخرون نحو مهامِّهم. لم أشأ أن يعتقد كيانو بأنَّني أسمح لأماندا بتوجيهي كيفما شاءت، أو أنَّني أتبع تعليماتها بصورةٍ عمياء، فسألتُها عمَّا إذا كان من المخطَّط الاحتفالُ اليوم.

"لا وقت لدينا لمثل تلك الأمور إذا ما أردنا تحقيق بعض الإنجاز في المكان هُنا"، قالَت. "وشيءٌ آخر، يا هنري. من فضلك، لا تستخدم شبكتنا الكهربائيَّة في شحن معدَّاتك. أنت تستنزف ما لدينا من طاقة، وليس في وسعنا تشغيل المولِّد لمجرَّد أنَّك غفلت عن الاهتمام بشؤون بطَّاريَّاتك في منزلك".

"حسنًا، سأضع ذلك في الحسبان".

بعد أن صعدت إلى الطابق العلويِّ بوقتٍ كاف، قال كيانو للسلَّم الفارغ: "لستِ مضطرَّةً إلى أن تكوني نذلةً فحسب". ثمَّ

أضاف، لمصلحتي ربَّما: "إنَّني أحفر أفضل من أيِّ شخصٍ آخر هنا. اذهب بنفسك وتفقَّد كيف يعمل الآخرون. إنَّهم بالكاد يكشطون سطح الأرض. إنَّني مستعدٌ أيضًا لمراهنتك على كلِّ مال الأرض أنَّهم لم يتركوا لي ماءً ساخنًا كي أغسل يديّ". أبقى صوتَهُ خفيضًا.

"هل رأيت ويل؟".

"إنَّه في خليج إليزابيث".

"في خليج إليزابيث؟". كانت المدينة المهجورة أصغر من كولمانسكوب وتقع ضمن المنطقة المحظورة؛ عند الحافَّة البعيدة للامكان. يستغرق الوصول إليها برًّا نصف يوم. "ماذا يفعل هُنالك بحقِّ الجحيم؟".

هزَّ كيانو كتفيه. "لدى ويل الكثير من الخطط الرائعة".

نقل فريدي الطماطم داخل البيت البلاستيكيّ من جهةٍ إلى أخرى. لم أستطع تحمُّل تصويره في الداخل لأكثر من بضع دقائق قبل أن أضطرَّ إلى العودة عبر الباب الخشبيّ لأقف في النسيم. شعرتُ بالغثيان من جرَّاء الرائحة الكريهة التي تملأ المكان منبعثةً من نباتاتٍ متعفِّنة.

نجحتُ في لفت انتباه فريدي من وراء البلاستيك، وإغرائه بالخروج.

"هذه النباتات فاسدة"، قلت.

"ماذا تقصد؟".

"ماذا أقصد؟ ألا تشمُّ رائحتها؟ ثمَّ خطبٌ ما. إنَّ لها رائحة سمادٍ عضويّ. هل تحقَّقت من شبكة الريّ؟".

تلعثمَ محاولًا الإتيان بإجابة.

"أنا لا ألومك"، قُلت. "ليس هذا خطأك، يا فريدي، ولا أتوَّقعُ منك معرفة ما يحدث، لكن ينبغي أن يتفحَّص شخصٌ ما هذه الطماطم على الفور وإلَّا فإنّكم ستخسرون محصولكم كاملًا".

"ربَّما بإمكان ويل أن يلقي نظرةً عليها حين عودته".

"هل سيعود اليوم؟".

لم يكن فريدي متأكّدًا. "دعنا نؤجّل المسألة حتَّى يومٍ آخر".

كان دافعه جليًّا لا ليس فيه: ستسعى أماندا إلى إلقاء اللوم على شخصٍ ما، وليس بمقدور فريدي تحمُّل أن يكون هذا الشخص.

"لديَّ عملٌ يجب أن أنجِزه"، قال.

بخلاف فريدي في البيت البلاستيكيّ، كان المكان مهجورًا. بثَّت مكبّرات صوتٍ قديمةٌ اللحن نفسه الذي سمعتُه من قبل في أثناء الحفل الذي أقامه ويل لتقديم الشكر. لم أر أيَّ شخصٍ يعمل في الخارج، وتساءلت عمَّا إذا كان فريدي يهتمُّ بالخضراوات فقط لأنَّني كنتُ أتابعه طوال الوقت. قرَّبتُ الصورة من الألواح الشمسيَّة لأتأكَّد ممَّا إذا كان أعضاء المجموعة الذين التقيتُ بهم عند الغداء قد نظَّفوها، بيد أنَّها كانت لا تزال على حالها. أين كانوا يختبئون يا ترى؟

مضَت ستُّ ساعاتٍ مذ وصلتُ إلى هارموني، لم أخرج منها إلَّا بقرابة عشر دقائق من اللقطات المصوَّرة التي تصلُح للعمل. لو أتيحَ إليَّ تصويرُ المحادثة التي دارَت وقت الغداء، لتضاعف تلك المدَّة أربع مرَّات.

كانت هناك إشارةٌ تكفي لأتحقَّق من هاتفي. بالإضافة إلى رسالةٍ

صوتيَّة من مساعِدة تشزلي تطلبُ فيها أن أتَّصل بها، وجدتُ رسالةً من رقمٍ لا أعرفه. فتحتُ الرسالة؛ كانت من كوينتي، يخبرني فيها أنَّه وصل إلى هارموني ورأى شاحنتي الصغيرة.

اتَّصلتُ بالمساعِدة أوَّلًا، ودار بيننا حديثٌ مقتضبٌ وفي صلب الموضوع، ثمَّ اتَّصلتُ بياغو.

"سأزورك في غضون أيَّامٍ قليلة"، قلت. "سألتقي بابن خالتي إمَّا في يوم الجمعة، أو الاثنين. الاثنين على أكثر تقدير".

"أتعني أنَّني لن نلتقي في عطلة نهاية الأسبوع؟".

"على الأرجح لا. بل في مطلع الأسبوع. سأنطلق فور انتهاء اجتماعي معه، أعدُك. إنَّني أتحرَّق شوقًا للقياك".

"اطرده".

ابتسمت. "أليس كذلك؟".

"أنا جادٌّ فيما أقول، يا هنري. اترك العمل معه نهائيًّا. لا مُبرِّر للعمل معه إذا كان يعاملك على هذا النحو. أنا مشتاق إليك".

"وأنا مشتاق إليك أيضًا، يا ياغو. في جعبتي الكثير لأخبرك بك. سألتني شقيقتي قبل أيَّامٍ عمَّا إذا كنت راغبًا ببيع المنزل".

"حقًّا؟ وما كان ردُّك؟".

"قلت لها إنَّني أفكِّر في الأمر".

"لا تتعجَّل".

"هذا بالضبط ما أخبرتها به؛ أنَّني لست مستعجلًا للبيع".

"جيِّد. لن تترك العمل مع ابن خالتك المحامي، صحيح؟".

"لا أستطيع. سأحدِّثك عن الوضع أكثر في ويندهوك".

"هل أنت بحاجة ماسَّةٍ إلى المال؟"

"هذا عملي".

اهتزَّ هاتفي معلنًا وصول رسالةٍ جديدة.

"إذًا، في حال التقيتُ بهذا الرجل في يوم الجمعة"، قال ياغو مستوضحًا، "فذلك يعني أنَّه يمكننا قضاء عطلة نهاية الأسبوع معًا".

"أجل، آمل ذلك. لكن لا أستطيع أن أعدك بشيء. على أيِّ حال، سنكون معًا في الأسبوع المقبل بكلِّ تأكيد". لم تكن فكرة السفر لمدَّة تسع ساعاتٍ في شاحنتي الصغيرة، عقب استغناء تشزلي عن خدماتي، مليئة بالبهجة مثلما توقَّعت، لكنَّني سأوجِّل التفكير في هذه المسألة إلى وقتٍ لاحق.

"سأخطِّطُ لقضاء وقتٍ مميَّز"، قال ياغو.

"هذا يبدو لطيفًا".

"أجل. دعني أجد لنا شيئًا نفعله. سأتحدَّث إلى صديقي، وأعاود الاتِّصال بك لاحقًا".

قلتُ لياغو إنَّني أحبُّه، وكرَّر كلماتي نفسها.

كان كوينتي قد أرسل رسالةً أخرى يسألني فيها عمَّا إذا كان ممكنًا أن نلتقي عند المرافق الجديدة في هارموني. استغللتُ فرصة انشغال فريدي بالطماطم العفنة وابتعدتُ عن الرجل المحاصَر المسكين. كان في نيَّتي أن أغيب لبضع دقائق فحسب، لذا لم أُرِد مقاطعته.

وجدتُ كوينتي يغرز في الأرض أوتادًا معدنيَّةً باستخدام مطرقة،

على بعد أمتار قليلةٍ من الخندق الذي يحفره سيكستن، بغية تحديد التوسعة الجديدة.

"إذا لم أفعل هذا"، قال كوينتي حين رآني، "فسيواصلون الحفر في المكان الخطأ. ظننتُ أنَّك قد ترغب بتصوير هذا. ينبغي أن تعنون فيلمك بـ سَراب".

"فكرةٌ مناسبة. أو صداعٌ نصفيّ".

"رجلٌ واهِم".

"أو ما رأيُك بعنوان ضربة شمس، مع علامة تعجُّب؟".

ظلَّ كوينتي يكتم ضحكته في أثناء محاولته ربط خيطٍ عند أبعد نقطة ممكنة. نجح في نهاية المطاف بلفّ جديلةٍ من الخيوط حول كلّ الأوتاد المعدنيَّة ليصنع قطعةً بحجم التوسعة الجديدة في أحجية هارموني. كانت بعيدةً جدًّا عن الخندق المحفور مُسبقًا في الأرض.

"أترى عمَّ أتحدَّث؟"، قال وهو ينهض ليبسط ظهره. "تكمن المشكلة في أنَّ أماندا تظلُّ تُعدِّل تعديلات ويل. ومن ثمَّ يأتي هذا بدوره ويفعل الشيء نفسه بتعديلاتها. إنَّ هذه الحال تثير جنوني. يبدو أنَّ لا أحد في هذا المكان يدري ما يفعل".

"ألهذا تريد نسف كلّ شيءٍ عن بكرة أبيه؟"، سألت. "بدافعٍ من إحباط".

لم يفهم ما كنت أرمي إليه في بداية الأمر. "نسف؟ أها! تقصدُ متفجّراتي. لا، سأتركها في حالة انتظارٍ إلى أن يتسنَّى لي القليل من وقت الفراغ. أنا بحاجةٍ إلى إصلاح عوَّامتي قبل العودة إلى إزعاج النوارس مرَّة أخرى".

أخبرني عن عمله في الخليج قبل أن يقول: "أعتقدُ أنَّه حان الوقت الذي أشعر فيه بإغراء أن أسألك عمَّا إذا كنت ترغب بالمجيء إلى منزلي لتناول الجعة، بيد أنَّنا لن نحظى سوى بالجعة هذه المرَّة- إذا كنت تفهم مقصدي- لأنَّني وزوجي نحاول إعادة الأمور إلى مسارها".

"وكنتُ سأجيبكُ بنعم، عادةً، لكن عليَّ الآن أن أعود إلى فريدي العجوز المسكين في البيت البلاستيكيّ، وهذا لا يعني أنَّني أرغب بذلك". شعرتُ بأنَّ هذه اللحظة مناسبةٌ أكثر من أيِّ وقتٍ آخر لأخبر كوينتي عن ياغو. "بالمناسبة، لقد تعرَّفت على شخصٍ مميَّز".

"هذا رائع! أنا مسرور جدًّا لسماع هذا، يا هنري. أشعر بالسعادة لأجلك. هل يقيم في ويندهوك؟".

"أجل. إنَّه ألمانيٌّ ويقيم هناك".

"إنَّه بقعةٌ جميلةٌ على مستوى العالم. علمتُ من ويل أنَّك تقض الكثير من الوقت هناك مؤخَّرًا. أنت تُحضِّر لفيلم وثائقيٍّ جديد، أليس كذلك؟".

"تنتقلُ الأخبار سريعًا هُنا". شعرتُ بحاجةٍ إلى ائتمانه على سرّي. "في الحقيقة، أنا هناك لإجراء المقابلات".

"مقابلات؟ حسبتُ أنَّ ويل ذكر شيئًا عن لوحات البوشمِن".

على الرغم من أنَّني بالكاد أعرف كوينتي لكنَّني شعرتُ بأنَّه صار مُقرَّبًا، ولا سيما بعد لقائنا الغراميّ، بما يكفي لأعتقد أنَّه سيحتفظُ بأيِّ شيءٍ أخبره به لنفسه. إذا قرَّرت البقاء في لودريتز، فسيكون واحدًا من القلائل هُنا الذين يمكنني أن أتخيَّل التواصل

معهم. شرحتُ له عن معسكرات الاعتقال الألمانيَّة وعملي مع تشزلي بقدر ما استطعت. شعرتُ برغبةٍ بإخباره عن شهادة أوما غيندريدي بيد أنَّني قرَّرتُ في اللحظة الأخيرة ألَّا أفعلا ذلك. شعرتُ بأنَّ الحديث فيها أشبه بتدنيس المقدَّسات. منحتني هذه المصارحة شيئًا يشبه الراحة، لكنَّها لم ترفع الثقل عن كاهلي.

"يا إلهي!"، قال بعد أن انتهيت.

"لكنَّني عالقٌ هُنا هذا الأسبوع في انتظار عودة تشزلي وليس لديَّ ما أفعله. ذهني مشتَّتٌ جدًّا لدرجة أنَّني لا أستطيع التركيز على وثائقيِّ السجون".

"لكن من الواضح أنَّك تفعل شيئًا مهمًّا هنا، صحيح؟".

"ومع ذلك، أشعرُ أنَّني أضيِّع وقتي"، قلتُ بإقرار. "أفترضُ أنَّ هناك حول لودريتز بعض المقابر التي في نيَّتي زيارتها".

"عليك فعل ذلك".

"المسألة مُعقَّدة. أظنُّ أنَّني على وشك أن أُطرَد".

"تُطرَد؟ لماذا تقول هذا؟".

"بخلاف استثناءٍ واحد فقط، فإنَّ المقابلات التي أجريتها لا تنطوي على الذكريات التي كان المحامون يتوقَّعون الحصول عليها. لقد وقعت الإبادة الجماعيَّة منذ زمنٍ بعيد. عمومًا، أحاول تدبُّر الأمر قدر المستطاع، لكنَّه معقَّدٌ للغاية بحيث ليس بمقدوري أن أشرحه".

"هل هناك أيُّ شيءٍ بإمكاني فعله لمساعدتك؟".

"أنت؟ شكرًا لك، لكن أعتقدُ أنَّ القرار قد اتُّخذ بالفعل".

ابتسَم. "أعرف أشخاصًا قادرين على كسر العظام".

"أتقصد كيانو؟".

"المعذرة، لم أقصد الاستخفاف بمحنتك. أنا آسف حقًّا لسماع أنَّ أمورك لا تسير على ما يرام، يا هنري. أنت تستحقُّ ما هو أفضل من ذلك. وإن كان في هذا أيُّ تعزية، فسيكون لديك المزيد من الوقت لتخصِّصه لأجل هذا الهراء الذي يدعى هارموني. مُرحَّبٌ بك أيضًا لإجراء مقابلةٍ معي للحديث عن عملي. حاول فقط أن تترفَّق بي".

"أجل، بالطبع. كلُّ ما يجري جعلني أشعر بالضياع إلى حدٍّ ما".

"هذا مفهوم".

"أنا جادّ. يعتريني قلقٌ بصدد أنَّني أبدِّدُ أيَّامي بلا جدوى".

"فافعلَ شيئًا ما حيال ذلك إذًا".

فاجأني ردُّه. "ماذا تعني؟"، سألت.

"من المؤكَّد أن ثمَّة شيئًا قيِّمًا بمقدورك فعله".

"لا أدري".

"فكِّـر. ماذا عن تلك المقابر؟ لِم لا تحسم أمرك وتذهب لتصويرها؟".

مع انعكاس شمس الظهيرة على الأرض الصلبة، بدا فريدي حينما ركض باتِّجاهي وكأنَّه يعبر حوض مياهٍ متلألئة. لحِق بي وكان شديد الاهتياج بشأن معرفة أين كنت. لقد فرغ من تنظيف الألواح الشمسيَّة، وتبييض الحجارة كلِّها حول ميدان الرماية. حسِبتُ أنَّني ابتعدتُ قرابة عشر دقائق، لكنَّني في الواقع كنت أتحدَّث مع كوينتي قرابة ساعة.

لم يجلس فريدي مع الأعضاء المؤسِّسين في هارموني لتناول العشاء الذي بدا من رائحته أنَّه كان عبارةً عن دجاجٍ مشويٍّ،

لكنَّه بدلًا من ذلك انضمَّ بعجالةٍ إلى سائر المتطوِّعين على أرض الموكب. كانوا قد اصطفُّوا جميعهم في طابور منتظرين ملاحظات أماندا بصدد أدائهم لليوم. عندما رأت فريدي، أعلنت أنَّه لم يُحقِّق هدفه اليوميَّ ولذا سيتعيَّن عليه العمل لنوبةٍ إضافيَّةٍ في يوم الأحد. لم يعترض أيٌّ من المتطوِّعين، بما في ذلك فريدي. أصدرَت أماندا تعليماتها بنبرةٍ صارمة، لذا لم يكن مفاجئًا أنَّ فريدي لم يُحبِّذ أن يتحدَّث إليها بشأن الطماطم.

كان في نيَّتي التحدُّث إليها بعد أن تفرغ من جلسة التشريح تلك. علمَتْ أنَّني شتَّتُّ انتباه فريدي، وبدا أنَّها ستجعلني ضالعًا في عقوبته.

"سأعيد الأمور إلى نصابها مع أماندا"، وعدتُ فريدي بمجرَّد أن تتاح لي فرصة الحديث إليها.

"لا، لا"، قال مُتوسِّلًا، "لا تفعل ذلك". لقد استقبل بكلِّ سرورٍ نبأ أنَّه سيعمل لنوبةٍ إضافيَّة، لكنَّه يناشدني لئلَّا أثير أيَّ ضجَّة.

"لكنَّ هذا ليس مُنصِفًا".

"نحنُ لا نشكِّكُ فيما نتلقَّى من ملاحظات". "لا نفعل ذلك أبدًا".

أصرَّ عليَّ حتَّى وعدته بألَّا أتدخَّل، ولم يمض لإحضار مكنسةٍ لتنظيف أرض الموكب إلَّا بعد أن أكَّدتُ له أنَّني سأبقي فمي مُغلقًا.

كانت الشمس على وشك الغروب، وكاميرتي في حقيبتي لأنَّني سئمت اليوم من هارموني وكنتُ أفضِّل مغادرة المكان. بيد أنَّ فريدي ظلَّ يكنس الغبار بصورةٍ منهجيَّةٍ كما لو أنَّني لا أزال أصوِّره.

سألتُه: "ألا ينبغي أن تذهب لتناول العشاء قبل أن ينتهي الطعام كلُّه؟". هزَّ رأسه وتذكَّرتُ ما قيل لي في وقتٍ سابق: إنَّ وجبة العشاء غير مخصَّصةٍ للمتطوِّعين.

لم أستطع التخلِّي عن فريدي، ليس بعد أن جلبتُ النحس إلى يومه، لذا عرضتُ عليه أن أوصله إلى المدينة. في شاحنتي الصغيرة، حدَّثني عن الغرفة التي استأجرها على الجانب الآخر من لودريتز بالقرب من مصنع معالجة المحار، في مكانٍ بعيد جدًّا عن منزل السيِّدة أركيبيلاجو، لكن على مقربةٍ من المنزل القديم لوالديَّ، في منطقةٍ كنتُ أفضِّلُ ألَّا أزورها.

وضعتُ في الحسبان أن أراجع مقابلة دولار في تلك الليلة، لكنَّني كنتُ مرهَقًا وشعرتُ بإضاءة شاشة حاسوبي المحمول تؤلم عينيّ. ولأكون صادقًا، أعتقدُ أنَّني بذلت قصارى جهدي في مقابلة خرِّيج السجون ذاك في الوقت الحالي. لذا سخّنت مقدار كوبٍ من الحليب في قدر، وقلَّبتُه بعد أن أضفتُ إليه ملعقةً كبيرةً من العسل مثلما اعتادَت عمَّتي أن تفعل قبل النوم. حينما بدأ المزيج يغلي، صببتُ فيه أنصاف الدرَّاق المحفوظة مسبقًا والتي ظلَّلت طوال الليل في وعاءٍ معدنيٍّ خارج الثلَّاجة. بثَّ المذياع أخبارًا بصدد المسؤولين عن الانفجار الذي وقع في باريس. ثبت بالأدلَّة أنَّهم ينتمون إلى جماعةٍ يمينيَّة، لكنَّني كنتُ نصف مُصغٍ وفاتَني سماعُ اسم المنظَّمة التي يتبعون إليها.

حملتُ بطَّانيَّة عمَّتي، المصنوعة فرو أغنام الكاراكول، وخرجتُ بها إلى الشرفة المغلقة. أزاح النسيمُ الغيومَ عن سماء الليل، وانعكس البدر على أسطح المنازل كلِّها وصولًا إلى الميناء.

شربتُ شرابي عن آخره. استعصَت البلاطاتُ غير منتظمة الشكل في أرضيَّة الشرفة أمام محاولاتي تصحيحها في نمطٍ ثابت، على الرغم من أنَّني حاولتُ جاهدًا، وتحوَّلت أفكاري إلى أوما غيندريدي. لم يكن هناك ما يدلُّ أن تشزلي قد يكتشف أنَّني عرضتُ مقابلتها أمام الأشخاص الذين قابلتهم مؤخَّرًا، لكنَّني مع ذلك راجعتُ كلَّ المقابلات مرَّةً ثانيةً قبل إرسالها إليه للتأكُّد من عدم وجد أيِّ تداخلاتٍ واضحة. بالإضافة إلى ما سبق، استغرق وثائقيّ السجون وقتًا أكثر من اللازم، وكنتُ بحاجةٍ إلى دفع نفسي إلى إكماله حتَّى يتسنَّى لي الاشتراك في المسابقات والتأكُّد إذا ما كان الأمر يستحقُّ وقتي وجهدي. ربَّما يكون في وسع صديقة ويل التي تعمل في مهرجان شيفيلد أن تساعدني، هذا في حال أنَّ ويل اتَّصل بها حقًّا.

فاحَت من الدرَّاق البارد رائحةٌ أشبه برائحة البازلاء الحلوة؛ سقطَت قطراتٌ من عصيرِ الفاكهة المجمَّد على ذقني في أثناء ما أكلتها.

غسلتُ فمي بماءٍ من حوض المطبخ وكذلك رقبتي. جفَّفتُ شفتيَّ اللتين ما زال مذاقهما حلوًا بقماشة تجفيف الصحون لأنَّ روبرتين لم تكن هناك لتتذمَّر بخصوص استخدامي لتلك القماشة وكأنَّها منشفة.

كان كوينتي محقًّا: الاستغراق في التفكير على هذا النحو الكئيب لم يكن مفيدًا. عليَّ أن أفعل شيئًا ما. عدتُ إلى الشرفة واتَّصلتُ به.

"أريدُ العثور على تلك القبور"، قلتُ ما إن أجاب. "هل

مكتبة ياسمين

تستطيع مساعدتي؟".

"بالطبع".

"في الغد؟ أم تعتقد أن الوقت مبكّر؟".

"لا، لا بأس. متى؟".

"صباحًا".

"أتقصد بُعيد ساعاتٍ قليلة؟".

ألقيتُ نظرةً خاطفةً إلى ساعتي: كانت قرابة العاشرة ليلًا. "أجل، على الأرجح. أشكُّ بأنّني سأنام الليلة. لديَّ ما يكفي من العمل لإبقائي مشغولًا لبضع ساعات، في حال تمكّنت من الحفاظ على تركيزي؛ سأنجزه وأتّصل بك لاحقًا. لن تمانع إن أيقظتُك، صحيح؟".

"اتّصل بي حين تكون جاهزًا وسآتي لأقلّك".

كنت قد مضيتُ قدمًا في العمل على مقابلة دولار حينما اتّصل ياغو بي.

"أرى أنّك لا تزال مستيقظًا".

"إنّني أعمل، وأتأمّل المدينة".

"هل هي جميلة؟".

"أجل، هذا المساء. ضوء القمر يلمع كالثلج على الأسطح".

"ما رأيكُ بأن ترافقني في زيارةٍ إلى محميّة صيد؟ تعال وابق معي في ويندهوك طوال الأسبوع المقبل، وبعدها يمكننا الذهاب إلى المحميّة خلال عطلة نهاية ذلك الأسبوع".

غاب عن ذهني ما دار بيننا خلال مكالمتنا السابقة عندما

كنتُ في هارموني، لكنَّ الإدراكُ المفاجئ بأنَّني قد ألزمتُ نفسي بالقيادة إلى ويندهوك أعاد إليَّ الشعور بالغثيان من جرَّاء البيت البلاستيكيّ. تصنَّعت بعض الابتهاج، وقلت: "يبدو ذلك لطيفًا".

"ما الأمر؟"، سأل.

زفرْت. "لا شيء. في الحقيقة، أنا آسف، لكنَّني غير متأكّد من أنَّني سأكون قادرًا على قيادة شاحنتي لمدَّة تسع ساعاتٍ في يوم الجمعة".

"ماذا تقصد؟".

"أعتقدُ أنَّني مُرهَق جدًّا. كما أنَّني لا أعرف أيضًا إذا ما كان لديَّ المزيد من العمل في ويندهوك".

"أوه..."

شعرتُ بالقلق من أنَّه قد ينهي المكالمة، فقلت: "هل ما زلت على الخطّ؟".

"لقد قُدتَ سيَّارتك أكثر من اللازم في الآونة الأخيرة"، قال. "بمقدوري أن أسمع ذلك في صوتك".

كنتُ أتصرَّفُ مثل طفل. "أو تدري؟ أنا آتٍ إليك. ونعم؛ زيارة محميَّة الصيد تبدو رائعة. أريدُ حقًّا أن أراك، وليس لديَّ أيُّ شيءٍ لأفعله هنا في لودريتز".

"بإمكانك الطيران وقتما تشاء".

"المعذرة؟".

"لديَّ بعض الأميال الجوِّيَّة. أستطيع أن أحجزَ لك تذكرةً ليوم الأحد".

"يا إلهي! هل أنت متأكّد، يا ياغو؟".

"وما المانع؟".

"يا إلهي! هذا مذهل. لا أدري ماذا أقول لك. أنا لم أسافر بالطائرة من قبل".

"أحقًّا تتكلَّم؟ فإذًا لا بدَّ لي من فعل ذلك".

—

سألتُ دولار عن المفتاح على ذراعه لتحديد أهميَّته وما إذا كان علامةً من علامات العصابة الثامنة والعشرين.

قال: "كي يفتح البوَّابة".

"لمنزلك؟".

هزَّ رأسه، وأجاب: "بل للخروج من السجن. والعودة إلى سويتو".

"وماذا عن تلك؟".

تلمَّسَ الندبات البارزة على معصميه لكنَّه لم يُجب.

"متى فعلت ذلك؟"، قلتُ بإصرار.

هزَّ رأسه.

"هل فعلها شخصٌ آخر بك؟"، سألت.

"لا". ما كان ليسمحَ لأحدٍ بفعل ذلك.

"لماذا فعلتها؟"، سألت.

لم ينبس ببنت شفة.

لجأتُ إلى خطَّةٍ أخرى، فسألته عن الكلمات التي لطَّخَت رقبته لكنَّه بالكاد هزَّ كتفيه من دون مبالاة. ظهرَت يدي في الشاشة

عندما أعطيته المرآة الصغيرة التي أبقيها داخل حقيبة كاميرتي كي يتمكَّن من إلقاء نظرةٍ مناسبةٍ على العلامات. ألقى نظرةً خاطفةً على انعكاسه بيد أنَّه أجاب بغموض، ممَّا عنى أن الوشم كان مهمًّا لكنَّه لم يشأ الحديث عنه، أو كان إلهاءً لا معنى له سوى تبديد بضع ساعاتٍ من السجن.

"أنا زعيمُ نفسي"، قال أخيرًا، قبل أن يرفع معصميه باتِّجاهي، قائلًا: "أنا من اتَّخذ هذا القرار".

"ألم تشعر بالخوف؟".

"الخوف؟ هذا"- وصفعَ بيديه على صدره- "لي. كلُّه لي".

"لكنَّك قويّ. ولديك مركزٌ ممتازٌ ضمن العصابة".

"إذا قرَّروا أخذ ما هو أكثر من اللازم، فسآخذه قبلهم. وسأعيد الكرَّة مرَّةً أخرى".

"كلَّا". كان ردِّي هذا جديدًا بالنسبة إليه.

"ماذا؟"، قال.

"لن تفعلها".

"ماذا؟".

"يجب ألَّا تفعل ذلك أبدًا. إنَّ بعض الناس يهتمُّون. هذا فعلٌ أنانيّ. أيًّا كان السبب، فإنَّ هذا الفعل من أشدِّ ما يمكن فعله شرًّا".

أطبقتُ فمي لأنَّ كلماتي كانت تثير قدرًا كبيرًا من الفضول.

كان العثور على تفاصيل تتعلّق بقبور هيريرو في لودريتز سهلًا عبر الإنترنت، بيد أنَّ اهتمامي كان محصورًا أكثر بموقع دفنٍ مُعيَّنٍ قرأتُ عنه مصادفةً في الكتاب الذي ضمَّ صورًا لجزيرة القرش بالإضافة إلى صورة الصبيّ الذي كان يرتدي كيس خيش. يقع القبر داخل المنطقة المحظورة، وهذا ما أفضى بي إلى الجلوس على قمَّة كثيبٍ رمليٍّ مع أنَّني لم أتقدَّم بطلبٍ للحصول على تصريـح. امتدَّ محيطٌ رمليٌّ من الكثبان الهلاليَّة في الاتِّجاهات جميعها وصولًا إلى الأفق. في البعيد، أضاءت شعلة كوينتي طريقه عبر الكثبان عائدًا إلى B4. إذا ألقت السلطاتُ القبض عليَّ في هذا المكان، فسأتذَّرع بالجهل.

كان الطريق السريـع يقع إلى شمالي آنذاك- هناك حيثُ تصدر الحفَّارات صوتًا أشبه بنحيب مكتومٍ في أثناء مسحها للطريق- لكن كانت وجهتي غربًا، في الاتِّجاه نفسه الذي يفضي إلى المحيط الأطلسيّ؛ المحيط غير المرئيّ. من شأن أيّ قرارٍ خاطئٍ أن ينتهي بي بعيدًا في صحراء ناميب، لذا حرصتُ على إيجاد أشدّ المساحات السماويَّة سطوعًا قبل انطلاقي. كان الشفق يهدِّدُ العتم ورائي، لذا تبعتُ الطريق في الاتِّجاه المعاكس. كان ذلك الشيء الوحيد الذي وجب عليَّ أن أتيقَّن منه. كان الغرب جيِّدًا؛ كان الغرب جيِّدًا على الدوام؛ من شأنه أن يقودني إلى كوينتي الذي ينتظرني في كولمانسكوب، وكذلك إلى القبر الذي يقع في المسافة ما بيننا.

قدتُ شاحنتي لمدَّة ساعة، والرمل المتقلّب يتراقص من موضعٍ إلى آخر أمام أضواء مصابيحها، وشاهدتُ الصخور الحادَّة، والعقارب والحيَّات والعظام، على امتداد تلك الأرض التعيسة.

مكتبة ياسمين

بزغت الشمس في إشراقتها الأوَّلى، لكن سرعان ما غابت مرَّة أخرى مع هبوطي في وادٍ رمليٍّ عميقٍ حيثُ تجمَّع الضباب حول الحجارة الصغيرة مثل محيطٍ مائجٍ مُثقَل بالجليد. أشرقت مرَّة أخرى ورائي بعد أن تجاوزتُ المنحدر التالي. دفَّأ الأفق الورديُّ الرمال، ومسحَت الرياح آثار قدميَّ.

تفرَّقت السحب العالية لكن ظلَّ الضباب في مكانه. عتَّم ظلِّي سبيلي في أثناء تضرُّعي إلى الصحراء، طالبًا منها أن تكشف نفسها إليّ.

ازداد انحدار الكثبان الرمليَّة حدَّة حتَّى صار صعبًا عليَّ صعودها على قدميّ، لذا كان عليَّ أن أتحسَّس طريقي إلى الأعلى بأطرافي الأربعة. نزلتُ إلى كلّ غور، وظللتُ أبحث، مشتَّتًا بعض الشيء بسبب الوهج، إلى أن لمحتُ كولمانسكوب في الضباب قبل أن تتاح لي فرصة العثور على القبر.

بخلاف ما أعتقدُ بصوابه، اتَّجهت بعيدًا عن مدينة الأشباح، وبعيدًا عن كوينتي الذي كان ينتظرني. كان الهواء المثقَل بالرمل يُعذِّب عينيَّ بغبار العقيق في طريقي جنوبًا. شاهدتُ بقعَ غبارٍ صغيرةً تتراقص وتطفو أمامي مع كلّ خطوة.

في نهاية المطاف، توقَّفتُ في ظلّ كثيبٍ رمليٍّ عملاقٍ على شكل نجمٍ، لالتقاط أنفاسي وشربِ ما تبقَّى لديَّ من ماء. لكن ما لبثت الشمس أن عثرت على مخبأي، ممَّا عنى أن وقت العودة إلى كوينتي قد حان.

أزعجَ شكلٌ ما الضباب أمامي. ظهرَ في الهواء الخفيف حصانٌ

يفرك أنفه في الأرض على مقربةٍ من مدخل كولمانسكوب.

تردَّدتُ في الاقتراب خشية أن أرعبه. لم أجرؤ على إصدار أيِّ صوت.

رفع الفحل رأسه وهزَّ جسمه حتَّى تموَّجت العضلاتُ أسفل رقبته. هدَّبت رموشٌ رطبةٌ عينيه الواسعتين. ومن دون إنذار، انطلق الحيوان عبر الضباب حتَّى لم يتبقَّ من أثره سوى دوَّاماتٍ صغيرةٍ تتبعه في أعقابه.

أيقظتُ حارس الأمن الذي دلَّني بيده نحو موقف سيَّاراتٍ حيثُ وجدتُ شاحنة كوينتي الصغيرة لكن من دون صاحبها الأستراليّ. كان الوقت مبكِّرًا جدًّا بالنسبة إلى الذهاب إلى الكازينو المقفل، لكنَّه مع ذلك كان متأخِّرًا جدًّا عمَّا اتَّفقت عليه مع كوينتي. كنت آملُ ألَّا يكون قد ذهب إلى هناك لمقابلتي.

لم يكن ثمَّة ما يمكن فعله بخلاف الاتِّصال بهاتفه في أثناء انتظاري في الظلّ. غطيَّت عينيَّ براحتَي يديَّ لأخفِّف عنهما الألم، إلى أن وصلَت حافلةٌ وأوقفت محرِّكها الهادر الحارَّ على بعد إنشاتٍ قليلةٍ من وجهي.

فُتح باب الحافلة وشرعت مرشدةٌ سياحيَّةٌ بعدِّ سيَّاحها الألمان المتحمِّسين. راهبتان تحملان كاميرتين تتدلَّيان فوق رداءيهما الأسودين مثل بندقيَّتي صيد، حجبَت كلٌّ منهما عينيها بيدها لإلقاء نظرةٍ تجاهي عن كثب. زوجٌ وزوجةٌ يتناوبان على إسكات طفليهما التوأم، احتميا إلى جانبي ورأسيهما إلى أسفل. شرحَت لهم المرشدة السياحيَّة أنَّه عقب اكتشاف الألمان للألماس في هذه البقعة من الصحراء، أُجبِرت صفوفٌ من الرجال "المحليِّين"

على الاستلقاء على بطونهم، وشُدَّت أقنعةٌ من القطن الموصليِّ على أفواههم لمنعهم من بلع الأحجار الكريمة، من أجل التقاط الألماس الخام من الرمال بواسطة ملاقط صغيرة. ثمَّ قالت لهم، بثقة من يتمتَّع بسلطة عظيمة، إنَّ كلَّ عاملٍ كان يجمع أربعمائة قيراطٍ من أحجار الألماس الصغيرة في اليوم الواحد.

"أربعة قيراطات؟"، سأل الرجل بجواري بالألمانيَّة مُستوضِحًا.

"كلَّا، أربعمائة قيراطٍ يجمعها كلُّ رجل". والمقدار نفسه في اليوم التالي، ومرَّة أخرى في اليوم الذي بعده. أثار ما قالَته إيماءاتِ إعجابٍ من المجموعة. لقد روَّض أجدادهم الألمان الشجعان هذه القطعة المقفرة من أفريقيا لينشئوا فيها مستعمرةً وفيرة الثروة.

ازداد شعوري بالضيق لأنَّ كوينتي لم يعد إلى شاحنته أو يجب على هاتفه حتَّى الآن. شعرتُ أنَّني ضيَّعته بصورةٍ أو أخرى، أو أنَّه غامر بدخول المنطقة المحظورة خلفي. اتَّجهتُ نحو مداخل المباني لألقي نظرةً عن كثب على غرفها الفارغة، لكن لم أجد له أيَّ أثر؛ والشيء نفسه ينطبق على الصفِّ الثاني من المباني، بعيدًا عن موقف السيَّارات، حيثُ المخبز والجزارة القديمة، ومصنع الثلج. إذا لم أعثر عليه، فسيكون عليَّ أن أعود أدراجي.

عانيت، بسبب الإنهاك، محاولًا الثبات على طريقي، وبالكاد ميَّزتُ المدينة. بدا كما لو أنَّ الكثبان الرمليَّة قد تحرَّكت من مكانها منذ زيارتي الأخيرة إذ لم يبقَ شيءٌ في المكان الذي كان فيه. أغرقَت القمم الرمليَّة المباني كلَّها التي عرفتُها، وانبثقت تكويناتٌ غير مألوفةٍ بدلًا منها؛ حتَّى الكازينو بدا بخلاف ما كان عليه.

ازدادت سرعة الرياح وأخذت الصحراء تتحرَّك، وأعادت المدينة ترتيب نفسها أمام ناظريَّ خلال محاولتي تحديد موقع موقف السيَّارات. لكن أصبح المستشفى المهجور الآن يسدُّ الطريق أمامي. كان الهواء غير المضطرب في داخله مُسكِّنًا مثل ماءٍ باردٍ على جلدي. في غرفة الاستقبال الأولى، وقعَت عيناي على هيكل سريرٍ معدنيٍّ ومبولةٍ فارغةٍ قبل أن ألمح كوينتي عبر النافذة.

حميتُ عينيَّ وخرجتُ مرَّةً أخرى متحدِّيًا الرياح الجنوبيَّة. ولأنَّني لم أكن مستعدًّا لصدمةٍ مفاجئةٍ من الرياح، فقد تعثَّرتُ على مقربةٍ من فقراتٍ عظميَّةٍ أحرقَتها الشمس حتَّى ابيضَّت. تحوَّلت العظام إلى هيكلٍ عظميٍّ لثعبانٍ قبل أن تنتهي بحبلٍ طويل، إلى أن عثر عليَّ كوينتي حاملًا كيسًا بلاستيكيًا عليه شعار أحد المحال التجاريَّة.

"يا إلهي، يا هنري!"، قال، وأعطاني زجاجة ماء. "ظننتُ أنَّني فقدتك".

"أنا آسف".

"لقد انتظرتُك بقدر استطاعتي، لكن عندما لم تأتِ ذهبتُ لأبحث عنك على الطريق السريع. أعتقدُ أنَّها لم تكن فكرةً جيدّة حقًّا. هل عثرت على أيِّ شيء؟".

"لا".

"عِدني أنَّك لن تُقدِم على هذا الفعل ثانية".

مررنا في موقف السيَّارات بجوار المرشدة السياحيَّة التي كانت تحاول تهدئة الراهبتين الألمانيَّتين اللتين كانتا تهذيان بإثارةٍ قائلتين: ليتمجَّد اسم الربِّ في السماوات؛ لقد التقطت الأختُ غيرترودا صورةً لفحل!

منعتُ نفسي عن الاتِّصال بمكتب تشزلي لتأكيد موعد اجتماعنا خشية تلقِّي أنباء سيِّئة، ووصل الأسبوع إلى نهايته من دون أن أسمع منه أو من مساعدته. في يوم الأحد، ذهبتُ- خائفًا إلى حدٍّ ما- إلى مطار لودريتز. جلستُ في الطيَّارة التي كانت على مدرج انطلاقها، وكان طاقم الرحلة مشغولين بإجراءات ما قبل الإقلاع، لكنَّني لم أشعر بأيِّ حماسةٍ أو توتُّرٍ بشأن الرحلة، وإنَّما بغصَّةٍ مباغتة. لم أستطع التخلُّص من ذلك الشعو بأنَّ في جعبة أوما غيندريدي المزيد لتخبرني به. قد تكون على دراية بهويَّة فتى هيريرو الصغير في تلك صورة من جزيرة القرش التي أبُقيها في محفظتي.

استأجرتُ سيَّارةً من مطار هوزيا كوتاكو الدوليّ في ويندهوك، وقدتها حتَّى منزل ياغو لأكتشفَ أنَّه قد جهَّز غرفة الضيوف لاستقبالي.

"سنشعر براحةٍ أكبر على هذا النحو"، قال.

شوى شريحتي لحمٍ في الفرن، وقطَّع لي شريحتي قبل تقديمها كما لو كنتُ طفلًا أو مريضًا. بدا وكأنَّ في سلوكه بعض الاستياء كما لو أنَّه ردٌّ على تصرُّفاتي البدائيَّة.

انتبهتُ إلى أنَّه يراقب أسلوب تناولي للطعام. وعندما مددتُ يدي إلى الملح للمرَّة الثانية، شعرتُ يقينًا بأنَّه يودُّ لو يخبرني ألَّا أُفسِد النكهة.

"اشتريتُ كعكةً بطبقاتٍ للتحلية"، قال في أثناء إزالته لأطباقنا. "أصرُّ عليك أن تتناولها مع كأسٍ من النبيذ المثلَّج".

كنتُ قد تذوَّقت كعكة الكرز في زيارتي الأخيرة، ولم أكن في

حالةٍ مزاجيَّةٍ تسمح لي بتحمُّل حموضتها، أو بتلقِّي التعليمات بصدد أفضل طريقةٍ لأكلها.

"لعلمك.. أعتقدُ أنَّني اكتفيتُ لهذه الليلة"، قلت، طالبًا العذر من أجل الرحيل. شكرتُه مرَّةً أخرى على تذكرة الطائرة.

"ألن تأكل من الكعكة؟ ما رأيك إذًا ببعض القهوة؟".

"لا، لن يكون بمقدوري النوم حينئذٍ".

"لا بأس. سأعدُّ لك القهوة في الصباح قبل ذهابي إلى العمل".

بينما كنت أنظِّف أسناني في جناح الضيوف الصغير، تساءلت في ذهني عن سبب تكبُّده عناء دعوتي إلى هنا. غمرني شعورٌ بالحبس دفعني إلى دفع باب الحمَّام كي أستطيع التنفُّس من جديد.

حرصتُ على ألَّا أصدر أيَّ ضوضاء في الصباح الباكر قبل انطلاقي. لم أفعل ذلك من باب الحرص على عدم إزعاجه، بل لأنَّني أردتُه أن يستيقظ ليجد أنَّني قد غادرتُ بالفعل. كانت حركةً طفوليَّةً منِّي، لكن إذا كان في نيَّته أن يعاملني كشخصٍ غير مُتحضِّر، فسأتصرَّفُ تبعًا لذلك.

تتبَّعتني شاحنة بضائع من دون توقُّفٍ وصولًا إلى الطريق السريع B1 المتَّجه نحو تسومِب. انعطف كلانا باتِّجاه أوتافي وشققنا طريقنا ببطءٍ في قافلةٍ من المركبات عبر غروتفونتين حتَّى توقَّفتُ على حافَّة الطريق بجوار اللافتة المستطيلة التي تحمل اسم المنطقة وتشير إلى المزرعة حيثُ كانت وجهتي، وسمحتُ للشاحنة بالعبور. تبِعَتها سيّارةٌ أخرى من طراز فورد زودياك من مسافةٍ قريبةٍ، وما إن خلا الطريق السريع من أيِّ مركباتٍ أخرى

حتَّى ضغطت دوَّاسة الوقود بأقصى ما أستطيع كي أعبر مسارَيه نحو الطريق الترابيَّة.

رنَّ هاتفي، وتفاجأتُ بأنَّ تشزلي قد سبق ياغو في الاتِّصال بي. أبطأتُ من سرعة السيَّارة لتناثر بعض الحصوات من تحت إطاراتها إلى أن ركنتُها تحت أقرب مكانٍ مُظَّلل. قد تكون هذه المحادثة صعبة.

"هل ستتأخَّر عن اجتماعنا؟"، سأل تشزلي. سمعتُ لصوته صدى خفيضًا.

"هل عدتَ إلى لودريتز؟"، سألتُه.

"أجل".

"ابقَ معي".

نقلتُ السيَّارة إلى جوار أجمةٍ من أشجار الشوكة الحلوة التي قُطِع نصفها بسبب حرائق البرِّيَّة، وأدرتُ عجلاتها باتِّجاه الطريق.

"كنتُ على وشك الاتِّصال بك"، قلتُ وأوقفت تشغيل المحرِّك. "لا أستطيع اللقاء بك هذا الأسبوع".

"انتظِر". تحدَّث إلى شخصٍ ما في مكتبه. "نحنُ الآن نسمعك من خلال مكبِّر الصوت، أنا وميتش دنكِر. أين أنت، يا هنري؟ نحنُ بانتظارك".

"هل قلتَ ميتش دنكر؟".

"مرحبًا، يا هنري"، قال المخرج البريطانيّ.

"أهلًا".

"كنتُ آمل أن ألتقي بك اليوم".

"أجل، أعتذر بشأن هذا الخلط. أنا على مقربةٍ من غروتفونتين".

"أين؟"، قال تشزلي.

"لم أكن متأكِّدًا من أنَّنا سنجتمع حقًّا".

"لكن ألم..."، قال قبل أن يختفي صوته لبرهةٍ ثمَّ يعود وهو يصرخ على مساعدته.

كرَّرتُ اسمه عدَّة مرَّاتٍ لألفت انتباهه. عندما عاد إلى المكالمة، قلتُ له: "لقد بعثت إليَّ رسالةً قبل ساعة، لكن كان الوقت قد تأخَّر جدًّا".

"لكنَّنا الآن في المكتب"، قال. "أنا وميتش دنكر. نحنُ ننتظرك".

"لقد أنجزتَ عملًا مدهشًا لصالح تشيز"، قال ميتش دنكر.

قال ابن خالتي مُقاطعًا: "كنتُ بحاجةٍ إلى عشر دقائق من وقتك فقط، يا هنري. لكن أعتقد أنَّه يتعيَّن علينا فعل ذلك عبر الهاتف".

حدَّقتُ في عشِّ طائر النسَّاج الاجتماعيِّ المتفخِّم الذي كان متدلِّيًا فوقي في أثناء انتظار أن يقرِّر تشزلي مصيري. أشواكُه السوداء الثخينة وكأنَّها أصابع دافعت عن الأغصان.

"لديَّ بعض الأخبار الحماسيَّة"، قال، "ولهذا السبب كنتُ أودُّ لو أنَّك تلتقي بميتش شخصيًّا. إنَّه أمر رائعٌ جدًّا. يريد ميتش تقديم المساعدة في تصوير المقابلات. لقد عرض شركائي عليه ما أنجزتَه، ويقول إنَّه متلهِّفٌ للمشاركة معنا".

"ماذا؟".

"عندما أطلعوني على عملك"، قال البريطانيُّ موضِحًا، "تأثَّرتُ بصدقٍ وتحرَّكت مشاعري. ولا يحدث إلَّا نادرًا أن أشاهد شيئًا

مكتبة ياسمين

وأشعر بأنَّني بحاجةٍ إلى أن أكون جزءًا منه".

"أنا... أنا لا أعرف ماذا أقول". ترجَّلتُ من السيَّارة الصغيرة المستأجرة لاستنشاق بعض الهواء النقيّ وتصفية ذهني.

"أجل، هذا رائعٌ حقًّا"، قال تشزلي. "سيبقى ميتش هُنا لبضعة أيَّام، ثمَّ سيعود إلى كيب..."

"هنالك بعض الأمور العالقة التي يجب أن أتعامل معها"، قال الرجل الآخر، "لكن ما رأيك بالذهاب معًا إلى ويندهوك خلال الشهر المقبل؟".

لم أستطع قول سوى "أجل".

"لكن أريدُ منك، يا هنري، وحتَّى ذلك الوقت، أن ترسل إليَّ كلَّ ما صوَّرتَه. سأشاهدها ثمَّ أفكِّر بما يمكننا فعله لاحقًا".

"سبق وأن أرسلتُ ما لديَّ إلى تشزلي"، قلت.

"أجل، لقد شاهدتُ ما لديه، لكن سيكون من المفيد إلقاء نظرةٍ على كلِّ شيء".

مكتبة ياسمين

"كلُّ شيء؟".

"أجل".

t.me/yasmeenbook

"حسنًا. سأرسلها إليك".

"جيِّد. هل بإمكانك إيصالها إليَّ في أثناء وجودي هنا مع تشزلي؟ لا أعتقد أنَّه ثمّة رحلات طيران حتَّى الأسبوع القادم، وليس لديَّ الكثير لأفعله في هذه المدينة. أتمنَّى لو كنتُ أعرف ركوب الأمواج".

"سأعود في الأسبوع القادم"، قلتُ متردِّدًا، "هل بإمكاني تسليمها

لك في ذلك الوقت؟"

"لِم لا ترسلها الآن؟"، قال تشزلي مُقاطِعًا.

"أنا.. آه.."

"لا بأس"، قال ميتش دنكر، "لنفعل ذلك في الأسبوع القادم".

"أمتأكّدٌ من ذلك؟"، سأله تشزلي.

"تمامًا".

"إذن اتَّفقنا".

"لديَّ بعض الأفكار"، قال ميتش دنكر. "ثغرة أو ثغرتين بحاجةٍ إلى معالجة. سنبقى على اتّصال، تمام؟".

"عظيم". ولأنَّهما كانا ينتظران منّي قول المزيد، أضفتُ بصوتٍ ضعيف: "مرحبًا بك في فريقنا".

جلستُ في السيَّارة لفترةٍ طويلة. لقد عقَّدَت الأخبار الواردة من تشزلي شؤوني هنا. أدرتُ محرّك السيَّارة، وحاولتُ استعجال دورانه بسرعةٍ أكبر من اللازم. غزلَت الإطارات قبل أن تتوقَّف في الغبار. هرعتُ بأسرع ما استطعتُ نحو كاميرتي التي انقذفَت أرضًا بجوار قدمي. أعدتُها بمأمن في حجري، وانطلقتُ مجدَّدًا.

كنتُ كلَّما ألقيتُ نظرةً خاطفةً إلى مرآة الرؤية الخلفيَّة ارتبكتُ بشأن ما قد أراه، لكن لم يظهر أنَّني كنتُ ملاحقًا من أحد. كانت المنطقة كثيرة التلال والطريقُ منحنٍ على نحوٍ غير متوقَّع، لذا كان عليَّ أن أركِّز انتباهي على كلّ منعطفٍ ومنحدرٍ في أثناء مغامرتي هذه إلى أعماق الأحراش، خشية الخروج عن المسار أو وقوع حادث. اتَّصل ياغو بي في خضمّ هذا كلّه، وتركتُ اتّصاله يذهب إلى البريد الصوتيّ.

أخيرًا، تغيَّر اتِّجاه الطريق فجأةً ليلتفَّ حول تلَّةٍ ضخمةٍ مغطَّاةٍ بصخور الدولريت. رافقَني سياجٌ شائكٌ حتَّى قمَّة التلَّة التالية حيثُ وجدتُ بوَّابة دخول الماشية التي كنت أبحثُ عنها. فاجأتُ نفسي إذ تذكَّرتُ كيفيَّة الوصول إلى بيت مزرعة فالدكابّل. خرجَت خادمةٌ ترتدي زيًّا أبيض اللون لتستطلع من أكون في أثناء سيري في الطريق الأماميّ مرورًا بشجيرات الورد. قلتُ لها إنَّني جئتُ لزيارة زكريًّا وأوما غيندريدي، فأشارت بيدها بصورةٍ غامضةٍ إلى الاتِّجاه الذي يجب أن أمضي فيه، وسرعان ما صفعت الباب الشبكيَّ بقوَّةٍ قبل أن يتسنَّى لي أن أشكرها.

كانت مُسيَّجة زكريًّا فارغة تمامًا. لم ألمح أيًّا من كلابه، ولم يكن لديَّ ما أفعله سوى الانتظار.

بدا أنَّ غداء شرائح اللحم البقريّ وكعكة الكرز من ثلَّاجة ياغو لم تناسب معدتي، لذا فككتُ الزرَّ العلويَّ لبنطالي من أجل بعض الراحة. تعرَّقتُ بسبب كلٍّ من ذلك الطعام الفاخر وحرارة الظهيرة، ومع أنَّ النوافذ جميعها مفتوحةٌ لكنَّ كنت أشعر بضيقٍ في رئتيَّ.

اتَّصل ياغو بي مرَّةً ثانية، ولم أردَّ عليه.

كنتُ نصف نائمٍ عندما أدركتُ وجود شخصين، وبرفقتهما مجموعةٌ من الكلاب النابحة، يتَّجهان نحوي على الطريق الترابيَّة. وصلَت أوَّلًا امرأةٌ لم أرها من قبل- وأخذت تكرّر بالأفريقانيَّة "يا سيّد! يا سيّد فان فيك!"- وتبعها رجل.

"أين الأموال الألمانيَّة؟"، قالَت، ضاربةً الزجاج الأماميَّ للسيَّارة حتَّى تركت راحة يدها أثرًا عليه. طلبتُ منها أن تهدأ، وأقفلتُ

الباب. ركضت الكلاب حول سيّارتي، بل وقفز أحدها عند باب الراكب.

"أين الأموال؟"، صاحَت مطالِبةً بفمٍ يكادُ يلامس نافذتي حتَّى شدَّها الرجل بعيدًا. لم يكن هذا الرجل سوى زكريًّا؛ انتبهتُ إلى أنَّه يحمل بيده نَبُوتًا.

"ما الخطب؟"، سألت.

"أوما مريضةٌ جدًّا"، قال. "مريضة جدًّا. يقول الطبيب إنَّها بحاجةٍ إلى دواء".

بمجرَّد أن أوشكتُ على الخروج من السيَّارة تراجعَت المرأة، التي ربَّما كانت ابنة زكريًّا، وكأنَّني هدَّدتها. أمسَك زكريًّا بيدها مُطمِئنًا إياها.

"إنَّها بحاجةٍ إلى الأموال الألمانيَّة"، قال.

أوضحتُ له أنَّه سيتعيَّن عليهم الانتظار حتَّى انتهاء الدعوى القضائيَّة، لكنَّ المرأة هزَّت رأسها نفيًا.

"لقد اشتدَّ مرضُها"، قالَت.

تجمَّع عددٌ من العمَّال المزارعين بالقرب منَّا، وهُنا بدأتُ أشكِّك في مدى حكمة هذه الزيارة.

"إنَّها بحاجةٍ إلى الأموال"، كرَّر زكريًّا قوله.

طلبتُ منه أن يركب مع ابنته سيَّارتي كي نذهب معًا إلى مصرفٍ في غروتفونتين، فوافقا. وحتَّى لو كان لديَّ ما يكفي من مال، فإنَّني لن أخاطر بإعطائه لهم أمام ذلك الجمع من المتفرِّجين.

مع اقترابنا من المنزل الرئيسيّ، تباطأت أمامنا شاحنةٌ صغيرةٌ كانت تتحرَّك عكس اتِّجاهنا.

مال زكريًّا أمامي باتِّجاه نافذتي المفتوحة. "يا سيِّد بريتوريوس"، نادى على المزارِعِ في تلك المركبة، والذي اقتربَ بدوره منَّا.

"ماذا تفعل هنا؟"، سألَ بالأفريقانيَّة.

"جئتُ لأزور أوما غيندريدي"، قلت. "لقد أجريتُ مقابلةً معها قبل بضعة أسابيع".

"ألا تعرف أنَّ هذه الأرض ملكيَّةٌ خاصَّة؟".

"بلى، المعذرة. أردتُ فقط رؤيتها مرَّة أخرى".

"لا، لا، لا، يا فتى. ما هذا الهراء! ليس مسموحًا أن تتجوَّل بسيَّارتك في مزرعتي كلَّما شعرتَ برغبةٍ في ذلك. يا زكريَّا، ماذا تفعلان كلاكما في سيَّارة هذا الرجل؟".

"كنت سأقلُّهم إلى غروتفونتين"، قلت.

"من أين أنت؟"، سأل.

"لودريتز".

"من النادر أن يأتي أحدكم إلى هنا. هيَّا اتبعني!".

أكَّدتُ له أنَّني أعرف طريق العودة إلى الطريق الرئيسيّ، لكنَّه أصرَّ أن أتبعَه بسأمٍ لم أجرؤ على مخالفته، لذا فعلتُ ما طلب منِّي. استدارَت شاحنته في عكس وجهته قبل أن يسرع أمامي؛ واهتزَّت كاميرتي بقوَّةٍ في أثناء لحاقي به.

وصلنا إلى بوَّابة. خفَّفتُ السرعة عندما مررتُ بجانب المزارع واعتذرتُ منه مرَّةً أخرى، فأجاب بأن أومأ برأسه قليلًا فحسب. طلبَ من زكريَّا النزول إليه، وتحدَّث الرجلان معًا لوقت طويل. أخيرًا، أغلق زكريَّا البوَّابة ورائي وعاد إلى معقد الراكب من دون أن ينبس ببنت شفة.

وقفا على الرصيف أمام مصرف غروتفونتين في انتظاري بينما كنتُ في الداخل أسحب مخصَّصاتي اليوميَّة. كان مبلغًا كبيرًا بالنسبة إليهم، وإليَّ أيضًا. عرفتُ على نحوٍ لا شكَّ فيه إطلاقًا أنَّني مقدِمٌ على فعلٍ خاطئ. ليس لأنَّ دفع المال على هذه الشاكلة عملٌ غير أخلاقيّ- إذ لم يكن الدافع الأخلاقيُّ يومًا أبرزَ نقاط قوَّتي- لكن لأنَّني قد أتسبَّب بالمشاكل لنفسي في حال تسرَّب إلى الوسطاء أيُّ خبرٍ عن هذا الأمر. خطر ببالي الاتِّصال بتشزلي، بيد أنَّني لم أجرؤ على الحديث معه، أو مع ميتش دنكر، بعد مكالمتنا الهاتفيَّة في الصباح خوفًا ممَّا قد يقولانه. لم يكن بمقدوري كشف ما كنتُ على وشك فعله.

توقَّفتُ قليلًا عند طاولةٍ صغيرةٍ في زاوية، وظهري إلى النافذة، لأفكِّر في الأوراق النقديَّة التي حصلت عليها. وضعتُ بعضها- ثمن شراء طعامٍ يكفي لمدَّة أسبوع- في جيبي، ثمَّ عددتُ ما تبقَّى مرَّةً أخرى.

شكرني زكريَّا بحرارةٍ قبل أن أعطيه النقود، مؤكِّدًا أنَّ هديَّتي هذه ستساعد جدَّته، لكن امتقعَ لونُ وجهِه بمجرَّد أن أدرك صِغر حجم يدي التي امتدَّت نحوه.

بدأت ابنته تتحدَّث لكنَّه أسكتها على الفور.

"أشعرُ بالأسف لأنَّ جدَّتك مريضة"، قلت. "أتمنى لو أنَّ بحوزتي المزيد لأقدِّمه لها".

لم تُصدِّق ابنتُه كلامي.

"حسنًا، يا سيِّد"، قال والدها أخيرًا.

سار الاثنان بعيدًا. رأيتهما يتحدَّثان إلى امرأةٍ تبيع سلالًا

مصنوعةً من العشب من على ملاءةٍ بالقرب من الطريق الرئيسيِّ قبل أن تدلَّهما على اتِّجاه موقف سيَّارات الأجرة. طوال ذلك الوقت، ظلَّت ابنةُ زكريَّا تلقي نظرات خاطفة نحوي. ثمَّ أسرعَت خلف والدها الذي عبر الطريق إلى الجهة المقابلة، وبعدها غابا عن نظري وراء حافلةٍ صغيرةٍ من طراز تويوتا هايس.

أصبحت الظلالُ طويلةً بحلول هذا الوقت وازدحم الطريق. لم أستطع التفكير آنذاك في الرحلة التي كانت أمامي ومدَّتها أربع ساعاتٍ ونصف إلى ويندهوك. لذا انتهى بي المطاف في حانة فورت ناموتوني لتناول شريحة لحم مع صلصة غدَّة القرد[1]، وشرب بعض الجعة، وفكَّرت في أنَّني أعطيتُ زكريَّا مبلغًا جيِّدًا من المال بينما عانيتُ من أجل التوفيق ما بين ذاكرتي عن أوما غيندريدي ويومي الفوضويِّ هذا.

اتَّصلتُ بياغو في أثناء قيادتي على الطريق السريع لأخبره بأنَّني سأتأخّر. كانت أوَّل مرَّةٍ نتحدَّث فيها خلال اليوم على الرغم من رسائله العديدة. أجاب على هاتفه فور الرنَّة الأولى. "ما الخطب؟"، سأل. في الخلفيَّة، كرَّر مذيع نشرة الأخبار عبارة هجمات إرهابيَّة باللغة الألمانيَّة. "أين أنت؟".

"أنا آسف".

"هل أنت بخير؟ لقد اتَّصلتُ بك خمس مرَّاتٍ اليوم".

"كان يومًا عصيبًا وكأنَّه كابوس".

---

1 صلصة يعود أصلها إلى جنوب أفريقيا، منذ ثلاثينيّات القرن المنصرم. تقدَّم في المطاعم ومحال الوجبات السريعة بانتظام، عادةً مع شرائح اللحم أو البرغر. الجدير بالذكر أنَّ هذه الصلصة غدَّة القرد، بعكس ما يوحيه اسمها، مكوَّنة من محتويات نباتيَّة فحسب. م.

مكتبة ياسمين

"لماذا تسافر في هذا الوقت المتأخِّر؟ حتَّى أنَك لم تقل وداعًا في الصباح".

"أنا في الطريق إليك الآن. انتظِر..."، واقتربَت مني شاحنةٌ بطيئة، عوارضها لامعة، من الجانب الآخر من الطريق السريـع.

"ماذا يجري؟"، سأل ياغو.

"انتظِر لحظة"، وأسقطتُ الهاتف في حجري. ولأنَّني لم أعد قادرًا على رؤية أيِّ شيءٍ سوى المصابيح الأماميَّة، أبطأتُ سرعة سيَّارتي بقدر ما تجرَّأت إلى أن مرَّت الشاحنة بجواري بصخبٍ مفزِع. كانت الشاحنة الأولى قد حجبَت عن عينيَّ شاحنةً كبيرةً أخرى تستخدمُ المصابيح التحذيريَّة لإنارة طريقها. قبضتُ بإحكامٍ بكلتا يديَّ على عجلة القيادة. "أنا آسف"، قلتُ حين رفعتُ الهاتف بسرعةٍ إلى أذني، "لا أستطيع التحدُّث الآن- أنا بحاجةٍ إلى تركيزي كاملًا".

كان الوقت متأخِّرًا حينما وصلت إلى منزل ياغو في نهاية المطاف. عانقني وظلَّ يخبرني كم شعر بالقلق عليَّ؛ ولماذا غادرتُ من دون أن أودِّعه؛ أو أجِب على أيٍّ من اتِّصالاته.

كانت تلك أوَّل ليلةٍ نتشارك فيها سريره. بعد ممارسة الجنس، حضنني من الخلف وقبَّل رقبتي، وقبض بيديه على جذعي. استدرتُ نحوه بصعوبةٍ نوعًا ما. مسَّدتُ الشعرَ الأشقر الناعم على ذراعيه، ووجدتُ راحةً في تتبُّع تكوينات الحبر.

"من أين حصلتَ عليها؟، سألتُ، وهذا ما أفضى به ليخبرني عن صالون الوشم المفضَّل لديه في برلين. ثمَّ وصف لي منظر

تلك المدينة من أعلى تلّة تويفلسبرغ[1]، فسألتُه عن أكثر مكانٍ يحبُّ العيش فيه إذا ما قرَّر يومًا العودة إلى هنالك. وعلى الرغم من أنَّني حرصتُ على ألَّا أسأله بصيغة المثنَّـى، إلَّا أنَّه شملني في إجابته. لكن، ومع أنَّنا كنَّا قريبين جدًّا إذ نستلقي معًا على هذا النحو، لم أستطع تبيُّن ما إذا كانت هذه العلاقة جادَّةً أم أنَّه سيهرب إلى ألمانيا ذات يوم ويتركني هُنا.

"في كلّ مرَّةٍ أعود فيها إلى المنزل"، قال، "تستقبلني والدتي عند المدخل الرئيسيّ حاملةً بيدها عبوة سائل جلي، قائلةً إنَّها ينبغي أن تزيل الحبر الذي اندلق عليّ".

في الظلام، بعد أن أطفأ الضوء، كان صوتُه الليِّن صلتي الوحيدة بعالمه. لكن، وعلى الرغم من استمراره بالكلام، عادت أفكاري إلى دولار.

رتَّب صديقٌ لياغو يعمل في سدّ هارداب جولةً خاصَّةً لنا خارج الموسم السياحيّ. لحسن الحظّ وصلنا، أنا وياغو، إلى محميَّة الصيد قبيل غروب الشمس تمامًا. سررتُ بالابتعادِ عن القيادة في الطريق الرئيسيّ: كانت لديَّ ذكرياتٌ سيِّئة عن رحلتي الليليَّة من غروتفونتين إلى ويندهوك.

قاد ياغو السيَّارة على مسارَ الحديقة خافت الإضاءة. وظلَّ يعضُّ على شفَّته انزعاجًا من بعض الخدوش السطحيَّة على

---

1 تقع تلّة تويفلسبرغ في برلين الغربيّة شمالي غابة غرونفالد. استُخدمت تويلفسبرغ خلال الحرب الباردة كمركز تنصُّتٍ دائمٍ لصالح وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة ما بين 1963 وحتّى سقوط جدار برلين. لا يزال مبنى المركز قائمًا حتّى اليوم، لكن كمعلمٍ سياحيٍّ مفتوحٍ للجمهور. م.

أسفل سيَّارته إلى أن وصلنا إلى المبنى الرئيسيِّ أخيرًا وراء مستطيلٍ طافٍ في الهواء؛ كان شاشة سينما خارجيَّةً مطليَّةً على مُرتفَعٍ صخريٍّ عموديّ، ويظَهر فيها بِرتلي غوفيه محاولًا إقناع هارييت أندرسون [1] بوجود الأشباح.

تناولنا العشاء على حافَّة جرفٍ في مطعمٍ زجاجيٍّ دائريٍّ كأنَّه صحنٌ طائرٌ هبط إلى الأرض. كنَّا الزبونين الوحيدين قبل أن تنضمَّ إلينا عائلةٌ نمساويَّةٌ؛ سلَّموا على طاقم المطعم حين كنَّا ندفع الحساب.

كانت الليلة هادئةً ودرجة الحرارة معتدلةً بما يتناسب مع جولةٍ على طول الشرفة الخرسانيَّة التي تلتفُّ حول المحيط الخارجيِّ للمطعم. التقطتُ صورةً لخزَّان المياه كي أرسلها لشقيقتي. وعند نهاية الدرابزين، قريبًا من واجهة الجرف، وجدنا حوضَ سباحةٍ ناتئًا فوق الوادي. كانت المياه الدافئة مثاليَّةً للسباحة، لذا عدنا لإحضار ملابس مناسبة. كان سأسرُّ بقضاء الليل كلِّه في الحوض، لكن جاء النمساويُّون للسباحة في نهاية المطاف، فاقترح ياغو أن نعود إلى غرفتنا.

"دعنا نبقى مزيدًا من الوقت"، قلت راجيًا. "لم أحظَ بسباحةٍ مثاليَّة كهذه منذ أسابيع".

غادرت العائلة سريعًا، على عكس توقُّعاته، وبعد بضع لفَّاتٍ كنَّا نطفو على السطح صامتَين، بأذرع ممدودة. وجدَت أطراف

---

1 هُنا إشارة إلى فيلم فاني وألكسندر؛ وهو فيلم دراما تاريخيَّة عُرِض في أواخر سنة 1982، من كتابة وإخراج السويديّ إنغمار برغمان. حصد الفيلم جوائز عديدة، من بينها جائزة الأوسكار لأفضل فيلمٍ أجنبيّ 1984 م.

أصابعي نظيراتها لديه، واستلقينا جنبًا إلى جنب وقد تشابكت أيدينا.

احتمينا خلفَ الجدار الخارجيّ، قريبًا من ملابسنا المطويَّة، وتعانقنا كي يبقى جسمينا دافئَين. لفَّني بمنشفته حينما خلعَ كلٌّ منَّا سروال سباحته. ثمَّ أحكم قبضتَهُ عليَّ أكثر. (ازداد عدد السيَّاح في المطعم، وساهم هواء الليل في تضخيم أصواتهم).

هبطتُ لأقبّله بينما التقفَت شفتاهُ قضيبي الذي كان لا يزال رخوًا. ثمَّ استلقينا غير مرتاحَين على رصيفٍ رخاميّ، حيث مصصتُه حتَّى انتصبَ بما يكفي لمداعبته باليد. زاد هذا من شبقي لولوجه.

قذفَ في نهاية المطاف وحاول الابتعاد، لكنَّني شددته كي يبقى قريبًا حتَّى أبتلعه. سحبَه خارجًا ونزل منيه الحارُّ على رقبتي. قبَلتُ عضوه الذي أخذ يتقلَّص. ثمّ سبحنا عراةً معًا، مقطوعَي النفَس متعرّقين في الهواء البارد. عدنا أدراجنا بعد ذلك بجوار المطعم ضاحكَين وواثقين من أنَّ زبائنه قد سمعوا ما جرى.

في صبيحة اليوم التالي، سحبتُ كرسيًّا إلى جوار النافذة كي أشاهد شروق الشمس. وبعد وجبة فطورٍ سريعةٍ عدنا بلهفةٍ إلى السرير. كان الجوُّ وقت الظهيرة حارًّا أكثر ممَّا يطاق لممارسة الجنس، لذا غفونا بينما كانت مستعمرةٌ من حيوانات الوبر الصخريَّة تتشمَّس على الجدار الخفيض خارج نافذتنا، وتتفرَّج على جسدينا العاريين.

تلقَّيتُ بريدًا إلكترونيًّا من ميتش دنكر بافتتاحيَّةً عفويَّة، يقول فيه: "مسرورٌ بالدردشة معك! وآسف على الإلحاح لكن لديَّ

متَّسعٌ من الوقت خلال عطلة نهاية الأسبوع لإعادة العمل على بعضٍ من لقطاتك غير المعدَّلة. سأكون ممتنًّا إذا ما تمكَّنت من إرسال كلِّ شيءٍ إليَّ في أقرب وقت. لا أريدُ سوى أن أصقلها بعض الشيء، من دون أيِّ تعديلاتٍ جوهريَّة! أرفقتُ هُنا أيضًا عددًا من الأفكار، ولكَ مطلق الحرِّيَّة في إضافة ما تشاء إليها أو حذفه".

فكَّرتُ مطوَّلًا في مجموعةٍ من الردود قبل أن أجيبه بالرسالة الآتية: "إنَّني في أشدِّ الحماسة للعمل معك! سأرسل إليكَ كلَّ ما لديَّ في أسرع وقتٍ ممكن!".

بصرف النظر عمَّا سيتمخَّض عن تعاوني القسريِّ مع ميتش دنكر، فقد واسيتُ نفسي بأنَّني سأصنع وثائقيًّا خاصًّا بي عن محرقة ناميبيا. لا يهمُّ سواءٌ أقتل الألمان شخصًا واحدًا فحسب في معسكراتهم في ناميبيا أم ملايين الأشخاص؛ ولا يهمُّ أنَّ الحرب العالميَّة الثانية طغَت على الفظائع التي ارتُكِبت لدينا محلِّيًّا؛ سأصنعُ عملًا مهمًّا من ذلك التاريخ. لكن على الرغم من محاولاتي، ظلَّ ذلك الرجل شاغلًا تفكيري: كانت لديَّ كلُّ الأسباب للاعتقاد بأنَّه سيبزُّني.

ممَّا لا شكَّ فيه أن شخصيَّةً بحجم ميتش دنكر لن ينظر إليَّ باعتباري ندًّا، ومن شبه المؤكَّد أيضًا أنَّه لن يمنحني التقدير الذي أستحقُّه. لذا ينبغي عليَّ أن أصنع فيلمي الخاصّ، وبسبب كلِّ ما سبق، فإنَّه ليس بمقدوري المخاطرة بإرسال كلِّ ما صوَّرتُه إلى البريطانيِّ؛ خشية أن يستأثر بالإنجاز لنفسه أو يبدأ بطرح أسئلةٍ أكثر من اللازم.

اضطررتُ للنهوض من السرير نتيجةَ حُلمٍ مزعجٍ بشأن أوما غيندريدي، لذا أجلتُ التفكير في وثائقيّ السجون محاولًا إبعاد ذهني عنها. وضعتُ حاسوبي المحمول عند عتبة النافذة مشتِّتًا ذهني بالعمل قدر ما استطعت؛ لكن ربَّما من دون نجاحٍ يُذكَر، فعندما حلَّ الصباحُ وجدتُ نفسي أشكِّكُ في مواهبي الهزيلة بسبب هذا الفيلم. لذا لم تجِد أيٌّ من التعديلات التي كنتُ أخطِّط لعملها طريقها إلى النسخة النهائيَّة.

استيقظ ياغو مع شروق الشمس. نهض واتَّجه إلى دورة المياه، مُتذمِّرًا من أنَّ المرتبة كانت قاسيةً جدًّا. وقبل عودته إلى الفراش اقترب منِّي لإلقاء نظرةٍ عمَّا كنت أفعله. سألني، في أثناء مشاهدته لبعض اللقطات التي صوَّرتُها لدولار، عمَّا إذا كنت أرغب بالذهاب في جولةٍ بالسيَّارة في أرجاء الحديقة بحثًا عن وحيد قرنٍ أسود بدلًا من العمل. فهمتُ من نبرة صوته أنَّه ليس راغبًا بفعل ذلك، ولم يشتكِ حينما أخبرته بأنَّني سأكون سعيدًا بالبقاء معه في الغرفة.

"على أيِّ حال، أنت مشغول"، قال.

"بإمكاني التوقُّف عن العمل".

"لا، لا بأس".

كنتُ أشاهد مقطعًا يصف دولار فيه الدائرة الحاكمة في عصابته: "يخضع أعضاء العصابة الثامنة والعشرين جميعهم إلى سلطان عقوباتها. إذا ارتكبتَ خطًا فستنالُ جزاءك. عندما ينضمُّ فردٌ جديدٌ إلى العصابة، فإنَّ الطبيب يمسكه من ذراعه ويشدُّها إلى الخلف، قائلًا: دأمنَحُ قوَّتَكِ إلى الثامنة والعشرين.

نحنُ جميعًا سواسية>. وفي حال قرَّرت العصابة أنَّ شخصًا ما مذنب، فهو مذنِب بصورةٍ لا تقبل الشكّ".

"ما نوع الجرائم التي يرتكبها أفراد العصابات؟"، سألت.

"كلُّ الأنواع. بعضهم قد يبيعُ رجلًا إلى عصابةٍ أخرى". ثمَّ أوضحَ أنَّ بيع الأفراد للعصابات المنافسة يتنافى مع قواعد الثامنة والعشرين.

"ما هذا؟"، سألَ ياغو، فأوقفتُ المقطع مؤقَّتًا. "هذا الرجل مخبول".

"ليس بقدر سوء بعضٍ من الآخرين"، قلت. "شاهد هذا المقطع"، وضغطت زرَّ التشغيل.

"إذا خالفَ أحدهم الأوامر، أو قتل عضوًا في الثامنة والعشرين أو ناك معشوقه..."، وركَّز دولار انتباهه عليَّ. "أنت تعرف ماذا أقصد بالمعشوق، صحيح؟ أيُعجبك ذلك الشعور؟".

أوقفتُ التسجيل مرَّةً أخرى لأقول ياغو إنَّ الجمعيَّة الخيريَّة قد حذَّرتني من أنَّه في حال لمَّح أيٌّ من المدانين السابقين إلى معشوقيهم الذكور- أي "أزواجهم" في السجن- فإنَّه ينبغي عليَّ إلهاؤهم من خلال طرح أسئلةٍ أخرى. نصحني الاختصاصيُّ الاجتماعيُّ بإبقاء موضوع الجنس بعيدًا تمامًا عن المقابلة، بغضِّ النظر عن مدى شغف أولئك الرجال بالتلميح إليه.

"كان عليَّ أن أغيِّر الموضوع كيلا يظنَّ أيٌّ من أولئك الرجال أنَّني أشير ضمنًا إلى أنَّهم كانوا يستمتعون بالمضاجعة في مؤخِّراتهم"، قلتُ لياغو لأرى ردَّ فعله.

قبل لقائي بدولار، لم أكن متأكِّدًا من أنَّ الذين قابلتهم قد

يشتبهون في أنّي قد أكون مخنَّثًا[1]، كوير. لكنَّه ليس كالبقيَّة. لقد ترقَّى إلى رتبة عقيد، وتقصَّدَ ألَّا يصل إلى أعلى من ذلك، لأنَّه قادرٌ على ملاحظة تفاصيل قد تغيب عن أعين الآخرين.

استأنفتُ المقابلة، وهُنا بدأ دولار يضربُ على عظم صدره مُقلِّدًا ما يَصدر من صوتٍ عند ممارسة الجنس. وظهرَت الترجمة تحت وجهه إذ أخذ يُكّرر باللغة الكوسيَّة[2]: "هكذا! هكذا!".

سألتُه في خضمّ ذلك الضجيج: "هل ما زلت عضوًا في عصابتك إلى الآن، أي حتَّى بعد أن أصبحت خارج السجن؟".

"أوقِف تشغيل الفيديو"، قال ياغو.

"شاهِد"، قلتُ بإصرار.

في الشاشة، سمعنا صوتي أكرّرُ السؤال مرَّة ثانية: "هل ما زلت عضوًا في.."

"كلَّا"، قال دولار، "فقط في الداخل. أنا عضوٌ في داخل السجن فقط. لكن إذا"- تلعثمَ في الكلام "لكن إذا عدتُ إلى الداخل، فسأكون عضوًا في الثامنة والعشرين؛ أفعلُ ما يفعله عقيدٌ في الثامنة والعشرين".

"يعني هذا أنَّك ما زلت عقيدًا في داخل السجن. لكن في حال نقلَتك السلطات إلى مكانٍ آخر، إلى سجنٍ لم تزره من قبل، فكيف ستقدِّمُ نفسك إلى أعضاء الثامنة والعشرين هنالك بحيث

---

1 هُنا استخدَم المؤلِّف مصطلحًا احتقاريًّا مماثلًا في العاميَّة الأفريقانيَّة، في سياق الإشارة إلى ما قد يجول في أذهان مواضيع مقابلاته. م.

2 لغةٌ رسميَّةٌ في جنوب أفريقيا وزيمبابوي، وواحدةٌ من لغات البانتو. يتحدَّث بها قرابة ثمانية ملايين نسمة، ومن أبرزهم الراحل نلسون مانديلا. م.

يُصدِّقون أنَّك عقيد حقًّا؟".

"أصغِ إلى ما سيقوله هُنا"، قلتُ لياغو في أثناء بدء دولار بوصف معطفه ذي الأزرار الذهبيَّة، والياقةِ السوداء التي يحفُّها لونٌ ذهبيّ، والأكمام السوداء، والخوذة البيضاء الموسومة برقم ٢٨، والسيفِ الذي لم يأتِ على ذكره سابقًا.

"هُنا جوهر الحكاية"، قلتُ. "هذا موضوعُ فيلمي".

رفع دولار رأسه، كما لو كان يتفاعل مع ما قُلته لياغو، حتَّى بدا وكأنَّه يشير إلينا بذقنه.

"ماذا يفعل؟"، سأل ياغو.

"يستعدُّ للبصق".

"أين ولِدت؟"، سألت.

"سويتو". بدا صوته مشدودًا.

"هل ترعرعت في سويتو؟".

"وماذا عنك أنــت؟"، قال دولار. "في إلدورادو بارك، أم في ميتشلز بلين؟ هل لديك زوج؟ أتريدُ أن تصبح زوجتــي؟".

سقط بصاق دولار على الشاشة. كان في نيَّتي أن أجعل ياغو يشاهد المقطع حيثُ يتجرَّد دولار من ملابسه كلِّيًا، بيد أنَّني منعت نفسي عن ذلك. شعرتُ بالمسؤولية إزاء حماية المدان السابق بقدرِ خوفي منه حينئذٍ. لقد جعلَتني فكرةُ فضحِ أعضائه التناسليَّة أمام ياغو أحسُّ بخزيٍ لم أتوقَّعه. بدلًا من ذلك، قرَّرتُ أن أعرض على ياغو لقطاتٍ مقرَّبةً لوشوم دولار، وكذلك المقطع الذي أحاط الأخيرُ فيه رقبته بيديه.

رفعتُ من مستوى الصوت بحيث أصبح من الممكن سماع أدقّ الأصوات، ناهيك عن الضوضاء المحيطة على غرار دوران إطارات المركبات على الطريق. فعلتُ هذا لفهمِ ما كان دولار يهمس به. "أطبقتُ بيديَّ على حلقها"، قال. "لم تستطع التنفُّس. ضغطتُ على رقبتها".

"لماذا تريني هذا؟"، قال ياغو. "يا له من شيءٍ مُقزِّز!".

مارسنا الجنس عقب ذلك بوقتٍ قصير. وشاهدتُ حركة المرور البعيدة عبر انفراجة ما بين الستائر؛ حيثُ تسارعَت على الطريق، ومن دون عناء، شاحناتٌ من طراز فورد ترانس كونتيننتال لتسليم حمولتها.

انضمَّ يوجين، صديقُ ياغو الذي حجزَ مكان إقامتنا، إلينا لتناول العشاء في مطعم "السفينة الفضائيَّة" مساء السبت. لم أتوقَّع أن يكشف ياغو أنَّنا قضينا معظم عطلتنا في السرير، إلَّا أنَّني شعرتُ بخيبة أملٍ حين سمعتُه يصفني بـ "صديقي من لودريتز" بدلًا من كلماتٍ أكثر معنى. ولو أنَّه قال كلمة "صديقي" فحسب، لبدَت أقلَّ تباعدًا.

كان يوجين مُهذَّبًا وبذل قصارى جهده كي يشركني في محادثتهما، بيد أنَّ ياغو ظلَّ يُبدِّل في حديثه إلى اللغة الألمانيَّة. كنتُ قادرًا على فهم زبدة كلامهما حينما ينطقان ببطء، لكنَّني لم أشعر بثقةٍ تكفي لأشارك في المحادثة. لم تمضِ فترةٌ طويلةٌ قبل أن أشعر أنَّهما نسيا وجودي تقريبًا، ممَّا أعاد إليَّ ذكرياتٍ من الحفلة في منزل السفير، عندما كنتُ واقفًا أمام زوجة السفير آملًا أن يُقدِّر ياغو وجودي.

مكتبة ياسمين

سبق وأن أخبرني في سيّارته المستأجرة، خلال أوّل ليلةٍ قضيناها معًا عقب سباحتنا في جزيرة القرش، أنّه يتمنّى أن يحظى بحبيب... لكن يبدو أنّه لم يكن يبحث عن تجسيدٍ ماديٍّ لهذا الحبيب المحتمل- أو ليس كذلك عندما يتعلّق الأمر بي على الأقلّ.

"أفريقيا هي نقيضـــة أوروبّا"، قال باللغة الإنكليزيّة من أجلي كي أفهم، موجّهًا الحديث إلى موضوعه الأحبّ: المساعدات الخارجيّة. "كلُّ الأمور هُنا مُعقّدة. وكلُّ حلٍّ، مهما كان بسيطًا، يجرُّ عواقبَ ما كانت لتخطر على بالك أبدًا".

"أكثرُ تعقيدًا من مثيلاتها في ألمانيا؟"، سألَ يوجين مستغربًا.

شجَّع هذا ياغو على سرد قصّته عن الحليب الطبيعيّ التي كنتُ قد سمعتها مرّتين من قبل. قبل وقتٍ طويل، وجّهتْ جمعيّةٌ خيريّةٌ فرنسيّةٌ تعليماتٍ إلى طاقهما الطبيّ بإسداء نصيحةٍ إلى الأمّهات الحوامل المصاباتِ بفيروس نقص المناعة في مقاطعة كوازولو ناتال مفادها ألّا يرضعن أطفالهنّ رضاعةً طبيعيّة، وإلّا فقد يخاطرنَ بانتقال الفيروس إلى الأطفال. بدا ذلك النهج معقولًا حينئذٍ مع اعتقاد الخبراء، وفقًا لتلك الجمعيّة الخيريّة، أنّ أولئك الأمّهات، اللائي ينجبن عمومًا أطفالًا غير مصابين بالفيروس، كنّ يُعرّضن الرضّعَ لخطر العدوى عن طريق لبنهنّ.

"هبطَت هذه التوجيهاتُ من باريس من دون سابق إنذارٍ أو تحضيراتٍ مُسبقة"، قال ياغو. "<لا ترضعي طفلكِ رضاعةً طبيعيّةً وإلّا ستقتلينه>. ماذا حدث برأيك؟".

تخوّف يوجين من الإجابة.

مكتبة ياسمين

"قد تكون تلك النصيحةُ مُلائمةً لأمٍّ في باريس"، قال ياغو، "لكن في حال كانت الأمُّ تعيشُ في مكانٍ ليست فيه مياهٌ نظيفة، فماذا ستطعم أطفالها إذا ما أخبرَها عامل الإغاثة أنَّ حليبها مُلوَّث؟ لا يُفكِّر البيروقراطيُّون بأمورٍ من قبيل <أيـن يُمكن لهذه الأمِّ شراء بدائل حليب الرضَّع الأوروبيَّة وسط الغابات والأدغال؟> أو هل بإمكانها تحمُّل تكلفتها؟ ناهيك عن السؤال: <هل بدائل حليب الرضَّع أصحُّ للأطفال.. أم هي في الواقع أرباح للشركات؟>. لكن لك أن تتخيَّل بطبيعة الحال أنَّ الأمَّهات المحليَّات غبيَّاتٌ لدرجة أنَّهن صدَّقن الأوروبيِّين، وهكذا تضوَّر أطفالهنَّ جوعًا. هـذا ما أقصده بأنَّ الحياة أكثر تعقيدًا في أفريقيا".

"لا يمكنك إلقاء اللوم على الأمَّهات"، قلت.

"ماذا؟".

"لا تلقِ اللوم على الأمَّهات. إذا كان عمَّال الإغاثة يخبرونهنَّ بأنَّ الرضاعة الطبيعيَّة قاتلة، وكُنَّ يشاهدن كلَّ شخصٍ قريبٍ من الأمِّ إمَّا ميتٌ أو ميِّت، فما الذي تتوقَّع منهنَّ فعله؟".

"أجل، أرى وجهة نظرك"، قال يوجين.

"لا، لقد أسأت الفهم"، قال ياغو، وبدَّل حديثه إلى الألمانيَّة نزقًا، لذا اضطررتُ إلى الإنصات مرَّةً أخرى. "ما أحاول إيضاحه هُنا هو مدى تعقيد هذه القارَّة. إنَّ النصيحة التي قدَّمتها الجمعيَّة الخيريَّة مثاليَّةٌ عندما يتعلَّق الأمر بالأمَّهات الأفريقيَّات اللائي يعشن في المدن؛ حيثُ تتوفَّر لديهنَّ المياه العذبة وتكاليف بدائل حليب الرضَّع، وبالتالي يجب ألَّا يلجأن إلى الرضاعة الطبيعيَّة. وهكذا تجد أنَّ النصيحة نفسها التي تودي بحياة الأطفال في

الأرياف كفيلةٌ بإنقاذ حياة الأطفال في المدن".

"أفهمُ ذلك، يا ياغو"، قلتُ بالإنكليزيَّة، غير قادرٍ على إخفاء انزعاجي، "لكن ليس للأمَّهات ذنبٌ في أيٍّ من هذا".

قال ياغو: "كلُّ ما أردتُ قوله هو أنَّه ليس بمقدور شخصٍ يعيش في باريس حالِمًا بالسلطة إدراك أنَّ المشكلة الرئيسيَّة هي الماء. المشكلة بالنسبة إلى البيروقراطيّ هي وجود الفيروس في الحليب الطبيعيّ؛ إذ لطالما كان الماء متوفِّرًا في أوروبَّا على بعدِ أقرب صنبور! لكنَّ الأمور في أفريقيا أكثر تعقيدًا طوال الوقت".

عُدنا إلى غرفتنا صامتين.

"أتحبُّ ناميبيا حقًّا؟"، سألتُه في أثناء ما كنَّا نخلع ملابسنا.

"لماذا تقول هذا؟".

"لأنَّك لا تتصرَّفُ بطريقةٍ توحي بذلك". تجنّبتُ أن أسأله عمَّا إذا كان وجودي مُحرِجًا بالنسبة إليه، كما لم ألمِّح أيضًا إلى كونه ربَّما أكثر تعقيدًا من الأفارقة الذين يظلُّ يتذمَّر منهم.

"أتمنَّى لو أخذتُك إلى محميَّة صيدٍ أفضل من هذا المكان القذر. إلى منتزه إيتوشا مثلًا! تلك حديقةٌ رائعةٌ حقًّا".

اعتذرَ منِّي في وقتٍ لاحق، بعد أن استلقينا معًا في السرير وكانت أضواء الحمَّام مُنارة. داعبَني وقال إنَّه يحبُّ أن يستأثر بي لنفسه.

لم أكن شبِقًا تمامًا، لكن مع ذلك سمحتُ له بأن يقحم نفسه فيَّ بينما كان يخبرني بكلِّ ما يريد فعله بي. بالنسبة إليَّ، كنتُ مُتلهِّفًا إلى إمساكه بي، مثلما فعل تحت المنشفة الدافئة في الليلة الماضية عند حوض السباحة. كنت أتوقُ إلى ياغو الذي التصق بي في جزيرة القرش، بيد أنَّني لم أحصل إلَّا على وجهه المشدوه

والمتعرّق منهمِكًا فوقي. فرك صدره صدري، وكان شعره الحليق مؤخَّرًا يخز مثل الإبر. شددتُ على وركيه لعلَّه يتحفَّز ويندفع أعمق، وازدادت ثخانة الأوردة في رقبته. خطرت ببالي رائحة دولار ويداهُ الخشنتين.

بعد أن أبعدت نفسي أخيرًا عن قبضة ياغو الرطبة، حاولتُ النوم لكن لم أستطع. ظللتُ مستيقظًا، مرتابًا من فكرة أنَّني أدرجتُ دليل إدانتي من ضمن المقابلات التي أرسلتها إلى تشزلي. نهضتُ في نهاية المطاف وراجعتُ الملفَّات التي أرسلتُها، لكن لم أعثر على أيِّ مشاكل.

حرصًا على عدم إيقاظ ياغو، أخذتُ مصباحًا من الخزانة وخرجتُ أتجوَّل في هواء المساء البارد. كانت البطّاريَّات شبه فارغة، لكنَّ القمر أضاء طريقي وكنت قادرًا على استكشاف المكان من دون أن أدوس على ثعبانٍ أو أزعِج حيوانًا برِّيًا.

سررتُ لوجودي في الماء، وسبحتُ قدر ما استطعت، بيد أنَّني كنتُ غير مستعدٍّ وظللتُ أتوقَّف بين فينةٍ وأخرى لالتقاط أنفاسي. توقَّفتُ في منتصف الحوض، عازمًا على المضي قدمًا، مقاومًا حاجتي الماسَّة إلى ذرف الدموع. وفقط من خلال التركيز على تجاهل هذه الحاجة، همتُ في ضربات السباحة حتَّى قطعتُ عشرة أطوالٍ، فعشرين، فثلاثين، فأربعين طولًا.

شعرتُ بالإنهاك والجوع، لذا انتظرتُ حتَّى يفتح المطعم أبوابه لكي أتناول بعض السكَّريَّات.

كان ياغو جالسًا على السرير يلعب بهاتفه حينما عدتُ إلى غرفتنا.

"رأيتُ حلمًا مزعجًا، فذهبتُ للسباحة بعض الوقت"، قلت.

"هل أكلت؟".

"بعض المربَّى على شريحةٍ خبزٍ محمَّصٍ فحسب. كنت جائعًا جدًّا. بإمكاني العودة معك إلى هناك".

رأيتُ نار الغضب في عينيه. ومن دون أن ينبس ببنت شفة، ارتدى ملابسه وتركني واقفًا في مكاني وخرج.

لم يتحدَّث إليَّ حينما عاد. بدلًا من ذلك، أجرى بعض المكالمات الهاتفيَّة على الرغم من أنَّنا كنَّا في صباح يوم الأحد، قبل أن يخرج للتحدُّث مع شخصٍ ما. وربَّما تعمَّد أن أسمعَ كلماتِه لتعيسِ الحظِّ على الطرف الآخر من الخطِّ إذ قال: لا يوجد شيءٌ في هذه البلاد! لا شيء!

"إذًا هل تريد الخروج للبحث عن وحيدات قرنٍ سوداء؟"، سألني عندما عاد. "ستكونُ مضيعةً للوقت أن نغادر المكان من دون المشاركة في رحلة صيد".

"كلَّا، لقد حزمتُ أمتعتي. ستنطلق رحلتي الجوِّيَّة عند الساعة السادسة، لكنَّني مستعدٌ للمغادرة عندما تكون جاهزًا".

ارتسمَ على وجهه الغضب.

قلت: "تبًّا! لِم لا ترجع للعيش في برلين وكفى؟".

"ماذا تقصد؟".

"طالما أنَّك تتذمَّر من مدى قذارة أفريقيا، وإذا كانت ألمانيا رائعةً إلى هذه الدرجة، فلِم لا تعود أدراجك؟".

لم يحر جوابًا.

"إنَّني على استعدادٍ للتخلّي عن كلّ شيءٍ، يا ياغو، لكن ليس على هذه الشاكلة".

ملأ مُشغِّل الموسيقى الصمت الذي ساد بيننا على طول الطريق إلى مطار ويندهوك الدوليّ.

ساعدني في إنزال حقيبتي خارج صالة المغادرين، مُتجنِّبًا النظر في عينيّ. بعد أن أغلق صندوق السيَّارة، سألتُه: "هل تعقَّدَت حياتُك بسببي؟".

"ماذا؟".

"هل ترى أنَّني معقَّدُ أكثر ممَّا ينبغي بالنسبة إليك؟".

"لماذا تقول هذا؟ ماذا تقصد؟".

"أتحدَّث عن تجاهُلِك لي أمام الآخرين".

"ألم نفرَغ من الحديث عن ذلك الأمر؟ إنَّني أعرفُ يوجين منذ زمنٍ بعيد، وتربطني به علاقةٌ مهنيَّة".

"بالله عليك، يا ياغو! ليس الرجلُ سوى مدير قسم طعامٍ ومشروبات في مطعم؛ وليس هذا مهمًّا، بل ما أقصده أنَّه نفسه على الأرجح مثليُّ الميل الجنسيّ أو مُزدَوجه. ناهيك عن الأمر نفسه تكرَّر في حفلة منزل السفير. ألا ترى ذلك؟".

مضى لإحضار عربةٍ لحمل الأمتعة، عوضًا عن الردّ، وبتهذيبٍ وأناةٍ مع السيَّاح العائدين إلى الوطن. لن يأتي يومٌ يكون فيه هذا المطار بوَّابة دخولي إلى أوروبَّا.

رفعتُ حقيبتي بصعوبةٍ إلى العربة وأحكمتُ قبضتي على عروة فراملها الخلفيَّة قبل أن تصل إليها يده. لم أكن بحاجةٍ إليه ليجرَّها إلى صالة الانتظار نيابةً عنّي.

"كنتُ مستعدًّا للتخلّي عن حياتي في لودريتز من أجلك"، قلت، "بيد أنَّني لستُ مستعدًّا لأكون صديقك القادم من لودريتز. وإذا خرجتُ للسباحة صباحًا، ثمَّ صادفَ أن تناولتُ شريحة خبزٍ محمَّصٍ لأنَّني أتضوَّر جوعًا، فلا أريدُ توقُّع أن تعاملني وكأنَّني طفلٌ شقيّ. أنتَ بحاجةٍ إلى نضج".

لم يودِّع أيٌّ منَّا الآخر.

زعزعت منخفضاتٌ وارتفاعاتٌ مفاجئةٌ صعودَ الطائرة الحادّ إذ شقَّت المركبة طريقها وسط نسيمٍ محيطيٍّ باردٍ تتخلَّلهُ رياحٌ صحراويَّةٌ حارَّة. وبمجرَّد أن أصبحنا في مأمنٍ من المطبَّات الهوائيَّة، أعلن الطيَّار وصولنا لارتفاع العبور. انتظرتُ مجيء مضيف الطيران حاملًا معه زجاجاته المقعقعة. كنت سعيدًا بعد أن أخبرتُ ياغو بما أشعر به، مع أنَّني لم أكن راغبًا بأن تنتهي الأمور معه على هذا النحو. لم يكن في هذه الرحلة ما يُرضي على الإطلاق. كان عليَّ إرسال ملفَّاتي كلّها إلى ميتش دنكر الذي سيعمل على مراجعتها بدوره. هذا ما كان واضحًا بالنسبة إليّ؛ أنَّ هناك مصيرًا ما ينتظرني.

أضاءت الشمسُ الغاربة المحيطَ الواسع إلى يميني، في حين أظلمت الأرض من تحتي. والأفق الرطب قطعَ جزءًا من القرص البرتقاليّ، وسقطت ظلالٌ قاتمةٌ على بوتسوانا. هل ستتسنَّى لي رؤية بلادي من الجوّ مرَّةً أخرى؟

سنطيرُ عمَّا قريبٍ فوق مدينة ريهوبوث. وطني الأمّ، ومسقط رأس والدَيّ. لقد ارتحل أجدادي من كيب إلى هذه الأرض الموعودة. كان الغربُ جيِّدًا.

"ربَّما استطاع الألمان أن يحكمونا في الماضي"، قال والدي ذات يوم، "لكنَّنا نحنُ الذين أنجزنا العمل كلَّه". كان قد أخبرني من قبل أنَّ جدِّي كان مزارعًا من بافاريا، وأنَّ أوروبَّا هي السبب وراء عينيَّ الزرقاوين.

بعد شهرٍ من وفاة والدي، حملتنا عمَّتي- أنا ولوسيَّا- بعيدًا عن النسيم المالح في مسقط رأسنا إلى هواءٍ ذي رائحةٍ عبقةٍ وحلوة، إلى قاعة كنيسةٍ حيثُ كانت الجماعة- جماعتنا- يتلون الصلوات باللغة الأفريقانيَّة.

تقدَّمتنا باتِّجاه مُقدِّمة تلك القاعة. كنتُ قد لمَّعتُ حذاء شقيقتي الجلديَّ الذي كان يعكس ضوء الآتي من النوافذ العالية. لم أُزِح عينيَّ عن ذلك الحذاء إلَّا حين نادت عمَّتي اسمي.

جلس ثلاثةُ رجالٍ على الطاولة أمامنا. كانوا أكبر سنًّا من والدي بكثير، ومع ذلك فإنَّني رأيتُ في وجوههم وجهه بصورةٍ أو أخرى. تنحنح أحدهم؛ في إشارةٍ لكلّ من في القاعة بالتزام الصمت، لكن ليس للكلب الذي كان ينبح في الخارج. كان كلب ريهوبوث غائبًا عن ذاكرتي حتَّى الآن.

"أيْ هرمانوس ولوسيَّا"، قال الرجل.

أومأتُ برأسي أن أجل عندما سألني عمَّا إذا كنت أفهمُ وظيفته المهمَّة. لمسَت تجاعيد وجنتيه مثيلاتها حول عينيه حين تبسَّم إليّ. حين سمعتُ صوت عمَّتي، أدركتُ أنَّه لا بدَّ قد طرح سؤالًا آخر، كرَّرهُ قائلًا: "أتعرفان سببَ مجيئكما إلى هُنا؟".

على الرغم من أنَّ عمَّتي قد أوضحَت لنا الغرض من زيارتنا قدر ما استطاعت، إلَّا أنَّني ولوسيَّا لم نفهم لماذا جاءت بنا إلى هناك.

"إنَّ عائلتَي والدكما ووالدتكما من هذا المكان"، قال الرجل. "يقول إسحاق في أرض كنعان:«إنَّهُ الآن قد أرْحبَ لنا الربُّ وأثمَرْنا في الأرض[1]». كان إسحاقُ يتحدَّث عن هذا المكان. منزلكما. وريهوبوث هي منزلكما".

ضغطت لوسيًّا على أصابعي خفيةً عن أعين كلٍ من الغرباء في الصالة والحيوان الذي ينتظر في الخارج.

"إنَّ كلًا من والدتكما وشقيقكما الأصغر في الجنَّة". مجرَّدُ التفكير في أنَّ شقيقي الأصغر عالقٌ في جنَّةٍ نائيةٍ جعلني غير قادرٍ على النظر إلى وجه الرجل. "لقد هجرَ والدكما هذا المكان ولن يكون بمقدوره العودة أبدًا. سيُحاسِبه الربُّ إلهنا على ما فعل. بيد أنَّ ذلك لا ينطبق على شقيقتك أو عليك. لا تزال لديكما قريبةٌ على قيد الحياة، شقيقة والدتكما، أليس كذلك؟".

"أرسلَت تلك المرأة رسالةً من كيب تقول فيها إنَّها حبلى ولن يكون بوسعها رعاية ثلاثة أطفال"، قالت عمَّتي.

"أليسَت لديهما عائلةٌ أخرى؟"، سألَها.

"أجل، ليس لديهما أقارب بالدم"، قالت مُؤكِّدة. "لكنَّني أعتبرُ هذين الطفلين عائلتي".

"أي هرمانوس ولوسيًّا، هل توافقان على ما سمعتماه؟".

سمعتُ أصواتًا تنادي اسمي. كان الجميع بانتظاري، أنا الطفلُ الرعديد البكَّاء، إلى أن اقتربَت عمَّتي منِّي، تفوح منها رائحة مسحوق ألتلك وماء الخزامى، وسُكَّر الفانيلَّا الدافئ من الرغيف

---

1 تك: 26:22. ترجمة فان دايك 1865. م.

الذي سرقتُه من روبرتين، وجثت على الأرض وعانقتني وشقيقتي. أمضيتُ طفولتي خائفًا من أنَّها قد تعيدنا ذات يومٍ، كطفلين غير مرغوبٍ بهما، إلى تلك المستوطنة التي تقع الآن على بعد عشرين ألف قدمٍ تحتي في أثناء ما كنت أصبُّ لنفسي بعض الويسكي في كوبٍ من ورق.

في مساء ذلك اليوم، فتحتُ الملفَّ الذي يحتوي جدول ميزانيَّتي، وخصمتُ منه الإيرادات المتوقَّع الحصول عليها من تشزلي، والأمر نفسه بالنسبة إلى الأقساط المستقبليَّة لسداد ما اقترضتُه من شقيقتي، وذلك بغية معرفة كم من المال سأحتاج لسدِّ رمقي حتَّى آخر السنة. لم يكن لديَّ أيُّ دخلٍ بخلاف الأجر الزهيد الذي كنت أتوقَّع الحصول عليه من ويل. قد أضطرُّ لجمع القمامة عمَّا قريبٍ من أجل المال.

عادَت شقيقتي مرَّةً أخرى، ومن دون علمها، لتصبح راعيةً ماليَّةً لفنِّ صناعة الأفلام الوثائقيَّة- من خلال توفير الدعم لي؛ فنَّانُها الذي يتضوَّر جوعًا- إذ لم تكن المسألة إلَّا مجرَّد وقتٍ قصيرٍ قبل أن أتسوَّل منها.

أرسلتُ إلى ميتش دنكر بريدًا إلكترونيًا أسأله فيه عمَّا إذا كان يرغب باللقاء والدردشة معًا، لأتلقَّى منه على الفور ردًّا آليًا يقول فيه إنَّه في ويندهوك. انقضى أسبوعٌ كامل بعدئذٍ دون أن أتلقَّى أيَّ ردٍّ؛ سواءٌ أكان منه أم من تشزلي.

قالت لي شقيقتي إنَّهم يُخطِّطون في هارموني لإطلاق نسختهم الخاصَّة من مهرجان برننغ مان[1]. أخبرتني أيضًا أنَّ أماندا تريد إطلاق حملةٍ تسويقيَّة لتشجيع بيع التذاكر عبر الإنترنت، وأنَّها ستدفع لي أجرًا مقابل التقاط بعض المشاهد والصور البانوراميَّة من دياز بوينت.

"سأفعلُ ذلك من دون تردُّد"، قلت. "أليست هنالك فعاليَّةٌ مشابهةٌ أيضًا في كارو[2]؟".

"بلى، يطلق عليها الجنوب- أفريقيُّون لهيب أفريقيا"، قالت. "مع فارق أنَّ أماندا تريد أن يُحقِّق مهرجانها في لودريتز أرباحًا طائلةً لصالح هارموني".

"وما الاسم الذي اختارَته لمهرجانها؟".

"الإنسان البدائيّ".

"ماذا؟ أرجوكِ قولي لي إنَّكِ تمزحين!".

لم توحِ عيناها بأيِّ هزل.

لستُ واثقًا ممَّا إذا كانت أماندا قد أخذت بالحسبان الحشدَ الذي سيقلبُ كلًّا من بيتها البلاستيكيّ وألواحها الشمسيَّة إلى مكبِّ نفايات، لكن كان لديَّ ما يكفي من المشاكل التي شغلَت كلَّ تفكيري. على أيِّ حال، وفي صباح عيد ميلاد شقيقتي، عبرتُ

---

1 مهرجان برننغ مان (أو الإنسان المُحترِق): مهرجان سنويٌّ يُحتفل به في صحراء الصخرة السوداء في ولاية نيفادا الأميركيَّة. تأسَّس في سنة 1986، ويشارك اليوم عشرات آلاف الأشخاص فيه إبَّان الأيَّام التسعة التي تنتهي بيوم عيد العمَّال الأميركيّ (والذي يصادف يوم الاثنين الأوَّل من شهر أيلول). في نهاية اليوم الأخير للمهرجان، تُحرَق دميةٌ خشبيَّةٌ ضخمة على هيئة إنسان، ومن هُنا جاء اسمه في الأصل. م.

2 كارو: منطقة طبيعيَّةٌ شبه صحراويَّةٍ في جنوب أفريقيا. م.

الجسر الخشبيّ المفضي إلى دياز بوينت بالتزامن مع هبوب عاصفةٍ جنوبيّةٍ-غربيّة وصوت موسيقا هادرة في البعيد ورائي. برزَ مُنكشفٌ صخريٌّ إلى جهة المحيط الأطلسيّ وكأنَّه فارسٌ أفريقيٌّ على حصانه. تجمَّع الماء الآسن على جانبَي جسر المشاة، وذكَّرتني رائحته الكريهة برحلتي على متن قاربٍ مع عمَّتي.

عند نهاية الممشى، جثا كلٌّ منَّا على ارتفاعٍ خفيضٍ كي نُثبِّت أنفسنا بصورةٍ أفضل خلال تسلُّق الدرجات المحفورة في صخورٍ زلَّقتها مياه المحيط، وصولًا إلى العمود الصخريّ البرتغاليّ. أحاط بالقمَّة المسطَّحة سياجٌ مُحطَّمٌ لم توفِّر أسلاكه إلَّا القليل من الحماية في وجه العواصف التي كانت تُهدِّد بقذفنا من أعلى الجرف إلى المحيط.

على بعد أمتارٍ قليلةٍ من موقعنا المطلّ غير الآمن، نُصِبت نسخةٌ طبق الأصل من صليب بارثولوميّو دياز[1] المصنوع من صخر الدولريت- يعود تاريخ الصليب الأصليّ إلى القرن الخامس عشر مع عودة البحَّارة البرتغاليّين إلى بلادهم.

"آمنٌ وسليم!"، قال ويل متحقِّقًا من السور المهلهل بكلتا يديه.

"لولا الرياح لكان هذا الصباحُ مثاليًّا"، قلت بصوتٍ خفيضٍ بحيث لا يسمعني أحدٌ سوى شقيقتي، لكنَّها لم تجد كلماتي مسلّية.

"لم أرَ ضوءًا مثل هذا من قبل"، تابع ويل. "على الأرجح أنَّك

---

1 بارثولوميّو دياز (1450-1500): مستكشفٌ برتغاليٌّ، اشتهر لكونه أوَّل أوروبيٍّ يبحر حول رأس الرجاء الصالح في سنة 1488. م.

لن تواجه صعوبةً في تصوير هارموني من هُنا، يا هنري، أليس كذلك؟". ومن دون انتظار ردّي، اقترب من العمود الصخريّ كي يلقي عليه نظرةً عن كثب. "هل هذا مزيَّف؟"، مشيرًا إلى النصب التذكاريّ.

"نسخةٌ طبق الأصل"، همهمت. "العمود الأصليُّ في متحفٍ ما. في جنوب أفريقيا، على ما أعتقد".

"شيءٌ آخر تسرقه تلك البلاد منَّا"، قالت شقيقتي.

فجأةً غيَّرت الرياح اتّجاهها لتعصف بنا هذه المرَّة من الجنوب-الشرقيّ. كنتُ منهمكًا في أثناء ذلك بتثبيت عدسات الكاميرا المكبِّرة في مكانها، وكدتُ أن أُسقِط كاميرتي عندما ضربتني تلك العصفة.

"لا أريد البقاء في هذا المكان"، قالَت متوسِّلة.

"أحتاج إلى دقيقةٍ واحدةٍ فحسب، أعِدك".

لكي أبعِد تفكيرها عن وضعنا المحفوف بالمخاطر، وقفتُ قبالة الريح القويَّة بفمٍ مفتوحٍ بحيث انتفخ خدَّايَ عن آخرهما وصرخت: "ديزي غيليسبي[1]!"، لكنَّها رفضَتْ أن ترفع رأسها.

قرَّرت أن أسرع قدر المستطاع. وبعد أن ثبَّتُّ نفسي بأفضل ما يمكنني من خلال الاستناد إلى الحاجز، عثرتُ على تلك اللطخة البعيدة المسمَّاة هارموني في محدِّد النظر بالكاميرا. كانت تقع خلف مقهى دياز بوينت، حيثُ ركنَّا مركباتنا، بعد كلٍّ من المنارة بحزامها العريض من الضوء الأحمر، وراكبي الأمواج في منطقة

---

1 جون بركس "ديزي" غيليسبي (1917-1993): عازف جاز ومؤلِّف موسيقا ومغنّي. وهو واحد من أهمّ عازفي البوق في التاريخ وأكثرهم تعقيدًا في أعماله. في هذا السياق، يشير المؤلِّف مدى انتفاخ خدَّي غيليسبي أثناء العزف حتّى يشعر المرء أنَّهما سيقفزان من مكانهما في أيِّ لحظة. م.

الخليج. شُدَّت آلافٌ من المثلَّثات الحمراء والصفراء، والتي شدَّتها الرياح بقوَّةٍ، على سَوَارٍ مثبَّتةٍ على طول محيط هارموني.

"ألا تعتقدين أنَّ هنالك من الأعلام ما يكفي ويزيد؟"، قُلت.

"لقد اشترتها أماندا"، قالت شقيقتي. "طلبَت خمسة آلاف علم..."

"خمسة آلاف علم؟"

"لم تُخبِر مخلوقًا بأنَّها ستفعل ذلك. كما أنَّها دفعَت ثمن الأعلام من أموال ويل التي رصدها لخليج إليزابيث. إنَّها حسنة النيَّة لكن واهمةٌ أيضًا".

"ليسَت توليفةٌ جيِّدة".

انتقلَت بؤرة التركيز خلال تصوير ساحة التمارين إلى حديقة الحيوانات البرِّيَّة المضيئة؛ أشكالٌ عملاقةٌ من النيون الأحمر محاطةٌ بمصابيح متلألئةٍ. غطَّى فرسُ نهرٍ ورقيٌّ هائل الحجم حافلةً قديمة؛ وكمن جاموسٌ أفريقيٌّ أكبرُ من جرَّار وراء فرس النهر الهائج. هنالك أيضًا رجالٌ طوال القامة، نُسِخوا على الأرجح من لوحات البوشمن وكلٌّ منهم أكبر من المنارة، رابطين خشخيشاتٍ من جراب البذور حول عضلات سيقانهم بإحكام. وومضَ ظبيٌ وقوقز وربابيح، كلُّها ضخمة الحجم، على مقربةٍ من الألواح الشمسيَّة. لم يُعرِ وحش اللوياثان- جبلُ الألماس- أيَّ اهتمامٍ لهذا العرض.

غابَت الموسيقا، وكذلك الأضواء. لا بدَّ من تشغيل المولِّدات لوقتٍ إضافيٍّ كي تمدَّ الأصوات والكائنات بالطَّاقة.

"هل أوشكتَ على الانتهاء؟"، سألَت شقيقتي.

"تقريبًا".

مكتبة ياسمين

تبِعت سحابةٌ من الغبار مَركبةً على الطريق الترابيّ من هارموني إلى دياز بوينت. ومع أنَّني لم أكن واثقًا، بسبب المسافة البعيدة والشمس الساطعة، إلّا أنّها ذكّرتني بالهايلوكس من ويندهوك. توقَّفت الشاحنة الصغيرة في نهاية المطاف عند المقهى، وترجَّلت أماندا من بابها الأماميّ.

"يبدو أنَّ موزارت جونيور تبحثُ عنّا"، قلت وخفضتُ الكاميرا. "لقد فرغت من التصوير".

وجدنا طاولةً غير مكشوفةٍ خارج مقهى دياز بوينت. وعلى الممشى الذي عبرناه للتوّ، كان السيَّاح يجهّزون أنفسهم لالتقاط صورةٍ جماعيَّة لهم. وجَّهتُ تركيزي إليهم باعتبار أنَّ ويل وأماندا كانا يتجادلان بصدد الإنسان البدائيّ؛ لم يتَّفقا على ما يعنيه ذلك بالنسبة إلى ميزانيَّة ويل المخصَّصة لخليج إليزابيث.

لو أنَّني جئتُ إلى هنا بمفردي في شاحنتي، لعدتُ إلى المنزل في وقتٍ أبكر. لكنَّني، كما أصبح الوضع على نحوٍ متزايد، كنت معتمدًا على شقيقتي من أجل توفير الوقود، وهكذا اضطررتُ إلى حضور ذلك النقاش المحتدم.

بعد أن فقدت كلَّ قدرةٍ على تحمُّل المزيد من الزوجين البريطانيَّين، مشيتُ بعيدًا باتِّجاه المحيط حتَّى تلاشت أصواتهما من خلفي. نظرتُ إلى هاتفي: لا رسائل جديدة، ولا إشارة.

كان راكبو الأمواج يمارسون لعبتهم بعيدًا في عرض المحيط؛ ويقلبون ألواحهم بحيث تومض جوانبها السفليَّة باللون الأبيض قبل أن ينطلقوا نحو موجةٍ مرتفعة أخرى. استجاب جسمي لإيقاع حركاتهم، فكلَّما طار لوحٌ في الهواء شعرتُ كما لو أنَّني

أُقذَف إلى الأعلى معه، وبصدرٍ عديم الوزن مثل راكب الأمواج قبل أن يستعدَّ كلانا للحظة الارتطام.

عالَمٌ بسيطٌ من صعودٍ وهبوط. لا ذنب فيه أو تبادل اتِّهاماتٍ مع الماء. حينما أخطأ واحدٌ من راكبي الأمواج في توقيت هبوطه، صحتُ "آخ!" بصوتٍ عال. كمن ارتطمَ بخرسانة. بيد أنَّ شراعَه عاد بالسرعة نفسها منتصبًا مرَّةً أخرى: مثل ريشة حمراء تسحبنا كلانا إلى المحيط.

خرجتُ إلى شرفة منزلي، ودخَّنتُ لفافةً من الحشيشة- طُبِعَت على ورقتها آياتٌ من سفر اللاويين- وذلك كمكافأةٍ لي على تحمُّل ويل وأماندا في الصباح؛ ممَّا يعني أنَّني كنتُ نصف منتشٍ بحلول الوقت الذي قللتُ فيه شقيقتي في رحلتنا إلى شاطئ العقيق. ومع أنَّني كنتُ بحاجةٍ إلى تكلفة الوقود، لكن أخبرتُها أنَّني سأقود شاحنتي الصغيرة كي تتسنَّى لي المغادرة متى أردت.

رأيتُها تنتظرُني تحت أشجار النخيل، عند الممرِّ الخاصِّ للسيَّارات في منزلها، حاملةً بيدها صندوق تبريدٍ مليئًا بحافظات النبيذ، وآخرَ مُغلَّفًا الفلِّين ومليئًا بالنقانق وشرائح لحم الضأن. لا بدَّ أنَّ ثمن اللحوم كان باهظًا. حملتُ الصندوقين كليهما إلى شاحنتي، ووضعَت شقيقتي سلَّةً من الخيزران تحتوي على أوانٍ فخَّاريَّةٍ وبطَّانيَّاتٍ مطويَّةٍ في المسافة ما بين المقعدين الأماميَّين.

"لقد أمضينا صباحًا مُشوِّقًا"، قلتُ في أثناء خروجنا من منزلها.

"أتشعُر بتحسُّنِ الآن؟".

"في قمَّة السعادة"، قلتُ بسخرية. "لكنَّني، ومن باب الاحتياط، جلبتُ معي كميَّةً كبيرةً من الحشيشة".

مددتُ يدي لأشغِّل الراديو لكن أبعدَتها لوسيَّا.

"لقد استمعتُ إلى نشرات الأخبار طوال فترة الظهيرة"، قالَت، "ولم يعد بمقدوري سماع أيّ تقارير أخرى".

"عمَّ تتحدَّثين؟".

"عن الانفجارات".

هززتُ رأسي.

"لقد قَتلوا عشرات الأشخاص، وربَّما المئات، في مترو الأنفاق. كما أنَّ آلاف الأشخاص لا يزالون عالقين. يحدثُ هذا الآن. إنَّ أمرٌ فظيعٌ جدًّا لدرجة أنَّني لا أستطيع تحمُّل التفكير فيه".

"يا إلهي!".

"أخبرني ويل عن تلك الحادثة بعد عودتنا من دياز بوينت".

"يا إلهي! لا أستطيع تصديق ذلك، أي لوسيَّا!".

"ليتَهُ كابوس! ولذا لستُ واثقةً ممَّا سأشعر به إزاء حفل الشواء الليلة تزامنًا مع كلِّ ما يحدث في لندن. ولا سيما أنَّ ويل يريدُ أن يجعل من عيد ميلادي حدثًا كبيرًا؛ لكن لا بدَّ أنَّه يعيد التفكير في ذلك. على أيِّ حال، أحسبُ أنَّني سأشعر ببعض التحسُّن بعد بضعة أكوابٍ من الجعة. وأمَّا الآن، فإنَّني لستُ قادرة على التعامل مع هذا القدر من الواقع".

بدافع العادة، وجدتُ نفسي أقودُ باتِّجاه السوبر ماركت، لكن، وبالنظر إلى أنَّنا لم نكن بحاجةٍ إلى المزيد من لوازم النزهة، فقد عكستُ اتِّجاهي عند أوَّل فرصة وعدنا سريعًا إلى المسار الصحيح.

"كيف حال عملك؟"، سألَت عقِب هذه الهمرجة.

"العمل هو المشكلة".

"أتريد التحدَّث عن الأمر؟".

"ليس الآن..."

لم أستطع تجاهل شعوري بأنَّني نسيتُ شيئًا مهمًّا في المنزل، لكن لم أستطع معرفة ما هو، أو إن كنتُ مُنزعجًا لأسبابٍ أخرى. انعطفتُ يسارًا من دون تفكير، عائدًا باتِّجاه السوبر ماركت، ممَّا جعل شقيقتي تضحك.

"يبدو أنَّك مُصرٌّ على الذهاب للتسوُّق اليوم"، قالت. "أما زلت نصف نائم؟".

"شيءٌ من هذا القبيل". تحقَّقتُ من الطريق عبر المرآة الخلفيَّة قبل أن أنعطِف مرَّةً أخرى، وعدنا من جديدٍ إلى الطريق المفضي إلى أفقر الأحياء المدينة، والمصانع، ومنزل والدينا القديم. انتشلتُ لفافةً من جيب قميصي ومرَّرتُها لشقيقتي كي تُشعلها. شتَّتَت الكلماتُ المطبوعةُ على ورقة اللفافة بخطٍّ ضئيلٍ انتباهها.

قرأتْ من الورقة: "وقلتُ لكم: ترِثون أنتم أرضهم، وأنا أعطيكم إيَّاها لترثوها[1]".

"لقد نفدَت لديَّ أوراق اللفّ من علامة رزلا. وبما أنَّ مساجين فيلمي يستخدمون أوراق الكتاب المقدَّس في لفّ سجائرهم، فخطر ببالي أن أجرِّبها أيضًا. كيف حال ويل بعد ذلك النقاش المحتدم صباح اليوم؟".

---

1 لا: 24:20. ترجمة فان دايك 1865. م.

مرَّرت إليَّ اللفافة المشتعلة، وأخذت سحبةً طويلةً من الحشيشة السكَّريَّة اللطيفة، وحلوةِ المذاق كأنَّها ثمرة خوخ. كانت أفضلَ بكثير من ذلك النوع الذهانيِّ الآتي من كاليفورنيا.

"ليس بخير"، قالَت، "لكنَّه يظلُّ يقول إنَّ ما يحدث مجرَّد زوبعةٍ في فنجان. أخبرني أنَّ عددًا من البلجيكيِّين متحمِّسين للانضمام إلى المجموعة، وتريدُ أماندا أن تترك لديهم انطباعًا جيِّدًا. ولذا تراها تفعلُ كلَّ ما في وسعها لإبهارهم بمهرجان الإنسان البدائيّ. تأملُ أن يستقطب المهرجانُ المزيد من الأشخاص إلى هارموني، ولا أعتقدُ أنَّها ستكون مسألةً صعبةً للغاية؛ ولا سيما مع كلِّ ما يحدث في أوروبَّا".

سحبتُ من اللفافة مرَّةً ثانية، وفي أثناء ذلك تذكَّرتُ ما كان غائبًا عن ذهني: "يا إلهي، أنا آسف يا عزيزتي". انحرفتُ عن الطريق كي أوقِف الشاحنة وأعانق شقيقتي. "عيد ميلادٍ سعيد! أنا آسف جدًّا. هديَّتُك بانتظارك في المنزل. تبًّا! سأحضرها لك في الغد".

"لكن أخبرتُك ألَّا تفعل".

"أعلم"، وقبَّلتُها مرَّةً أخرى. "يا لي من شقيقٍ فظيع! لكنَّني سعيدٌ بأنَّنا سنحتفل هذه الليلة معًا".

"أُقدِّرُ لك انضمامك إليّ؛ خاصَّةً لإدراكي أنَّك غير مُعجبٍ بويل والآخرين..."

"أنا لا أصدِّقُ ما يقول أو يفعل فحسب".

"إنَّه شخصٌ لطيف؛ وهذا كافٍ الآن بالنسبة إليّ. أعلَمُ أنَّه سيُعلنُ الليلة عن خبرٍ مهمّ".

"ستتزوَّجان؟".

لم تبتسِم. "ظريفٌ جدًّا. لا يستطيع فعل ذلك قبل أن يُطلّق أماندا أوَّلًا".

خطرَ ببالي مُصطلحٌ استخدمَه ويل من قبل، فقلت: "إذًا، لا مزيد من <الانجذاب العاطفيّ> بينهما؟"، لكنَّني ندمتُ فورًا على هذه الإضافة. أدرتُ محرّك شاحنتي مجدَّدًا وانطلقت. "لا نريدُ أن يفوتنا منظر غروب الشمس بعد كلّ هذه المشقَّة؛ لن يرفع هذا من شعبيَّتي لدى ويل. بالمناسبة، لم أفهم قطُّ ما الذي يجمع ما بين ويل وأماندا في المقام الأوَّل. كيف حدث هذا؟".

"لا تخبر أحدًا بما سأقوله لك: لقد كان ويل مريضًا لدى أماندا سابقًا؛ أي كانت مُعالِجته".

"ماذا؟"

"هذا ما قاله لي".

"لكن أليس ذلك الفعل غير قانونيٍّ أو شيئًا من هذا القبيل؟".

"إنَّه غير أخلاقيٍّ على الأرجح. على أيّ حال، لا أعتقدُ أنَّ أيًّا منَّا يُفكّر بالزواج؛ ليس من بعضنا على الأقلّ".

"فماذا بعدُ إذًا؟".

"إنَّني أنتظرُ أن يُخرِج فكرة خليج إليزابيث من رأسه، وبعد ذلك سنرى".

"لكن لن يحدث هذا في أيّ وقتٍ قريب؛ أقصدُ بناءً على تصرُّفات أماند في صباح اليوم".

اقتربنا من اللافتة التي تدلُّ على موقع الشاطئ. كنتُ أقودِ بسرعةٍ أكثر بقليلٍ من اللازم، ولذا فرقعَتْ بعض الحصيات تحت

شاحنتي حينما انعطفت بها. فضغطتُ على المكابح، واضطررنا إلى إغلاق نوافذنا بينما أحاط بنا الغبار الأصفر من كلّ جانب.

"أخشى أنَّك تشيطِنُ أماندا"، قالَت شقيقتي.

"ماذا تقصدين؟".

"إنَّها ليست إنسانةً سيِّئة. إنَّما تحاولُ حماية هارموني فحسب".

"أيًّا يكن؛ الفكرة أنَّني لا أشعر بالراحة تجاهها. فهي بريطانيَّة قُحَّة".

"لكنَّها ليست بريطانيَّة؟".

"عفوًا؟".

"إنَّها تُجيد اللكنة، لكنَّها من مواليد جوهانسبرغ؟".

"ماذا؟".

"هذه هي الحقيقة. بيد أنَّها تكره جنوب أفريقيا. لقد عاشت في لندن لسنوات، حيثُ تمارس عملها بنجاحٍ مع مجموعةٍ من المُعالجات والمُعالجين. يقول ويل إنَّها تزوَّجته خوفًا من أن تطرُدها دائرةُ الهجرة خارج البلاد. وبعد كلِّ ما حدث معه من متاعب في فترةٍ لاحقة، فإنَّها جاءت إلى هُنا في إجازةٍ وقرَّرت افتتاح مُنتجَعٍ علاجيٍّ في ناميبيا. أعتقدُ أنَّها استأجرَت موقعَ هارموني من البلديَّة، لكنَّني أشكُّ في مسألة أن زملاءها في لندن سينضمُّون إلى مغامرتها، على الرغم من أنَّهم وصفوا فكرتها بالرائعة في ذلك الوقت. لكن أظنُّ أنَّها ستبقى هُنا حتَّى إشعارٍ آخر".

"هل أنتِ جادَّةٌ بصدد أنَّ أماندا جنوب-أفريقيَّة؟".

"ستُسرُّ لو عرفت أنَّك اعتقدتَ أنَّها إنكليزيَّة".

مررنا بجانب أوَّلى لافتات المنطقة المحظورة التي تحذِّرنا من الخروج عن المسار المخصَّص. قادنا هذا الطريق المرصوف بالحصى إلى قمَّة تلَّةٍ شديدة الانحدار متاخمةٍ المنطقة المحظورة.

أمسكَت لوسيًّا الكاميرا قبل أن تسقط عن لوحة القيادة.

"هل تريدين وضعَها في صندوق هُنا أمامك؟"، سألْت.

"ما أريدُه حقًّا هو أن تحظى الليلةَ ببعض الاسترخاء"، قالَت. "استمتع بوقتك. وإذا أثار شيءٌ ما اهتمامَك إلى درجة تصويره، فبإمكانك أن تجلب كاميرتك من هُنا في أيِّ وقت".

"حسنًا، ضعيها في الصندوق. لا مانع لديّ".

"أودُّ إخبارك أنَّ الأطفال أمضوا وقتًا ممتعًا في حصَّتك عن صناعة الأفلام. أتعتقدُ أنَّ بإمكانك أن تخصِّص لهم حصَّةً أخرى؟".

"ليس لديَّ في هذه الأيَّام سوى الوقت. فقط حدِّدي أيَّ يوم سبتٍ يُناسب جدول مواعيدك، وسآتي بالتأكيد".

"متى تعود إلى ويندهوك؟".

"أعتقدُ أنَّ ذلك لن يحدث أبدًا". ومن دون أن أنتظَر سؤالَها، أخبرتُها أنَّ علاقتي غير المستقرَّة بياغو قد انتهت.

"كنتُ أظنُّ أنَّكما ستكونان مناسبين لبعضكما"، قالَت. "ألا تريد العيش هناك؟".

"كلَّا، ليس بعد الآن. لن أرحل عن هُنا في أيِّ وقتٍ قريب. تفكيري مشغولٌ في هذه الآونة أكثر من اللازم".

عند قمَّة المنحدر، وخشية أن تنقلب شاحنتي، ضغطتُ على دوَّاسة الوقود بكلِّ قوَّةٍ واندفعنا إلى الأمام؛ متجاوزين تلَّة

نوتيلوس حيثُ انكشف لنا الشاطئ المقوَّس على نحوٍ معتدل.

ركنت شاحنتي وسط الدخان الذي كان يعجُّ برائحة اللحم، على مقربةٍ من سيَّارة ويل من طراز فولكس فاجن. كانت أبوابها مُشرَّعةً ومذياعها يبثُّ موسيقا صاخبة. حضرَ قرابة عشرين شخصًا- بعضهم وجوه جديدة بالنسبة إليّ- والتفتوا جميعهم للنظر إلينا. لوَّح ويل، ووقفت أماندا وراءه تمامًا.

"أعتقدُ أنَّنا وصلنا"، قلت.

—

جلسَت أماندا وسيكستن على الملاءة بالقرب منّي. دقَّقت أماندا النظر في حفنةٍ متنوِّعة الألوان والأشكال من حبَّات العقيق التي جمعَتها من الشاطئ. كانت تقلّب الحصيات بأصبعها، وتعطي بعضها من ذات الأنماط المميَّزة إلى سيكستن كي يتأمَّل روعتها.

رأيتُ كيانو يلعب مصارعة الأذرع مع عددٍ قليلٍ من المتطوِّعين الذين جلسوا جميعهم بعيدًا عن الأعضاء الدائمين في هارموني. لمحتُه مرَّةً أو مرَّتين ينظر باتِّجاهي، لكنَّه لم يردَّ عليَّ عندما سلَّمت عليه من بعيد. لم أستطع تحديد ما إذا فعل ذلك تجاهلًا، أم أنَّه كان مشغولًا أكثر من اللازم باستعراض قوَّته.

تحدَّث الرجل من زيمبابوي عن الانفجار الذي وقع في خطِّ مترو أنفاق فكتوريا: عرفَ من مصدرٍ موثوقٍ- ولم يكن هذا سوى صهره الأيرلنديّ- أنَّ الدولة البريطانيَّة تقف وراء هجوم اليوم. لقد أحبطَت شرطتهم مؤخَّرًا محاولةً لإحداث خرمٍ في نهر التايمز كان الهدف منه إغراق شبكة الأنفاق عن آخرها. وزعم قريبه حينئذٍ أنَّ تلك العمليَّة جزءٌ من مؤامرةٍ يقف وراءها المكتب الخامس

في هيئة الاستخبارات العسكريَّة البريطانيَّة. لم يتساءل أحدٌ في السبب الذي قد يدفع جهاز الاستخبارات إلى تفجير لندن.

كنتُ أشرب ثالث كوبٍ من الجعة عندما سمعتُ أماندا تسأل: "هل الجميعُ هنا؟"، وصاحَ كيانو بكلامٍ غير مفهوم بصدد المحيط. حميتُ عينيَّ من وهج الشمس التي كانت قريبةً من خطِّ الأفق، لكن بالكاد استطعتُ تميز ملامح ويل وشقيقتي عند حافَّة الماء. كان عباب الموج أعلى من أن يسمعا نداءات كيانو.

قالت أماندا: "هل يستطيع شخصٌ ما أن..."

"سأذهب إليهما"، ردَّ كيانو. هرع نحوهما مُلوِّحًا بكلتا يديه بشغف. بحلول الوقت الذي انضمَّ الثلاثة فيه إلى المجموعة مرَّة أخرى، ازدادت سرعة الرياح الجنوبيَّة-الغربية ممَّا أدَّى إلى انخفاض درجة الحرارة.

أخذت شقيقتي توزِّعُ ما جمعَته من ورود الصحراء على المجموعة. ("ودرتي مكسورة"، قالَت أماندا، وهُنا التقَت عيناي بعيني لوسيًّا). بعد أن تأمَّلنا جمال البلَّورات، أعادت شقيقتي جمعها على الملاءة التي كانت تتشاركها مع ويل. تلألأت ورود الصحراء، ومعها شاطئ العقيق كلُّه، بفعل الشمس أشعَّة الشمس المنخفضة.

نهضَت أماندا، لكنَّ ويل قاطعها قبل أن تنبس بحرف.

"أودُّ أن أشكركِ على إنشاء موقعنا الإلكترونيِّ الرائع"، قال، مشيرًا بيده نحوها. "كما أتوجَّه بالشكر أيضًا إلى هنري على تصويره محاضراتي. متى يمكننا تصوير محاضرةٍ أخرى؟".

"حينما تدفع لي أجري!"، قلت. باغتَه جوابي، لكنَّه قهقه

بلطف قبل أن ينتظر حتَّى استقرَّ الجميع في أماكنهم.

تخلَّيتُ عن محاولتي تصويرَه باستخدام هاتفي عندما خامرني الشكُّ بصدد مدى جودة الصوت وسط تلك الرياح العاتية. وعلى أيِّ حال، فقد كرَّر كلامًا سمعتُه من قبل: الاستقطاب الصناعيّ... والتوازن العاطفيّ. لكن لم يبدُ كلامه فخمًا هذه المرَّة؛ إمَّا لأنَّني اعتدتُ سماع لهجته أو لأنَّه كان يتعمدَّ تبسيطها.

ليَّن صوته عند لحظةٍ ما، وقال: "لقد أدركتُ أنَّنا أضعنا بوصلتنا؛ أو بالأحرى أنَّنـــي أضعتُ بوصلتي. علينا العودة إلى مبادئنا الأساسيَّة. أخشى أنَّنا أصبحنا مهووسين بإعادة تصميم هارموني، وأنَّنا سنصير ضاحيةً للودريتز، أو ربَّما حتَّى منتزهها الترفيهيّ. نحنُ قريبون من المدينة وتأثيرها أكثر ممَّا ينبغي؛ على مسافةٍ لصيقةٍ لا تسمحُ لنا بتحرير أنفسنا من المجتمع. لذا، علينا البدء من جديد. علينا أن نخلق مجتمعًا لا يبدو وكأنَّه مجسَّمٌ وهميٌّ ثلاثيُّ الأبعاد. ولهذا السبب، أريدُ أن نرحل بعيدًا عن لودريتز، وبعيدًا عن هارموني، صوبَ جزءٍ أصيلٍ حقًّا من ناميبيا. لقد تنامى إلى مسامعكم أنَّني أمضيتُ بعض الوقت في خليج إليزابيث، وأعتقدُ أنَّه أنسبُ مكانٍ لمتطلَّباتنا".

حدَّق سيكستن في أماندا التي ثبَّتت عينيها باتِّجاه ويل. وبدا أنَّ أعضاء المجموعة سيبقون مخاوفهم- إن كانت لها وجود- طيَّ الكتمان.

أرسلَتْ أماندا المتطوِّعين للبحث عن أخشابٍ جافَّة، وتعاونتُ مع كيانو وسيكستن في تفريـــغ حفرةٍ ضحلةٍ في الرمل. بعدئذٍ، كدَّسنا ما جُمع من أخشابٍ على هيئة هرم، وحتَّى أن ويل حاول

أن يعلّمني كيف أصنع الكرات من ورق الجرائد!

طلب ويل من الجميع الوقوف على بُعد مسافةٍ كافيةٍ في أثناء إضرامه النار في المحرقة.

صارت الرياح أبرد من ذي قبل، مُتسبِّبةً بشراراتٍ وفرقعاتٍ مُتكرِّرةٍ من موتٍ وبعثٍ في داخل الحفرة أمامنا. نقلنا بطّانيَّتنا إلى أقرب مكانٍ ممكنٍ من ألسنة اللهب الخافتة التي لم تنبعث عنها إلّا القليل من الحرارة. نشر الجميع صورًا للشمس الغاربة، في حين أخذت لوسيًّا تنثر ورود الصحراء حول النار مثل كواكب تدور حول جرمٍ سماويٍّ جديد.

توهَّجت نارُ الموقد، وامتلأ صدرُ السماء بكلِّ نجومِها.

صفَّقت أماندا، وقالت: "لديَّ ما أقوله".

"حان وقت لفافة الحشيشة"، قلتُ لشقيقتي، مُتفحِّصًا جيب سروالي لأتأكَّد من وجودها؛ وربَّما من الجيِّد أن يُرفقَ أيُّ شيءٍ قد تقوله أماندا مع جرعةٍ من المؤثِّرات النفسيَّة.

شعرتُ بالقلق بصدد أنَّها ستشرعُ بانتقاد المجموعة، لكنَّها اختارَت الحديث عن المال في هذه الأمسية: "تعرفون جميعًا أنَّنا بحاجةٍ إلى المزيد من الأعضاء. في الوضع المثاليّ، سيكون أولئك أوروبيّون أو أميركيّون- ولا أقصدُ هُنا الإساءة إلى متطوِّعينا المحليّين- بفضل عملاتهم الصعبة. لذا من دواعي سروري أن أعلمكم أن يانيس وأصدقاءه سينضمُّون إلينا قريبًا جدًّا. لكنَّنا، بالرغم من ذلك، لا نزال بحاجةٍ إلى المزيد من الأشخاص، وهذا ما يدفعنا إلى استثمار كلِّ طاقاتنا في المهرجان. وعلى غرار مهرجان صحراء نيفادا، ستكون مدينتنا المخصَّصة للاحتفالات

مكانًا حيثُ كلُّ شيءٍ ممكن. استعراضاتٌ فنيَّةٌ ضخمة؛ وألعابٌ ناريَّة؛ وأيُّ شيءٍ قد يخطر ببالك أحدكم.

الفرقُ هُنا أنَّنا نُمثِّل شيئًا رائعًا. نحنُ نعرف من نكون؛ ونحنُ هُنا لنبقى. نحنُ أقوياء، ومستقلُّون. بمقدورنا النجاح، ولن يقف أحدٌ في طريقنا. سنستقطبُ أعضاء جددًا، وسنحصل على ما يكفي لتمويل ما تبقّى لدينا من أعمال بناء".

"وسنتوسَّعُ باتِّجاه خليج إليزابيث"، أضاف هنري.

لم تردَّ عليه، وإنَّما- بدلًا من ذلك- شرعَت بعرض الأزياء صنعَتها خصِّيصًا لمهرجان الإنسان البدائيّ. كانت التصاميم مستوحاةً من لوحات البوشمن، وجيِّدةً على عكس التوقُّعات.

استلقيتُ على ظهري، ما بين سيكستن وشقيقتي، مشدوهًا بمنظر السماء البهيّ. داعبَت لوسيًّا ذراعي بأصابعها الناعمة، مثلما كانت تفعلُ حينما كنَّا أطفالًا.

"ماذا تعرف عن عمليَّات الهبوط على سطح القمر؟"، سألَ سيكستن. ثمَّ سند خبير قناديل البحر الإسكندنافيُّ نفسه على مرفقه بغية مواصلة الحديث. "ستكون مادَّةً دسمةً لفيلمٍ وثائقيّ مثير للاهتمام".

"أتقصدُ وثائقيًّا عن الأسباب التي تدفع بعض الناس إلى الشكِّ بصدق عمليات الهبوط تلك؟"، سألتُه من دون أن أشيح نظري عن النجوم.

"إذا بحثت في الأمر جيِّدًا، فستجدُ أنَّه من الممكن تزوير مثل تلك العمليَّات بسهولة"، قال. "ومجرَّدُ تعارُض وجهة النظر هذه مع الرواية الرسميَّة لا يقتضي أنَّها خاطئة بالضرورة. ولعلمك،

مكتبة ياسمين

فقد كان ستانلي كوبريك[1] يعمل لصالح الحكومة الأميركيَّة في ذلك الوقت".

شهقتُ حين أتى على ذكر اسم صانع الأفلام بصورةٍ غير متوقَّعة. "أنا على يقين أنَّك محّق"، قلتُ مُسلِّمًا، غير راغب بالخوض في نقاش، "لكن سيتعيَّنُ على شخصٍ غيري أن يصنع هذا الوثائقيّ".

"أنا لا أصدِّقُ كلَّ ما يقولونه، لكن ليس بإمكاننا استبعادُ الأفكار لأنَّها مختلفةٌ فحسب".

أغرَتني فكرة أن أقول له إنَّني سَئمتُ من الأشخاص الذين يُضيّعون وقتي، بما في ذلك الحكماء الثلاثة في حياتي: ويل، وتشزلي، وياغو، بيد أنَّ المكان لم يكن مناسبًا. "سيكون باهظ التكلفة"، قلت، "وسيستلزمُ الكثير من السفر". لم أُضِف: "لكن ليس إلى القمر، بالطبع".

تحدَّث سيكستن عن ظلالٍ مثيرةٍ للشكّ، وشُعيراتٍ مُتصالبةٍ غير مُتطابِقة (شيءٌ لم أفهمه تمامًا)، في صور الهبوط. كما كان يعرفُ كلَّ شيءٍ أيضًا عن أضواء الأستوديو التي انعكسَت خلال تفكيك موقع تصوير القمر في فيلم ٢٠٠١: ملحمة الفضاء[2]؛ وكيف أرسلَت أستوديوهات شيبرتون عن طريق الخطأ بثًّا مباشرًا

---

1 ستانلي كوبريك (1928-1999): مخرج ومصوِّر ومنتِج أميركيّ، يعتبر واحدًا من أهمّ صُنّاع الأفلام في التاريخ. م.

2 2001: ملحمة الفضاء: فيلم خيال علمي من إخراج وإنتاج ستانلي كوبريك. عُرض في سنة 1968، وحصل على العديد من الجوائز الرفيعة، أبرزها أربعة ترشيحات أوسكار؛ فاز منها بجائزة أفضل تأثيرات بصريّة. م.

إلى أستراليا- قبل أن يتسنَّى لوكالة ناسا تنظيف تلك الفوضى- حيثُ ذُهِل الأستراليُّون حين شاهدوا زجاجة كوكا كولا تتدحرجُ على سطح القمر.

أعطيتُه لفافة حشيشة جديدة، وأخبرتُه بأن يبقيها كلَّها لنفسه.

"ما برجك؟"، سألَ بعد أن استلقى على ظهره.

"أنا؟"، قالَت شقيقتي. "الحوت".

"لا أظنُّ أنَّ بإمكاننا رؤية كوكبتك. وماذا عنك، يا أماندا؟".

"الدلو".

"حامِل الكأس. لا يمكن رؤية كوكبتك أيضًا في هذا الوقت من السنة في نصف الجنوبيّ من الكرة الأرضيَّة. وأنت، يا هنري؟".

"العقرب".

"هذا منطقيّ"، قالَت أماندا.

"أنتَ في مركز درب التبَّانة"، قال، متجاهلًا تعليقها. "من السهل العثور على نجمِ قلب العقرب". أشار بيده إلى السماء، وقال: "ادنُ إليّ".

انتقلتُ إلى بطَّانيَّته بحيث أصبح رأسي بجوار رأسه، وحدَّقتُ في الأضواء المتناثرة وراء طرف أصبعه تمامًا، غير واثقٍ ممَّا إذا كنتُ أحدِّقُ في الاتِّجاه الصحيح.

عثرتُ على النجم بفضل مساعدته. كان أكثر بريقًا ممَّا توقَّعت، ومحاطًا بتوهُّجٍ ضاربٍ إلى الحمرة. رسَّم سيكستن بأصبعه خطًّا من قلب العقرب إلى نجم جبهته- وهذا الأخير نجمٌ ذو بصيصٍ ضئيل وبعيد- ليُكوِّن جبهة العقرب. متحمِّسًا إزاء فكرة العثور على نمطٍ في وسط الفوضى، قلت: "أين سائر الكوكبة؟". أصبح

مكتبة ياسمين

شكلُ الحيوان العنكبوتيّ المتقوّس أوضحَ الآن بعد أن أراني إيّاه. "هل هذا ذيلُه؟".

"أجل، تسعة نجومٍ أو عشرة، وصولًا إلى إبرته. ليس هنالك نجمٌ واحدٌ فحسب عند الطرف هنالك، بل نجمان: شاولا وليساث. إنَّ العقرب عنقودٌ نجميٌّ مثيرٌ للاهتمام؛ فهو المكان حيثُ يكتشفُ علماءُ الفلك الكواكبَ خارج المجموعة الشمسيَّة. كلُّ تلك الحياة هنالك في البعيد، بانتظار أن يُعثر عليها...".

ظللنا لأربع ساعاتٍ نمسح السماء بحثًا عن أجسامٍ طائرةٍ مجهولة بينما واصل سيكستن حديثه عن الكوكبات النجميَّة. كان على اطّلاعٍ على أساطيرها. "إنَّها قريبةٌ جدًّا"، ظلَّ يقول، ولم أستطع معرفة ما إذا كان يقصد بكلامه النجوم أو الكائنات الفضائيَّة. "أستطيع أن ألمسها إن نهضتُ على قدميّ".

"هل تؤمنُ حقًّا أنَّ هنالك حياةً في مكانٍ ما هنالك؟"، سألته.

"ينبغي، باعتباري عالمًا أن أقول إنَّنا لا نعلم. لكنَّني، كإنسان، لا يسعني إلَّا افتراض أنَّه نظرًا لوجود الكثير جدًّا من الحياة على كوكبنا، وحتَّى في أكثر مناطقه قسوة، فإنَّه لا بدَّ أنَّ بقيَّة الكون تعجُّ بالحياة أيضًا. نسبةٌ صغيرةٌ فقط من أشكال الحياة خارج كوكب الأرض قد تكون ذكيَّة؛ لكنَّ بعضها قد شكَّلَ حضاراتٍ وربَّما طوَّر تقنيَّاتٍ تَفوق تقنيَّاتنا. تخيَّل فحسب كم من الممكن أن تكون تقنيَّاتهم تلك ذات فائدة لنا".

"ماذا تقصد؟".

"تطوير إنتاجيَّة الغذاء العالميَّة، والوصول إلى طاقةٍ نظيفة. علاج السرطان. والأمراض عمومًا. والقضاء على الموت. بإمكانهم

مساعدتنا بطرقٍ مذهلةٍ لا حصر لها".

"ربَّما"، قلت، لأنَّ، بحسب خبرتي المتواضعة، علاقات القوَّة غير المتوازنة لم تنتهِ يومًا بصورةٍ طيِّبة. "إنَّك تفترضُ أنَّ كائناتك الفضائيَّة المتطوِّرة هذه تريدُ مساعدتنا. ربَّما سيعالجون أمراضنا كي يجعلونا عبيدًا أقوى".

"لا يبدو عليك أنَّك شخصٌ متشائم".

"لستُ كذلك".

أرسلنا إشاراتٍ دخانيَّةً بالنيابة عن البشريَّة إلى الكون المتفجِّر بُعيدَ بوصاتٍ قليلةٍ فوقنا. ومثل طائرةٍ ورقيَّة، انجرفَت كوكبة النُّعَيم في النسيم. شعرتُ بأنَّني أهبطُ إلى الأعلى، في اندفاعٍ نحو السماء الشاسعة. طفتُ ما بين النجوم، ومن موقعيَ المرتفع، تأمَّلتُ ألياف ضوئيَّة تتوهَّجُ في البعيد جدًّا، تحتُ على كوكب الأرض، إذ تتقاطعُ طُرُقها وكأنَّها مساراتُ حيوانات. وفي موقعٍ أبعدَ منها، حول لودريتز، تناثرَت مقابرُ مجهولةٌ مِن معسكرات الاعتقال، كما لو كانت تخطُّ سبيلي إلى الخلاص.

"هنالك واحد فوق"، قال كيانو.

كلَّا، لا علاقةَ ما بين قمرٍ اصطناعيٍّ والكائنات الفضائيَّة. إنَّما أشعة الشمس المنعكسة من على مركبةٍ من صنع البشر، وذات قشرةٍ من التيتانيوم، تتسبَّبُ بالوميض الذي ظهرَ في السماء.

شعرنا بالملل في أثناء انتظار مجيء الكائنات الخضر الصغيرة كي تُنقذنا، قبل أن ينتقل موضوع المحادثة إلى تفجيرات لندن. لم أكن مهتمًّا بذلك، لذا شرعتُ أنشر الفضائح على مسامع من كانوا بالقرب منِّي بشأن نجوم سينما عالميِّين كتومين، وذلك بناءً على

ما سمعتُه من إشاعات.

"وماذا عنك، يا هنري؟"، سألَت أماندا. "أقصدُ ماذا عن حياتك العاطفيَّة؟". كانت تلك أوَّل مرَّةٍ تخاطبني بها مباشرةً طوال الليل.

"أنا؟ لستُ في علاقةٍ جادَّةٍ حاليًا".

"بعض الأشخاص محظوظون في الحياة إذ يعثرون على آخرين يبادلونهم الحبّ"، قالَت. "هُم يذهبون إلى النوم ليلًا وفي داخلهم يقينٌ بأنَّ الشخص النائم بجوارهم يحبُّهم أكثر من أيِّ شخصٍ آخر في العالم. ولكن ثمَّة آخرين، مثلي، تراهُم يحاولون قدر المستطاع، بيد أنَّهم لا يبلغون مرادهم أبدًا. ربَّما هذا قدري ونصيبي في الحياة". ثمَّ أضافَت: "أعلمُ أنَّني لا أُظهِر الكثير من المشاعر، وهذا أمرٌ أندمُ عليه".

لم أفكِّر من قبل بأنَّها تشعرُ بهذا القدر من عدم الارتياح، أو أنَّها تتوقُ إلى شخصٍ يحبُّها.

"وأنا أيضًا". خرجَت الكلمات بصوتٍ عالٍ وعن غير قصد.

"لم أحظَ بحياةٍ لائقة"، قالَت. "أشعرُ في بعض الأحيان، على غرار هذه الليلة، أنَّني أنتمي إلى الجنس البشريّ. لكنَّني أدركُ أنَّني سأنحسبُ بُعيد وقتٍ قصيرٍ عائدةً إلى موقفي الدفاعيّ المعتاد، على الرغم من أنَّني أتمنَّى عدم حدوث ذلك. ألن يكون رائعًا لو أنَّ بمقدورنا ترك كلّ الأمور السيِّئة في الماضي؟".

"أحقًّا لم تسمَع من قبلُ بكويفوت؟"، سأل كيانو سيكستن قبل أن يرفع الأوَّل قميصه ليعرضَ أحدثَ مُقتنَياته: وشمٌ بكلماتِ "كويفوت" و"صُنِع ليُحارب" بأحرفٍ لاتينيَّةٍ على حلمته اليسرى. ثمَّ شرحَ أنَّ هذا الشعار يخصُّ الكتيبة ٣٢ التي

كانت تتبعُ قديمًا لوحدة الدفاع الجنوب أفريقيَّة.

"بالطبع!"، قال كيانو بحماسةٍ والتفتَّ إليّ. "يا هنري، يجبُ أن تصنع فيلمًا عن الحرب الأنغوليَّة. عليك أن تتحدَّث إلى والدي. لقد كان هنالك عند الحدود، وفعل الكثير من الأشياء التي لا يُصدِّقها عقل. فلنذهب لزيارته في منزله في سواكوب. سأعرِّفه عليك، كي يخبرك بكلِّ الأشياء الشنيعة التي أرغمه الجيش على ارتكابها".

"أتقصدُ الجيشَ الجنوب أفريقيّ؟"، سألَ سيكستن مستوضحًا.

"أجل، كان الوضع فوضويًا جدًّا حينئذ"، قال كيانو. "سيحكي لك والدي قصصًا عن كويفوت من شأنّها أن تجمِّد الدم في عروقك".

"وما هذه؟"، سألَ سيكستن.

"كويفوت؟".

"إنَّهُ اسمُ وحدة شرطة"، قلتُ موضحًا.

"أجل، وتعني باللغة الأفريقانيَّة تلك الأداة المعدنيَّة التي تَستخدُمها في فتح الصناديق الخشبيَّة. ليسَت السقاطة.. إنّما هي أقربُ إلى العتلة التي هشَّمَت الغطاء عن أنغولا كي يتسنَّى لنا القبض على كلِّ الإرهابيِّين الذين كانوا مختبئين هناك. واسمح لي أن أخبرك بأنَّ هذا يبدو أكثر اعتدالًا ممَّا فعله الجيش على أرض الواقع. كانوا خلَّاقين! لقد كانوا يصطادون الإرهابيَّ ويجعلونه يغنِّي مثل طائر كناريّ. لم يهدر عناصر كويفوت الوقت؛ وإنَّما كانوا يجمعون الأنغوليّين داخل طائرةٍ عسكريَّةٍ مهيبة، من دون أن عصاباتٍ على أعينهم، ويطلبون من الإرهابيِّ الرئيسيِّ الاختيار

مكتبة ياسمين

ما بين التحدُّث أو أن رفاقه سيتعلّمون الطيران".

"الطيران؟"، سأل سيكستن.

"أجل، درسٌ سريعٌ لكن بنسبة نجاحٍ محدودة. يقول والدي:<ظللنا نُحاول إتقان الرحلة البشريَّة ذاتيَّة الدفع، بيد أنَّنا لم نعثر على رجلٍ لديه الموهبة لفعلها>. لقد كانوا يطيرون بهم فوق البحر..."

"انتظر"، قاطعه سيكستن. "أتقصدُ الإرهابيِّين؟".

"أجل"، أجاب كيانو وقد بدا عليه الاستياء لكثرة المقاطعة، "كانوا يضعون الإرهابيَّ ورفاقه في الطائرة، ويأخذونهم في نزهةٍ لطيفةٍ فوق المحيط الأطلسيّ. بعدئذٍ يبدأ الاستجواب؛ وإذا لم يقتنع الجنود باعترافات زعيم العصابة، فإنَّهم يفتحون باب الطائرة ويرمون خارجه واحدًا من الإرهابيِّين".

"تقصد أنَّهم يتظاهرون بفعل ذلك، صحيح؟"، قال سيكستن.

توقَّفتُ عن لفِّ لفافة حشيش جديدة.

"لا، يا رجل، بل يرمونه بحقّ. مثل أولئك الذين يقفزون بالمظلَّات، أتعرفهم؟ لاعبو القفز الحرّ! لكن مع فارق أنَّ هذا الرجل ليس محظوظًا بما يكفي للحصول على مظلَّة. بمقدور والدي أن يُحدِّثك عن هذه الأمور كلِّها. ينبغي أن تلجأوا إلى هذه الطريقة لديكم في أوروبَّا، فهي كفيلةٌ بالتخلُّص مّما لديك من إرهابيّين في لمح البصر".

"أعتقدُ أنَّنا سمعنا ما يكفي"، قال ويل.

"أتقصدُ عن مخابيل يركلون الناس من الطائرات؟ أجل، يا ويل، أتَّفق معك"، قالت أماندا.

"كما قلت"، قال كيانو مُؤكِّدًا ومن دون أن يزيـح عينيه عنِّي، "كان والدي مجرَّد عاملٍ عاديٍّ في مزرعةٍ صغيرةٍ قبل أن يتقاعد. لذا فهو ليس مخبولًا بأيِّ شكلٍ من الأشكال. لكن لديَّ فكرة فيلمٍ أخرى لك، يا هنري. في إحدى الليالي، كان والدي يحرس الحدود من الإرهابيِّين الكوبيِّين برفقة أقرب صديقٍ له منذ أيَّام المدرسة الثانويَّة. ظلَّ الرجلان مستيقظَين عند الحدود، وفي وقتٍ متأخِّر جدًّا، قرابة الواحدة ليلًا، خرجا في دوريَّةٍ ليترصَّدا الإرهابيِّين الشجعان الذين يحاولون التسلُّل إلى القاعدة. ومن ثمَّ سمعَ والدي صوتًا ما".

"لا أدري لماذا، لكن ينتابني فجأةً شعورٌ سيِّئٌ جدًّا بصدد ما سيحدث لاحقًا"، قال أخدهم ورائي مقاطعًا. ميَّزتُ الصوت؛ كان صوت كوينتي. كان يبتسم حينما التفتُّ لأنظُر إليه. "هل وصلتُ في الوقت المناسب لحكاية ما قبل النوم؟" قال.

تابع كيانو كلامه، من دون أن يعير انتباهًا للأستراليّ: "فأطلقَ والدي النار باتِّجاه مصدر الصوت. وهكذا، بكلِّ بساطة، سقط صديقُه المفضَّل ميتًا".

"هذا فظيع!"، قال ويل مذعورًا. "أعتقدُ حقًّا أنَّنا سمعنا ما يكفي".

"أجل، كان تصرُّفًا أحمق"، قال كيانو. "بإمكان والدي أن يُحدِّثك عن ذلك كلِّه". (ولأنَّ كيانو كان يوجِّهُ حديثه إليَّ طوال الوقت، فقد رمقَني ويل بنظرةٍ سخطٍ كما لو كنت أُشجِّع الولد على مواصلة حديثه). "لعلمِك، يجبُ أن تصنع فيلمًا وثائقيًا مذهلًا

مكتبة ياسمين

عمَّا أخبرتك به، وكذلك عن طريقة معاملة سوابو[1] لرفاقهم في زامبيا. أجل، لم يكن جيش التحرير الناميبيّ ملائكيًّا أيضًا. هل لديكم يا أصدقاء أيُّ فكرةٍ عمَّا حدث في معسكر مبوروما[2]؟".

"أعتقدُ أنَّنا سمعنا أكثر ممَّا يكفي، يا كيانو"، قالَت أماندا. "شكرًا لك".

رنَّ هاتفي. بحثتُ عنه لبعض الوقت قبل أن أعثر عليه.

"ألو!"، قلت، وابتعدتُ عن المجموعة بصعوبة. كنتُ دائخًا أكثر ممَّا ينبغي لأظَّل منتصبًا، لذا لم أتمكَّن من المشي سوى بضع خطوات باتِّجاه شاحنتي قبل أن أسقطَ على ركبتيّ. لم أرغب بالبقاء قريبًا من الشاحنة لأنَّني لم أكن واثقًا من قدرتي على منع نفسي من الجلوس خلف عجلة القيادة، لذا حاولتُ النهوض مرَّةً ثانية.

"هل تستطيع التحدُّث؟"، قالَ الصوت على الطرف الآخر من الخطّ.

"انتظر لحظة".

أشار كيانو إليَّ، وقال: "ذلك ما يجبُ أن تفعلَه".

"تبًّا لهذا الهراء الذي لا ينتهي!"، قال ويل.

"خُذ"، قالَت أماندا وناولَت كيانو زجاجة جعة.

---

1 سوابو (اختصار للمنظَّمة الشعبيَّة لجنوب غرب أفريقيا): بدأت سوابو كحركة كفاحٍ مُسلَّحٍ ذات في ناميبيا في سنة 1960، قبل أن تتحوَّل إلى الحزب السياسيّ الحاكم منذ استقلال البلاد في 1990 إلى يومنا هذا. يتبنَّى الحزب منذ سنة 2017 أيديولوجيا اشتراكيَّة ذات طابعٍ ناميبيّ م.

2 معسكر اعتقالٍ سيِّئ الصيت في مدينة كابوي، عاصمة المحافظة الوسطى في زامبيا. شهِد المعسكر حادثة تصفية مروِّعة في سنة 1976. م.

"إنَّكِ بحاجةٍ إلى شيءٍ بمفعولٍ أقوى من الجعة كي تسكتيه"، قال كوينتي. "هل لديكِ شراب كولايد؟ سيكون ذلك كفيلًا بإغلاق فمه إلى الأبد".

"سأتمشَّى قليلًا"، قلتُ بصوتٍ مرتفعٍ قبل أن أنطلق بخطواتٍ واسعةٍ نحو المحيط المضطرب.

مسرورًا بالابتعاد عن الجميع، تتبَّعتُ آثار البخار الباهتة التي تجمَّعت بالقرب من المياه إلى أن اختلَّ توازني وجلستُ أرضًا.

"من معي؟"، سألتُ هاتفي.

"أنا ميتش"، قال الصوت. "هل الوقت مناسبٌ الآن للتحدُّ ث ؟ ".

"ميتش دنكر؟ أجل، بإمكاننا التحدُّث الآن".

"جيِّد. بصدد المقابلات الأخيرة التي أجريتها؛ أودُّ الحصول على مقاطع التصوير غير المُعدَّلة إن كان ذلك ممكنًا".

"ماذا تقصد؟".

"قد لا يكون الأمر مهمًّا، لكن بدا لي أنَّ الأشخاص في آخر مقابلاتِك مُتردِّدون بعض الشيء".

"مُتردِّدون؟".

"لا أدري كيف أصيغ ذلك بالضبط، لكن ثمَّ خطبٌ ما. أشعرُ وكأنَّهم قد ذاكروا مُسبقًا ما يقولونه لك قبل قوله. ربَّما للأمر علاقةٌ بالتعديلات التي أجريتَها، لأنَّ التوقيت يبدو غريبًا بعض الشيء. هذا كلُّ شيء".

تأرجح ضوء المنارة عبر المحيط المفتوح وصولًا إلى الشاطئ حيث أضاء الأمواج التي كانَت تجرفُ حجارته. شعرتُ بالانزعاج

من الضوء، وتقتُ للعودة إلى منزلي.

"هل ما زلت هُنا، يا هنري؟".

"أجل، هُنا. لقد أرسلتُ إليكَ كلَّ ما لديّ".

"ربَّما لم أوضِّح مقصدي بما فيه الكفاية. إنَّني أطلب منك أن ترسل إليَّ كلَّ الموادِّ التي صوَّرتَها قبل التعديل".

فكَّرتُ لبعض الوقت في طلبِه.

"هنري..."

"أسمعُك".

"حسنًا، إذا كنتَ ستظلُّ صامتًا فدعني أقل لك إنَّ القلق يساورني بصدد المقابلات التي أرسلتها إليّ، وإنَّني مُتردِّدٌ بشأن الاستعانة بها. سيتوجَّبُ عليَّ التحدُّث مع تشزلي بخصوص ذلك. ماذا فعلتَ بحقِّ الجحيم؟".

أنهيتُ المكالمة، بيد أنَّني واصلتُ الجدال مع ميتش دنكر. "كلَّا"، قلتُ بصوتٍ عالٍ له، وللنجوم. "لن أدعك تفعل هذا بي. لن أدعك تفعل هذا بهم". لكنَّني لم أستطع إغفال تهديده الصارم، فقرَّرتُ أن أحذف كلَّ ما لديَّ من مقابلات الهيريرو حين أعود إلى منزلي لئلَّا تصل إلى يد ميتش دنكر أبدًا. وليذهب حينها بسيَّارته ويكتشف بنفسه مدى صعوبة إجراء المقابلات في أقاليم أوماهيكي وأوتجوزوندجوبا وكونيني. وفيما يتعلَّق بتشزلي، فقد التزمتُ باتِّفاقي معه وأرسلتُ إليه ما دفعَ أجرَه، وأمَّا ملفَّاتي الأصليَّة فهي شأني وحدي فحسب. لقد كرهتُ كلًا من ميتش دنكر، وتشزلي، وياغو، وكذلك باربرا براون وهولغا مير على حدٍّ سواء. إنَّني أحتقرُهم فردًا فردًا.

مكتبة ياسمين

لم تسر الحياة مثلما كنتُ أتمنَّى. دخلتُ في علاقةٍ جادَّةٍ وحيدةٍ مع طالبٍ في كليَّة الهندسة، وكان هذا شخصًا مملًّا، فأهملتُه على افتراض أنَّني سألتقي بشخصٍ آخر في غضون أشهرٍ قليلة. لكنَّها كانت فترةً مرَّةً وجافَّة، قبل مجيء ياغو. كان هذا قدري ونصيبي في الحياة.

كنتُ في سنِّ الثامنة عندما عثرتُ على جثَّتَي والديّ. فجَّر الطلقُ الناريُّ وجه والدي، راميًا برأسه إلى الخلف ليكشف عمَّا بدا أنَّه فمٌ مفتوحٌ عن آخره لكنَّه لا ينطقُ بأيِّ كلمةٍ أو تفسير. في حينِ جفَّت دماؤه حتَّى أصبحَت آثارها شديدة السواد لدرجة أنَّها شكَّلَت طلاسم غير مفهومةٍ على كلٍّ من صدره وذراعيه. وأمَّا والدتي، فقد أشاحَت بوجهها حينما أطلقَ الرصاص عليها. لم تتمكَّن بنيتُها الهزيلة من حماية شقيقي هندريك الذي كان أصغر سنًّا ممَّا يكفي لقضاء فترة ما بعد الظهر معنا، أنا ولوسيًّا، في حوض سباحة جزيرة القرش.

أخبرتْني عمَّتي أنَّها وجدَتني في الممرِّ أركض محمومًا، جيئةً وذهابًا، ويمينًا وشمالًا، إلى أن أمسكَت بي فيه نهاية المطاف. حملَتني حينئذٍ بين يديها وبدأت تُهدِّئني. "أنت لم ترَ أيَّ شيء"، قالت لي وهي تُحمِّمني. "ما مِن شيءٍ هُناك"، قالَت لي وهي تُجفِّفني. "ليس ذلك حقيقيًّا"، قالَت لي حينما لمحتُ في مرآة الحمَّام وجهي الشاحب. كانت الألوان قد نضبَت أيضًا من رقعة السماء وراء النافذة. كنتُ أعرفُ ألواني حتَّى ما قبل ظهيرة ذلك اليوم: كانت السماء زرقاء، والغيوم بيضاء، والشمس صفراء. وأمَّا الآن، فقد تحوَّلت كلٌّ من عينيَّ وشفتيّ، بالإضافة إلى كلِّ شيءٍ من حولي، إلى لا شيء.

شعرٌ بشخصٍ ما يصطدم بي، ويتعثَّر فوقي، وبمرفقه يضربُ فكِّي. لم أتبيَّن هويَّته، لكنَّني عرفتُ رائحة مزيل التعرُّق الذي يستخدمه.

"أردتُ التأكُّد من أنَّك لم تغرَق"، قال كوينتي الذي كانت واقفًا بصعوبة. "أعتذرُ عمَّا جرى". ثمَّ أضاء مصباح هاتفه في وجهي، لكنَّ ذلك لم يُخفِّف من الألم، فدفعتُه بعيدًا. "مُحيِّرٌ جدًّا ما يحدثُ لك هُنا".

"سأكون على ما يرام".

"لو كنتُ أعلم أنَّني سأصادفُك هكذا، لأحضرت معي بعض الشراب".

"لقد شربتُ الليلة أكثر ممَّا ينبغي".

"رأيتُ تسيرُ مبتعدًا، فشعرتُ بالقلق من أنَّ خطبًا ما قد حدث".

"كنتُ بحاجةٍ إلى بعض الوقت بمفردي للتفكير".

مرَّ ضوء المنارة فوق رأسي، ولمحتُ كوينتي يراقبني. "كيف حالك؟"، سأل. أزعجَني قلقُه. وعلى الرغم من أنَّني كنتُ أميل إلى الردِّ بجوابٍ سطحيٍّ على غرار: "عادَت النجومُ إلى السماء حيثُ تنتمي"، إلَّا أنَّ الدموع غالبَت عينيَّ على نحوٍ مخجل.

"أي هنري؟".

سرتُ عبر الضباب إلى حيثُ الأمواج القاسية كي يتسنَّى لي أن أختبئ في الهواء الرطب. أمسكَ بي لكنَّني لم أتوقَّف. لذا شدَّني من ذراعي واحتضنني.

"مهما كان ما تمرُّ به"، همس إليَّ، "فلا بدَّ أنَّه سينجلي. ستتجاوز كلَّ ذلك".

قبَّلتُ كتِفه قبل أن أبتعِد عنه برفق. لن ينقشعَ الظلام المُعشِّش في داخلي.

في البعيد، دوى صوت صافرة الضباب ثلاث مرَّات، واقترَبَت من الميناء سفينةٌ سياحيَّةٌ ضخمةٌ بحجمٍ مبنى مكتبيٍّ آتيةً من جهة الشمال. لم يكن معتادًا أن ترسو سفينةٌ في هذا الوقت المتأخِّر من الليل. لا بدَّ أنَّ ثمَّ خطبًا ما.

"لقد ترك ويل مشروعَ هارموني"، قال كوينتي.

"وهل قال هذا بلسانه؟".

"أنتَ غير مقتنع، صحيح؟ لقد ظلَّ يؤكِّدُ لي طوال الشهر الفائت أنَّه سيبقيني أعملُ ليلًا ونهارًا حتَّى أموت تعبًا. لكن أظنُّ أنَّه كان عليَّ أن أتوقَّع ذلك منذ البداية. انظُر إلى أماندا التي تُنفِق أموالهما كلَّها. لم أحصَل منها على فلسٍ واحدٍ منذ أشهر. وهل سمعتَ أيضًا بما يفعلُه في خليج إليزابيث؟ أعني، اللعنة! الأمر واضح مثل وضوح الشمس".

"إنَّهما مدينان لي أيضًا".

"الوغدان البريطانيَّان! إنَّهما لا يفهمان أنَّه في حال توقَّف العمل في مشروع هارموني، فبإمكانهما الهرب إلى لندن، لكنَّ الكثير من الناس الأشخاص يعتمدون على هذا المكان. لقد استثمر سيكستن كلَّ ما يملك. أخبرني أنَّه لم يبق لديه ولا كرون واحد. ولا أرى كيف سيصمدُ مشروع مثل هذا في حال لم يعد قادرًا على استقطاب الأوروبيِّين الهاربين من نهاية العالم في ديارهم".

"لا أعتقد أنَّ بحوزتك أيَّ لفافة حشيش".

"لا، للأسف. أنتَ تدخِّن كثيرًا".

مكتبة ياسمين

"كلَّا، بل أقلُّ بكثير ممَّا ينبغي!".

وضعَ ذراعه فوق كتفي وشجَّعني على العودة إلى الشاطئ. وأخبرتُه عن تلك الليلة في شقَّة النخلتين التوأم عندما التقيتُ بويل أوَّل مرَّة، وكيف أصرَّ البريطانيُّ على مشاركة نظريَّاته علانيةً عن الحضارة. كان شعورًا جيِّدًا أنَّنا كلينا نحتقرُ ويل.

"ليس هذا غريبًا عنه أبدًا"، قال كوينتي. "أسرُّك القول: أظنُّ أنَّه يعاني من اضطرب ثنائيّ القطب. ليس أنَّ هذا مهمّ، لكن قد يُفسّر حيويَّته الطافحة. كيانو في أفضل أحواله هذا المساء..."

"لستُ متأكِّدًا ممَّا يحدث معه".

"أتقصد بالإضافة إلى كونه مخمورًا جدًّا؟ هل رأيتُ وشمَه الشنيع؟ بعد مُغادرتِك، قلَّصَ قائمةَ المشتبه بهم في ارتكاب هجوم لندن اليوم إلى الفيلق الأجنبيّ الفرنسيّ والموساد".

"ليس وشمًا بشعًا إلى تلك الدرجة".

"بالله عليك! إنَّه فظيع. يجبُ أن يُعاقَب واشِمهُ بالسجن أيًّا كان، فقد شوَّه جسد ذلك الفتى المسكين مدى الحياة".

انطلقَت مركبتان فوق تلَّة نوتيلوس وأضاءت مصابيحهما الأماميَّة الشاطئ. وسرعان ما مرتا بسرعةٍ كبيرةٍ بجوار موقِد ويل وسط صيحات ركَّابهما خلال السباق.

"إنَّهم يسرعون أكثر من اللازم"، قلت.

"مجموعةٍ من الأوباش"، قال كوينتي.

توقَّفَت السيَّارتان في موضعٍ بيننا وبين النار، وشعرتُ للحظةٍ بأنَّه لو لم يأتِ كوينتي للبحث عنِّي، فربَّما كانت ستدهسُني واحدةٌ منهما في أثناء استلقائي على الشاطئ. فُتِحت أبوابهما

لتنبعث منها صيحاتٌ وموسيقا صاخبة. بعدئذٍ بدأت الأخيلة تتراقصُ أمام المصابيح الأماميَّة.

"يبدو أنَّ الحفلة قد بدأت"، قال كوينتي.

"جيِّد. أريدُ أن أسكرَ. لم يعد بمقدوري التفكير أكثر هذه الليلة".

شاركَ كيانو القادمين الجدد الصخب والمرح، وأخذوا جميعهم يرقصون، عارين حتَّى الخصر، حول ألسنة لهبٍ امتدَّت إلى السماء التي ألقَت بظلالها المخادعة التي بدَّلَت ما بين الوجوه والأجساد.

ارتفع صدري وهبط مع إيقاع الموسيقا. وهرعَت نحونا فرقةٌ من الرجال الذين يرتدون ممَّا صنعته أماندا من جلود حيوانات وجزمات مطَّاطيَّة، وكان أحدهم يحمل طبلًا. شرعَ ضارب الطبل بتقليدنا، مُكرِّرًا أخطاءنا كلَّما تعثَّرنا. وبعد وقتٍ قصيرٍ وجدنا أنفسنا نلحق به حول ألسنة اللهب، ونصيحُ في كلِّ مرَّةٍ يضربُ فيها الهواء.

ارتدَت أماندا بدلة سفاري مصنوعةً من المطَّاط وصارَت تُحرِّكُ جسدها مع الإيقاع. انضممنا إلى ضارب الطبل في تشجيعها، فشرعنا نضرب على الأرض إلى أن دارَت حول نفسها بذراعين ممدودتين.

سرقنا من موقد النار أيضًا عصيًّا متوهِّجة، وصرنا نركض باتِّجاه بعضنا البعض ونصيح: "اشحذوا حرابكم!". اقتربَ سلاحُ كوينتي الناريُّ من وجهي على نحوٍ خطِرٍ، فجثوت على رُكبتيَّ مترقِّبًا اندفاعه اللاهب التالي، وحينئذٍ انتزعتُ منه سلاحه. استخدمتُه

في رسم هالاتٍ في السماء، ودوَّرتهُ وسلاحي الناريّ لأصنعَ حلقاتٍ عريضةً فوق رأسي. تحسَّن رقصي بفضل العصوين المتفحّمتين والدخَّان المنبعث منهما، وسرعان ما انضمَّ إليَّ أشخاصٌ يرتدون عمراتٍ رُسِمت عليها أعين، وفوقها قرون ظباء.

لمحتُ على جذع سيكستن وشمين على صورة أسدين. كانت ذراعاه مشدودتين إلى صدرِه بإحكامٍ، ويداه تتقاطعان باسترخاء، في حين انسابت قطرت العرق على ظهره. ثمَّ سحب ذراعيه إلى وراء ظهره، كما لو كان على وشك الغوص في الرمال، وبدَا أسداه كأنَّهما رابضين. شعرتُ بحرارةٍ مزعجةٍ تحرقُ عجُزي- وارتفعَت حرارةُ أحشائي- إلى أن أجبرني الألمُ على الانحناء. اصطدمَت أصابعُ قدمي بشيءٍ حادّ، ففقدتُ توازني وتقطَّعَت أنفاسي في أثناء سقوطي. استحوذَت الظباءُ التي أحاطَت بي على تركيزي كلّه.

صارَت الموسيقا تهتزُّ عميقًا في داخلي. ولم أعُد أشعرُ بذراعيَّ وساقيَّ كجزءٍ منّي، بل كزوائدَ متعرّجةٍ تصفقُ بالتزامن مع ضرب الطبل. تكثَّفت الظلال في النار مُكوّنةً أشكالًا، وأومض ضوءٌ متحرّكٌ بأشعَّةٍ حمراء وسوداء صوب عينيَّ كاشفًا عن ملامح وجهٍ يُراقِب. بعد أن جاسَ أصقاع هذه الأرض، عادَ وحشُ طفولتي. لقد أثبت لي أنَّه ما زال حقودًا ومزمِنًا.

بدأ كيانو، ببنيته المتينة وعضلاته المفتولة، يطلقُ رصاصاتٍ حيَّةً في الهواء تزامنًا مع ضربات الطبل، ويصيح: "طيروا! طيروا!" تشجيعًا للبلجيكيّين على القفز فوق الحفرة. وجدَ الجميع الأمر مُسلّيًا جدًّا إلى أن أخطأ أحدهم في تقدير قفزته؛ فسقط على الجمر مُحدِثًا انفجارًا من الشرر البرتقاليّ. تسلَّق الرجل من

مكتبة ياسمين

الحفرة، بساقين ملطّختين بالدماء، وهرع صارخًا باتِّجاه المحيط قبل أن يتمكّن أحدٌ من إيقافِه.

بدأ أحدُ أصدقائه، وكان رجلًا ذا وجهٍ لفحَته الشمس، يصيح: "يانيس! يانيس!"، في حين كاد كيانو يسقط في الحفرة أيضًا حينما انطلقَ بسرعةٍ خلفه.

ليس هذا مُبشِّرًا.

بلجيكيٌّ ذو شعرٍ مجعَّدٍ صار يركل الرمال نحو ألسنة اللهب، ويصيح: "تبًّا لكِ ولهذا الجنون! ألم تري ما فعلتِه بيانيس؟". في حين ألقى آخرُ حجارةً في الحفرة وبدأ كلاهما يصيحان: "اللعنة على النار! اللعنة على النار"، حتَّى اقترب منهما ميشاك وسيكستن وشدَّاهما بعيدًا. حرَّر البلجيكيَّان نفسيهما، وهرعا صوب الأمواج.

مُكرِّرًا عبارة "ليس هذا مُبشِّرًا" وكأنَّها تعويذةٌ أو صلاة، ركضتُ وراءهما في وسط الضباب نحو الأمواج القاسية حيثُ كان كيان يحاول جرَّ يانيس إلى الشاطئ. وصل ارتفاعُ المياه حتَّى ركب البلجيكيّين الذين ظلّوا يسقطون فيه من شدَّة ثمالتهم، وأمّا يانيس، فبدأ يصيح في وجه مُنقذِه المخمور. لم ير أيٌّ منهم الموجة التي قلبَتْهم على ظهورهم وسحبتهم إلى عرض الماء.

"يجب أن نساعدهم"، قلتُ لكوينتي حينما وصل إليّ.

"وماذا عن أسماك القرش؟".

"سنخرُج من الماء سريعًا".

خلعتُ حذائي وملابسي، واندفعتُ إلى المحيط الأطلسيّ شديد البرد. كان ذلك أشبهَ بإلقاء نفسي في داخل حوضٍ من الأسيد.

ضربَتني موجةٌ باردة، جعلَتني قرصتُها ألجلجُ بحثًا عن الهواء، وشعرتُ بألمٍ في خصيتيَّ كاد أن يقطع أنفاسي، وكلُّ ذلك في أثناء محاولتي الحفاظ على ثباتي في داخل الماء.

"ماذا تفعلون هنالك أيُّها الكسالى؟ هيَّا، لا تقفوا متفرِّجين هكذا!"، صاح كوينتي مخاطبًا مجموعة ويل الذين كانوا عند الشاطئ يشاهدون ما يحدث.

لم أكنُ واثقًا بالمحيط في هذه المنطقة: سبق أن أخبرَني صهري أنَّ هذه المياه الضحلة لا تمتدُّ إلَّا لبضعة أمتارٍ فحسب قبل أن تهوي إلى أخدودٍ عميقٍ غرِقَ فيه العديد من السبَّاحين الماهرين بفعل انحسار الأمواج. كنتُ أشعرُ بالفعل بالتيَّار التحتيّ المعاكس يسحبُني.

غمرَتنا موجةٌ غير مرئيَّة، وسرعان ما تبعتها موجةٌ ثانية. قاومتُ بصعوبةٍ المياه المزبدة عائدًا إلى السطح، في حين غاص الأستراليُّ الذي كان في الضباب أمامي ما بين موجتين محيطيَّتين ضخمتين. عندما رفعَتني المياهُ إلى أعلى، لمحتُه يسبح باتِّجاه كيانو.

ناديتُه، لكنَّني شعرت بألمٍ في حلقي بسبب مياه المحيط والحشيشة. صحت به كي ينتظرني لكنَّه ظلَّ يبتعدُ أكثر، لذا تركتُ التيَّار يسحبني في أعقابه.

موجةٌ بحجمِ منزِل هوَت عليَّ، واصطدمتُ بيدين خدشتا وجهي وصدري. عندما عدنا ثلاثتنا إلى السطح، كان كوينتي ممسكًا بقوَّةٍ بكيانو، بعدئذٍ شرعنا نسبح عائدين بأسرع ما نستطيع.

"يبدو كما لو أنَّنا نمارس رياضة لعينة أمام جمهور من المتفرِّجين!"، قال كوينتي.

أضاءت مصابيح السيَّارات الأماميَّة الشاطئ البعيد عنَّا لتكشف عن ويل الذي رفع ذراعيه فوق رأسه وكأنَّه موسى يشقُّ البحر الأحمر.

واجهنا مشقَّةً في تحرير كيانو وأنفسنا من التيار. حرَّكنا أذرعنا بكلِّ قوَّتنا لكن كانت كلُّ موجةٍ تشدُّنا أكثر إلى نقطة الانحدار. وعلى الرغم من أنَّ كوينتي كان أقوى منِّي، وأنَّني لم أكُن مُستعدًّا للسباحة، إلَّا أنَّني كنتُ سبَّاحًا أفضل منه.

"سأحملُه عنك"، قلت. "أرجِع رأسَك".

"أين الآخرون؟".

"لا أدري. سآتي للبحث عنهم".

استدرتُ ودفعتُ يدي تحت ذقن كيانو، مُثبِّتًا بذلك رأسَهُ على صدري بإحكام. ومع أنَّ ثقله كان يجرُّني إلى الأسفل، إلَّا أنَّني كنتُ قادرًا على تجاوز كوينتي الذي كان يبذل قصارى جهده للحاق بي.

دفعتُ نفسي بعكس التيَّار، وقطعتُ شوطًا أطولَ بفضل ما اكتسبتُ من قوَّةٍ دافعة. كان الأستراليُّ ورائي يسبح بدأبٍ ويضربُ الماء بشراسة، لكن بدا أنَّه عالقٌ في مكانه. أو ربَّما أخذ ينجرف بعيدًا.

بعدئذٍ، وخلف موجةٍ عملاقة، اختفى أثره تمامًا.

أبطأتُ سرعتي منتظرًا انحسار ذروة الموجة التي أخفته، بيد أنَّني لم ألمح له أثرًا له بعد هبوطها.

دخل في جوف كيانو بعض الماء، فشرع يضرب بمرفقيه إلى الخارج من جانب إلى آخر محاولًا تحرير نفسه. صرختُ في وجهه كي يهدأ.

"ما الخطب؟"، سألَ وهو يسعل. "لماذا توقَّفتَ عن السباحة ؟ ".

كنتُ ممسكًا به بصعوبة، في حين ظلَّ يبصق الماء ويتحرَّكُ في كلِّ اتِّجاهٍ إلى أن جرَّنا كلانا إلى أسفل. وفي هذه المعركة ضدَّه وضدَّ المدّ والجزر، اضطررتُ إلى تركه لأتأكَّد من عودتنا إلى السطح مرَّة أخرى.

لم أر أيَّ أثرٍ للأستراليّ.

"اسبَح إلى الشاطئ"، قلتُ لكيانو عندما وجدني.

"خُذني إليه أنت!"، قال مُتوسِّلًا.

"يجبُ أن أساعد كوينتي".

حاولَ أن يتشبَّث بي بأقصى ما استطاع من قوَّة، لكنَّني تمكَّنتُ من الإفلات من قبضته.

"لا أستطيع العودة بمفردي"، قال

"ليس الشاطئ بعيدًا".

كان لا يزال يناديني عندما سبحتُ إلى حيثُ رأيتُ كوينتي آخرَ مرَّة. وهناك، تجاهلتُ صيحات كيانو الباكية وبدأت أنادي كوينتي. ومع كلِّ موجة، سحبَني المحيط أبعد فأبعد، حتَّى لم يعد بمقدوري معرفة ما إذا كنت أسبحُ في الاتِّجاه الصحيح أم لا. في خضمِّ ذلك كلِّه، لم ألمح كيانو إلَّا مرَّةً واحدةً فحسب، والذي كان ينجرفُ بعيدًا عن المكان الذي تخلَّيتُ فيه عنه، لذا قلتُ لنفسي إنَّني لن أنظر مرَّةً أخرى.

بالكاد لمحتُ وجهه- قناع الموت الذي ارتسم على وجه كوينتي- الذي خرج لاستنشاق الهواء، لم تمضِ برهةٌ قبل أن

تغمُره موجةٌ ثقيلةٌ من المياه المضطربة. أخيرًا، خرج رأسه فوق سطح الماء، كما لو أنَّه عثر على ضحضاحٍ وشعرَ بالاطمئنان للاستناد عليه والتفكير مليًّا بما سيفعلهُ لاحقًا. لا صراخ طلبًا للمساعدة. لم يرفع ذراعيه. وإنَّما كان يفتح فمه ويغلقه مثل سمكة، وظلَّت عيناه مثبَّتتين عليَّ بينما أخذ ينزلق إلى أسفل.

ركلتُ الهواء بساقيَّ لأدفع نفسي تحت الأمواج. وظللتُ أغوص بكلِّ قوَّتي داخل المياه السوداء حتَّى نفد الهواء من رئتيّ.

عدتُ إلى السطح، وهناك شعرتُ بشيءٍ زَلِقٍ يتحرَّكُ في الماء إلى يميني. حاولتُ أن أتحسَّس كلَّ ما استطعتُ رؤيته، مباعِدًا بين أصابعي بأقصى قدرٍ ممكنٍ على الرغم من أنَّ البرد أثقل حركتي. شيءٌ خشنٌ لامسَ فخذي. أملى عليَّ حدسي أن أبتعد عن المكان فورًا، لكنَّني بدلًا من ذلك أمسكتُ به بكلتا يديّ، وجذبتُه إلى سطح الماء.

أمسكتُ كوينتي بإحكامٍ وأبعدتُ شعرَه عن وجهه، وانطلقتُ بعكس اتِّجاه الموج. سبحتُ بأقصى ما أستطيعُ تحمُّله. كنتُ أشعر بالدوار بسبب المياه شديدة البرودة بيد أنَّني لم أجرؤ على التوقُّف والبحث عن الشاطئ.

سحبتُ كوينتي إلى المياه الضحلة حيثُ تنتظرُ المجموعة. التقطَتني أيدٍ قاسيةٌ جافَّة، لكنَّها بالكاد استطاعت أن ترفعني لأنَّني كنتُ أرفض أن أفلِته.

أضاءَت مصابيحُ السيَّارات الأماميَّة وجه كوينتي الذي استدارَ فجأةً نحوي. نزَّت دماءٌ جديدةٌ من جانب رأسه، وكانت عيناهُ مفتوحتين لا ترمشان. لهث الغريقُ بعدئذٍ، وبدأ الأشخاص حولنا

يصرخون كلماتٍ لم أفهمها. كانت لوسيًّا تُكرّر اسمي، وكأنَّني لا أزال تائهًا في البحر، في أثناء ما كانت تلفُّني ببطَّانيَّة. لم ألمح أيَّ أثرٍ لكيانو والبلجيكيّين.

ظللتُ أرتجفُ أمام جهاز التدفئة في شاحنتي، مُحدِّقًا إلى الخارج عبر علامات أصابع شقيقتي على الزجاج الأماميّ المغبَّش، وكان كوينتي بجواري. وفي المحيط، دسرَ زورقٌ آليٌّ الأمواج بمروحته التي تدور خلال اندفاعه في الهواء. أضاءَت ثلاثة مشاعل على متنه عبر الضباب وانعكس ضوؤها على سطح الماء.

عاد الزورق إلى الشاطئ في نهاية المطاف، وجرَّ ركَّابُه جسدًا هزيلًا على الرمال. صاحٍ مُنقِذٌ بالجسد فاقد الوعي، وصرخَ فيه، وضغطَ على فتحتَي أنفِه الهامدتين، وختمَ بشفتيه على الشفّتين الميتتين مُحاولًا إنعاشه بأنفاسٍ قويَّةٍ وقصيرة. ثمَّ ضخَّ الصدرَ المبلَّل بكلتا ذراعيه، وضربَ براحتيه على عظامِ صدرِه. لم يسبق لي أن شهدتُ مثل هذا الحجم من العنف إلَّا مرَّة واحدةً فقط.

أوقف فريق الإنقاذ عمليَّة البحث بعد أن صار الضباب كثيفًا مثل دخانٍ باردٍ، واضطرمَ الموج بلا هوادة. عندئذٍ فقط سمحتُ لشقيقتي أن تأخذنا إلى منزل كوينتي كي نجفِّف ملابسنا. أرادَت أن نزور العيادة أوَّلًا، لكنَّنا أكَّدنا لها أنَّنا تجاوزنا الأسوأ. وبعد حمامٍ ساخنٍ، ساعدتُ لوسيًّا على الاعتناء بالجرح فوق أذن كوينتي.

أحضرَ من خلف الأريكة المدفأةَ التي كانت موصولةً بأسطوانة غاز البروبان بأنبوبٍ مطَّاطيٍّ عديم المرونة. وعندما فتح الصمَّام، صدر صوت صفيرٍ، تلاهُ صوت فرقعةٍ عندما اشتعلَ الغاز. وبعدئذٍ وجَّه كوينتي الحلقة الناريَّة الزرقاء باتِّجاهي وشقيقتي.

حسدتُه على السهولة التي فعل بها هذا كلَّه، إذ بدَت لي محاولة القيام بمهمَّةٍ واحدة فحسب ضربًا من المستحيل.

رفضَت لوسيَّا المغادرة خوفًا من أن تسوء حالتنا في وقتٍ لاحق، ونامت بجواري على السرير المزدوج في غرفة الضيوف.

في وقتٍ متأخِّر من تلك الليلة، نهضتُ بحثًا عن كوينتي للاطمئنان من أنَّه ما زال حيًّا. أصدرَ فراشُه صريرًا تزامنًا مع تقلُّبِه. كان مصباحٌ سريه مضاء، وعلى الجدار فوقَه عُلِّقت صورٌ عائليَّة. رأيتُ في إحدى الصور الرجل الطويل من نُزل كرابينهوفت آند لامب، في حين كانت الصور الأخرى لأبناء كوينتي.

ومن دون أيِّ كلمة، رفعَ كوينتي لحافَه من زاويته كي يتسنَّى لي الاستقرار إلى جانبه.

"أنت باردٌ كقطعة ثلج"، قال.

حاولتُ أن أهدِّئ نفسي من خلال الإنصات إلى أنفاسه القصيرة، لكن ما إن غفوتُ حتَّى غالبَتني ذكرياتي، وظلَّت تهوي بي نحو الأعماق إلى أن أغرقَتني.

خليج إليزابيث

لا يبدو لي سيِّئًا تمامًا أن يُحدِّق المرء في حوض سباحةٍ فارغ، غير مُدركٍ أنَّه قد أُحضِرَ إلى حديقةٍ وتُرِك ليرتاح في منطقةٍ ظليلة. بل يصيرُ قضاءِ الأيَّام المتلاحقة مُحملِقًا في تلك الكتلة الخرسانيّة، وواثقًا من أنَّ كلَّ شيءٍ قد تغيَّر إلى الأسوأ، فكرةً أكثر احتمالًا.

إنَّ من الأفضل أن يحصل المرءُ على المساعدة في أوقات الاستحمام المربِكة حيثُ تتكفَّل أيدٍ غريبةٌ بفرك الصابون على جلدك المُبلَّل؛ وكذلك بخصوص وجبات الطعام؛ وجبات الطعام المخيِّبة للآمال، حيث تتحمَّل الملاعق الصغيرة مَشقَّة إطعامِك، وتُترَك لتبرُد، في صحونٍ لم تمسَّ تقريبًا؛ والأمر نفسه بالنسبة إلى زيارات الطبيب الذي يصفُ لك ثلاثة مضادَّاتٍ للاكتئاب في تناوبٍ سريعٍ قبل أن يجمع الدواء الأخير مع مضادٍّ للذهان في جرعةٍ مُخفَّفةٍ لتتناولها مرَّةً واحدةً في كلِّ مساءٍ، وذلك في محاولةٍ لإعادة تشغيل المُحرِّك في عقلِك، ولعلاج فقدان الشهيَّة لعلَّك تستعيدُ ما فقدتَ من وزنٍ في أثناء التحديق في حوض السباحة الفارغ...

مكتبة ياسمين

بيد أنَّ التحديق لا يمنحُك القدر نفسه من الأمان والدفء والتسامُح التي تحصل عليها من النوم تحت تأثير الأدوية؛ لا شيء آخر يضفي عليك مثل هذا الشعور بالرضا. فهل ثمَّ ما هو أفضل منها كي يُجهِّزك لحضنٍ مُحبٍّ من سريرك غير المرتَّب؟ إنَّهُ لمثل هذا الشعور فحسب تستحقُّ الحياة أن تُعاشَ.

—

في صباح عيد ميلاد عمَّتي الثمانين، جعلَت المياهُ المضطربة في ميناء لودريتز المشيَ برفقتها مهمَّةً صعبة، والسبب أنَّها كانت تواجه مشقَّةً في المشي مع تناثرِ الزبدِ الأبيض على الممشى. ظللتُ ممسِكًا بها بإحكام- في حركةٍ تجمعُ ما بين الرفع والدفع- خلال توجُّهنا إلى زنجبار، وذلك خشية أن تنزلِق من بين يديَّ فتسحبني معها إلى المياه.

كان علينا الانتظار بجانب برجٍ من شباك الصيد الرقيقة لأنَّ المبشِّرين الأميركيِّين كانوا يسدُّون طريقنا نحو السفينة المتمايلة. كان كاهنهم يُحدِّق في الأفق المظلم الرطب بعين الريبة قبل أن يعود نظره إلى السفينة ذات الصاريتين، حيثُ تضرُب رياحٌ نافذة الصبر علمَ ناميبيا.

ما إن صعدنا سطح السفينة بأمانٍ حتَّى اقترح القبطان أن أرافقَ عمَّتي وشقيقتي إلى مقصورته كي نحصل على وسائد من تحت المقاعد المثبَّتة حول طاولةٍ صغيرة.

تجمَّع الميثوديُّون بالقرب من كوثل السفينة، وبينما كانوا يتأمَّلون حقلًا من الكثبان الرمليَّة البرتقاليَّة على الجانب البعيد من الميناء يمتدُّ حتَّى الأفق، أخرجَ الكاهن رزمةً من الدولارات

من حقيبة خصره، وأعطاها للقبطان مُلتمِسًا الحصول على ملجأ وسطَ رعيَّته. ثمَّ انضمَّ إليهم في ترنيمتَي "الربُّ راعيَّ"، و"أميركا بهيَّة". أتمَّت يداهُ الحلقَة التي صنعوها.

تسكّعنا بمرحٍ وصخب، مثل جرَّارٍ زراعيٍّ عائم، على مقربةٍ من جزيرة القرش في المحيط الأطلسيّ. طاقم السفينة بسط الأشرعة التي بدورها لم تضيّع أيَّ وقتٍ في اللحاق بالرياح، والتي سرعان ما حملتنا بعيدًا عن المدينة.

وخلال وقتٍ قصير، صارَت الدلافين تتسابق معنا. صفَّقت عمَّتي بيديها عندما قفز سرب الدلافين خارج الماء كاشفةً عن علاماتٍ على بطونها سوداء وبيضاء، على غرار ملابس عسكريَّةٍ مموَّهة. مسحَت عمَّتي عينيها. كنتُ جالسًا قبالتها وشقيقتي حين لمحتُ تلك المرأة المحِبَّة التي أتذكَّرها منذ أيَّام طفولتي. وسريعًا، صارَت لودريتز طيَّ النسيان بعد أن بسَطَتها المسافةُ البعيدة والأمواجُ العاتية.

لم يمرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن تضطرب معدتي بسبب السفينة. اقترحَت لوسيًا عليَّ أن أخرجَ من المقصورة المزدحمة، لذا شققتُ طريقي إلى سطح السفينة البارد، مُتجاوِزًا الأميركيِّين الذين كانوا يتناقشون في مسألة الغفران، حتَّى وصلتُ إلى الحيزوم حيثُ وقفتُ وسط رذاذ الماء القويّ. استنشقتُ الهواء النقيَّ بكميَّاتٍ ملء الفم سرَّتني وفرتُها. كانت السفينة في تلك الأثناء تشقُّ عُبابًا صاخبًا.

كنتُ هناك في الخارج، أحمي بيدي عينيَّ كي أشاهد خمسة خيولٍ بريَّةٍ على الشاطئ تجري على نحوٍ متوازٍ مع سفينتنا،

وأختلس النظر إلى الأمام نحو غيومٍ كبيرةٍ كالجبال. كانت تلك الكتل العملاقة تغطى على السماء إلى درجة أنَّني لم أعد قادرًا على تمييز السماء من البحر. اختفت ناميبيا بعدئذٍ في المحيط الذي عانق العاصفة المقتربة.

"إنَّها قادمةٌ باتِّجاهنا"، صاح القبطان، وأرسلنا مهرولين للحصول على ستر النجاة، قبل أن يأمرَ بإنزال المؤونة والركَّاب إلى المقصورة تحت سطح السفينة.

ضربَت المياه جسم السفينة بقوَّة، فشرعَ الكاهن يصلِّي. كان بمقدور الضجيج وحدِه أن يغرقنا: روَّعتنا الارتفاعات الهادرة والانخفاضاتٌ الهائجة إذا بدا وكأنَّنا نتأرجح ونجري في الوقت نفسه.

حبستُ نفسي في دورة المياه، عند الكوَّة التي كانت تدور باضطراب. ولمدَّة نصف ساعة، لم أعرف ما إذا كنَّا نصعدُ أم نهوي؛ أو ما إذا كنَّا في الطريق إلى اليابسة أم عين العاصفة. دوى كلُّ شيءٍ فجأة حين كنت مُتشبِّثًا بالوعاء المعدنيّ. كنتُ أفضِّل أن أواجِه العاصفة على سطح السفينة لأنَّه لا أمواج أعتى من تلك التي شعرتُ بها، ولا رياح بشدَّة ما يوحي به صوتُها. وبفضل معجزةٍ ما، مررنا بجوار قوسِ بوغنفيلس الصخريِّ حينما بدأت العاصفة تنحسر. وقفتُ على سطح السفينة، في الرياح الهادئة، إلى جانب الأميركيِّين الذين كانوا جميعهم يتخيَّلون نافذةً بزجاجٍ مُلوَّنٍ في وسط الصخرة الجوفاء. "اليومُ يومٌ عظيم. فلنشكر الله!"، قال كاهنهم إذ رسَت زنجبارُ في المياه الضحلة قبالة خليج إليزابيث.

تركنا أنا وشقيقتي عمَّتنا التي كانت تتحدَّث مع القبطان في مقصورته، وذهبنا إلى الشاطئ مع الأميركيّين. كانت مدينةُ الأشباح هذه مكوَّنةً من أربعة صفوفٍ من أكواخ العمَّال المتواضعة تمتدُّ من الشمال إلى الجنوب، وتطلُّ على الشاطئ. بيد أنَّ حالتها كانت أسوأ بكثيرٍ من مثيلاتها في كولمانسكوب. ولم تكن فيها أيُّ منازل للأثرياء.

عقب ساعةٍ من جولتنا، أرسل القبطان من يخبرنا بأنَّ المرض قد اشتدَّ على عمَّتنا. عُدنا لنجدها منهارةً على طاولته. سكتةٌ دماغيَّةٌ سلبَّتها الكلمات من فمها، ووضعَت محلَّها نشيجَ جرو.

لفَّت ملاءة المستشفى في لودريتز صدر عمَّتي مثل فستانِ سهرة. الممرِّضُ وضع يده على وجنتها، وخاطبها: "سيِّدة فون إيشر؟ سيِّدة فون إيشر؟".

بذلنا قصارى جهدنا مؤكِّدين لها أنَّه ما من داعٍ للقلق، وأنَّها ستكون على ما يرام هُنا، إلى أن جاء الطبيب ليشرح لنا ما بها في الممرِّ خارجًا. أخبرَنا عن الجلطة الدمويَّة المتوسِّعة وما يترتَّب عليها من نقص تروية، وأنَّه يخشى حدوث المزيد من الجلطات. اقترحَ الممرِّضُ علينا أن نجلب مذياعًا صغيرًا- طالما أنَّنا لا نمانع فكرة أنَّ شخًا ما قد يسرقه- كي يؤنس عمَّتنا. عدتُ إلى المنزل لأحزم منامةً وبعض مُستلزمات النظافة، لكن من دون أيِّ أشياء ثمينة. عندما عدتُ إلى المستشفى، لم أُميِّز عمَّتي في بادئ الأمر: كان رأسُها المنكمشُ والعاري من شعرها المستعار مسترخيًا على وسادة المستشفى. وفي الوقت الذي كنتُ أسألُ شقيقتي فيه عمَّا إذا كانت لديها أيُّ فكرةٍ بصدد ما سيحدثُ لاحقًا، توقَّفَت عمَّتي عن التنفُّس.

أكابدُ منذئذٍ مشاقَّ هذه الرحلة المضنية، من الميناء إلى المستشفى، ومن القلق الرطب إلى الموت الساكِن، كلَّ يوم. ولو علمتُ أنَّ ذلك سيكون قدري لسائر الأيَّام المقبلة، لفضَّلتُ الموت غرقًا قبالة شاطئ العقيق.

في تحوُّلٍ جوّيٍّ، انخفضَت درجة الحرارة عند وقت ما بعد الظهيرة وبَهتَ لونُ السماء، وصارَت الشمس من ورائها تطلُّ وتختبئ فوق لودريتز التي سادها الصمت.

غيومٌ فوقَ غيوم، فوقها غيومٌ من الرمل- مثلَ سَحابٍ رُكاميٍّ مُفزِعٍ وخبيث- ابتعلَت الشاليه وهي ترعدُ متَّجهةً نحو المحيط. وجلبَت تلك الموجةُ الصحراويَّة معها رياحًا مفاجِئةً دوَّمَت عند النوافذ وأخذت تنقرُ على زجاجها.

ولعدَّة دقائق مُظلِمةٍ دوى صفير الرمل عنيفًا في أذنيَّ. بعد أن تبدَّدت العاصفة، تجوَّلتُ في الخارج حيثُ كان الهواء لا يزال مُحمَّلًا بحُبيبات الرمل. وبخلاف واحدةٍ من نوافذ منزل النخلتين التوأم كانت قد تهشَّمت، فقد نجا المكان وظلّ صامدًا في وجه نهاية العالم.

دخلتُ إلى المسكن الرئيسيّ- وكانت شقيقتي حينئذٍ لا تزال في المدينة- ورأيتُ كيف غطَّت مِسحةٌ رقيقةٌ من غُبار الرمل بعضًا من تذكارات أيَّام حياتها مع شين. كانت صُوَر رات باك قد سقطت على الأرض لكنَّها خلَّفَت آثار إطاراتها على الجدران، وبدا الأمر برمَّته أشبه بعيادة صَديقٍ على فراش الموت.

كانت إبرة مُشغِّل الأسطوانات الموسيقيَّة لا تزال على أسطوانة

سامي ديفيس جونيور، والتي يبدو أنَّ أحدهم قد أوقف تشغيلها في أثناء دورانها. كنتُ مُنهمِكًا بإعادة الأسطوانة، وكذلك سائر الأغراض الأخرى التي تَبعثرَت في الغرفة، إلى مكانها الأصليّ، حينما دوى صوت انفجارٍ من جهة المرفأ تراقصَت على إثره كؤوس النبيذ عند الخِوان. رنَّ الهاتف.

"ألوا"، قال رجلٌ في الطرف الآخر من المكالمة. "لوسيًّا فان فيك؟".

"من أنت؟"، سألت.

"أريدُ أن أُترُك رسالةً إلى السيِّدة فان فيك. أيمكنك أن تطلب منها الاتِّصال بي"- وأعطاني معلومات التواصل معه- "لأنَّ عميلي عاد إلى لودريتز وهو جاهزٌ لتحسين العرض الأخير الذي قدَّمَه".

عثرتُ على قلمٍ وورقة، ثمَّ طلبتُ من الرجل أن يُكرِّر كلَّ ما قاله.

قاطعَ دويُّ انفجارٍ ثانٍ، أشدُّ من سابِقه، زيارتي إلى المطبخ حيثُ كنتُ أُعلِّقُ ما كتبتُ على باب الثلَّاجة. أعلنَت الأواني الزجاجيَّةُ احتجاجها مرَّةً أخرى. وهناك، فوق الخليج، ارتفعَت سحابةٌ بيضاء مُتلألئةٌ مثل رسالةٍ بعيدة المدى؛ مثل دعوةٍ بسيطة.

في غيابي، نهب لصوصٌ منزل عمَّتي القديم، لكن بحلول ذلك الوقت كانت شقيقتي قد نقلَت معظم معدَّاتي إلى الشاليه. غير أنَّهم استطاعوا سرقة التلفزيون، بالإضافة إلى كاميرتي القديمة التي كنت أستخدمُها في الدروس في كولمانسكوب. طمأنتني

لوسيًّا من أنَّها تحقَّقت من كلّ الغرف غية التأكُّد من أنَّهم لم يسرقوا أيَّ غرضٍ آخر، وأن كوينتي كان لطيفًا للغاية إذ تولَّى إصلاح نافذة المطبخ واستبدال الباب الأمنيّ.

كان المطبخ هادئًا، وبدتَ رائحته كالبلاستيك بسبب جدرانه التي أعيدَ طلاؤها بمثابة هديَّةٍ مفاجئةٍ من كوينتي. وعندما رأيتُ صنابير المياه الجديدة، أدركتُ أنَّه لا بدَّ أصلح السباكة أيضًا. ما لم تخبرني به شقيقتي هو أنَّه أعاد حُجرَة المؤونة إلى غرفة نوم، لا سيما أنَّ روبرتين قد انتقلَت قبل وقتٍ قصير للعيش مع أبناء عمومتها في مدينة غوبابيس. عنَى ذلك كلُّه أنَّ المنزل كان يَترقَّب عودتي للسكن فيه من جديد. لكن، في أثناء تجوُّلي من غرفةٍ إلى أخرى، أدركتُ أنَّني لم أكن أبادله الحماسة نفسها. ثَمَّ شيءٌ يشبِهُ أسى قديمًا قد لوَّث المكان. قبل وقتٍ غير بعيد، أقنعتُ نفسي بأنَّ جدران الطوب الضخمة، ومعها جبل الألماس تحت قدميَّ، ستكون كفيلةً بحمايتي، بيد أنَّني لم أعد واثقًا من ذلك.

خرجتُ من المنزل، غير راغبٍ بالعودة إلى الشاليه بعد، وغير قادرٍ على السير باتِّجاه السوبر ماركت. ومع ذلك، شرعتُ أسير خطوةً تلو أخرى بشقّ الأنفس. وبعد أن عبرتُ الشارع، تبادر إلى ذهني أنَّني كنتُ متَّجِهًا نحو منزل كوينتي.

"أخيرًا جئت بشحمك ولحمك إلى هنا أيُّها اللعين!"، قال كوينتي بمودَّةٍ بالغةٍ بعد أن عانقني. "ويا له من توقيتٍ ممتازٍ أيضًا. لقد عدتُ للتوّ من المرفأ".

"أردتُ أن أشكرك على مساعدتك في إصلاح منزلي".

"هذا أقلُّ ما يمكنني فعله. كنت مشغولًا بتبديل نافذة

مكتبة ياسمين

مطبخك، وبدا لي أنَّك كنت في خضمِّ عمليَّة تنظيفٍ شاملة للمنزل، لذا أخبرتُ لوسيَّا بأنَّني سأطلي الجدران سريعًا كي تبدو لك أكثر أناقةً حين تكون مستعدًّا للعودة. ألديك بعض الوقت للذهاب في جولةٍ قصيرة...؟".

"بالتأكيد".

"هذا رائع. لن نبتعد".

تبِعتُه إلى ورشته عبر الساحة المرصوفة بالحصى، ومرورًا بهرمٍ تحيطُ به براميل بسعة عشرة غالونات من كلِّ جانب.

"أجل، الكثير جـدًّا لأجل العوم"، قال حينما رآني أنظُر إلى العوَّامة المذهلة مربَّعة الشكل. "المشكلة هي أنَّها تصدأ سريعًا". فاحَت من الغرفة رائحة خشبٍ مُحترقٍ لأنَّه كان ينشر ألواح الخشب المضغوط. "إنَّ العمل على تنطيف مكانك قد حثَّني على ترتيب مكاني أيضًا. ما رأيُك؟".

انتبهتُ إلى أنَّه أزال كومة الخردة من الطرف البعيد من ورشته، واستبدلها برفوفٍ تحمل لوازم ومعدَّات.

"يبدو المكان أفضل بكثير"، قلت.

ذهبنا إلى الطاولة حيثُ كان يتفحَّص مخطَّطات هارموني برفقة كيانو. تناثرَت عليها بعض حلقات الإحكام والمسامير وقطعٍ وأجزاء صغيرةٍ أخرى كانت في مرطبان مُربَّى. وفي أثناء فرزه لتلك القطع المعدنيَّة المبعثرة، ومن دون النظر إليَّ، قال: "أنا آسف لأنَّك لم تكن على ما يرام...". ثمَّ عثر على مفتاحٍ سُداسيٍّ وأخذ يقذفه بلا هدف في راحة يده. لاحظتُ أيضًا أنَّه قد استبدل الشفرة القديمة لمنشار الأخشاب بأخرى جديدة.

مكتبة ياسمين

"بات من النادر الآن أن يأتي أحدٌ لزيارتي منذ رحيل كيانو"، قال. "وإن حدث ذلك، فسيكون الزائر آتيًا بهدف التذمُّر من الضجيج مثل عاهرة. لقد عدتُ للعمل في المرفأ، ولذا صار الجميع يتذمَّرون الآن. عادةً لا أفتح بوَّابتي لأحد". ثمَّ اقترب منِّي، إلى حدِّ التلامس، ومدَّ يده إلى قطعة القماش المتدلِّية فوق حصانٍ لنشر الخشب. "أما زلت تريدُ أن تُصوِّرني؟".

"عندما أستعيد طاقتي".

"حسنًا، مرحبًا بك في أيِّ وقت". مسحَ يديه قبل أن يسألني عمَّا إذا كنتُ أريد شرب بعض القهوة.

كانت غرفة الجلوس في منزله نظيفة: لقد أعاد طلاء جدرانها أيضًا.

"هل تتذكَّر أيَّ شيءٍ من أحداث شاطئ العقيق؟"، سمعتُ يسألني من المطبخ.

"معظمها".

"هل تمانع..."

"أجل. أقصد لا: أنا بحاجةٍ إلى التحدُّث عمَّا جرى". لم تخبرني شقيقتي بأيِّ شيء. "هل استطاعوا الوصول إلى البلجيكيِّ في الوقت المناسب؟ أعني يانيس".

"لا. لقد حضرتُ مراسم جنازتِه. لم تكن تعرف عن ذلك قبلًا، صحيح؟ جاء أفرادٌ من عائلته إلى هُنا، وعادوا جثمانه إلى بروكسل".

"وماذا عن كيانو؟".

"جاء والدُه من سواكوبموند لاستلام الجثمان. كيانو الآن مدفونٌ بجوار والدته".

لم آتِ بأيِّ ردِّ فعل، مع أنَّني كنتُ وكوينتي نترقَّب حدوث ذلك. بدا الأمر وكأنَّ كوينتي يتحدَّث إليَّ من وراء لوحٍ زجاجيٍّ ثخين؛ أو كأنَّ صوتَه ينتقلُ إليَّ عبر بثٍّ إذاعيٍّ في مذياعٍ مكتوم.

"أتذكَّرُ أنَّهم أجروا له إنعاشًا قلبيًّا رئويًّا بعد أن أخرجوه من الماء"، قلت.

"لا أتذكَّر ذلك".

"ما زال المشهد يوقظني ليلًا".

"تبًّا! أنا آسف..."

اصطنعتُ ابتسامةً بشقِّ الأنفس. "بسبب أدويتي، أشعرُ وكأنَّ أفكاري تدور في رأسِ شخصٍ آخر؛ كما لو أنَّني قد حصلتُ عليها على سبيل الإعارة. لكنَّني أدركُ في بعض الليالي أنَّني المسؤول عن وفاته".

أحضرَ كوينتي القهوة إلى غرفة الجلوس. "لا تقل هذا، يا هنري. لقد كانت حادثة".

"لا يهمّ. في ساعات اليقظة، أشعرُ وكأنَّني أرى الأشياء كلَّها من بعيد، بيد أنَّني أعودُ ليلًا إلى ذلك الشاطئ".

"يجب أن تعلمَ أنَّ ما جرى كان خارجًا عن نطاق سيطرتك؛ وخارجًا عن نطاق سيطرتنا جميعنا".

"لم يفعل ويل أيَّ شيء".

"أجل، ذاك شيءٌ أتذكَّرهُ تمامًا؛ كيف رفع يديه كما لو كان يدلُّني ويدلُّك على الطريق".

كنتُ قلقًا من أنَّني إذا ما واصلتُ الحديث بلا تحفُّظٍ عمَّا جرى عند شاطئ العقيق، فسأكون بذلك إنَّما أعزِّزُ تفاعُلًا اكتئابيًّا لديّ. ربَّما شعر كونيتي بانزعاجي إذ غيَّر موضوع الحديث ليخبرني بأنَّ زوجَه قد أرسل أبناءهما لزيارته هُنا في ناميبيا.

"سيزورني الأولاد لمدَّة أسبوعين"، قال. "وعلى الرغم من أنّ التكلفة كانت باهظة على نحوٍ لا يُصدَّق، إلَّا أنَّني سعيدٌ جدًّا بمجيئهم. أعني، كنَّا سنستفيدُ الكثير من مساعدتهم خلال محاولتنا إخراج كيانو من المياه". ثمَّ بدأ يتحرَّك جيئةً وذهابًا ليشرح لي عن الجوانب اللوجستيَّة للطيران من بيرث إلى لودريتز بالقدر نفسه من الصبر الذي رافقَ شرحَهُ لمخطَّطات ويل في وقتٍ سابق.

"لقد خسرَ عمله"، قال، في إشارةٍ إلى زوجه. "وهذا سببٌ ثانٍ وراء إرسال الأولاد إلى هُنا، على ما أعتقد؛ للتخلُّص من إزعاجهم بينما يعيد ترتيب حياته. المضحكُ في الأمر أنَّه جاء إلى لودريتز قبل أسبوعين فحسب من حادثة شاطئ العقيق. كان يُحاول حينها إقناعي بإعطاء علاقتنا فرصةً أخرى، لكن أعتقدُ أنَّه أدركَ في نهاية المطاف أنَّه لم يتبقَّ بيننا ما يمكن إنقاذه. ما حدث قد حدث، بيد أنَّه واحدٌ من أولئك الأشخاص الذين يعيشون حياتهم على أملٍ أبديّ".

"لطالما حسبتُ أنَّني واحدٌ من أولئك الأشخاص أيضًا. ألن ترحل؟".

"لم أفهم سؤالك؟".

"ألن تغادر لودريتز؟".

"لا، أنا باقٍ هُنا إلى الأبد. لن تستطيع التخلُّص منّي بهذه السهولة؛ حتَّى أنَّني جدَّدتُ رخصة التعدين خاصَّتي. هناك مئة ألف ماسةٍ تنتظرُني في أعماق المحيط، وسأستخرجُ كلًّا من تلك القطع الصغيرة اللعينة إلى السطح حتَّى لو كلَّفني ذلك حياتي. لكن لا أظنُّ أنَّك جئت إلى هُنا كي تستمع إلى حديثي عن التعدين البحريّ".

"كم من الوقت قد مضى؟"، سألت.

"ماذا؟".

"مُذ تغيَّبتُ من دون سابق إنذار".

"لا أدري. خمسة شهور، ربَّما؟ لماذا تسأل؟".

"لأنَّ شقيقتي ترفض أن تخبرني".

"لم يدم ذلك سوى لأشهرٍ قليلةٍ فحسب على أيِّ حال. هل تشعر بالجوع؟ بإمكاني أن أشوي لنا بعض جراد البحر".

على الرغم من أنَّني لم أضع أيَّ طعامٍ في فمي طوال اليوم، إلَّا أنّ شهيَّتي لم تكن حاضرةً. نهضتُ من مكاني، وقلت: "ربَّما من المستحسن أن أذهب. لقد زرتُ منزلي قبل أن آتي إلى هُنا، وأعتقدُ أنَّني بدأت أشعر بالتعب".

وضعَ ذراعته حولي في أثناء مساعدته لي على الخروج، وعرضَ أن يوصلني إلى منزلي.

"لا داعي لذلك، سأكون على ما يرام"، قلت. "أريدُ أن أمشي قليلًا".

عانقني، بعد أن أقفل بوَّابته الأماميَّة، وقال: "أنت تبدو بحالةٍ جيِّدة".

"لأنَّك تراني اليوم وأنا في أفضل حالاتي".

رقَّ وجهُه. "أرجوك! توقَّف عن لوم نفسك على ما حدث لكيانو".

"سأحاول. لكن لا يسعني فعل الكثير بصدد أحلامي. ثمَّ موضوعٌ أريد أن أسألك عنه".

"ما هو؟".

"هل ذكرَت شقيقتي لك أيَّ شيءٍ عن بيع منزل النخلتين التوأم؟".

رفعَ حاجبيه. لم أكن أتقصَّد أن أوقعه في الكلام. "هذه محادثةٌ يجب أن تجريها مع شقيقتك، يا صاح"، قال.

"المعذرة، لم أقصد أن أضعك في موقفٍ مُحرِج. إنَّ كلَّ ما يحدث من حولي يبدو مربكًا بصورةٍ أو أخرى، وأنا لستُ جاهزًا الآن للعيش بمفردي. لا أشعر بأنَّني قويٌّ بما فيه الكفاية. أعلمُ أنَّها لم تحسم قرارها بعد، لكن في حال فعلَت ذلك، فهل تعتقدُ أنَّ بمقدوري استئجار غرفتكَ الإضافيَّة؟ إلى حين العثور على مكانٍ آخر فقط؟".

"لا تقلق، أي هنري. بإمكانك العيش معي قدر ما تشاء. ولا أريدُ منك أيَّ مال".

"ربَّما تُقرِّرُ تحويل الشاليهات إلى دورٍ للضيافة في نهاية المطاف".

"أجل، ربَّما"، قال متبسِّمًا.

"لكن لن أنتقل للعيش معك ابتداءً من الغد، لذا لا داعي لتقلق منذ الآن"، قلت.

مكتبة ياسمين

"لا مانع لديَّ على أيِّ حال. وأمَّا الآن، فتحدَّثْ معها، وحاول أيضًا أن تأتي لزيارتي في يوم الجمعة المقبل. سيكون بمقدورنا حينئذٍ مناقشة التفاصيل كلِّها إذا كنت لا تزال ترغب بفعل ذلك".

ما حدث هو أنَّني لم ألتقِ بكوينتي في يوم الجمعة ذاك، ولا في أيٍّ من جُمَع ذلك الشهر. لقد أيقظَت زيارتي له ذكرياتي عن حادثة شاطئ العقيق؛ وبين عشيَّة وضحاها، أغرقَ ما يمكنني وصفُه بالشعور المُطَلق بالذنب عالَمي برمَّته؛ وخنقَه. ولم أعد أقوى على مغادرة سريري.

ضاعف الطبيب جرعاتي من الأدوية مرَّتين، فبدأت طبقة الغبار الثخينة التي أثقَلت روحي تنقشع. وجعلتني مناقشاتي الصريحة معه أعدُه بالتوقُّف عن تدخين الحشيشة أيضًا. كما أنَّنا اتَّفقنا على أنَّ النوم في السرير طوال اليوم والستائر مغلقة ليسَت فكرةً جيِّدة على الأرجح. التزمتُ عمومًا بالأمرين كليهما. ومع أنَّ الثِقل لم يفارقني قطُّ بعد أن احتلَّ عقلي، لكن جاء وقتٌ لم يعد يستنزفُ فيه طاقتي حتَّى آخرها.

ازدادت مَقدرتي على التحمُّل، وواظبَت شقيقتي على زياراتها لي في كوخي معظم الأمسيات بعد العمل. كانت قد ألمحَت في إحدى الزيارات إلى أنَّ مؤسَّستها الخيريَّة تواجه فترةً عصيبة، ممَّا تركني أتساءل عمَّا إذا كانت ستستغني أو تقلِّص معظم مشاريعها. وبعد مغادرتها بوقتٍ قصير، علمتُ بواسطة المذياع أنَّ الهجمات المستمرَّة التي تتعرَّض إليها أوروبَّا قد دفعَت الاتِّحاد الأوروبيَّ إلى تخفيض مساعداته الخارجيَّة. كان الناخبون الأوروبيُّون يطالبون بأن يُستفاد من أموالهم في حلِّ مشاكلهم الداخليَّة، وبتُّ أخشى من كميَّة الأذى الذي سيُلحِقه أسلوب التفكير الشعبويِّ ذاك بكلِّ

شخصٍ يحتاج إلى مساعدةٍ من شقيقتي.

لكن، بسبب الملاحظة التي تركَها وكيل شركة العقارات في ويندهوك، وألصقتُها بدوري على الثلّاجة، كنّا قادرين على التحدُّث عن الذي يتواصل معها بصدد منزل النخلتين التوأم؛ وكيف يواصِلُ رجل الأعمال الصينيّ ويندل زوانشي تقديمَ عروض سعر أعلى وأعلى عقب كلّ رفضٍ يتلقّاه من لوسيًّا.

"لا أظنُّ أنَّني سأبيع المنزل"، قالَت، كي تطمئنني على الأرجح. بيد أنَّ البيع كان سبيلها الوحيد لاسترداد استثمار شين. وليس تردُّدها، إن كانت كذلك فعلًا، إلّا لكون منزل النخلتين التوأم قد دار الاستشفاء خاصَّتي بحكم الواقع.

"لطالما كان شين يترقَّب الحصول على صفقةً جيّدة"، قلتُ لها مُذكِّرًا. "وأراهنك أنّه لو كان على قيد الحياة لفكَّر في العرض مليًّا".

"كلّا، ستكون تلك خيانةً لعمله الشاقّ. إذا عرضَ أحدهم عليك أن تبيع منزلك، فهل ستفعل ذلك؟".

"في رمشةِ عينٍ ومن دون تفكير". شعرتُ بأنَّني قادرٌ على الرحيل عن المدينة مرَّةً أخرى. لن يكون بمقدوري الحصول على منزلٍ مشابهٍ لمنزلي أبدًا- كما أنَّ البيع عمليَّةٌ غير قابلة للتراجع- لكن لا بدَّ أنَّ هنالك مستقبلًا أفضل في مكانٍ آخر. كنت على يقينٍ من ذلك.

"يريدُ الصينيُّ تحويلَ منزل النخلتين التوأم إلى دار ضيافة"، قالَت، وكانت تلك فكرة شين في الأصل. "أشعُر بالسوء لأنَّني لم أُتمَّ ما كان يرغب به".

مكتبة ياسمين

"بمقدورك أن تؤجِّري المنزل للرجل بدلًا من بيعه. دعيه يتولَّى إدارته كدارٍ للضيافة، واحتفظي لنفسك بالملكيَّة".

"أتعتقدُ أنَّه سيرضى بمثل هذا؟".

"اسأليه. وإذا كان راغبًا بشراء منزلٍ في لودريتز، فأخبريه أنَّ شقيقكِ يتطلَّع إلى بيعه منزله".

"أعتقدُ أنَّ بمقدوري إجراء بعض الإصلاحات في النخلتين التوأم قبل عرضه عليه".

"يا لها من فكرةٍ ممتازة!"، قلت. "كوينتي هو الرجل المناسب لهذه المهمَّة. بإمكانك اقترض بعض المال من ويل، صحيح؟ وبمقدورنا العيش معًا في منزلي قدر ما تشائين، وهكذا سيظلُّ لديكِ دخلٌ بصرف النظر عمَّا يجري في الاتِّحاد الأوروبيّ".

بمساعدة كوينتي، حلَّت لافتةٌ ضوئيَّةٌ محلَّ سارية علم النخلتين التوأم. وتفوَّقت الأحرفِ الصينيَّة الحمراء سطوعًا على الترجمتين الإنكليزيَّة والألمانيَّة الأصغر حَجمًا للإعلان عن الأسعار اليوميَّة لمقرِّ الإقامة الرئيسيّ، وكذلك للشاليهات الستَّة في الحديقة. انتقلتُ ولوسيًّا إلى منزل عمَّتنا حيثُ جهَّزت رُكنًا لحاسوبي. كنتُ لا أزال غير قادرٍ على النظر إلى مقابلات هيريرو، لكنَّني، وبفضل تشجيعها، تمكَّنت من تقديم وثائقيِّ السجون للمشاركة في مهرجان الأفلام الوثائقيَّة.

دفعتُ مالًا، بعد إلحاحٍ من كوينتي، للحصول على تصريحٍ لدخول المنطقة المحظورة، وذلك بغية مرافقة شقيقتي في رحلتها القادمة إلى خليج إليزابيث. لم أكُن أشعر بأنَّني قادرٌ على الذهاب في رحلةٍ كهذه بمفردي، ولا سيما بعد ما جرى لي

في كولمانسكوب، لكنَّني أردتُ رؤية منزل ويل الجديد. عرَض كوينتي أن نذهب بشاحنته.

اشترى طعامًا من مطعم الوجبات الأجنبيَّة السريعة في شارع وورمان؛ وذكَّرتني مخبوزاتهم الطازجة بروبرتين، مستدعيةً ذكرى كنتُ قد فقدتها مرَّةً أخرى. ونظرًا لعدم توافر ماء شرب في خليج إليزابيث، فقد اشترى كوينتي غالونين، إلى جانب بعض البقالة، قبل أن يتذكَّر أيضًا أن يملأ خزانًا احتياطيًّا قديمًا بالوقود من أجل مولّد الطاقة.

أمضينا معظم ساحات الصباح في السفر حتَّى وصلنا إلى المنجم الذي ما زال نشطًا في المنطقة المحظورة. عثرَ كوينتي على الطريق الفرعيّ، تمامًا بعد الأهوار المليئة بالطين، والذي سيفضي بنا إلى منزل ويل الجديد. وعلى الرغم من أنَّنا نحمل التصاريـح، إلَّا أنَّ لوسيًّا حثَّتنا على ألَّا نتباطأ قريبًا من المنجم. لقد حدث في وقتٍ سابقٍ أن استجوبها حرَّاس الأمن هناك، بل حتَّى أنَّهم طلبوا منها رشوة، وانتهى الأمر بالمزيد من التعقيدات في حياة ويل؛ وذلك لأنَّ الأخير اشتكى إلى مدير المنجم بصدد ما حدث.

كانت الشركة قد وافقَت على بقائه في خليج إليزابيث شريطة ألَّا ينضمَّ إليه أحد. من الناحية الرسميَّة، اعتبروا أنَّه كان يُخيِّم في المكان، وقد غضَّت إدارة المنجم الطرف عن حقيقة أنَّه يقيم في واحدةٍ من حاويات الشحن القديمة خاصَّتهم بدلًا من خيمته.

بعد رحلةٍ شاقَّة، وصلنا إلى البلدة الساحليَّة المهجورة. الرياح العاتية جعلَت السماءَ صافيةً، وزادت بالمقابل من اضطراب المحيط الأطلسيّ. ركن كوينتي شاحنته في مصنعٍ مهجورٍ بين

آلاتٍ رقَّطها الصدأ، وذلك كي يمنع وصول رذاذ الماء إليها. تبِعنا شقيقتي نحو هيكلٍ مَعدنيٍّ مستطيل الشكل وغامق اللون، وطُبِعَت على إحدى جوانبه كلمة "ميرسك[1]"، وذلك من أجل إحضار ويل لأنَّها أرادت أن نذهب جميعًا لزيارة بقعتها المفضَّلة في الخليج.

"تخطرُ في بالي العمَّة إليزابيث كلَّما أتيتُ إلى هُنا"، قالَت لنا ونحنُ مجتمعين في رُكنٍ خلف مطحنةٍ خرسانيَّةٍ قديمة أتاحَت لنا الاستمتاع بإطلالةٍ رائعةٍ نحو المياه. "حينما كنَّا نحتفلُ بعيد ميلادها على سطح زنجبار".

"متى ستفرغ من شؤونك، أي ويل؟"، سأل كوينتي بعد وقت.

"لا أدري"، قال. "الأشياء كلُّها تتداعى".

جلسنا بُعيد بوصاتٍ فحسب من الرياح الصاخبة، والتي كانت شديدة البرودة لدرجة أنَّني اضطررتُ إلى إحضار معاطفنا المطريَّة من الشاحنة. شعرتُ بانتفاخٍ في جيب معطف شقيقتي، ووجدتُ فيه رسالةً كتبتها إلى ويل. لم أقرأها.

أكلنا سلطة اللحم والبطاطا، باستثناء ويل الذي لم يكن جائعًا، ودفَّأنا أنفسنا ببعض القهوة الممزوجة بالخمر من حافظة كوينتي. ويل، الممتنع عن الخمور، شرب قدحًا من المشروب الساخن، لكن ليس أكثر.

طغى حُزني عليَّ، وليس بسبب تأثير الويسكي فحسب، لكنَّني قاومت رغبتي بإخبار ويل بأن يتخلَّى عن العيش مثل هارِب.

---

1 في إشارةٍ إلى شركة MAERSK (ميرسك سيلاند) الدنماركيَّة، والتي تعدُّ واحدةً من أكبر شركات النقل البحريِّ في العالم. م.

فاجأني بسؤالِه عن عملي.

"أُحضِّرُ لمشروعٍ عن مجازر هيريرو"، قلت.

ردَّ على ما قلتُه بابتسامةٍ واهنة. انتابني وقتئذٍ إحساسٌ رهيبٌ من إدراك الذات: شعرتُ بأنَّني تائهٌ جدًّا، محروم جدًّا، وحيدٌ جدًّا. ورغبةً منِّي بالتواصل معه كي يفهم عمَّا كنت أتحدّث، أحضرتُ حاسوبي المحمول من الشاحنة وطلبتُ من الجميع أن يجلسوا مرتاحين قدر الإمكان استعدادًا لمشاهدة مقابلة أوما غيندريدي.

"هذا موضوع فيلمي القادم"، قلتُ محاولًا تشجيعه على التفاعل معي، لكن لم أحصل سوى على عزلته. "أريدُ تصوير شيءٍ ملموسٍ عن المجزرة. بعد أن نتركك اليوم، سنسلك طريقًا غير نظاميٍّ نحو لودريتز ونحاول العثور على إحدى المقابر".

"هل تخلَّيت عن إتمام وثائقيِّ عصابات السجون؟".

"بل إنَّه يُعرض الآن في مهرجان. لم تصلني أيُّ تقييمات بعد، وهذا أمرٌ مُتوقَّع".

"لم أرسلِ إليكَ بيانات الاتِّصال بصديقتي بخلاف ما وعدتك".

سألتُه عمَّا إذا كان يريدُ منِّي تصوير أيَّ شيءٍ له في خليج إليزابيث، لكن قاطعتني لوسيًّا.

"كلَّا، لن نعود إلى مثل ذلك ثانيةً"، قالت.

بدا لي أنَّهما بحاجةٍ إلى الحديث على انفراد، فطلبتُ من كوينتي مرافقتي لاستكشاف البلدة.

عثرَت شقيقتي عليَّ في المنزل الصحراويِّ نفسه الذي زرناه يوم وفاة عمَّتنا. كانت غرفه كلُّها خاويةً تمامًا باستثناء تلك المطلَّة

على المحيط؛ حيثُ وجدتُ كرسيًّا خشبيًّا. جلستُ عليه، وعيناي تنظران إلى الماء. على مدى عقودٍ من الزمن، عرَّت الرياح جدار المنزل من جهة المحيط ثاقبةً إيَّاه بحفرٍ على هيئة طوب؛ فجواتٍ مستطيلة الشكل في ملاطٍ متهالك. كنتُ أشاهدُ كوينتي الذي كان عند الشاطئ يتفادى الأمواج المزبدة التي تندفع نحوه. لم أستطع تحمُّل التواجد معه هناك، لكن كنتُ بحاجةٍ في الوقت نفسه إلى التأكُّد من أنَّه لم ينزلق إلى الماء.

"اعتادَ ويل أن يشاهد غروب الشمس من هنا"، قالت شقيقتي واقفةً بجواري.

"هل سنحت لك فرصةٌ للتحدُّث معه؟".

"أجل".

"وهل سيعود معنا؟".

"يقول إنَّه سعيدٌ بوجوده بعيدًا عن الآخرين، هذا كلُّ ما قاله تقريبًا. ولأكون صريحةً معك، فإنَّني لست واثقةً من قدرته على البقاء حيًّا لوقتٍ طويل هُنا". كانت تنظرُ إليَّ كما لو أنَّها تريدُ إبلاغي بأمرٍ خطير وعاجل.

"ربَّما ستطرده إدارة المنجم من هُنا"، قلت. "من شأن هذا أن ينقذنا من أيِّ متاعب".

تبسَّمَت. "سيكون هذا الحدث استجابة لصلواتي".

"أخبريه بأنَّ في وسعه الانتقال إلى منزلي. وأمَّا أنا، فسأقيم مع كوينتي".

قالَت من دون الحاجة إلى التفكير فيما سمعت: "لنأمل أن يفعل ذلك".

"أتريدين أن أطلب منه العودة معنا اليوم؟".

"لا أحسبه في حالةٍ نفسيَّةٍ مُلائمة. لقد رأيتَ ما هو عليه".

"دعيني أتحدَّث إليه"، قلت، مع أنَّني لم أكن قادرًا على التفكير فيما سأقوله له.

"هذا لن يفيد".

"أيًّا كان ما تفكِّرين به، أي لوسيًّا، فلا تفعلي ذلك. لن تستطيعي مساعدته من خلال البقاء هُنا. أخبريه أن يعود معنا وكفى".

أمسكَت بيدي. "لن أطيل بقائي، لكن يجبُ أن أطمئنَّ من أنَّه لن يقدم على فعل أيِّ حماقة".

"كلَّا"، قلت. "لا تفعلي ذلك، أرجوك".

"لقد حجزتُ لويل موعدًا مع طبيبك في نهاية الأسبوع، وأريدُ أن أصطحبه إلى لودريتز بنفسي كي أتأكَّد من وصوله سليمًا معافى. سأكون بخير، أعدك بهذا".

خيَّم صمتٌ عميقٌ على المكان، سرعان ما قاطعَهُ رنينٌ مؤلمٌ في أذنيَّ. شعرتُ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى مغادرة المكان، لكنَّني لم أقو على فعل شيءٍ سوى التحديق في وجه شقيقتي.

عبر الطريق الخدميّ، كان كوينتي يقود الشاحنة عائدًا باتِّجاه المنجم حينما لوَّح إلينا حارسُ أمن، فحيًّا كلانا الرجل في المقابل.

"في أحلامِك!"، تمتم كوينتي كما لو كان يخشى أن يسمعه الحارس، "سنواصل القيادة ولن أسمح لك بإيقافنا".

اخترنا المسار الذي أفضى بنا إلى طريقٍ موازٍ للساحل حيثُ كانت كثبان الرمل ترتفع وتنخفض على كِلا الجانبين، وكأنَّها سربٌ من الدلافين ترافق الشاحنة. ظللنا نشقُّ الطريق حتَّى وصلنا إلى

الإحداثيَّات التي عثرتُ عليها عبر شبكة الإنترنت.

"يا إلهي! لم أكن أتوقَّع ذلك"، قلتُ بعد أن أطفأ كوينتي المحرِّك.

"إنَّه ليس على ما يرام"، قال كوينتي، وأمسك بي بين ذراعيه. مسحَت وجنته الخشنة وجهي في أثناء ما كان يواسيني. لم أُدرِك إلَّا بعد أن هدأتُ أنَّني كنتُ أحمل كاميرتي حول رقبتي طوال وقت الزيارة، لكن لم يخطر في بالي أن ألتقِط صورةً لشقيقتي.

"بإمكاننا العودة إن أردت"، قال حين أخبرتُه.

"كلَّا، لا أريدُ رؤية ذاك المكان مرَّة أخرى".

حدَّق كلانا في الصحراء؛ إلى الأخشاب الجافَّة طافيةً ما بين كثبان الرمل، ومتناثرةً في الوادي الضحل، لكنَّنا لم نعثر على شيء. فتحتُ بابي- في مخالفةٍ لشروط تصريح دخولنا- وخرجتُ للتبوُّل في المنطقة المحظورة.

"والآن لدينا ماءٌ يخرجُ من كلا الاتِّجاهين"، قلتُ ضاحكًا عندما خرج كوينتي أيضًا ليقضي حاجته.

"من المنجم القديم"، قال عندما فرِغ كلانا.

لم أفهم ما كان يقصده، لذا أشار إلى هيكلٍ مُتآكلٍ ونصف مدفونٍ في الرمال.

سرتُ بضع خطواتٍ غير قانونيَّةٍ في المنطقة المحظورة لأرى عن قربٍ عمَّا كان يتحدّث، ثمَّ عدتُ إلى الوراء على نحوٍ غير إراديّ.

عظامُ فخذٍ وساق، وجماجم، كانت كلُّها راقدةً في الوادي بكلِّ هدوء؛ مثل حُطامٍ طافٍ بعد حادثةٍ رهيبة. آلاف العظام المنثورة

على الأرض، بل عشرات الآلاف من العظام البشريَّة. حتَّى ذلك الوقت، كنتُ قد قرأتُ فقط عن حوض الموت الضحل والجافّ هذا. كان صامتًا وعديم الرحمة، ولولا صحراء ناميب التي سمحَت بوجود الوادي الضحل، لَما كان لهذا المكان أثر.

جثوتُ لأتمكَّن من إلقاء نظرةٍ أفضل على مِزَق الملابس المتناثرة ما بين الرفات. كانت بعضها بيضاء، ربَّما من الدانتيل؛ وأخرى سوداء من الصوف الحريريِّ والخيش. كلُّها تقريبًا من الخيش. ثمَّ أيضًا أزرارٌ ناعمةٌ مثل لآلئ، وأبازيمُ أحزمة، إلى جانب ياقاتٍ قابلةٍ للفصل خاصَّةٍ بملابس الرجال. وكانت جلودُ الأحذية الثخينة، ذات القطع المعدنيَّة اللامعة، لا تزال على حالها تقريبًا.

هنالك أصابعُ- منسيَّةٌ ومتآكلةٌ بفعل الرياح- قد لمسَت تلك الأغراض ذات يوم من الأيَّام. كانت تلك الفكرة البسيطةُ كفيلةً بهزيمتي؛ وهكذا رفعتُ كاميرتي، وبدأتُ الرحلة من جديد.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

خاتمة المؤلّف

مرَّ ما يزيدُ عن قرنٍ على الإبادة الجماعيَّة التي ارتكبَتها القوَّاتُ الألمانيَّة الاستعماريَّة. ونعلم، حتَّى وقت كتابة هذه الرواية، أنَّ المحادثات ما بين البلدين بصدد التعويضات لا تزال غير محسومةٍ بعد. وعلى الرغم من أنَّ ألمانيا قد أعادت رُفات ضحايا الإبادة الجماعيَّة في ناميبيا، إلَّا أنَّ بعض المؤسَّسات قد لا تزال مُحتفِظةٍ برفات بشريَّةٍ مجهولة المصير لعدم توثيقها. لم تصدر ألمانيا اعتذارًا رسميًّا عن الفظائع التي ارتكبَتها حتَّى وقت كتابة هذه الكلمات.

خاتمة المترجم

في الثامن والعشرين من شهر أيَّار لسنة ٢٠٢١، وبعد مفاوضاتٍ عصيبة، رأى فيها كثيرون أنَّها كانت في مواضع عديدةٍ غير أخلاقيَّة، اعترفَت ألمانيا أخيرًا على لسان وزير خارجيتها هايكو ماس بارتكابها إبادةً جماعيَّة ضدّ شعبَي هيريرو وناما خلال فترة استعمارها لما يعرف بناميبيا اليوم في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فيما توصف بأوَّل إبادةٍ جماعيَّةٍ في القرن العشرين. تعهَّد الوزير الألمانيّ أيضًا بتقديم مُساعداتٍ ماليَّةٍ لتنمية للبلاد. لكنَّ الجدير بالذكر أنَّ هذا الاعتراف الألمانيّ الذي وردَ بكلماتٍ منتقاةٍ بعنايةٍ شديدة، لم يتضمَّن اعتذارًا عن الإبادة نفسها تفاديًا لِما قد يترتَّب على ذلك من تعويضاتٍ قانونيَّةٍ حقيقيَّة بدلًا ممَّا وصفته مجموعاتٌ أهليَّةٌ بأنَّه جملة من المساعدات الشحيحة التي تضمن ألمانيا مراقبتها وتوزيعها وفقًا لاعتبارات سياسيَّة لا تراعي أحفاد شعبي هيريرو وناما.